

[illegible]

دار الغریب

الطبعة والنشر والتوزيع  
القاهرة







إهداء ٢٠٠٥

أ.م.د. محمد أحمد شحاتة

القاهرة

# تفسير القرآن الكريم

الجزء الثالث من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته

  
للطباعة والنشر والتوزيع  
القاهرة



### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْ لَّمَّا اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ<sup>٤</sup> وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْشَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ أَخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْشَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (٢٥٣)

المفردات :

تلك : يشار بها إلى المؤنث ، ويعامل جمع الذكور معاملة المؤنث بتأويله بالجماعة؛ لهذا أنث اسم الإشارة هنا ، أى تلك جماعة الرسل.  
من كلم الله : أن كلمه بلا واسطة ومن غير سفير، وهو موسى عليه السلام.  
البيئات : الحجج والأدلة.  
بروح القدس : أى بالروح القدس؛ أى المظهر، وهو جبريل عليه السلام.

### الأنبياء والرسل

النبوة من النبأ بمعنى الخبر، ومعناها وصول خبر من الله بطريق الوحي إلى من اختاره من عباده لتلقى ذلك، فالكلمة إذاً تفسير للعلاقة التى بين النبى والخالق جل جلاله، وهى علاقة الوحي والإنباء.  
والرسالة ، تعنى تكليف الله أحد عباده بإبلاغ الآخرين بشرع أو حكم معين ، فالكلمة إذاً تفسير للعلاقة التى بين النبى وسائر الناس وهى علاقة البعث والإرسال.  
فإذا لاحظت فى النبى الحالة التى بينه وبين الله عز وجل فهى النبوة وإذا لاحظت حالته التى بينه وبين الناس فهى الرسالة.  
والنبيين من أوحى الله إليهم بأمر ولم يكلفه بالتبليغ، والرسول من أوحى الله إليه بشرع وكلفه بالتبليغ فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسول.  
الوحي :

الوحي لغة هو الإعلام فى خفاء.

وشرعاً : إعلام الله تعالى من اصطفاة من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من الوان الهداية والعلم ، ولكن بطريقة خفية غير معتادة للبشر.

## صور الوحى :

أشار القرآن فى آية واحدة إلى صور ثلاث من صور الوحى، حيث قال تعالى : وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ ( الشورى : ٥١ )

وقد ورد فى صحيح البخارى وصف الوحى، وبدء الوحى وكيفية الوحى.

روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال، يا رسول الله، كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس - وهو أشده علىَّ ، فيفصم عني وقد وعيت منه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعنى ما يقول .»

قالت عائشة : لقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً<sup>(١)</sup>.

## الأنبياء الذين بعثهم الله عز وجل :

أول نبي أرسله الله تعالى مؤيداً بالوحى والأحكام هو آدم أبو البشر ، وآخر الأنبياء هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر الله تعالى فى كتابه أسماء خمسة وعشرين نبياً مرسلأ وهم آدم ، إدريس ، نوح ، هود ، صالح ، إبراهيم ، لوط ، إسماعيل ، إسحاق ، يعقوب ، يوسف ، شعيب ، أيوب ، ذو الكفل ، موسى ، هارون ، سليمان ، داود ، إلياس ، إيلسع ، يونس ، زكريا ، يحيى ، عيسى ، محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام.

وهناك أنبياء آخرون لم يتعرض القرآن لذكرهم ، ولكن أخبرنا عنهم فى الجملة : قال تعالى : وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (النساء : ١٦٤).

فيجب الإيمان بأن الله أرسل رسلاً وأنبياء كثيرين إلى كل أمة وجماعة، وفى مختلف الأمكنة والعصور.

قال تعالى : وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (فاطر : ٢٤).

وعلى هذا فلا بد أن يكون عدد الأنبياء على مر العصور قد تجاوز الآلاف، وقد حدد بعض العلماء عددهم بـ ١٢٤ ألفاً ، ولكننا لا نرى دليلاً يحملنا على التزام تحديدهم بهذا العدد .

قال النسفى : وتديد عدددهم لا يؤمن معه أن يدخل فيهم من ليس منهم أو يخرج منهم من هو فيهم<sup>(٢)</sup>.

( وأفضل الأنبياء هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد فضل الله أولى المرسل من الرسل وهم خمسة إبراهيم ونوح وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . وينبغى أن نعلم أن النبوة التى أكرم الله بها الأنبياء حقيقة واحدة لا تتفاوت ولا تختلف ما بين نبي وآخر ، قال ، تعالى : لَا تَفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (البقرة : ٢٨٥).

وقال صلى الله عليه وسلم « لا تخيرونى على موسى ، ولا تفضلونى على الأنبياء »<sup>(٣)</sup>.

قال ابن كثير في التفسير :

ورد في حديث الإسراء أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى الأنبياء في السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل ، وقد قال تعالى : **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** .

(فإن قيل ) فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين :

« لا تفضلوني على الأنبياء » .

**فالجواب من وجوه :**

( أحدها ) : أن هذا كان قبل أن يعلم بالترتيب وفي هذا نظر .

( الثاني ) : أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع .

( الثالث ) : أن هذا نهى عن التفضيل عند التغاض والتشاجر <sup>(٤)</sup> .

( الرابع ) : لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية .

( الخامس ) : ليس مقام التفضيل إليكم وإنما هو إلى الله عز وجل وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به .

#### صفات الأنبياء :

**جملة ما يجب للأنبياء أربع صفات :**

١ - الذكورة ، فلا تكون النبوة والرسالة لأنثى ، والوحي إلى أم موسى معناه الإلهام والأمر المتجه إلى مريم قد يكون نداء من ملك مثل جبريل حين قال :

**فَإِذَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي .. ( مريم : ٢٤ )** وهذا بمجرد لا يعنى النبوة ولا يستلزمها .

٢ - الأمانة وتعنى بها الصدق ، وعصمتهم من الكذب وحفظ الله ظواهرهم وبواطنهم عن التلبس بأمر منهى عنه .

٣ - العصمة عن الوقوع في الذنوب :

فالأنبياء معصومون عن الكفر والكبائر قبل البعثة وبعدها ومعصومون عن الصفات فيما ذهب إليه الجمهور .

٤ - كمال العقل وال ضبط والعدالة .

إذ هي من مستلزمات أداء الرسالة .

والرسل بعد توافر هذه الشروط فيهم ، ليسوا من وراء ذلك إلا بشرًا كسائر الناس يأكلون ويشربون وينكحون ويمشون في الأسواق . وتعرض قلوبهم لكل ما يتعرض له قلب الإنسان من مشاعر الحب والكراهية والبغض والرحمة ، دام أن أم شيئاً من ذلك لا يستوجب إثمًا ، أو يستلزم شيئاً من خلاف الصفات الأربع التي ذكرناها ، وتعرض أجسامهم للأسقام والأوجاع ، ثم تنتهي إلى الموت شأن البشر جميعًا ، قال تعالى :

**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا** . (الفرقان ٢٠) .

عود إلى تفسير الآية :

٢٥٣ - تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ . . .

هؤلاء الرسل الكرام - الذين بعثهم الله تعالى إلى الناس برسالاته وهداى فى مختلف البقاع والأزمان .  
فضّل الله تعالى بعضهم على بعض فى المكانة والمعجزات ، وإن كانوا جميعاً قد تأخوا فى شرف النبوة والرسالة .  
منهم من كَلَّمَ الله ، بين الله بعض مظاهر التفضيل .

فمن الأنبياء من فضّله الله بتكليمه مباشرة ودون وسيط مثل موسى عليه السلام قال تعالى :  
قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (الأعراف : ١٤٤) .  
وتشير كتب السنة إلى أن الله كلم محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، ورفّع بعضهم درجاتهم من أول العزم ، ومنهم خليل الله ، ومنهم كليمه ، إلى غير ذلك مما يمتاز به بعض الرسل على بعض .

وعليها أن تكف عن الموازنة بينهم تكريماً لهم عن أن يكونوا مجالاً للمناقشة والجدال والتعصب الجنسى أو الدينى . وأن تؤمن بجميع أنبياء الله ورسله وكتبه قال تعالى :  
آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (البقرة ٢٨٥) .

والإجماع منعقد على أن أفضل الرسل جميعاً محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن رسالته عامة للبشرية جميعاً ، ممتدة من عصره إلى آخر الزمان .

أما كل منهم فرسالته محصورة فى قوم ، وتنتهى رسالته ببعثه خلفه ، جاء فى تفسير الكشاف للزمخشري :  
وقوله وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ . أى ومنهم من رفعه الله على سائر الأنبياء ، فكان بعد تقاوتهم فى الفضل أفضل منهم درجات كثيرة .

والظاهر أنه أراد محمداً صلى الله عليه وسلم - لأنه هو المفضل عليهم ، حيث أوتى ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقبة إلى ألف آية أو أكثر ، ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلاً منيفاً على سائر ما أوتى الأنبياء لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات وفى هذا الإيهام من تفضيل فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى ، لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذى لا يشتهبه والمتميز الذى لا يلبس (٥) .

وروى مسلم وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع ، وأول مشفع » (٦) .



وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ . أعطينا عيسى ابن مريم الآيات الباهرات، والمعجزات الواضحات، كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وإخبار قومه، بما ياكلونه ويذخرونه فى بيوتهم، وفضلاً عن هذا فقد قويناه بجبريل عليه السلام.

- وجاء فى ظلال القرآن :

« والحكمة فى ذكر عيسى ابن مريم واضحة، فقد نزل القرآن ، وهناك حشد من الأساطير الشائعة حول عيسى - عليه السلام - وبنوته لله - سبحانه وتعالى - أو عن ازدواج طبيعته من اللاهوت والانسوت. أو عن تفرده بطبيعة إلهية ذابت فيها الطبيعة الناسوتية كالقطرة فى الكاس، إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التى غرقت الكنائس والمجامع فى الجدل حولها، وجرت الدماء أنهاراً فى الدول الرومانية، ومن ثم كان هذا التوكيد الدائم على بشرية عيسى - عليه السلام ، وذكره فى معظم المواضع منسوباً إلى أمه مريم. أما روح القدس فالقرآن يعنى به جبريل عليه السلام - فهو حامل الوحي إلى الرسل ، وهذا أعظم تأييد وأكبره، وهو الذى ينقل الإشارة الإلهية إلى الرسل بالسكينة والتثبيت والنصر فى مواقع الهول والشدة فى ثلثيا الطريق ... وهذا كله التأييد (٧) » . ا. هـ.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا .

- يقول الشيخ محمد عبده :

لو شاء الله تعالى أن تكون سنته فى الإنسان ، أن يعذر المختلفون من أفرادهم بعضهم بعضاً، ويوطن كل فريق نفسه على أن ينتصر لرايه بالحجة، ويسعى إلى مصلحته بالقطة لما اقتتلوا على ما يختلفون فيه، ولكنه جعلهم درجات فى الفهم والحزم وأودع فى غرائزهم المدافعة عن حقيقتهم والنضال دون مصلحتهم بكل ما قدروا عليه من قول وعمل، فالقوى بالراى يعارب بالراى، والقوى بالسيف يقاوم بالسيف، فكان الاختلاف فى الراى والمصالح معاً ، مع عدم العذر مؤدياً إلى الاقتتال لا محالة.

هكذا خلق الإنسان ، فلا يقال : لِمَ خلقه هكذا ؟ لأن هذا بحث عن أسرار الخلقة كبير أذن الحسان وصغر أذن الجمل، ولذلك قال : وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ أى أن اختصاص الناس بهذه المزايا هو أثر إرادته وتخصيصها فلا مرد له (٨).

- اقتتال المسلمين :

قدم تفسير المنار بحثاً مستفيضاً ، عن اقتتال المسلمين وآثاره المدمرة نختصره فيما يأتى :

نهى القرآن عن الاختلاف والتفرق فى الدين ، قال تعالى :

واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم

بنعمته إخواناً (آل عمران : ٢-٥).

وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْماً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ( الأنعام : ١٥٩).

وإذا وقع التنازع لاختلاف وجب رده إلى الله ورسوله وتحكيم الكتاب والسنة فيه ولا يجوز أن يتمادى المسلمون على التفرق والاختلاف بحال قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (النساء : ٥٩).

أما الاقتتال بين المسلمين بسبب الاختلاف ، فاوله ما كان بين علي ومعاوية ، ثم ما كان من حروب الخوارج ثم الشيعة ، ومنه ما كان بين المصريين والوهابيين <sup>(٩)</sup> ومن أراد تمام العبر في ذلك فليرجع إلى كتب التاريخ ولاسيما تاريخ بغداد وحادثة خروج التتر، التي كانت أول حادثة زلزلت سلطان المسلمين في الأرض، ودمرت بلادهم تدميرًا، لقد كان الخلاف بين الشافعية والحنفية من أسبابها ، وابن العنقي الوزير الشيعي هو الذي دعاهم إلى بغداد سنة ٦٥٦ هـ فخربوها وقتلوا فيمن قتلوا الشرفاء شيعة وغير شيعة وبيخه هولاكو على خيافته فمات غمًا .

والفتن التي كانت بين الشيعة والسنة في الشرق والغرب كثيرة، وتاريخ بغداد مملوء بالفتن بين الشافعية والحنابلة ، وكان أشد الخلاف بين هؤلاء على الجهر بالبسملة في الصلاة يسفكون الدماء لذلك .

ولا ينسبنا الرجوع إلى التاريخ الفتنة بين الشافعية والحنفية، إذ تقلد ابن السمعاني مذهب الشافعي ، فقد كان ذلك من أسباب خراب مرو عاصمة خراسان <sup>(١٠)</sup>.

والاختلاف في الدين مفسد للأمم، مزلزل للكيان الاجتماعي، مدمر لروابط الألفة بين الناس، وقد بين القرآن علاجه للمسلمين ، وهو تحكيم الله تعالى فيما اختلفوا فيه، وبيان وجهة النظر بالحكمة و الموعظة الحسنة والنقاش الهادئ المستتير ، لإحقاق الحق بلا كبير ولا تمويه .

قال تعالى : ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (التحل ١٢٥).

لقد اختلف اليهود في دينهم فاقتتلوا ، والنصارى كانوا أشد منهم في ذلك ، فتفرقوا طرائق قديدا، وكان أهل المذهب الواحد يتشعبون شعبا يقاتل بعضها بعضا .

فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ . لقد امتحن الله عباده بصنوف النعم، بل جعل الله الموت والحياة للاختبار والابتلاء، قال تعالى : الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (المالك : ٢).

وقد اختلف أتباع الرسل بعد ما جاءتهم الآيات البينات والدلائل الواضحة المؤيدة للحق .

فمنهم من آمن لطيب سريره ، وحسن اختياره ، ومنهم من كفر لخبيث نيته وسوء رايه، ولو شاء الله لآمنا جميعًا، ولم يقتلوا ، ولكن الله يفعل ما يريد من ترك عباده لاختيارهم ، حتى يتبين الخبيث من الطيب .

ويدفع المؤمنون شر الكافرين وفسادهم ، ثم يجزى كلا على حسب عمله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين (البقرة : ٢٥١).

★ ★ ★

﴿يَتَائِبُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

المفردات :

الخلة : الصداقة والمودة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين ، وسميت بذلك لأنها تتخلل النفس أى تتوسطها ، أى لشدة الحاجة إليها . ومنه سمي الخليل خليلا لاحتياج الإنسان إليه .

والشفاعة : مأخوذة من الشفع بمعنى الضم ، وتطلق على انضمام شخص إلى آخر لنفعه أو نصرتة ، وأكثر ما تستعمل فى انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى ما هو دونه .

والمعنى :

عليكم - أيها المؤمنون - أن تنفقوا فى وجوه الخير كإعانة المجاهدين ، ومساعدة الفقراء والباحثين من أموالكم التى رزقكم الله إياها بفضله وكرمه ، من قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لا يكون فيه تجارة ولا مبايع حتى تقدموا عن طريقها ما تقتدون به أنفسكم ، ولا يكون فيه صديق يدفع عنكم ، ولا شفيع يشفع لكم من سيئاتكم إلا أن ياذن رب العالمين بالشفاعة تفضلا منه وكرما .

فآية الكريمة تحض المؤمنين على الإنفاق فى سبيل الله ، لأنه أهم عناصر القوة فى الأمة ، وأفضل وسيلة لإقامة المجتمع الصالح المتكامل .

والمراد بالإنفاق هنا ما يشمل القرض والنفل ، والأمر به لمطلق الطلب ، إلا أن هذا الطلب قد يصل إلى درجة الوجوب إذا نزلت بالأمة شدة لم تكف الزكاة عن دفعها .

وقوله : مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ . إشعار بأن هذا المال الذى بين أيدي الأغنياء ما هو إلا رزق رزقهم الله إياه ، ونعمة أنعم بها عليهم ، فمن الواجب شكرها بالإنفاق بجزء منه على الإنفاق فى وجوه الخير ، لأن هذا البخل سيعود عليهم بما يضرهم .

وفى قوله : مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ ... إلخ . حث آخر على التعجيل بالإنفاق ، لأنه تذكير للناس بهذا الوقت الذى تنتهى فيه الأعمال ، ولا يمكن فيه استدراك ما فاتهم ، ولا تمويض ما فقدوه من طاعات . فكانه - سبحانه - يقول لهم : نجوا أنفسكم بالمسارعة إلى الإنفاق من قبل أن يأتى يوم لا منجاة فيه إلا بالعمل الصالح الذى قدمتموه .

و « من » فى قوله : مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ . للتبويض . وفى قوله : مِّن قَبْلِ ، لابتداء الغاية . ومفعول أنفقوا محذوف والتقدير أنفقوا شيئاً مما رزقناكم .

والشفاعة المنفية هنا هى التى لا يقبلها الله - تعالى - وهى التى لا يأتى بها ، أما شفاعة النبى - صلى الله عليه وسلم - فقد أذن الله له بها وقبلها منه ، وقد وردت - أحاديث صحيحة بلغت مبلغ التواتر المعنوى فى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - ستكون له شفاعة فى دفع العذاب عن أقوام من المؤمنين ، وتخفيفه عن أهل الكبائر من المسلمين ، ومن ذلك ما أخرجه البخارى عن جابر بن عبد الله . أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم وآله - قال : أُعْطِيتَ خَمْسًا لَمْ يَعْطَيْنِ نَبِيٌّ قَبْلِي : تُصْرَتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتِ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَمَطْهَرًا فَأَيُّهَا رَجُلُ أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ ، وَأَحْلَتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتِ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيَبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً <sup>(١١)</sup> .

ثم ختم - سبحانه وتعالى - الآية بقوله : وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ أى والكافرون الجاحدون لنعمه هم الظالمون لأنفسهم ، لأنهم حالوا بينها وبين الهداية بإيثارهم العاجلة على الآجلة ، الغى على الرشد ، والشر على الخير ، والبخل على السخاء .

أما المؤمنون فليسوا كذلك لأنهم سلكوا الطريق المستقيم ، وبذلوا الكثير من أموالهم فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وفى إغاثة المحتاجين .

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد حضت المؤمنين على المسارعة فى إنفاق أموالهم فى وجوه الخير من قبل أن يأتى يوم لا ينفع فيه ما كان نافعا فى الدنيا من أقوال وأعمال وأنها قد توصدت من يبخل عن الإنفاق فى سبيل الله بسوء العاقبة ، لأنه تشبه بالكافرين فى بخلهم وإمساكهم عن بذل أموالهم فى وجوه الخير .

وبعد أن أمر الله المؤمنين بالإتفاق فى وجوه الخير . وذكرهم بأحوال يوم القيامة ، أتبع ذلك بآية كريمة اشتملت على تمجيده - سبحانه وتعالى - فبينت كمال سلطانه ، وشمول علمه ، وسابغ نعمه على خلقه . استمع إلى القرآن الكريم وهو يصف لك الخالق - عز وجل - بأكمل الصفات وأعظمها فيقول :

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥)

قال بعضهم : هذه آية الكرسي أفضل آية في القرآن . ومعنى الفضل أن الثواب على قراءتها أكثر منه على غيرها من الآيات. هذا هو التحقيق في تفضيل بعض آيات القرآن على بعض. وإنما كانت أفضل لأنها جمعت من أحكام الألوهية وصفات الإله الثبوتية والسلبية ما لم تجمعه آية أخرى . جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : « لكل شيء سنم وإن سنم القرآن البقرة، وفيها آية هي سيدة القرآن - أي أفضله - وهي آية الكرسي » (١٢).

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر جمل فيها ما فيها من صفات الله الجلية، أما الجملة الأولى والثانية فتمثل في قوله تعالى :

٢٥٥ - اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .

ولفظ الجلالة الله يقول العلماء ؛ إن أصله إله دخلت عليه أداة التعريف « ال » وحذفت الهمزة فصارت الكلمة الله .

قال القرطبي : قوله الله هذا الاسم أكبر أسمائه - تعالى - وأجمعها، حتى قال بعضهم إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع . فאלله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الألوهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي لا إله إلا هو - سبحانه - (١٣).

ولفظ، إله قالوا إنه من إله نفسه يأله أي عبد . فالإله على هذا المعنى هو المعبود . وقيل هو من إله أي تحير... وذلك أن العبد إذا تفكر في صفاته - سبحانه - تحير فيها، ولذا قيل: تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله (١٤).

و الحي أي الباقي الذي له الحياة الدائمة التي لا فناء لها . لم تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعترية الموت بعد الحياة، وسائر الأحياء سواء يعترهم الموت والقناء .

و القَيُّوم أي : الدائم القيام بتدبير أمر الخلق وحفظهم، والمعطى لهم ما به قوامهم . وهو مبالغ في القيام . « وأصله قويم - بوزن فيعمل - من قام بالأمر إذا حفظه ودبره ».

والمعنى : الله - عز وجل - هو الإله الحق المنفرد بالألوهية التي لا يشاركه فيها سواء، وهو المعبود بحق وكل معبود سواه فهو باطل ، وهو ذو الحياة الكاملة ، وهو الدائم القيام بتدبير شئون الخلق وحياتهم ورعايتهم وحياتهم وإماتهم.

والجملة الثالثة قوله تعالى : لا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ . وهى جملة سلبية مؤكدة للوصف الإيجابى السابق، فإن قيامه على كل نفس بما كسبت وعلى تدبير شئون خلقه يقتضى ألا تعرض له غفلة ولأن السَّنة والنوم من صفات الحوادث وهو - سبحانه - مخالف لها.

والسَّنة : الفتور الذى يكون فى أول النوم مع بقاء الشعور والإدراك ، ويقال له غفوة يقال : وسن الرجل يوسن وسنا وسنة فهو وسن ووسنان إذا نعى والمراد أنه - سبحانه - لا يغفل عن تدبير أمر خلقه أبداً، ولا يحجب علمه شيء حجاً قصيراً أو طويلاً، ولا يدركه ما يدرك الأجسام من الفتور أو النعاس، أو النوم.

وتقديم السَّنة على النوم يفيد المبالغة من حيث إن نفى السَّنة يدل على نفى النوم بالأولى ، فتفيه ثانياً صريحاً يفيد المبالغة لأن عطف الخاص على العام يفيد التوكيد أى لا تأخذه سنة فضلاً عن أن يأخذه نوم.

وفى قوله : لا تَأْخُذُهُ . دلالة على أن للنوم قوة قاهرة تأخذ الحيوان أخذاً، وتقهّر الكثير من أجناس المخلوقات قهراً ، ولكنه - سبحانه - وهو القاهر فوق عباده - منزّه عن ذلك ومبّرأ من أن يعتريه ما يعترى الحوادث.

وقوله سبحانه فى الجملة الرابعة : لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . تقرير لانفراده بالألوهية إذ جميع الموجودات مخلوقاته ، وتعليل لاتصافه بالقيومية، لأن من كانت جميع الموجودات ملكاً له فهو حقيق بأن يكون قائماً بتدبير أمرها .

والمراد بما فيهما ما هو أعم من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما المتمكنة فيهما من العقلاء وغيرهم. فالجملة الكريمة تفيد الملكية المطلقة لرب العالمين لكل ما فى هذا الوجود من شمس وقمر وحيوان ونبات وجماد وغير ذلك من المخلوقات. وصدرت الجملة بالجار والمجرور « له » لإفادة القصر أى ملك السموات والأرض له وحده وليس لأحد سواه شيء معه .

والاستقهام فى قوله فى الجملة الخامسة : مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ للنفى والإنكار أى : لا أحد يستطيع أن يشفع عنده - سبحانه - إلا بإذنه ورضاه - قال تعالى : وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (النجم : ٢٦).

والمقصود من هذه الجملة - كما يقول الألوسى - بيان كبرياء شأنه - تعالى - وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه بحيث يستقل أن يدفع ما يريده دفْعاً على وجه الشفاعة والإنسكان والخضوع فضلاً عن أن يستقل بدفعه عناداً أو مناصبة وعداوة. وفى ذلك تبيّس للكفار حيث زعموا أن ألهتهم شفعا لهم عند الله ، (١٥).

وقوله سبحانه في الجملة السادسة : **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** . تأكيد لكمال سلطانه في هذا الوجود، وبيان لشمول علمه على كل شيء.

والضمير في : **أَيْدِيهِمْ** ، **خَلْفَهُمْ** . يعود إلى **مَا** في قوله قبل ذلك : **لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** . وعبر بضمير الذكور العقلاء، تغليباً لجانبهم على جانب غير العقلاء.

والعلم بما بين أيديهم وما خلفهم كناية عن إحاطة علمه - سبحانه - بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وما يعرفونه من شؤونهم الدنيوية وما لا يعرفونه.

وقوله تعالى في الجملة السابعة : **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ** ، مطوَّف على قوله : **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** ، لأنه مكمل لمعناه . والمراد بالعلم المعلوم . والإحاطة بالشئ معناها العلم الكامل به.

أى : لا يعلمون شيئاً من معلوماته - سبحانه - إلا بالقدر الذي أراد أن يعلمهم إياه على ألسنة رسله . فهو كقوله تعالى : **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا \* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ** ... (الجن ٢٦-٢٧).

فالجملة الكريمة بيان لكمال علم الله - تعالى - ولتقصان علم سواء، إذ إن البشر لم يعطوا من العلم إلا القليل ، وهذا القليل ناقص لأنه ليس علم إحاطة واستغراق لكل ما تشتمل عليه جزئيات الشئ، ووجوده وجنسه وكيفيته وغرضه المقصود به وبيّجاده ، إذ العلم الكامل بالشئ لا يكون إلا لله رب العالمين.

ثم قال تعالى في الجملة الثامنة : **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ** .

قال الراغب : الكرسي في تعارف العامة اسم للشئ الذي يقعد عليه، وهو في الأصل منسوب إلى الكرسي أى الشئ المجتمع، ومنه الكرامة لأنها تجمع العلم.. وكل مجتمع من الشئ كرس ... (١٦).

وللعلماء اتجاهان مشهوران في تفسير معنى الكرسي في الجملة الكريمة.

فالسلف يقولون : إن لله - تعالى - كرسيًا، علينا أن نؤمن بوجوده وإن كنا لا نعرف حقيقته، لأن ذلك ليس في مقدور البشر.

والخلف يقولون : الكرسي في الآية كناية عن عظم السلطان، وتفوذ القدرة، وسعة العلم، وكمال الإحاطة.

ولصاحب الكشف تلخيص حسن لأقوال العلماء في ذلك ، فقد قال - رحمه الله - : وفي قوله : **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ** ، أربعة أوجه : أحدها أن كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبطئته وسعته وما هو إلا تصوير لعظمته ، ولا كرسي ثمة ولا قعود ولا قاعد ...

والثاني : وسع علمه ، وسمى العلم كرسيًا تسمية بمكانه الذي هو كرسي العلم.

والثالث : وسع ملكه، تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك .

**والرابع :** ما روى أنه خلق كرسيا هو بين يدى العرش دونه السموات والأرض وهو إلى العرش كأصغر شئ. وعن الحسن الكرسى هو العرش (١٧).

هذا وقد روى المفسرون عن ابن عباس أنه قال « كرسية علمه » (١٨) ولعل تفسير الكرسى بالعلم كما قال جبر الأمة هو أقرب الأقوال إلى الصواب لأنه هو المناسب لسياق الآية الكريمة .

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة بالصفتين التاسعة والعاشره فقال تعالى : **وَلَا يُؤَدُّهُ حَفَظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ.**

**يُؤَدُّهُ :** معناه يثقله ويشق عليه . يقال أدنى الأمر بمعنى أثقلنى وتحملت منه المشقة .

**العلي :** هو المتعالى عن الأشياء ، والأنداد ، والأمثال ، والأضداد ، وعن أمارات النقص ودلالات الحدوث . وقيل : هو من العلو الذى هو بمعنى القدرة وعلو الشأن ...

**والمعنى :** ولا يثقله ولا يتعبه حفظ السموات والأرض ورعايتهما ، وهو المتعالى عن الأشياء والنظائر ، المسيطر على خلقه ، العظيم فى ذاته وصفاته ، فقى هاتين الجملتين بيان لعظيم قدرته ، وعظيم رعايته لخلقه ، وتنزيهه - سبحانه عن مشابهة الحوادث .

وبعد ، فهذه آية الكرسى التى اشتملت على عشر جمل ، كل جملة منها تشتمل على وصف أو أثر من صفات الله الجلية ، ونعموته المجيدة ، وألوهيته الحققة ، وقدرته النافذة ، وعلمه المحيط بكل شئ ، قد أقامت الأدلة الساطعة على وحدانية الله - تعالى - ، ووجوب إفراده بالعبادة .

وقد تكلم العلماء طويلاً عن تناسق جملها ، وبلاغه تركيبها ، ووجوه فضلها ومن ذلك قول صاحب الكشف : « فإن قلت : لم فضلت هذه الآية على غيرها حتى ورد فى فضلها ما ورد ؟ قلت : لما فضلت له سورة الإخلاص من اشتمالها على توحيد الله وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ولا مذكور أعظم من رب العالمين فما كان ذكرها له كان أفضل من سائر الأذكار » .

ومن الأحاديث التى ساقها الإمام ابن كثير فى فضلها ما جاء عن أبى بن كعب أن النبى - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - سألته : **أى آية فى كتاب الله أعظم ؟** قال : **الله ورسوله أعلم** . فرددها مراراً ثم قال : آية الكرسى . فقال له الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - « ليهنك العلم أبا المنذر » (١٩) .

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أنه قال : « إن أعظم آية فى القرآن هى آية الكرسى » (٢٠) .

وروى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - خرج ذات يوم على الناس فقال : أيكم يخبرنى بأعظم آية

فقال ابن مسعود : على الخير سقطت . سمعت رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يقول : أعظم آية فى القرآن : **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ...** الآية (٢١) .



وبعد أن ساق - سبحانه في آية الكرسي الأدلة الواضحة على وحدانيته وعظمته وتزجيه عن صفات الحوادث، عقب ذلك ببيان أن الدين الحق قد ظهر وتجلي لكل ذى عقل سليم، وأنه لا يقصر أحد على الدخول فيه، فقال تعالى :

★ ★ ★

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

المفردات :

الإكراه : حمل الغير على قول أو فعل لا يريده عن طريق التخويف أو التعذيب أو ما يشبه ذلك. والمراد بالدين دين الإسلام والألف واللام فيه للعهد.

والرشد : الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه، مصدر رشد يرشد ويرشَد أى اهتدى. والمراد هنا : الحق والهدى.

والغى : ضد الرشد والمراد به، مصدر من غوى يغوى إذا ضل فى معتقد أو رأى.

ويرى بعض العلماء أن نفي الإكراه هنا فى معنى النهى، أى لا تكرهوا أحدا على الدخول فى دين الإسلام فإنه بين واضح فى دلائله وبراهينه، فمن هداه الله له ، ونور بصيرته دخل فيه على بصيرة ، ومن أضله وأعمى قلبه لا يفيد الإكراه على الدخول فيه.

وقال بعض العلماء إن الجملة هنا على حالها من الخيرية. والمعنى : ليس فى الدين الذى هو تصديق بالقلب، وإذعان فى النفس، إكراه وإجبار من الله - تعالى - لأحد ، لأن مبنى هذا الدين على التمكن والاختيار ، وهو منامد الثواب والعقاب، ولولا ذلك لما حصل الابتلاء والاختبار ، ولبطل الامتحان.

أو المعنى - كما يرى بعضهم - أن من الواجب على العاقل بعد ظهور الآيات البينات على أن الإيمان بدين الإسلام حق ورشد، وعلى أن الكفر به غي وضلال ، أن يدخل عن طوعية واختيار فى دين الإسلام الذى ارتضاه الله وألا يكره على ذلك بل يختاره بدون قسر أو تردد.

**فالجملة الأولى** وهى قوله تعالى : **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** . تتقى الإجبار على الدخول فى الدين. لأن هذا الإجبار لا فائدة من ورائه ، إذ التدين إذعان قلبى ، واتجاه بالنفس والجوارح إلى الله رب العالمين بإرادة حرة مختارة، فإذا أكره عليه الإنسان ازداد كرها له ونفوراً منه. فالإكراه والتدين نقيضان لا يجتمعان ، ولا يمكن أن يكون أحدهما ثمرة للآخر.

**والجملة الثانية** وهى قوله تعالى : **قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** . بمثابة العلة لنفى هذا الإكراه على الدخول فى الدين ، أى قد ظهر الصبح لذى عينين، وانكشف الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، وقامت الأدلة الساطعة على أن دين الإسلام هو الدين الحق وغيره من الأديان ضلال وكفران، وما دام الأمر كذلك فقد توافرت الأسباب التى تدعو إلى الدخول فى دين الإسلام ، ومن كفر بعد ذلك فليحتمل نتيجة كفره، وسوء عاقبة أمره .

ثم قال تعالى : **فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا** . الطاغوت : اسم لكل ما يطفى الإنسان ، كالأصنام والأوثان والشيطان وكل رأس فى الضلال، وكل ما عبد من دون الله .. وهو مأخوذ من طغى يطفى .. كسعى . طغياً وطغياناً . أو من يطغو طغواً وطغواناً ، إذا جاوز الحد وغلا فى الكفر وأسرف فى المعاصى والفجور .

**والعروة** : فى أصل معناها تطلق على ما يتعلق بالشئ من عراء، أى من الجهة التى يجب تعليقه منها، وتجمع على عراء . والعروة من الدلو والكوز مقبضه، ومن الثوب مدخل زره .

**والوُثْقَى** : مؤنث الأوثق، وهو الشئ المحكم الموثق . يقال وثق - بالضم وثاقة أى : قوى وثبت فهو وثيق أى ثابت محكم .

**والانفصام** : الانكسار ، والفصم كسر الشئ وقطعه .

**والمعنى** : فمن خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة غير الله ، وآمن بالله - إيماناً خالصاً صادقاً، فقد ثبت أمره واستقام على الطريقة المثلى التى لا انقطاع لها، وأمسك من الدين بأقوى سبب وأحكم رباط .

والفاء فى قوله : **فَمَنْ يَكْفُرُ...** . للتفريع . والسين والتاء فى استمسك للتأكيد والطلب . وقوله : فقد استمسك بالعروة الوثقى . فيه .. كما يقول الزمخشري تمثيل للمعلوم بالنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصور السامع كأنما ينظر إليه بعينه فيحكم اعتقاده والتيقن به وجملة : لا انفصام لها . استئناف مقرر لما قبله أو حال من « العروة » والعامل : استمسك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** . أى سميع للأقوال وهمسات القلوب، وخالج للنفوس، عليم بما يسره الناس وما يعلنونه، وسيجازيهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب .

قال القرطبي ما ملخصه : قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : يا أيها النبی جاهد الكفار والمنافقين.. « لأن النبی - صلى الله عليه وسلم - قد أكره العرب على دين الإسلام وقتلتهم ولم يرض إلا الإسلام . وقيل إنها ليست بمنسوخة وإنما نزلت فى أهل الكتاب خاصة ، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية ..

والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمى - أيته العجوز - تسلمى ، إن الله بعث محمداً بالحق ، قالت : أنا عجوز كبيرة والموت إلى قريب . فقال عمر : اللهم أشهد وتلا : لا إكراه في الدين . (٢٢) .

والذى تسكن إليه النفس أن هذه الآية محكمة غير منسوخة ، لأن التدوين لا يكون مع الإكراه.. كما أشرنا من قبل .. ولأن الجهاد ما شرع في الإسلام لإجبار الناس على الدخول في الإسلام إذ لا إسلام مع إجبار، وإنما شرع الجهاد لدفع الظلم، ورد العدوان ، وإعلاء كلمة الله ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - ما قاتل العرب ليكرههم على الدخول في الإسلام وإنما قاتلهم لأنهم بدأوا بالعداوة .

ولأن الروايات في سبب نزول هذه الآية تؤيد أنه لا إكراه في الدين ، ومن هذه الروايات ما جاء عن ابن عباس أنه قال : نزلت في رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان وكان هو مسلماً ، فقال للنبي - صلى الله عليه وسلم - ألا أستكرههما فإنهما قد آبيا إلا النصرانية، فأنزل الله هذه الآية (٣٣).

وهي رواية أخرى أنه حاول إكراههما على الدخول في الإسلام فاختمصوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال الأنصارى : يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر إليه فنزلت الآية.

ولأن النسخ لا يصار إليه إلا إذا لم يمكن التوفيق بين الآيتين، وهنا يمكن القول بأن الآية التى معنا تنفى إكراه الناس على اعتقاد ما لا يريدون ، وآية يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ... ( التحريم : ٩ ) . جاءت لحض النبي - صلى الله عليه وسلم - وحض أصحابه على قتال الكفار الذين وقفوا في طريق دعوته، حتى يكفوا عن عدوانهم وتكون كلمة الله هي العليا.

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الكافرين، فقال تعالى :



﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

التفسير :

المولى : الناصر والمعين والحليف . مأخوذ من الولاية بمعنى النصرة.

والمعنى : الله انشى بيده ملكوت كل شيء : اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا . أى معينهم وناصرهم ومتولى أمورهم، فهو - سبحانه - الذى يخرجهم من ظلمات الكفر ، ومن ضلالات الشرك والفسوق والعصيان إلى نور الحق والهداية والتحرر من الأوهام. أما الذين كفروا فأولياؤهم ونصراؤهم الطاغوت وهؤلاء يخرجونهم بسبب انطماس بمسيرتهم، وانتكاسهم في المعاصي من نور الإيمان والهداية إلى ظلمات الكفر والضلالة . أولئك الموصوفون بتلك الصفات القبيحة أصحاب النار هم فيها خالدون خلودا مؤبدا .

وافرد - سبحانه - النور وجمع الظلمات ، لأن الحق واحد ، أما الظلمات فقد تعددت فتونها والوانها وأسبابها . وفي تقديم : الَّذِينَ كَفَرُوا ، في قوله :

« الَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » . إشارة إلى أنهم هم الذين ارتضوا أن يكون الطغيان مسيطراً على قلوبهم ، لأن كفرهم بالله تعالى هو الذى جعل الشيطان ينفذ إلى أقطار نفوسهم بسهولة ويسر .

وقوله : « الَّذِينَ كَفَرُوا ، مبتداً ، و : أُولَئِكَ هُمُ . مبتداً ثان ، و : الظَّالِمُونَ . خبره . والجملة خبر المبتداً الأول .

ولم - يقل سبحانه - والظالمون ولى الذين كفروا ، للاحتراز عن وضع اسم الظالمين فى مقابل لفظ الجلالة .

هنا قيل : وهل كان الكافرون فى نور ثم أخرجوا منه ؟ فالجواب أن المراد بخروجهم خروجهم من النور الفطرى الذى جُبل عليه الناس كافة ، أو من نور الحجج الواضحات التى من شأنها أن تحمّل كل عاقل على الدخول فى الإسلام . وقيل المراد بهؤلاء المخرجين من النور إلى الظلمات أولئك الذين آمنوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - قبل بعثته ثم كفروا به بعدها ، والإشارة فى قوله أولئك تعود إلى الذين كفروا . وفى التعبير بـ « أَصْحَابُ النَّارِ » إشعار بأنهم ملازمون لها كما يلزم المالك ما يملكه والرفيق رفيقه وقوله :

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ، تأكيد لبقيتهم فيها واختصاصهم بها .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ساقّت أحسن البشارات للمؤمنين ، وأشد العقوبات للكافرين الذين استحبوا العمى على الهدى .

ثم ساق القرآن بعد ذلك الأمثلة للمؤمنين المهتدين ، وللضالين المغرورين فقال تعالى :

★ ★ ★

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّى  
الَّذِى يُعْبَدُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُخْبِرُ - وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالسَّمْسِ مِنْ  
الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٥٨)

« حاج » أى جادل وخاصم ، والمحاجة المخاصمة والمغالبة بالقول ، يقال حاججته فحججته أى خاصمته  
بالقول فتغلّبت عليه ، وتستعمل المحاجة ، كثيراً فى الخاصمة بالباطل ، ومن ذلك قوله تعالى : « فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ  
أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ . » وقوله تعالى : « وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونَنِى فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ .. (الأنعام : ٨٠) .

والمعنى : لقد علمت أيها العاقل قصة ذلك الكافر المغرور الذى جادل إبراهيم - عليه السلام - فى شأن خالقه - عز وجل - ومن لم يعلم قصته فما نحن أولاء نخبره بها عن طريق هذا الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والاستفهام للتعجب من شأن هذا الكافر وما صار إليه أمر غروره وبطوره .

والمراد به - كما قال ابن كثير - نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ملك بابل، وكان معاصراً لسيدنا إبراهيم - عليه السلام .

وأطلق القرآن على ما دار بين هذا المغرور وبين سيدنا إبراهيم أنها محاجة مع أنها مجادلة بالباطل من هذا الملك، أطلق ذلك من باب المماثلة اللفظية ، أو هى محاجة فى نظره السقيم، ورأيه الباطل .

والضمير فى قوله فى ربه يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - وقيل يعود إلى نمرود لأنه هو المتحدث عنه فالضمير يعود إليه، والإضافة - على الرأى الأول- للتشريف ، ولإيضاح أن أول الأمر بأن الله - تعالى - مؤيد وناصر لعبده إبراهيم . وقوله أَنَّ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ بيان لإقدام هذا الملك على ما أقدم عليه من ضلال وطفنان ، أى سبب هذه المحاجة لأن أعطاه الله - تعالى - الملك فبطر وتكبر ولم يشكره - سبحانه - على هذه النعمة، بل استعملها فى غير ما خلقت له فقلوبه أَنَّ آتَاهُ مفعول لأجله، والكلام على تقدير حذف الجر. وهو مطرد الحذف مع أَنَّ وَإِنْ .

وقوله : إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ . حكاية لما قاله إبراهيم - عليه السلام - لذلك الملك فى مقام التذليل على وحدانية الله وأنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة. أى قال له : ربي وحده هو الذى ينشئ الحياة ويوجدتها، ويميت الأرواح ويفقدتها حياتها، ولا يوجد أحد سواه يستطيع أن يفعل ذلك .

وقول إبراهيم - كما حكاها القرآن : رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ . مفيد للقصر عن طريق تعريف المبتدأ وهو « ربي » والخبر هو الموصول وصلته .

وعبر بالمضارع فى قوله يُحْيِى وَيُمِيتُ . لإفادة معنى التجدد والحدوث الذى يرى ويحس بين وقت وآخر .

أى ربي هو الذى يحيى الناس ويميتهم كما ترى ذلك مشاهداً فى كثير من الأوقات، فمن الواجب عليك أن تخضع للعبادة والخضوع وأن تقنع عما أنت فيه من كفر وطفنان وضلال .

وقوله إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ... ظرف لقوله حَاجٌّ أو بدل اشتمال منه وفى هذا القول الذى حكاها القرآن عن إبراهيم - عليه السلام - أوضح حجة وأقواها على وحدانية الله واستحقاقه للعبادة ، لأن كل عاقل يدرك أن الحق هو الذى يملك الإحياء والإماتة، ويملك بعث الناس يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم وهو أمر ينكره ذلك الملك الكافر .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والظاهر أن قول إبراهيم : رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ ، جواب لسؤال سابق غير مذكور، وذلك لأنه من المعلوم أن الأنبياء بعثوا للدعوة إلى الله ، ومتى ادعى الرسول الرسالة فإن

النكر يطلبه بإثبات أن للعالم إلها فالظاهر هنا أن إبراهيم ادعى الرسالة فقال له نمرود من ربك ؟ فقال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، إلا أن تلك المقدمة حذفت لأن الواقعة تدل عليها، ودليل إبراهيم فى غاية الصحة، لأن الخلق عاجزون عن الإحياء والإماتة. وقدم ذكر الحياة على الموت هنا، لأن من شأن الدليل أن يكون غاية فى الوضوح والقوة، ولشأن أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر، وإطلاع الإنسان عليها أتم، فلا جرم وجب تقديم الحياة ها هنا فى الذكر ، (٢٤).

ثم حكى القرآن جواب نمرود على إبراهيم فقال : قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ . أى قال ذلك الطاغية : إذا كنت يا إبراهيم تدعى أن ربك وحده الذى يحيى ويميت فأنا أعارضك فى ذلك لأنى أنا - أيضاً - أحيى وأميت وما دام الأمر كذلك فأنا مستحق للربوبية . قالوا : ويقصد بقوله هذا أنه يستطيع أن يعفو عمن يقتله ويقتل من شاء أن يقتله .

ولقد كان فى استطاعة إبراهيم - عليه السلام - أن يبطل قوله ، بأن يبين له بأن ما يدعيه ليس من الإحياء والإماتة المقصودين بالاحتجاج، لأن ما قصده إبراهيم هو إنشاء الحياة وإنشاء الموت، كان فى استطاعة الخليل - عليه السلام - أن يفعل ذلك، ولكنه آثر ترك فتح باب الجدال والمحاورة، وأتاه بحجة فى الإفحام فقال له - كما حكى القرآن - : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .

أى قال إبراهيم لخصمه المغرور : لقد زعمت أنك تملك الإحياء والإماتة كما يملك الله - تعالى - ذلك ، ومن شأن هذا الزعم أن يجعلك مشاركاً لله - تعالى - فى قدرته ، فإن كان زعمك صحيحاً فأنت ترى وغيرك يرى أن الله - تعالى - يأتى بالشمس من جهة المشرق عند شروقها، فأت بها أنت من جهة المغرب فى هذا الوقت، فماذا كانت نتيجة هذه الحجة الدامغة التى قذف إبراهيم - عليه السلام - بها فى وجه خصمه؟ كانت نتيجتها - كما حكى القرآن - فُهِتَ الَّذِي كَفَرَ أى : غلب وقهر، وتحير وانقطع عن حجاجه، واضطرب ولم يستطع أن يتكلم ، لأنه فوجئ بما لا يملك دفعه . و « بُهِتَ » فعل ماض جاء فى صورة الفعل المبني للمجهول - كزهى وزكم - والمعنى فيه على البناء للفعل . وقوله الَّذِي كَفَرَ هو فاعله . والبهت : الانقطاع والحيرة . وقرئ بوزن - علم ونصّر وكرم.

والفاء فى قوله : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ ... إلخ ، فصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر أى إن كنت كما تزعم أنك تحيى وتميت وإن قدرتك كقدرة الله ، فإن الله - تعالى - يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب .

وعبر عن هذا المبهوت بقوله : الَّذِي كَفَرَ للإشعار بأن سبب حيرته واضطرابه هو كفره وعناده .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أى لا يهديهم إلى طريق الحق، ولا يلهيهم حجة ولا برهاناً، بسبب ظلمهم وطفيتهم وإيتارهم طريق الشيطان على طريق الرحمن .

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد حكمت للناس لوئاً من الوان رعاية الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه ، لكى يكون فى ذلك عبرة وعظة لقوم يعقلون .

ثم ساقَت السورة الكريمة قصتين تدلان بآبلغ الدلالة على قدرة الله - تعالى - وعلى صحة البعث والنشور، استمع إلى القرآن وهو يحكى هاتين القصتين بأسلوبه البليغ فيقول :

★ ★ ★

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ۖ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ ۖ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا الْحَمَاقَ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ۖ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ وَإِذْ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ۖ قَالَ أُولَئِمُ تَوَمِّنُ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِّيَ طَمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ۖ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۖ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۖ ﴾

قال الألوسي ما ملخصه : قوله : « أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ » معطوف على ما سبقه - وهو قوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ » والكاف اسمية بمعنى مثل معمولة لأرايت محدثاً . أى أو أرايت الذى مر على قرية... وحذف لدلالة « أَلَمْ تَرَ » عليه . وقيل : إن الكاف زائدة والتقدير : ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم أو الذى مر على قرية... وقيل : إن العطف هنا محمول على المعنى كأنه قيل : أرايت - شيئاً عجيباً - كالذى حاج إبراهيم فى ربه ، أو كالذى مر على قرية .. » .

والذى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ قيل هو عزيز بن شرخيا ، وقيل حزقيال بن بوزى ، وقيل غير ذلك . والقرية قيل المراد بها بيت المقدس وكان قد خربها « بختنصر » البابلى .. والقرآن الكريم لم يهتم بتحديد الأشخاص والأماكن لأنه يقصد العبرة وبيان الحال والشأن . وجملة « وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا » فى موضع الحال من الضمير المستتر فى مَرَّ . والواو رابطة بين الجملة الحالية وبين صاحبها ، والإتيان بها واجب لخلو الجملة من ضمير يعود على صاحبها وقيل هى حال من القرية ، وسوغ إتيان الحال منها مع كونها تكرة وقوعها بعد الاستفهام المقدر وهو أرايت ... ومعنى « وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا » أن جدرانها ساقطة على سقوفها أى أن الخراب قد عمها والدمار قد نزل بها ، أصبحت خالية من أهلها ، وفارغة ممن كان يعمرها . وأصل الخواء الخلو . فيقال خوت الدار وخويت

تخوى خواء إذا سقطت وخلت، والعروش جمع عرش وهو سقف البيت، ويسمى العريش. وكل شيء يهيا ليظل أو يكن فهو عريش وعرش.

وقوله تعالى : قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا . حكاية لما قاله ذلك الذى مر على تلك القرية ورأى فيها ما رأى من مظاهر الخراب والدمار.

**والمعنى :** أو أرايت مثل الذى مر على قرية وهى ساقطة حيطانها على سقوفها وقارعة ممن كان يسكنها، فهالها أمرها، وراعه شأنها ، وقال على سبيل التعجب: كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ؟ بأن يعيد إليها العمران بعد الخراب، ويجعلها عامرة بسكانها الذين خلت منهم ؟ فقوله أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ بمعنى كيف فتكون منصوبة على الحالية من اسم الإشارة ويجوز أن تكون أَنَّى هنا بمعنى متى أى : متى يحيى الله هذه القرية بعد موتها فتكون منصوبة على الظرفية.

**وقال القرطبي :** قوله : قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا . معناه من أى طريق وبأى سبب، وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان، كما يقال الآن فى المدن الخربة التى تبعد أن تعمر وتسكن: أَنَّى تعمر هذه بعد خرابها. فكان هذا تلهف من الواقف المتعبر على مدينته التى عهد فيها أهله وأحبته... » (٢٥).

وقوله هذا إنما هو تساؤل عن كيفية الإعادة ، لا عن أصل الإعادة. لأنه كان مؤمناً بالبعث والنشور، إلا أنه لما رأى حال القرية على تلك الصورة من الخراب تعجب من قدرة الله على إحيائها، وتشتوق إلى عمارتها، واعتراف بالعجز عن طريق الإحياء ، فماداً كانت نتيجة هذا التساؤل ، كانت نتيجة كما حكاهم القرآن : فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .

أى : بعد أن قال هذا الذى مر على تلك القرية الخاوية على عروشها ما قال ، ألبثه الله - تعالى - فى الموت مائة عام « ثم بعثه » أى إحياء يبعث روحه إلى بدنه قَالَ كَمْ لَبِثْتَ أى كم مدة من الزمان لبثتها على هذه الحال « قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » .

وقال سبحانه : فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، ولم يقل ثم إحياء ، للدلالة على أنه عاد كهيشته يوم مات عاقلاً فاهماً مستعداً للنظر والاستدلال وكان ذلك بعد عمارة القرية، وللإشعار بسرعه وسهولة تأنيه على البارئ سبحانه .

**قال ابن كثير :** كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيى بدنه، فلما استقل سوياً قال الله له بواسطة الملك كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله فى آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ (٢٦).

وقوله تعالى : كَمْ لَبِثْتَ استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل : فماداً قال له بعد بعثته ؟ فقيل : قال كم لبث ؛ ليظهر له العجز عن الإحاطة بشئون الله - تعالى - على آتم وجه ، وتتحسم مادة استباده بالمرّة.



وكم منصوبة على الظرفية ومميزها محذوف والتقدير كم يوماً أو وقتاً والناصب، لها قوله لبث .

وفى هذه الجملة الكريمة بيان للناس بأن الموت يشبه النوم ، وأن البعث يشبه اليقظة بعده، وأنه لا شيء محال على الله - تعالى - فهو القائل : مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْكُمُ إِلَّا اكْفِسُ وَاحِدَةً . (لقمان ٢٨).

**وفى الحديث الشريف :** « والله لتموتن كما تاملن ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان وإالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً ».

وقوله تعالى : قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةً عَامٍ ، معطوف على مقدر، أى : ليس الأمر كما قلت أنك لبثت يوماً أو بعض يوم، إنك لبثت مائة عام. ثم أرشده - سبحانه - إلى التأمل فى أمور فيها أبغ دلالة على قدرة الله تعالى وعلى صحة البعث فقال - سبحانه - : فَأَنْظِرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا .

قوله : لَمْ يَتَسَنَّهْ أى لم يتغير بمرور السنين الطويلة، ولم تذهب طراوته ، فكأنه لم تمر عليه السنوات. ولفظ يتسنه : مشتق من السنة، والهاء فيه أصلية إذا قدر لام سنة هاء، وأصلها سَنَوَهُ لتصغيرها على سَنِيَّةٍ وجمعها على سنهات كسجدة وسجدات ، ولقولهم: سَأَنَّهُتُهُ إذا عاملته سنة فسنة، وَتَسَنَّهُ عند القوم إذا قام فيهم سنة. أو الهاء فيه للوقف نحو كتابيه وجزمه بحذف حرف العلة إذا قدر لام سنة واوا ، وأصلها سنوة لتصغيرها على سنية وجمعها على سنوات .

وقوله : نُشْزِزُهَا أى نرفعها . يقال : أنشز الشيء إذا رفعه من مكانه، وأصله من النشز - بفتحتين وبالسكون - وهو المكان المرتفع. وقرئ نُشْزِزُهَا بضم النون والراء أى نحييها ، من أنشز الله الموتى أى أحياهم.

**والمعنى :** قال الله تعالى لهذا الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها : إنك لم تلبث يوماً أو بعض يوم فى الموت كما تظن ، بل لبثت مائة عام ، فإن كنت فى شك من ذلك فانظر إلى طعامك وشرابك لتشاهد أمراً آخر من دلائل قدرتنا ، فإن هذا الطعام والشراب كما ترى لم يتغير بمرور السنين وكر الأعوام بلبقى على حالته، وانظر إلى حمارك كيف نخرت عظامه، وتفرقت أوصاله، مما يشهد بأنه قد مرت عليه السنوات الطويلة.

وقوله : وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ ، معطوف على محذوف متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لضمون ما سبق ، والتقدير : فلما ما فعلنا لئلا تشاهد بنفسك مظاهر قدرة الله ، ولنجعل آية معجزة ودليلاً على صحة البعث.

وقوله : وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا . أى انظر وتأمل فى هذه العظام كيف نركب بعضها فى بعض بعد أن نوجدتها.

**وقيل المعنى :** وانظر إلى العظام أى عظام حمارك التى تفرقت وتناثرت لتشاهد كيف نرفعها من الأرض فنردها إلى أماكنها فى جسده.

قال ابن كثير : قال السدي وغيره : تفرقت عظام حمارة يميناً وشمالاً حوله فتظر إليها وهي تلوح في بياضها ، فبعت الله ريحاً فجمعها من كل موضع ، ثم ركب كل عظم في موضعه ، ذلك كله بمرأى من العزيز .

وجاء الضمير في قوله : لَمْ يَتَسَنَّهْ بالإفراد مع أن المتقدم طعام وشراب ، لأنهما متلازمان بمعنى أن أحدهما لا يكتفى به عن الآخر فصارا بمنزلة شيء واحد فكانه قال : انظر إلى غذائك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، أى : فلما تبين له بالأدلة الناصعة ، وبالمشاهدة الحسية قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة ، وعلى البعث والنشور قال أعلم أى أستيقن وأؤمن وأعتقد أن الله - تعالى - على كل شيء قدير ، وأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء ، والفاء في قوله فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ .. عاطفة على مقدر يستدعيه المقام كأنه قيل : رفع الله العظام من أماكنها وأكسهاها لحمًا فلما تبين له ذلك وتيقنه قال أعلم أن الله على كل شيء قدير . وفاعل « تبين » مضممر يفسره سياق الكلام والتقدير : فلما تبين له كيفية الإحياء أو فلما تبين له ما أشكل عليه من أمر إحياء الموتى قال أعلم أن الله على كل شيء قدير .

تلك هي القصة الأولى التي ساقها الله - تعالى - كدليل على قدرته وعلى صحة البعث والنشور ، أما القصة الثانية التي تؤكد هذا المعنى فقد حكاها القرآن في قوله : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى أَيْ : واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعتظ وقت أن قام إبراهيم - عليه السلام - مخاطباً خالقه - سبحانه - رب أرني بعيني كيف تميد الحياة إلى الموتى .

وفي قوله : رَبِّ تَصَرِّحْ بِكَمَالِ آدَبِهِ مَعَ خَالِقِهِ - عز وجل - فهو قبل أن يدعو يستعطفه ويعترف له بالربوبية الحق ، والألوهية التامة ، ويلتمس منه معرفة كيفية إحياء الموتى ، فهو لا يشك في قدرة الله ولا في صحة البعث وحاشاه أن يفعل ذلك - فهو رسول من أولى العزم من الرسل ، وإنما هو يريد أن ينتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين ، ومن مرتبة البرهان إلى مرتبة العيان ، فإن العيان يفرس في القلب أسمى وأقوى ألوان المعرفة والأطمئنان .

وقد ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم - عليه السلام - أسباباً منها أنه لما قال للنمرود : رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ . أحب أن يترقى بأن يرى ذلك مشاهدة ، وقد أجاب الخالق - عز وجل - على طلب إبراهيم بقوله : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ . أى : اتقول ذلك وتطلبه ولم تؤمن بأنى قادر على الإحياء وعلى كل شيء؟

فالجملة الكريمة استئناف مبنى على السؤال ، وهي معطوفة على مقدر ، والاستفهام للتقرير . وهنا يحكى القرآن الكريم جواب إبراهيم على خالقه - عز وجل - فيقول : قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُظْمِنَ قَلْبِي . أى قال إبراهيم في الرد على سؤال ربه له : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ بلى يا رب أمنت بك وبقدرتك وبيوحدانيتك إيماناً صادقاً كاملاً ولكنى سألت هذا السؤال ليزداد قلبي سكوناً وأطمئناناً وإيماناً ، لأن من شأن المشاهدة أن تفرس في القلب سكوناً أعمق ، وأطمئناناً أشد ، وإيماناً أقوى . وأنا في جميع أحوالى مؤمن كل الإيمان بقدرتك ويوحدانيتك يارب العالمين .

قال القرطبي ما ملخصه : لم يكن إبراهيم شكاً في إحياء الله الموتى قط وإنما طلب المعاندة. وذلك أن النفوس مستشرقة إلى رؤية ما أخبرته به، ولهذا جاء في الحديث « ليس الخبر كالمعاينة » : قال الأخفش : لم يرد إبراهيم رؤية القلب وإنما أراد رؤية العين. وقال الحسين : سأل ليزداد يقيناً إلى يقينه.

وأما قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « نحن أحق بالشك من إبراهيم » فمعناه أنه لو كان شكاً لكننا نحن أحق بالشك منه، ونحن لا نشك في إبراهيم - عليه السلام - أخرى ألا يشك، فالحديث مبنى على نفي الشك عن إبراهيم ، وإذا تأملت سؤاله - عليه السلام - وسائر ألفاظه الآتية لم تطل شكاً، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول، وكيف هنا إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء والإحياء متقرر، - فسؤال إبراهيم إنما هو عن الكيفية لا عن أصل القضية - ... « (٢٧).

**وقال صاحب الكشف :** فإن قلت : كيف قال له : أَوَلَمْ تَزْمِن . وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً ؟ قلت : ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجلية للسامعين و بَلَى إيجاب لما بعد النفي معناه : بلى أمنت. وقوله : وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي . أى ليزداد سكوناً وطمانينة بمضامنة علم الضرورة - أى علم المشاهدة - إلى علم الاستدلال، وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للصيرة واليقين، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروري ، فأراد بطمانينة القلب العلم الذى لا مجال فيه للتشكيك ، فإن قلت : بم تعلقت اللام فى قوله : لِيَطْمَئِنَّ . قلت : بمحذوف تقديره : ولكن سألت ذلك إرادة طمانينة القلب « (٢٨).

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما كان من جواب الخالق - عز وجل - على نبيه إبراهيم فقال : قَالَ فَخَذَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعًا .

قوله : فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ . أى فاضممهن إليك - قُرئ بضم الصاد وكسرها وتخفيف الراء - يقال - صارهُ يصنوره ويصيره ، أى أماله وضمه إليه. ويقال - أيضاً صار الشيء بمعنى قطعه وفصله، والمعنى : قال الله - تعالى - لإبراهيم : إذا أردت معرفة ما سألت عنه فخذ أربعة من الطير فاضممهن إليك لتتأملهن وتعرف أشكالهن وهيئاتهن كيلا تتلبس عليك بعد الإحياء، ثم اذبحهن وجزئهن أجزاء - ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا . أى ثم اجعل على كل مكان مرتفع من الأرض جزءاً من كل طائر من تلك الطيور ثم نادهن يأتينك مسرعات إليك ، والفاء فى قوله : فَخَذَ . هى التى تسمى بالفاء الفصيحة لأنها تنصص عن شرط مقدر أى : إذا أردت ذلك فخذ.

وقوله : مِنَ الطَّيْرِ . متعلق بمحذوف صفة لأربعة أى فخذ أربعة كائنات من الطير، أو متعلق بقوله : خُذْ . أى خذ من الطير . والطير اسم جمع - كركب وسفر ، وقيل هو جمع طائر مثل تاجر وتجر . قالوا : وهذه الطيور الأربعة هى الطاووس والنسر والغراب والديك.

ومما قالوه فى اختيار الطير لهذه الحالة : إن الطير من صفاته الطيران، وإنه لا يستأنس بالإنسان بل يطير بمجرد رؤيته لتسوية تاتى ما يفعل به من التجزئة والتفرقة.

وقوله : ثُمَّ اجْعَلْ عَلَيَّ كَلِمَةً مِنْهُنَّ جُزْءًا . معطوف على محذوف دل عليه قوله : جُزْءًا . لأن تجزئتهن إنما تقع بعد الذبح . والتقدير : فاذبحهن ثم اجعل ... إلخ . وقوله : ثُمَّ ادْعُهُنَّ . أى قل لهن تعالين ياذن الله .

وقوله : يَا تَيْبُكَ . جواب الأمر فهو فى محل جزم : سعيًا . منصوب على المصدر النوعى ، لأن السعى نوع من الإتيان فكأنه قيل : يَا تَيْبُكَ إتيانًا سريعًا .

**قال الفخر الرازى :** أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية : قطعهن . وأن إبراهيم قطع أعضائها ولحموها وريشها ودماءها وخلط بعضها ببعض - وفعل كما أمره الله ، ثم قال لهن تعالين ياذن الله فأقبلن مسرعات إليه بعد أن انضم كل جزء إلى أصله- . ثم قال : ولكن أبا مسلم أنكر ذلك ، وقال : إن إبراهيم لما طلب إحياء الميت من الله - تعالى - أراه الله مثلاً قرب الأمر عليه به ، والمراد بصرهن إليك الإمامة والتمرين على الإجابة . أى : فعود الطيور الأربعة أن تصير بحيث إذا دعوتها أجابتك وأنتك ، فإذا صارت كذلك فاجعل على كل جيل واحد حال حياته : ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَا تَيْبُكَ سعيًا . والغرض منه ذكر مثال محسوس فى عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة .... « (٢٦) » .

والذى يطمئن إليه القلب هو رأى الجمهور لأن الآية مسوقة لتحقيق معجزة تجرى على يد إبراهيم وهى إحياء الموتى بالمشاهدة كما جرى إحياء الرجل الذى أماته الله مائة عام ، والذى جاء ذكره فى الآية السابقة ، ولأن ظاهر الآية صريح فى أنه حصل تقطيع لأجزاء الطير ثم وضع كل جزء منها على مرتفع من الأرض لا يجوز تحميل الأنفاذ ما لا تحتمله ، وما ذهب إليه أبو مسلم هو قول بلا دليل فضلاً عن مخالفته لما عليه إجماع المفسرين .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . أى واعلم أن الله - تعالى - غالب على أمره ، قاهر فوق عباده ، حكيم فى كل شئونه وأفعاله ، وبذلك نرى أن الآيتين الكريميتين قد سافتا أبلغ الأدلة والشواهد على قدرة الله - تعالى - وعلى أنه المستحق للعبادة والخضوع ، وعلى أن ما أخبر به من صحة البعث والنشور حق لا ريب فيه .

ثم حض الله - تعالى - عباده على الإنفاق فى سبيله ، ووعدهم على ذلك بجزيل الثواب ، فقال تعالى :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَتًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾

ذكر بعض المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا في صدقة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان . وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما حث الناس حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك ، جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم فقال : يا رسول الله كانت ثمانية آلاف ، فأمسكت لنفسى ولعيالى أربعة آلاف ، وأربعة آلاف أقرضتها لربي ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » (٢٦١) . وجاء عثمان بألف دينار في جيش العسرة فصحبها في حجر الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال أبو سعيد الخدري - رأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - رافعا يديه يدعو لعثمان ويقول : « يارب عثمان إني رضيت عن عثمان فارض عنه » (٢٦٢) .

ونزل هاتين الآيتين في شأن صدقة هذين الصعابين الجليلين لا يمنع من شمولهما لكل من نهج نهجهما وبذل ماله في سبيل الله .

و « المثل » الشبه والنظير ، ثم أطلق على القول السائر المعروف لماتلة مضربه لمورده الذي ورد فيه أولاً . ثم استعير للصفة أو الحال أو للقصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة ، وعلى هذا المعنى يحمل المثل في هذه الآية .

و « الحبة » كما يقول القرطبي - اسم جنس لكل ما يزرعه ابن آدم ويقتاته ، وأشهر ذلك البر فكثيراً ما يراد بالحب .

و سَبُلَةٌ بوزن فتعلة - من أسبل الزرع إذ صار فيه السنبيل ، أى استرسل بالسنبيل كما يسترسل الستر بالإسبال . وقيل : معناه صار فيه حب مستور كما يستر الشيء بإسبال الستر عليه . والجمع سنابل .

**والمعنى :** مثل صدقة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ، أى : في طاعته كمثال حبة أقيت في أرض طيبة ، أصابها الغيث ، فخرجت الحبة على هيئة زرع قوى جميل فأبنت في الوقت المناسب لإنباتها سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة .

فأنت ترى أن الخالق - عز وجل - قد شبه حال الصدقة التي يبذلها المؤمن في سبيل الله فيكافئه الله - تعالى - عليها بالثواب العظيم ، بحال الحبة التي تلقى في الأرض النقية فتخرج عوداً مستويًا قائماً قد تشعب إلى سبع شعب ، في كل شعبة سنبلة ، وفي كل سنبلة مائة حبة . وفي هذا التشبيه ما فيه من الحض على الإنفاق في وجوه الخير ، ومن الترغيب في فعل البر ولا سيما النفقة في الجهاد في سبيل الله .

قال ابن كثير : وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمئة ، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله - تعالى - لأصحابها كما ينمي الزرع لمن يزره في الأرض الطيبة » (٢٣).

وقال سبحانه : كَمْثِلْ حَبَّةِ أَنْبَتٍ . فأسند الإنبات إلى الحبة ، مع أن المنبت في الحقيقة هو الله ، وذلك لأنها سبب لوجود تلك السنابل المليئة بالحبات ولأنها هي الأصل لما تولد عنها .

ثم قال تعالى : وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ . أى والله - تعالى - يضاعف الثواب والجزاءضاعفاً كثيرة لمن يشاء من عباده ، فيعطى بعضهم سبعمئة ضعف، ويعطى بعضهم أكثر من ذلك ، لأن الصدقة يختلف ثوابها باختلاف حال المتصدق فمتى خرجت منه بنية خالصة ، وقلب سليم ، ونفس صافية، ومن مال حلال ووضعت في موضعها المناسب، متى كانت كذلك كان الجزاء عليها أوفر، والمضاعفة تزيد على سبعمئة ضعف، إذ عطاء الله لمن يشاء من عباده ليس له حدود ، وثوابه ليس له حساب محدود .

ولذا ختم - سبحانه - الآية بقوله : وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . أى والله - تعالى - عطاؤه واسع ، وجوده عميم ، وفضله كبير ، وهو - تعالى - عليم بنبات عباده وبأقوالهم وبسائر شئونهم ، فيجازى كل إنسان على حسب نيته وعمله .

٢٦٢ - مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . استئناف جيء به لبيان كيفية الإنفاق الذى يحبه الله . ويجازى عليه المنفقين بالجزاء العظيم . وقوله : ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَّا وَلَا أَدَى . تحذير للمتصدق من هاتين المصفتين الذميتين لأنهما مبطلتان لثواب الصدقة .

والمن معناه : أن يتناول المحسن بإحسانه على من أحسن إليه، ويتفاخر عليه بسبب ما أعطاه من عطايا . كأن يقول على سبيل التفاخر والتعيير : لقد أحسنت إليك وأنقذتك من الفقر وما يشبه ذلك .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والمن في اللغة على وجوه : فقد يأتى بمعنى الإنعام . يقال : قد من الله على فلان . إذا أنعم عليه بنعمة . وقد يأتى بمعنى النقص من الحق والبخس له . قال - تعالى - : وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ . ( القلم : ٣ ) . أى غير مقطوع وغير ممنوع ، ومُنَّه سُمي الموت ممنوناً لأنه يقطع الأعمار، ومن هذا الباب المنة المذمومة لأنها تنقص النعمة وتكدرها ، والعرب يمتدحون بترك المن بالنعمة . والمراد بالمن في الآية المن المذموم هو بمعنى إظهار الاصطناع إليهم (٢٤) .

وقال صاحب الكشاف : المن : أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ، ويريد أنه اصطنعه وأوجب عليه حقاً له، وكانوا يقولون : إذا صنعتهم صنيعاً فانسوها ولبعضهم .

وإن امرؤ أسدى إلى صنيعه وذكر غيرها - إنه للثيم

وفى نواحي الكلم : « صنوان : من منح سائله ومنً، ومن منح نائله وضنً، والمراد بالأذى هي الآية : أن يقول المعطى لمن أعطاه قولاً يؤذيه، أو يفعل معه فعلاً يسيء به إليه، وهو أعم من المن، إذ المن نوع من الأذى لكنه نص عليه لكثرة وقوعه (٢٤) .

وجاء العطف بتم في الجملة الكريمة، لإظهار التفاوت الشديد في الرتبة بين الإنفاق الذي يحبه الله، وبين الإنفاق الذي يصاحبه المن والأذى، ولإشعار بأن المن والأذى يفيضان عند الإنفاق ويعد، فعلى المنفق أن يستمر في أدبه وإخلاصه وقت الإنفاق ويعد حتى لا يذهب ثوابه، إذ المن والأذى ميطان للثواب في أى وقت يحصلان فيه.

قال الشيخ ابن المنير مبيناً أن « ثم » هنا تقيد استمرار الفعل بجانب إفادتها للتفاوت في الرتبة : وعندى فيها - أى فى ثم - وجه آخر محتمل فى هذه الآية ونحوها، وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول فى استصحابه، فهى على هذا لم تخرج على الإشعار ببعد الزمن، ولكن معناها الأصلى تراخى زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعار إليه دوام وجود الفعل وتراخى زمن بقاءه، وعليه حمل قوله - : **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا** . أى : داوموا على هذه الاستقامة دواماً متراخياً ممتد الأمد .. وكذلك قوله تعالى هنا : **ثُمَّ لَا يُلَبِّسُونَ مَا بَنَوْا وَمَا بَنَوْا** . أى : يدومون على تناسى الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان والأذى... (٣٥).

وكرر - سبحانه - النفى فى قوله : **ثُمَّ لَا يُلَبِّسُونَ مَا بَنَوْا وَمَا بَنَوْا** . لتأكيد وشموله لأفراد كل واحد منهما، أى يجب ألا يقع منهم أى نوع من أنواع المن ولا أى نوع من أنواع الأذى. حتى لقد قال بعض الصالحين: «لئن ظننت أن سلامك يثقل على من أنفقت عليه بنفقة تبتغي بها وجه الله، فلا تسلم عليه».

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان عاقبة المنفقين بلا من ولا أذى فقال : **لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** . أى : لهم جزاؤهم العظيم مكافأة لهم على أدبهم وإخلاصهم، عند مربيهم مالك أمرهم، ولا خوف عليهم مما سيجدونه فى مستقبلهم، ولا هم يحزنون على ماضيهم، وذلك لأن الله - تعالى - قد أحاطهم برعايته فى دنياهم وأخراهم وعوضهم عما فارقوه خير عوض وأكرم.

ثم كرر سبحانه التحذير من المن والأذى، منادياً المؤمنين بأن يجتنبوا فى صداقاتهم هاتين الرذيلتين، مبيناً أن الكلمة الطيبة للفقير خير من إعطائه مع إيذائه، استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق هذه المعانى وغيرها بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول :

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝٢٦٤﴾ يَتَابِعُهَا  
 الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ  
 وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ  
 صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝٢٦٥﴾

٢٦٤ - قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ . والمعنى : قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ . بأن تقول  
 المسائل كلامًا جميلًا طيبًا تجرب به خاطره، ويحفظ له كرامته . وَمَغْفِرَةٌ . لما وقع منه من الحاف في السؤال .  
 وستر لحاله وصفه عنه . خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى . أى خير من صدقة يتبعها المتصدق لأذى للمتصدق عليه .

لأن الكلمة الطيبة للسائل ، والستر عليه، والعفو عنه فيما صدر منه كل ذلك يؤدي إلى رفع الدرجات عند  
 الله ، وإلى تهذيب النفوس، وتاليف القلوب، وحفظ كرامة أولئك الذين مدوا أيديهم بالسؤال . أما الصدقة التي  
 يتبعها الأذى فإن إيتاءها بتلك الطريقة يؤدي إلى ذهاب ثوابها ، وإلى زيادة الآلام عند السائلين ولا سيما الذين  
 يعرضون على حفظ كرامتهم ، وعلى صيانة ماء وجوههم ، لأن ألم الحرمان عند بعض الناس أقل أثرًا في  
 نفوسهم من آلام الصدقة المصحوبة بالأذى لهم فإنها تصيب النفوس الكريمة بالجراح التي يعسر الشفاء منها .

**قال القرطبي :** روى مسلم في صحيحه أن رسول - صلى الله عليه وسلم - قال : « الكلمة الطيبة صدقة ،  
 وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق » (٢٦٤) فعلى المستؤل أن يتلقى السائل بالبشر والترحيب، ويقابله  
 بالطلاقة والتقريب ليكون مشكورًا إن أعطى ومعذورًا إن منع . وقد قال بعض الحكماء : ألق صاحب الحاجة  
 بالبشر فإن عدمت شكره لم تعدم عذره » (٢٦٥) .

وقوله : **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ** . مبتدأ ، وساغ الابتداء بالنكرة لوصفها وللعطف عليها، وقوله : وَمَغْفِرَةٌ . عطف  
 عليه وسوغ الابتداء بها العطف أو الصفة المقدرة إذ التقدير ومغفرة للسائل أو من الله . وقوله : خَيْرٌ . خبر  
 عنهما، وقوله : يَتْبَعُهَا أَذَى . في محل جر صفة لصدقة .

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله : وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ . أى والله - تعالى - فى غنى عن إنفاق المنفقين وصدقات  
 المتصدقين ، وإنما أمرهم بهما لمصلحة تعود عليهم . أو غنى عن الصدقة المصحوبة بالأذى فلا يقبلها . حليمٌ .  
 فلا يجعل بالعقوبة على مستحقها ، فهو - سبحانه - يمهل ولا يهمل . والجملة الكريمة تذييل لما قبله مشتملة  
 على الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب .



٢٦٤ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى . نداء منه - سبحانه - للمؤمنين يكرر فيه نهيمهم عن المن والأذى، لأنهما يؤديان إلى ذهاب الأجر من الله - تعالى - وإلى عدم الشكر من الناس ؛ ولذا جاء في الحديث الشريف : « إياكم والامتان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر » .

ثم أكد - سبحانه - هذا النهي عن المن والأذى بذكر مثلين قال في أولهما : كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

**والمعنى :** يا من أمنتُم بالله - تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم بأن تحبطوا أجرها وتمحقوا ثمارها، بسبب المن والأذى ، فيكون مثلكم في هذا الإبطال لصدقاتكم بسبب ما ارتكبتم من آثام، كمثل المنافق الذي ينفق ماله من أجل أن يرى الناس منه ذلك ولا يبعي به رضاء الله ولا ثواب الآخرة، لأنه كفر بالله ، وكفر بحساب الآخرة .

وفي هذا تنفير شديد من المن والأذى لأنه - سبحانه - شبه حال المتصدق المتصف بهما في إبطال عمله بسببهما بحال هذا المنافق المرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر . وقوله : كَالَّذِي . الكاف في محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف أى : لا تبطلوها إبطالا كإبطال الذي ينفق ماله رياء الناس .. أو في محل نصب على الحال من فاعل : تَبْطُلُوا . أى لا تبطلوها مشابهين الذي ينفق ماله رياء الناس

وقوله : رِئَاءَ . منصوب على أنه مفعول لأجله ، أى : كالذي ينفق ماله من أجل رياء الناس . وأما المثال الثانى فقال - سبحانه - فيه : فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا .

« الصفوان » اسم جنس جمع واحد صفوانة كشجر وشجرة وهو الحجر الكبير الأملس، مأخوذ من الصفاء وهو خلوص الشيء مما يشويه. يقال : يوم صفوان أى صافى الشمس . وقيل هو مفرد كعجر . و « الوابل » المطر الشديد . يقال : وبلت السماء تبل وبالا وبولا؛ اشتد مطرها . و « الصلدة » هو الشيء الأجرد النقى من التراب الذى كان عليه . ومنه رأس أصلد إذا كان لا ينبت شعرا ، والأصلد الأجرد الذى لا ينبت شيئا مأخوذ من صلد يصلد فهو صلد .

**والمعنى :** يا أيها المؤمنون لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل المنافق الذى ينفق ماله من أجل الرياء لا من أجل رضا الله ، وإن مثل هذا المنافق فى انكشاف أمره وعدم انتفاعه بما ينفعه رياء وحبا للظهور كمثل حجر أملس لا ينبت شيئا ولكن عليه قليل من التراب الموهم للناظر أنه منتج فتزل المطر الشديد فأزال ما عليه من تراب، فانكشفت حقيقته ، وتبين للناظر إليه أنه حجر أملس لا يصلح لإنبات أى شيء عليه .

فالتشبيه فى الجملة الكريمة بين الذى ينفق ماله رياء وبين الحجر الكبير الأملس الذى عليه قدر رقيق من التراب ستر حاله، ثم ينزل المطر فيزيل التراب وتكتشف حقيقته ويراه الراى عاريا من أى شيء يستتره . وكذلك المنافق المرائي فى إنفاقه يتظاهر بمظهر السخاء أمام الناس ثم لا يلبث لأن ينكشف أمره لأن ثوب الرياء يشف دائما عما تحته وإن لم يكشفه فإن الله كاشفه .

ومن المفسرين من يرى أن التشبيه في الجملة الكريمة بين المنفق الذي يبطل صدقته بالْمَنِّ والأذى وبين الحجر الأملس ، وأن الضمير في قوله : **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ** . يعود إلى هذا المبطل لصدقته بالْمَنِّ والأذى . فيكون المعنى : لا تبطلوا صدقاتكم بالْمَنِّ والأذى فيكون مثلكم كمثال الحجر الأملس الذي عليه تراب كان يرجى أن يكون منبتاً للزرع فنزل المطر فآزال التراب فبطل إنتاجه ، فالْمَنُّ والأذى يبطلان الصدقات ويزيلان أثرها النافع ، كما يزيل المطر التراب الذي يؤمل منه الإنبات من فوق الحجر الأملس .

والذي نراه أن عودة الضمير في قوله : **فَمَثَلُهُ** . على الذي ينفق ماله رثاء الناس أظهر لأنه أقرب مذكور ، ولأن التشبيه في قوله : **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ** . قد جاء بلفظ المفرد وهو المناسب للذي ينفق ماله رثاء الناس لأنه مفرد مثله ، خلاف قوله : **لا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى** . فإن الضمير فيه بلفظ الجمع ، فمن الأولى أن يعود الضمير في قوله : **فَمَثَلُهُ** . إلى المرائي لتوافقهما في الإفراد .

ثم قال تعالى : **لَا يَقْدَرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا** . أى أن الذين يبطلون صدقاتهم بالْمَنِّ والأذى ، والذين يتصدقون رياء ومفاخرة لا يقدرّون على تحصيل شيء من ثواب ما عملوا لأن ما صاحب أعمالهم من رياء ومن أذى محق بركتها ، وأذهب ثمرتها وأزال ثوابها .

**أو المعنى** : إن أولئك الننانين ليس عندهم قدرة على شيء من المال الذي بين أيديهم وإنما هذا المال ملك لله - هو - سبحانه - الذي أنعم به عليهم ، فعليه أن يشكروه على هذه النعمة ، وأن ينفقوه بدون مَنٍّ أو أذى أو مراعاة ، حتى يظفروا بحسن المثوبة منه - سبحانه - .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : **وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** . أى لا يهديهم إلى ما ينفعهم لأنهم آثروا الكفر على الإيمان .

والجملة الكريمة تدبيل مقرر لمضمون ما قبله ، وفيها إشارة إلى أن الإنفاق المصحوب بالْمَنِّ والأذى والرياء ليس من صفات المؤمنين وإنما هو من صفات الكافرين ، فعلى المؤمنين أن يجتنبوا هذه الصفات التي لا تليق بهم .

والذي ينظر في هذه الآيات الكريمة يرى أن الله - تعالى - قد حذر المنفقين من المَنِّ والأذى في ثلاث آيات متواليات ، كما حذرهم من الرياء ، وساق أكثر من تشبيه لتبجيع الصدقات التي لا تكون خالصة لوجه الله فلماذا كل هذا التشديد في النهي ؟ والجواب عن ذلك : أن المَنِّ والأذى في الإنفاق كثيراً ما يحصلان بسبب استعلاء كاذب ، أو رغبة في إذلال المحتاج وإظهاره بمظهر الضعيف ، وكلا الأمرين لا يليق بالنفس المؤمنة المخلصة ، ولا يتلاقى مطلقاً مع الحكم التي من أجلها شرعت الصدقات - بل إنه ليتأفرق معها تافراً تاماً ، لأن الصدقات شرعها الله تنهذب النفوس ، وتطهر القلوب ، وتربط بين الأغنياء والفقراء برياط المحبة والمودة والإخاء فإذا ما صاحبها المَنُّ والأذى أثمرت نقيض ما شرعت له ، لأنها تثير في نفس المعطى بسبب ذلك الكبر والخيلاء وغير ذلك من الصفات ، وتثير في نفس الآخذ شعوراً بالحق والانتقام ممن أعطاه ثم آذاه ، وبذلك تنقطع الروابط ، ويتمزق المجتمع ، وتتحول المحبة إلى عداوة .

ولقد تحدث الإمام الرازي عن الآثار السيئة للمَنِّ والأذى فقال ما ملخصه : وإنما كان المَنُّ مذمومًا لوجوه، **الأول** : أن الفقير الآخذ للصدقة منكسر القلب لأجل حاجته إلى صدقة ، فإذا أضاف المعطى إلى ذلك إظهار الإنعام زاد ذلك في انكسار قلبه فيكون في حكم المضرة بعد المنفعة ، وفي حكم المسيء إليه بعد أن أحسن إليه. **والثاني** : أن إظهار المَنِّ يبعد أهل الحاجة عن الرغبة في صدقته إذا اشتهر عن طريقه ذلك. **الثالث** : أن المعطى يجب أن يعتقد أن هذه النعمة من الله - تعالى - عليه وأن يعتقد أن لله عليه نعمًا عظيمة حيث وفقه لهذا العمل ، ومتى كان الأمر كذلك امتنع عن أن يجعل ما ينفعه منة على الغير. **الرابع** : أن المعطى في الحقيقة هو الله ، ومتى اعتقد العبد ذلك استثار قلبه ، أما إذا اعتقد غير ذلك فإنه يكون في درجة البهائم الذين لا يترقى نظرهم عن المحسوس إلى المعقول ، وعن الآثار إلى المؤثر، وأما الأذى فيتناول كل ذلك وغيره مما يسيء إلى الفقير بأن يقول له : فرج الله عنى منك، وأنت أبداً تاتى إلى بما يؤلم .. إلخ » (٢٨).

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عددًا من الأحاديث الشريفة التي نهت عن المَنِّ والأذى، ومن ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى ، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب (٢٩). «وروى النسائي عن ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « لا يدخل الجنة مدمن خمر ، ولا عاق لوالديه ، ولا منان » (٣٠).

★ ★ ★

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَمَرَاتُهَا أُكُلَتْ مَادَّ بَصُفًا فَإِذَا هِيَ كَأْسٌ مَّاءٍ شَدِيدٍ ۚ فَلِلَّهِ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ۝ ﴾

المفردات :

إبتغاء مرضاة الله : طلبًا لرضوانه.

وتثبيتًا من أنفسهم : أى لتمكين أنفسهم فى مراتب الإحسان بامتنانها عند بذلها بحيث لا ينازعها فيه زلزال البخل ، ولا اضطراب الحرص.

**الجنة** : البستان ، وأصل الجن ستر الشيء عن الحاسة، يقال جنه الليل وأجنه، أى ستره ، وسميت الجنة بذلك لأنها تظل ما تحتها وتستتره.

**الريوة** : المكان المرتفع من الأرض، وأشجار الرُّبى أحسن منظراً، وأزكى ثمرًا للطايفة الهواء وفعل الشمس فيها .

**أتت أكلها ضعفين** : أخرجت ثمرها ضعفاً بعد ضعف ، فتكون الثنية للتكثير، أو فأدت ثمرها ضعفين بالنسبة إلى غيرها من الجنان.

**الطل** : المطر الخفيف وجمعه طلال ، وهو مبتدأ محذوف الخبر أى فطل قليل يصيبها فيكفيها .

**إعصار** : الإعصار الريح التى تهب بشدة فتجتاح ما أمامها .

**تمهيد :**

بعد أن ذكر سبحانه مثل الذين ينفقون أموالهم ثم يتبعون ذلك بالبن والأذى، ومثل الذين ينفقون أموالهم رياء الناس ، قفى على ذلك بذكر مثل للذين ينفقون أموالهم طلباً لرضا ربهم وتزكية لأنفسهم.

٢٦٥ - وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَّبِعُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمْثِلُ جَنَّةٍ بَرْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ . . . .

أى مثل المنفقين أموالهم ابتغاء رضوان الله ، وتمكيناً لأنفسهم فى مراتب الإيمان والإحسان، باطمئنان حين البذل حتى يكون ذلك سجية لها، كمثل جنة التربة ملتفة الشجر ، عظيمة الخصب، تثبت كثيراً من الغلات نزل عليها مطر كثير فكان ثمرها مثلياً ما كانت تفل ، وإن لم يصبها الوابل فطل ومطر خفيف يكفيها، لجودة تربتها وكرم منبتها وحسن موقعها، وهكذا كثير البر كثير الجود، إن أصابه خير كثير أغدق ووسع فى الإنفاق ، وإن أصابه خير قليل أنفق بقدره ، فخير دائم وبيره لا ينقطع .

وإنما قال من أنفسهم أى بعض أنفسهم ، جاء فى تفسير الكشاف ( فإن قلت فما معنى التبعض ؟ قلت معناه أن من بذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه معاً فهو الذى ثبتها كلها كما فى قوله تعالى : وَتَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ<sup>(٤١)</sup> . (الصف : ١١) .

فينبغى أن قصد بأعمالنا رضا الله ، وتزكية نفوسنا وتطهيرها من الشوائب التى تعوقها عن الكمال كالبخل والبالغة فى حب المال .

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . أى إنه عليم بأحوال عبادہ ، فهو يجازى المخلصين بما يرضيهم ، كما سيجازى المنافقين والمرائين بما يستحقون .

٢٦٦ - أَيْدُوحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ . . . .

الاستفهام في هذه الآية للتنفي، والمعنى : لا يجب أحد أن يحدث له ما أوردته الآية الكريمة، وهو أن يكون له بستان فيه نخيل وأعناب - وهما من أنفس أشجار الفواكه المعروفة وأكثرها نفعاً - والأنهار تتخلل هذه الأشجار، ويملك في هذا البستان - إلى جانب النوعين السابقين - جميع أنواع الأشجار المثمرة.

والحال أنه قد أصابه الكبر، الذي أقعده عن الكسب، من غير تلك الحديقة اليبانة، وله فضلاً عن شيخوخته وعجزه ذرية ضعفاء لا يقدرون على العمل، وبينما هو على هذه الحالة إذا بالجنة ينزل عليها إعصار فيه نار فيحرقها ويدمرها، فيفقدوها صاحبها وهو أحوج ما يكون إليها. ويبقى هو وأولاده في حالة شديدة من البؤس والحيرة، والغم والحسرة، لحرمانه من تلك الحديقة التي كانت محط آماله.

وقد وصف الله الجنة هنا بثلاث صفات :

١ - ففيها نخل وأعناب.

٢ - وتجري من تحتها الأنهار.

٣ - وهي زاخرة بأنواع الثمار.

أما صاحبها فقد أصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء، ثم هو يرى جنته ومحل آماله قد احترقت وهو في أشد الحاجة إلى ظلها وثمارها ومنافعها.

ولكان الله يقول للناس بعد هذا التصوير البديع المؤثر، احذروا أن تبطلوا أعمالكم الصالحة بارتكابكم لما نهى الله عنه، فلا تجدون لها نفعاً يوم القيامة، وأنتم في أشد الحاجة إليها في هذا اليوم العصيب، فيكون مثلكم في الحزن والحسرة كمثل هذا الشيخ الكبير الذي احترقت جنته وهو في أشد الحاجة إليها.

وروى ابن أبي مليكة أن عمر تلا هذه الآية وقال : هذا مثل ضربه الله للإنسان يعمل صالحاً حتى إذا كان عنده آخر عمره، أحوج ما يكون إليه عمل العمل السيئ<sup>(١٢)</sup>.

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طِبِّتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِتَاجِرِيهِ إِلَّا أَنْ تُغِصُّوا فِيهِ وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

المفردات :

من طبيبات ما كسبتم : من حلال ما كسبتم ، والطيب الجيد المستطاب.

ومما أخرجنا لكم من الأرض : أي ومن طبيبات ما أخرجنا لكم من باطن الأرض ، من النباتات والحبوب والثمار والمعادن وغيرها.

ولا تيمموا الخبيث : ولا تقصدوا بما تتفقون الردىء والحرام، واليتمم فى اللغة : القصد .  
 أن تغمضوا فيه : الإغماض فى اللغة، غرض البصر، مأخوذ من الغموض وهو الخفاء، والمراد هنا  
 أن تتسامحوا فى أخذه وتتساهلوا، من قولهم أغمض فلان عن بعض حقه إذا  
 غرض بصره، ويقال للبايع أغمض أى لا تستقص، كأنك لا تبصر .  
 عَمِيْدٌ : أى مستحق للحمد على نعمة العظام .

المعنى :

انفقوا أيها المؤمنون من أطيب أموالكم وأنفسها وأجودها ، ولا تتحروا وتقصدوا أن يكون إنفاقكم من  
 الخبيث الردىء ، والحال أنكم لا تأخذونه أن أعطى هبة أو شراء أو غير ذلك ، إلا أن تتساهلوا فى قبوله،  
 وتغضوا الطرف عن رداءته، وإذا كان هذا شأنكم فى قبول ما هو ردىء ، فكيف تقدمونه لغيركم؟ إن الله تعالى  
 ينهاكم عن ذلك، لأنه من شأن المؤمن الصادق فى إيمانه ألا يفعل لغيره إلا ما يحب أن يفعله لنفسه ، ولا يعطى  
 من شئ إلا ما يحب أن يعطى إليه . ففى الحديث الشريف : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » .

سبب النزول :

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً قال : نزلت هذه الآية فى الأنصار ، كانت الأنصار إذا  
 كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين فى مسجد رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم ، فيأكل فقراء المهاجرين منه فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله فى أفناء البسر يظن  
 أن ذلك جائز فانزل الله فيمن فعل ذلك : وَلَا تَيْمَمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ (٤٣) .

★ ★ ★

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

المضردات :

الشيطان يعدكم الفقر : يخوفكم من الفقر إذا أنفقتم شيئاً من الأموال أو الثمرات .  
 ويأمركم بالفحشاء : يغريكم ويحضكم على البخل بالصدقات ، وقيل المراد بالفحشاء جميع المعاصى .  
 المغفرة : الصفع عن الذنب .  
 وفضلاً : أى زيادة فى الرزق ، أو ثواباً فى الآخرة أو الأمرين معاً .  
 واسع : أى صاحب سعة، والمراد بها هنا : سعة النعمة والمغفرة .

التفسير :

٢٦٨ - الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ . . . . أى أن الشيطان يخوف المتصدقين الفقر ويغريهم بالبخل، ويخيل إليهم أن الإنفاق يذهب المال، ولا بد من إمساكه والحرص عليه استعدادا لحاجات الزمان.

والفقر هو ما يصيب الإنسان من سوء في الحال ومن ضعف بسبب قلة المال، وأصل الفقر في اللغة كسر فقار الظهر، ثم وصف الإنسان المحتاج الضعيف بأنه فقير، تشبيهاً له بمن كسر فقار ظهره فأصبح عاجزاً عن الحركة لأن الظهر هو مجمع الحركات، ومنه تسميتهم المصيبة فاقرة ، وقاصمة الظهر.

وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفَرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً . أى أن الله وعدكم على لسان نبيكم، وبما أودعه في القطرة السليمة من حب الخير والرغبة في البر - مغفرة لكثير من خطاياهم ، وفضلاً : أى زيادة في الخير والبركة في المال والسعة في الرزق والثواب في الآخرة ، قال تعالى : وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (سبأ : ٢٩).

وروى البخارى ومسلم عن النبي - صلى الله عليه وسلم قال : « ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط متفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً »<sup>(٤٤)</sup>. ومعنى الدعاء للمنفق بالخلف أن يسهل له أسباب الرزق ، ويرفع شأنه عند الناس، والبخيل المحروم من مثل هذا ، ومعنى الدعاء على المسك بالتلف أن يذهب ماله حيث لا يفيد.

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . أى والله تعالى واسع الجود والعطاء والرحمة، وهو مع ذلك عليم بأحوال عباده صغيرها وكبيرها ، فلا يخفى عليه من أطاع شيطانه وهواه، ومن امتثل أوامر مولاه.

★ ★ ★

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا  
وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ (٢٦٩)

المفردات :

الحكمة : هى إصابة الحق فى قول أو فعل أو رأى ، وهى من الملكات النفسية العليا، التى يمنحها الله من هو أهل لها.

التفسير :

للعلماء فى المراد بالحكمة فى الآية الكريمة أقوال كثيرة:

قال زيد بن أسلم : الحكمة العقل.

**قال مالك :** وإنه ليثق في قلبى أن الحكمة هي الفقه في دين الله، وأمر يدخله في القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا إذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه عالماً بامر دينه بصيراً به، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا فالحكمة الفقه في دين الله.

**وقال ابن عباس :** يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ يعنى المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمة ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله .

روى البخارى ومسلم والنسائى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا حسد إلا في اثنتين ، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » (٤٥).

٢٦٩ - يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ... أى يعطى الله فضل إصابة الحق في القول والعمل، أو يعطى العلم النافع الذى يكون معه العمل من يشاء من عباده الأخيار .

... وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا :

ومن يعطه الله نعمة التمييز بين الحق والباطل ، ويبسر له الاهتداء إلى العلم النافع، والاستجابة لكل خير والابتعاد عن كل شرفائه يكون سعيداً في دنياه و آخراه .

وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَوْلُوا الْأَلْبَابِ . والألباب جمع لب وهو في الأصل خلاصة الشيء وقلبه، وأطلق هنا على عقل الإنسان لأنه أنفع شيء فيه، والمراد بأولى الألباب هنا أصحاب العقول السليمة، التى تخلصت من شوائب الهوى، ودوافع الشر، فقد جرت عادة القرآن ألا يستعمل هذا التعبير إلا مع أصحاب العقول المستقيمة، أى : وما يتعظ بهذه التوجيهات القرآنية وينتفع بثمارها إلا أصحاب العقول الراجعة والنفوس الصافية التى اهتدت إلى الحق وعملت به .

★ ★ ★

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢٧)

المفردات :

من نفقة : النفقة ، ما ينقده الإنسان من المال في خير أو شر .

اونذرتكم من نذر : هو ما يوجب الإنسان على نفسه من غير أن يلزمه الله به قبل نذره ثم يصير بالنذر واجب الأداء شرعاً .



التفسير :

هذه الآية مسوقة للحث على تقية النفقات والنذور وتخليهما من شوائب الشر .. ومعناها : وما أنفقتم أيها المكلفون من نفقة قليلة أو كثيرة أو نذرتم من نذر هان أو عظم، فإن الله يعلمه بجميع أحواله وأوصافه. من طيب أو خبيث ، ابتغاء وجه الله به أو ابتغاء وجه سواء .

( وهذه الجملة الكريمة مع إيجازها قد أفادت الوعد العظيم للمطيعين ، والوعيد الشديد للمتمردين ، لأن الإنسان إذا أيقن أن الله تعالى لا تغفى عليه خافية من شئون خلقه، فإن هذا اليقين سيحمله على الطاعة والإخلاص وسيحضه على المسارعة في الخيرات ) (٤١).

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . وما للظالمين الذين يضعون الأمور في غير مواضعها، ويبدلون المال في غير وجوهه المشروعة، ويضنون به على مستحقه « من أنصار » ينصرونهم يوم الجزاء.

قال تعالى : مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ ( غافر : ١٨ ) .

إن العالم الإسلامي غنى بثرواته وكثوره، وإن الله مطلع وشاهد أين تنفق هذه الكنوز والثروات، ولو أنفق من هذه الكنوز في مصارف الزكاة والصدقات المطلوبة لارتفع شأن هذه الأمة واستردت مكانتها وعادت خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ...

★ ★ ★

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَعْيَائِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ (٢٧١)

المفردات :

إن تبدوا الصدقات : إن تظهروها بحيث يراها الناس ليقتدوا بكم.

فنعما هي : فنعمة شيتا هذه الصدقات التي أبديتوها ، وفي الكلام مضاف مقدر، أى فنعما إظهارها.

التفسير :

٢٧١ - : إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ .. أى إن أظهرتم الصدقات فنعمة شيء إظهارها، لحمل الغير على الاقتداء بكم.

وإن تُخْفُوهَا : أى إن تستروها عن أعين الناس.

وَتُؤْتُوهُا الْفُقَرَاءَ : أى وتعطوها من يستحقها من الفقراء فالإخفاء خير لكم وأفضل لكم وأفضل عند الله من الإظهار.

قال ابن كثير : والأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله رب العالمين . (الحشر : ١٦) . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » (١٧).

وأخرج الطبراني مرفوعاً : « إن صدقة السر تطفئ غضب الرب » (١٨).

**وقال الألويسي :** والأكثر على أن الصدقة سرا أفضل من الصدقة علناً ، وعلى أن هذه الأفضلية فيما إذا كان - كل من صدقتي السر والعلانية - تطوعاً ممن لم يعرف بمال « أي لم يعرف بغنى » وإلا فإبداء الفرض لغيره (أي لغير المتطوع المذكور) أفضل لنفي التهمة ، وكذا الإظهار أفضل لمن يقتدى به وأمن نفسه . انتهى وعن ابن عباس - رضي الله عنه - « صدقة السر في التطوع تفضل على علانيتها سبعين ضعفاً ، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً ، وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها » (١٩).

وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ . أي ويمحو عنكم بعض ذنوبكم بسبب الصدقات ، لأن فعل الحسنات يمسح السيئات .

قال تعالى : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ بِهِنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرُنَا لِلذَّاكِرِينَ . (هود : ١١٤) .

والله بما تعملون خبير : أي يعلم علماً دقيقاً بكل ما تعلمونه وسيجزيكم عليه .

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسُكُمْ ۖ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا لِأَنْبِيََاءَ وَجْهَ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٢) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٧٣) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٤)

قال القرطبي ما ملخصه : قوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ . هذا الكلام متصل بذكر الصدقات ، فكانه بين فيه جواز الصدقة على المشركين .

روى سعيد بن جببر مرسلا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة ، فلما كثر الفقراء من المسلمين قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم » (٥٠) .

فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام . وروى عن ابن عباس أنه قال : كان ناس من الأنصار لهم قرابات من بنى قريظة والنضير كانوا لا يتصدقون عليهم رغبة في أن يسلموا إذا احتاجوا فنزلت الآية بسبب أولئك . ثم قال : قال علماءنا : هذه الصدقة التي أبيضت لهم حسب ما تضمنته هذه الآثار هي صدقة التطوع ، وأما المفروضة فلا يجزئ دفعها لكافر ، لقوله - عليه الصلاة والسلام - :

« أمرت أن أأخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها إلى فقرائكم » (٥١) .

**والمعنى :** ليس عليك يا محمد هداية من خالفك في دينك ، ولكن الله - تعالى - يهدي من يشاء هدايته إلى نور الإيمان ، وطريق الحق . وما دام الأمر كذلك فعليك وعلى أتباعك أن تعاملوا غيركم بما يوجب عليكم إيمانكم من سماحة في الخلق ، وعطف على المحتاجين ولو كانوا من المخالفين لكم في الدين .

وعلى هذا المعنى الذي يؤيده سبب النزول يكون الضمير في قوله هُدَاهُمْ . يعود على غير المسلمين .

ومن المفسرين من يرى أن الضمير في قوله هُدَاهُمْ . يعود إلى المسلمين المخاطبين في الآيات السابقة ، فيكون المعنى : لا يجب عليك أيها الرسول الكريم أن تجعل المسلمين جميعاً مهتدين إلى الإتيان بما أمروا به

ومنتهين عما نهوا عنه من ترك المن والأذى والرياء فى صدقتهم، ولكن الله وحده الذى يهدى من يشاء هدايته إلى الاستجابة لتوجيهات هذا الدين الحنيف.

**قال الألوسى :** وعلى هذا رأى تكون الجملة معترضة جىء بها على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى سيد المخاطبين - صلى الله عليه وسلم - مع الالتفات إلى الغيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بأولئك المكلفين مبالغة فى حملهم على الامتثال .. ثم قال : والذى يستدعيه سبب النزول رجوع ضمير هُدهُم . إلى الكفار ، وحينئذ لا التفات وإنما هناك تلوين الخطاب فقط (٥٢).

ثم حض - سبحانه - المؤمنين على الإنفاق فى وجه الخير فقال : وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسُكُمْ . أى : ما تقدمونه من مال فى وجه البر أيها المؤمنون - فإن نفعه سيعود بالسعادة فى الدنيا، وبالثواب الجزيل فى الآخرة، فتكونوا أسخياء فى الإحسان إلى الفقراء ، وابتعدوا عن وسوسة الشيطان الذى : يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ . (البقرة : ٢٦٨).

و « ما » شرطية جازمة لتنفقوا ، وهى منتصبة به على المفعولية ، و « من » للتبعية وهى مع مجرورها متعلقة بمحذوف وقع صفة لفعل اسم الشرط، والتقدير: أى شئ تنفقوا كائنًا من المال فهو لأنفسكم لا ينتفع به فى الآخرة غيركم .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : وقوله تعالى : وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ . يحتمل وجوها الأول : أن يكون المعنى : ولستم فى صدقتكم على أقاريكم من المشركين تقصدون إلا وجه الله فى صلة رحم وسد خلة مضطر، وليس عليكم اهداؤهم حتى يمنكم ذلك من الإنفاق عليهم . **الثانى** : أن هذا وإن كان ظاهره خبرا إلا أن معناه نهى أى : ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله . **الثالث** : أن قوله : وَمَا تُنْفِقُونَ . أى ولا تكونوا منفقين مستحقين الاسم الذى يفيد المدح حتى تبتغوا بذلك وجه الله . وفى ذكر الوجه تشريف عظيم لأنك إذا قلت : فعلت هذا الشئ لوجه زيد فهو أشرف فى الذكر من قولك : فعلته له . لأن وجه الشئ أشرف ما فيه . ثم كثر حتى صار يعبر عن الشرف بهذا اللفظ، وأيضاً فإن قولك: فعلت هذا الفعل لوجهه يدل على أنك فعلت له فقط وليس لغيره فيه شركة (٥٣).

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يَرْفُ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . أى : أن ما تنفقوا من خير - أيها المؤمنون ستعود عليكم لماره ومنافعه فى الدنيا والآخرة. أما فى الدنيا فإنكم بسبب هذا الإنفاق تزكو أموالكم ، وتحسن سيرتكم بين الناس، وأما فى الآخرة فإنكم تتألون من خالقكم ورازقكم أجزل الثواب، وأفضل الدرجات.

وقوله : وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . أى لا تنقصون شيئاً مما وعدكم الله به على نفقتكم فى سبيله .

**قال الجمل :** وهاتان الجملتان أى قوله تعالى : وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يَرْفُ إِلَيْكُمْ . وقوله : وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . تأكيد للجملة الشرطية الأولى وهى قوله : وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسُكُمْ . وقوله : وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . جملة من

مبتدأ وخبر في محل نصب على الحال من الضمير في : إِلَيْكُمْ . فالعامل فيها : يَوْفَ . وهي تشبه الحال المؤكدة لأن معناها مفهوم من قوله : يَوْفَ إِلَيْكُمْ . لأنهم إذا وفوا حقوقهم لم يظلموا . ويجوز أن تكون مستأنفة لا محل لها من الإعراب أخبرهم فيها أنه لا يقع لهم ظلم فيندرج فيه توفية أجورهم بسبب إنفاقهم في طاعة الله - تعالى - اندراجاً أولياً « (٥٤) » .

هذا ، والذي يتدبر هذه الآية الكريمة يراها من أجمل الآيات التي وردت في الحض على بذل المال في وجوه الخير ، فقد كرر فيها فعل : تَنَفَّقُوا . ثلاث مرات لمزيد الاهتمام بمدلوله ، وجيء به مرتين بصيغة الشرط عند قصد بيان الملازمة بين الإنفاق والثواب ، وجاءت كل جملة منها مستقلة ببعض الأحكام لكي يسهل حفظها وتأملها فتجری على الألسنة مجرى الأمثال وتتألقها الأمم والأجيال .

ثم بعد هذا التحريض الحكيم على بذل الأموال في وجوه الخير ، خص - سبحانه - بالذكر طائفة من المؤمنين هي أولى الناس بالعون والمساعدة ، ووصف هذه الطائفة بست صفات من شأنها أن تحمل العقلاء على المسارعة في إكرام أفرادها وسد حاجتهم .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور حالة هذه الطائفة من المؤمنين تصويراً كريماً نبيلاً تستجيش به المشاعر ، وتحرك القلوب لمساعدة هذه الطائفة المتعففة فيقول :

٢٧٢ - لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْضِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنَاءَ مِنَ التَّفَقُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ... .

لقد وصفهم الله - تعالى - أولاً بالفقراء ، أي الذين هم في حاجة إلى العون والمساعدة لفقرهم واحتياجهم إلى ضروريات الحياة .

وقوله : لِلْفُقَرَاءِ . متعلق بمحذوف يفهم من الكلام السابق ، والتقدير : اجعلوا نفقتكم وصدقتكم للفقراء لأن الكلام السابق موضوعه الإنفاق في سبيل الله ، وما يتعلق بذلك من آداب وفوائد .

والجملة استئناف بياني ، فكانهم لما أمروا بالصدقات سألوا لمن هي ؟ فحاجبوا بأنها لهؤلاء الذين ذكرت الآية صفاتهم .

ومن فوائد الحذف هنا للمتعلق : تعليم المؤمنين الأدب في عطائهم للفقراء ألا يصرحوا لهم بأن ما يعطونه إياهم هو صدقة حتى لا يشعروهم بالمذلة والضعف . وأيضاً ففي هذا الحذف لون من الإيجاز البليغ الذي قل فيه اللفظ مع الوفاء بحق المعنى .

**قال القرطبي :** والمراد بهؤلاء الفقراء ، فقراء المهاجرين وغيرهم ، ثم تتناول الآية كل من دخل تحت صفتهم غابر الدهر . وإنما خص فقراء المهاجرين بالذكر ، لأنه لم يكن هناك سواهم ، وهم أهل الصفة (٥٥) وكانوا نعو أربعمائة رجل ، وذلك أنهم كانوا يأتون فقراء وما لهم أهل ولا مال فبنيت لهم صفة في المسجد النبوي بالمدينة فقيل لهم : « أهل الصفة » (٥٦) .

أما الصفة الثانية من صفات هؤلاء الذين هم أولى الناس بالعون والمساعدة فهي قوله تعالى : الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

والإحصار في اللغة هو أن يعرض للرجل ما يحول بينه وبين ما يريده بسبب مرض أو شيخوخة أو عدو أو ذهاب نفقة أو ما يجرى مجرى هذه الأشياء .

والمعنى : اجعلوا الكثير مما تتفقونه - أيها المؤمنون - لهؤلاء الفقراء الذين حصرنا أنفسهم ووقفوها على المطامع المتنوعة التي من أعظمها الجهاد في سبيل الله ، أو الذين منعوا من الكسب بسبب مرضهم أو شيخوختهم ، أو غير ذلك من الأسباب التي جعلتهم في حالة شديدة من الناقة والاحتياج .

وعبر في الجملة الكريمة بالفضل أَحْصَرُوا . بالبناء للمجهول ، للإشعار بأن فقرهم لم يكن بسبب تكاسلهم وإهمالهم في مباشرة الأسباب ، وإنما كان لأسباب خارجة عن إرادتهم .

وقوله : فِي سَبِيلِ اللَّهِ . تكريم وتشريف لهم ، أي أن ما نزل بهم من فقر واحتياج كان بسبب إثارهم إعلاء كلمة الله على أي شيء آخر ، ففي سبيل الله هاجروا ، وفي سبيل الله وقفوا أنفسهم على الجهاد ، وفي سبيل الله أصابهم ما أصابهم وهم يطلبون أداء ما كلفهم - سبحانه - بأدائه .

أما الصفة الثالثة من صفاتهم فقال فيها : لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ وَالضَرْبُ فِي الْأَرْضِ هُوَ السَّيْرُ فِيهَا لِلتَّكْسِبِ وَالْجَارَةِ وَغَيْرِهِمَا .

أي أنهم عاجزون عن السير في الأرض لتحصيل رزقهم بسبب انشغالهم بالجهاد ، أو بسبب ضعفهم وقلة ذات يدهم .

والصفة الرابعة من صفاتهم هي قوله تعالى : يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أُغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ .

والتعفف : ترك انشئ والتزهد عن طلبه ، بقهر النفس والتغلب عليها . يقال : عف عن الشيء إذا كف عنه ، والحسبان بمعنى الظن .

أي يظنهم الجاهل بحالهم ، أو الذي لا فُرَاسَةَ عنده ، يظنهم أغنياء من أجل تجميلهم وتعففهم عن السؤال ، أما صاحب الفراسة الصادقة ، والبصيرة النافذة ، فإنه يرحمهم ويعطف عليهم لأنه يعرف ما لا يعرفه غيره .

و مِنْ . هي قوله : مِنَ التَّعَفُّفِ . للتعليل ، أو لابتداء الغاية لأن التعفف مبدأ هذا الحسبان .

أما الصفة الخامسة من صفاتهم فهي قوله تعالى : تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ . والسيما والسيما : العلامة التي يعرف بها الشيء ، وأصلها من الوسم بمعنى العلامة .

والمعنى : تعرف فقرهم وحاجتهم - أيها الرسول الكريم أو أيها المؤمن العاقل - بما ترى في هيئتهم من آثار تشهد بقلة ذات يدهم .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : قال مجاهد : سبَّاهُمْ . التسخع والتواضع أى تعرقهم بتخشعهم وتواضعهم - وقال السدى - : تعرفهم بسيماهم - أى بآثر الجهد من الفقر والحاجة . وقال الضحاك : أى بصفرة ألوانهم وورثاة ثيابهم ... ثم قال - رحمه الله - : وعندى أن كل ذلك فيه نظر والمراد شئ آخر هو أن لعباد الله المخلصين هيبة ووقعا فى قلوب الخلق، وكل من رآهم تأثر منهم وتواضع لهم ، وذلك له إدراكات روحية ، لا علامات جسمانية . ألا ترى أن الأسد إذا مر هابته سائر السباع بطباعها لا بالتجربة ، لأن الظاهر أن تلك التجربة ما وقعت، والبازى إذا طار تهرب منه الطيور الضعيفة ، وكل ذلك إدراكات روحانية لا جسمانية فكذا هنا ... » (٥٧).

وقد ذكر - سبحانه - فى الجملة السابقة أن الجاهل بحالهم يظنهم أغنياء من أجل تعففهم عن السؤال ، وذكر هنا أنهم يعرفون بسيماهم ، وذلك للإشارة بأن أنظار الناس تختلف باختلاف فرائسهم ونفاذ بصيرتهم . فأصحاب الأنظار التى تأخذ الأمور بمظاهرها يظنونهم أغنياء ، أما أصحاب البصيرة المستقيمة والحنن المرفه ، والفراسة الصائبة، فإنهم يدركون ما عليه أولئك القوم من احتياج بسبب ما منحهم الله من فكر صائب ونظر نافذ، فى الحديث الشريف « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » (٥٨).

أما الصفة السادسة من صفاتهم فهى قوله تعالى : لا يسألون الناس إلحافاً . والإلحاف - كما يقول صاحب الكشف - : هو الإلحاح بأى يفارق - السائل المسئول - إلا بشئ يعطاه . من قولهم : لحفنى من فضل لحافه أى أعطانى من فضل ما عنده . ومعناه : أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحفوا . وقيل هو نفى للسؤال والإلحاف » (٥٩).

والذى عليه المحققون من العلماء أن النفى منصب على السؤال وعلى الإلحاف أى أنهم لا يسألون أصلاً تعففاً منهم ، لأنهم لو كانوا يسألون ما ظنهم الجاهل أغنياء من التعفف ، ولو كانوا يسألون ما كانوا متعففين ، ولو كان يسألون ما احتاج صاحب البصيرة النافذة إلى معرفة حالهم عن طريق التفرس فى سماتهم، لأن سؤالهم كان يفتيه عن ذلك.

وإنما جاء النفى بهذه الطريقة التى يوهم ظاهرها أن النفى متجه إلى الإلحاف وحده للموازنة بينهم وبين غيرهم، فإن غيرهم إذا كان يسأل الناس إلحافاً فهم لا يسألون مطلقاً لا بإلحاف ولا بدونه، والنفى بهذه الطريقة فيه تمييز للملحقين وثاء على المتعففين؛ ولذا قال بعضهم : وإذا علم أنهم لا يسألون ألينة فقد علم أنهم لا يسألون الناس إلحافاً والمراد التنبيه على سوء طريقة من يسأل الناس إلحافاً، ومثاله إذا حضر عندك رجلان أحدهما عاقل وقور قليل الكلام ، والآخر طياش مهذار سفيه، فإذا أردت أن تمدح أحدهما وتعرض بدم الآخر قلت : فلان رجل عاقل وقور لا يخوض فى الترهات ولا يشرع فى السفاهات ، ولم يكن غرضك من قولك لا يخوض فى الترهات وصفه بذلك لأن ما تقدم من الأوصاف الحسنة يفتنى عن ذلك، بل غرضك التنبيه على مذمة الثانى . فالأمر هنا كذلك لأن قوله : لا يسألون الناس إلحافاً . بعد قوله : يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ . الفرض منه بيان مباينة أحد الجنسين عن الآخر فى استيجاب المدح والتعظيم » (٦٠).

هذا وقد وردت أحاديث متعددة تمدح المتعفين عن السؤال ، وتذم الملحقين فيه ، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ليس المسكين الذى تردده اللقمة واللقمتان ولا التمرة والتمرتان إنما المسكين الذى يتعفف . اقرأوا إن شئتم : لا يسألون الناس إلحافاً . (٦١).

وروى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم ، (٦٢).

روى مسلم - أيضاً - فى صحيحه عن عوف بن مالك قال : كنا تسعة أو ثمانية أو سبعة عند رسول الله فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ فقلنا : علام نبايعك ؟ قال : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً . والصلوات الخمس . . . وتطييعوا ولا تسألوا الناس . فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحداً يناوله إياه ، (٦٣).

والخلاصة أن السؤال إنما يجوز عند الضرورة ، وأنه لا يصح لمؤمن أن يسأل الناس وعنده ما يكفيه ، لأن السؤال ذل يربا بنفسه عنه كل من يحافظ على مروته وكرامته وشرفه .

وقوله : وما تَفَقُّرُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ . تحريض للمؤمنين على البذل والسخاء وتربية لنفوسهم على الشعور بمراقبة الله - تعالى - وعلى محبة فعل الخير ، أى : وما تَفَقُّرُوا مِنْ خَيْرٍ سواء أكان المنفق قليلاً أم كثيراً سراً أم علناً فإن الله يعلمه وسيجازيكم عليه بأجزل الثواب ، وأعظم العطاء .

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن النفقة والمنفقين بقوله :

٢٧٤ - الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ . وقوله : الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً . استئناف المقصود منه مدح أولئك الذين يعممون صدقاتهم فى كل الأزمان وفى كل الأحوال فهم يتصدقون على المحتاجين فى الليل وفى النهار ، وفى الغدو وفى الأصال ، فى السر وفى العلن وفى كل وقت وفى كل حال ، لأنهم لقوة إيمانهم . وصفاء نفوسهم يحرصون كل الحرص على كل ما يرضى الله - تعالى - .

وقد بين الله - تعالى - فى ثلاث جمل حُسن عاقبتهم ، وعظيم ثوابهم ، فقال فى الجملة الأولى : فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ الْجَزِيلُ عِنْدَ خَالِقِهِمْ وَمُرِيْبِهِمْ وَرَازِقِهِمْ .

والجملة الكريمة خبر لقوله : الَّذِينَ يَنْفَقُونَ . . . . ودخلت الفاء فى الخبر لأن الموصول فى معنى الشرط فتدخل الفاء فى خبره جوازاً ، والدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها أى أن استحقاق الأجر متسبب عن الإنفاق فى سبيل الله .

وقال فى الجملة الثانية : وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ . أى : لا خوف عليهم من أى عذاب لأنهم فى مأمن من عذاب الله بسبب ما قدموا من عمل صالح .



وقال في الجملة الثالثة : ولا هم يحزنون . أى لا يصيبهم ما يؤدى بهم إلى الحزن والهم والغم : لأنهم دائماً فى اطمئنان يدفع عنهم الهموم والأحزان. وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها أن على بن أبى طالب كان يملك أربعة دراهم فتصدق ب درهم ليلاً، وب درهم نهاراً، وب درهم سرّاً ، وب درهم علانية فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - ما حملك على ذلك ؟ فقال : أريد أن أكون أهلاً لما وعدنى ربى . فقال - صلى الله عليه وسلم - : لك ذلك فأنزل الله هذه الآية « (٦١) ».

والحق أن هذه الرواية وغيرها لا تمنع عمومها، فهى تنطبق على كل من بذل ماله فى سبيل الله فى عموم الأوقات والأحوال.

أما بعد : فهذه أربع عشرة آية بدأت من قوله تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ ... . وانتهت بقوله تعالى :

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

والذى يقرأ هذه الآيات الكريمة بتدبر وتعقل يراها قد حضت الناس على الإنفاق فى سبيل الله بأبلغ الأساليب ، وأحكم التوجيهات ، وأفضل الوسائل، كما يراها قد بينت أحكام الصدقة وآدابها ، والأفات التى تذهب بخيرها، وضربت الأمثال لذلك، كما يراها قد بينت أنواعها ، وطريقة أدائها، وأولى الناس بها. ورسمت صورة كريمة للفقراء المتعففين ، وكما بدأت الآيات حديثها بالثناء الجميل على المنفقين فقد ختمته أيضاً بالثناء عليهم وبالعاقبة الحسنى التى أعدها الله لهم.

ولو أن المسلمين أخذوا بتوجيهات هذه الآيات لعمتهم السعادة فى دنياهم، ولنالوا رضا الله ومثوبته فى آخرهم.

وبعد هذه الصورة المشرقة التى ساقها القرآن عن النفقة والمنفقين ، أتبعها بصورة مضادة لها وهى صورة الربا والمرايين . ومن مظاهر التضاد والتباين بين الصورتين أن الصدقة بذل للمال فى وجوه الخير بدون عوض ينتظره المتصدق ، أما الربا فهو إخراج المال فى وجوه الاستغلال لحاجة المحتاج مع ضمان استرداده ومعه زيادة محرمة. وأن الصدقة نتیجتها الرخاء والطهارة للمال، وشيوع روح المحبة والتعاون والتكافل والاطمئنان بين أفراد المجتمع، أما الربا فنتیجته محق البركة من المال ، وشيوع روح التقاطع والتحاسد والتباغض والخوف بين الناس. ولقد نقر القرآن الناس من تعاطى الربا تنفيراً شديداً وحذرهم من سوء عاقبته تحذيراً مؤكداً فقال - تعالى - :

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأَيَّاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَنْظِلُمُونَ وَلَا تَنْظَلُمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُوعُسُفٍ فَنظَرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

٢٧٥ - الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ .. استئناف قصد به

الترهيب من تعاطي الربا، بعد الترغيب في بذل الصدقة لمستحقها.

ولم يعطف على ما قبله لما بينهما من تضاد، لأن الصدقة - كما يقول الفخر الرازي - عبارة عن تنقيص المال - في الظاهر - بسبب أمر الله في ذلك، والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهي الله عنه فكانا متضادين .

والأكل في الحقيقة : ابتلاع الطعام، ثم أطلق على الانتفاع بالشئ وأخذ بحرص وهو المراد هنا . وعبر عن التعامل بالربا بالأكل ، لأن معظم مكاسب الناس تتفق في الأكل.

والربا في اللغة : الزيادة المطلقة، يقال : ربا الشيء يريو إذا زاد ونما، ومنه قوله تعالى : وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . ( الحج : ٥).

أى : زادت .

وهو فى الشرع : - كما قال الألوسى - عبارة عن فضل مال لا يقابله عوض فى معاوضة مال بمال .

وقوله : **يَتَخَيَّلُ** . من التخيل بمعنى الخبط وهو الضرب على غير استواء واتساق . يقال : خبطته أخبطه خبطاً أى ضربته ضرباً متوالياً على أنحاء مختلفة . ويقال : تخبط البعير الأرض إذا ضربها بقوائمه . ويقال للذى يتصرف فى أمر ولا يهتدى فيه يخبط خبط عشواء . قال زهير بن أبى سلمى فى معلقته :

رأيت المتأيا خبط عشواء من تصب  
تمته ، ومن تخطئ يعمر فيهرم

والمس : الخيل والجنون . يقال : مس الرجل فهو ممسوس إذا أصابه الجنون .

وأصل المس اللمس باليد ، ثم استعير للجنون ، لأن الشيطان يمس الإنسان فيجنيه .

**والمعنى :** الذين يأكلون الربا . أى يتعاملون به أخذاً وإعطاء : لا يَقْرَؤُونَ . يوم القيامة للقاء الله إلا كقيام المتخبط المصروع المجنون حال صرعه وجنونه ، وتخبط الشيطان له ، وذلك لأنه يقوم قياماً منكراً مفزعاً بسبب أخذه الربا الذى حرم الله أخذه .

فالآية الكريمة تصور المرابى بتلك الصورة المرعبة المفزعة ، التى تحمل كل عاقل على الابتعاد عن كل معاملة يشم منها رائحة الربا .

وهنا نحب أن نوضح أمرين : أما الأمر الأول فهو أن جمهور المفسرين يرون أن هذا القيام المفزع للمرابين يكون يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم كما أشرنا إلى ذلك ..

قال الألوسى : وقيام المرابى يوم القيامة كذلك مما نطقت به الآثار ، فقد أخرج الطبرانى عن عوف بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إياك والذنوب التى لا تغفر . الغلول فمن غل شيئاً أتى به يوم القيامة . وأكل الربا فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنوناً يتخبط » <sup>(١٥)</sup> . ثم قرأ الآية . وهو معاً لا يحيله العقل ولا يمنعه ، ولعل الله - تعالى - جعل ذلك علامة له يعرف بها يوم الجمع الأعظم عقوبة له ... ثم قال : وقال ابن عطية : المراد تشبيه المرابى فى حرصه وتحركه فى اكتسابه فى الدنيا بالتخبط المصروع كما يقول لمن يسرع بحركات مختلفة : قد جن . ولا يخفى أنه مصادمة لما عليه سلف الأمة ، ولما روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غير داع سوى الاستبعاد الذى لا يعتبر فى مثل هذه المقامات <sup>(١٦)</sup> .

والذى نراه أنه لا مانع من أن تكون الآية تصور حال المرابين ، فى الدنيا والآخرة ، فهم فى الدنيا فى قلق مستمر ، وانزعاج دائم ، واضطراب ظاهر يسبب جشعهم وشرهم فى جمع المال ، ووساوسهم التى لا تكاد تفارقهم وهم يفكرون فى مصير أموالهم .. ومن يتبتح أحوال بعض المتعاملين بالربا يراهم أشبه بالمجانين فى أقوالهم وحركاتهم ، أما فى الآخرة فقد توعدهم الله - تعالى - بالعقاب الشديد ، والعذاب الأليم .

وقد رجَّح الإمام الرازى أن الآية الكريمة تصور حال المرابى فى الدنيا والآخرة فقال ما ملخصه : « إن الشيطان يدعو إلى طلب اللذات والشهوات والاشتغال بغير الله ، ومن كان كذلك فى أمر الدنيا متخبطاً .. وأكل

الربا بلا شك أنه يكون مفرطاً في حب الدنيا متهاكاً فيها، فإذا مات على ذلك الحب صار ذلك حجاباً بينه وبين الله - تعالى - فالخبط الذي كان حاصلًا له في الدنيا بسبب حب المال أورثه الخبط في الآخرة وأوقعه في ذلك الحجاب، وهذا التأويل أقرب عندي من غيره (٢٧).

وأما الأمر الثاني فهو أن جمهور المفسرين يرون أيضاً أن التشبيه في الآية الكريمة على الحقيقة، بمعنى أن الآية تشبه حال المرابين بحال المجنون الذي مسه الشيطان لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالصرع والمجنون.

ولكن الزمخشري ومن تابعه ينكرون ذلك، ويرون أن كون الصرع أو الجنون من الشيطان باطل؛ لأنه لا يقدر على ذلك، فقد قال الزمخشري في تفسيره: وتخطب الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخطب الإنسان فيصرع. والمس الجنون. ورجل ممسوس - أي مجنون -. وهذا أيضاً من زعماتهم، وأن الجنى يمسّه فيختلط عليه، وكذلك جن الرجل معناه ضربته الجن، ورأيتهم لهم في الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات (٢٨).

ومن العلماء الذين تصدوا للرد على الزمخشري ومن تابعه الإمام القرطبي فقد قال: «وهي هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن وزعم أنه من فعل الطبايع، وأن الشيطان لا يسلك في الإنسان ولا يكون منه مس. وقد روى النسائي عن أبي اليسر قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من التردى والغرق والهدم والحريق، وأعوذ بك أن يتخطبني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً وأعوذ بك أن أموت لديفا» (٢٩).

وقال الشيخ أحمد بن المنير: ومعنى قول الزمخشري أن تخطب الشيطان من زعمات العرب، أي من كذبتهم وزخارفهم التي لا حقيقة لها، كما يقال في الغول والعنقاء ونحو ذلك. وهذا القول من تخطب الشيطان بالقدرة - أي المعتزلة - في زعماتهم المردودة بقواطع الشرع، ثم قال: واعتقاد السلف وأهل السنة أن هذه الأمور على حقائقها واقعة كما أخبر الشرع عنها، والقدرة ينكرون كثيراً ما يزعمونه مخالفاً لقواعدهم، من ذلك السحر، وخطبة الشيطان، ومعظم أحوال الجن. وإن عترفوا بشيء من ذلك فعلى غير الوجه الذي يعترف به أهل السنة وينبئ عنه ظاهر الشرع في خبط طويل لهم (٣٠).

والذي نراه أن ما عليه جمهور العلماء من أن التشبيه على الحقيقة هو الحق، لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالجنون، ولأنه لا يسوغ لنا أن نؤول بغير ظاهره بسبب اتجاه لا دليل عليه.

وقوله: «مِنَ الْمَسِّ». متعلق بيقومون، أي لا يقومون من المس الذي حل بهم بسبب أكلهم الربا إلا كما يقوم المصروع من جنونه.

وقوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا». بيان لزعهم الباطل الذي سوغ لهم التعامل بالربا، ورد عليه بما يهدمه.

واسم الإشارة ذلك . يعود إلى الأكل أو إلى العقاب الذى نزل بهم . والمعنى : ذلك الأكل استحلوه عن طريق الربا ، أو ذلك العذاب الذى حل بهم والذى من مظاهره قيامهم قيام المتخبط ، سببه قولهم إن البيع الذى أحله الله يشابه الربا الذى تتعامل به فى أن كلا منهما معاوضة .

**قال صاحب الكشف :** فإن قلت : هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأن الكلام فى الربا لا فى البيع . فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه ، وكانت شبهتهم أنهم قالوا : لو اشترى الرجل الشيء الذى لا يساوى إلا درهما بدرهمين جاز ، فكذلك إذا باع درهما بدرهمين ؟ قلت : جىء به على طريق المبالغة ، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم فى حل الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً فى الحل حتى شبهوا به البيع « (٧١) » .

وقوله : **وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا** . جملة مستأنفة ، وهى رد من الله - تعالى - عليهم ، وإنكار لتسويتهم الربا بالبيع .

**قال الألوسى :** وحاصل هذا الرد من الله - تعالى - عليهم : أن ما ذكرتم من أن الربا مثل البيع - قياس فاسد الوضع لأنه معارض للنص فهو من عمل الشيطان ، على أن بين البابين فرقاً ، وهو أن باع ثوباً يساوى درهما بدرهمين فقد جعل الثوب مقابلاً لدرهمين فلا شيء منهما إلا وهو مقابلة شيء من الثوب . وأما إذا باع درهماً بدرهمين فقد أخذ الدرهم الزائد بدون عوض ، ولا يمكن جعل الإمهال عوضاً إذ الإمهال ليس بمال فى مقابلة المال « (٧٢) » .

وقوله : **فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ** .

تقرع على الوعيد السابق فى قوله : **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا** . إلخ .

والمجئ بمعنى العلم والبلاغ . والموعظة : ما يعظ الله - تعالى - به عباده عن طريق زجرهم وتخويفهم وتذكيرهم بسوء عاقبة المخالفين لأوامره .

أى : فمن بلغه نهى الله - تعالى - عن الربا ، فامتثل وأطاع وابتعد عما نهاه الله عنه ، : **فَلَهُ مَا سَلَفَ** . أى : فلله ما تقدم قبضه من مال الربا قبل التحريم وليس له ما تقدم الاتفاق عليه ولم يقبضه . لأن الله تعالى يقول بعد ذلك : **وَأِنْ تَبَيَّنَ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ** .

وقوله : **وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ** . أى أمر هذا المرابى الذى تعامل بالربا قبل التحريم واجتنبه بعده ، أمره مفوض إلى الله - تعالى - فهو الذى يعامله بما يقتضيه فضله وعفوه وكرمه .

قال ابن كثير : وقوله : **فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ** ... إلخ من بلغه نهى الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة لقوله تعالى : **غَفَا اللَّهُ عَنْ سَلَفٍ** . (المائدة : ٩٥) . وكما قال النبى - صلى الله عليه وسلم - يوم فتح مكة : « وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين وأول ربا أضع ربا عمى العباس » (٧٣) .

ولم يأمرهم برد الزيادات الماخوذة في حال الجاهلية بل عفا عما سلف كما قال تعالى : **قُلْ مَا سَفَّ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ .** أى فله ما كان قد أكل من الريا قبل التحريم (٧٤).

و من . فى قوله : **فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ** شرطية وهو الظاهر . ويحتمل أن تكون موصولة . وعلى التقديرين فهى فى محل رفع بالابتداء . وقوله : **قُلْ مَا سَفَّ .** هو الجزاء أو الخبر . و **مَوْعِظَةٌ** . فاعل جاء . وسقطت التاء من الفعل للفصل بينه وبين الفاعل ولكون الموعظة ها بمعنى الوعظ فهى فى معنى المذكر .

وفى قوله : **مَنْ رَبَّهُ .** تضخيم لشأن الموعظة ، وإغراء بالامتثال والطاعة ، لأنها صادرة من الله - تعالى - المربى لعباده .

وفى هذه الجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر السماحة فيما شرعه الله لعباده ، لأنه - سبحانه - لم يعاقب المرابين على ما مضى من أمرهم قبل وجود الأمر والنهى ، ولم يجعل تشريعهم بأثر رجعى بل جعله للمستقبل ، إذ الإسلام يجب ما قبله . فما أكله المرابى قبل تحريم الريا فلا عقاب عليه فهو ملك له ، إلا أنه ليس له أن يتعامل به بعد التحريم . وإذا تعامل به فلن تقبل توبته حتى يتخلص من هذا المال الناتج عنه الريا .

ولقد توعد الله - تعالى - من يعود إلى التعامل بالريا بعد أن حرمه الله - تعالى - فقال : **وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .**

أى ومن عاد إلى التعامل بالريا بعد أن نهى الله عنه فأولئك العائدون هم أصحاب النار المলামون لها ، والمالكون فيها بسبب تعديهم لما نهى الله عنه .

وفى هذه الجملة الكريمة تأكيد للعقاب النازل بأولئك العائدين بوجوه من المؤكدات منها : التعبير فيها بأولئك التى تدل على البعيد فهم بعيدون عن رحمة الله . والتعبير بالجملة الاسمية التى تفيد الدوام والاستمرار والتعبير بكلمة أصحاب الدالة على الملازمة والمصاحبة ، وكلمة **خَالِدُونَ** . التى تدل على طول المكث .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المرابين ، وحسن عاقبة المتصدقين فقال :

٢٧٦ - **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّيَاءَ وَيُبْرِئِ الصَّدَقَاتِ . . .**

والمحق : نقصان والإزالة للشئ حالا بعد حال . ومنه محاق القمر ، أى انتقاصه فى الرؤية شيئاً فشيئاً حتى لا يرى ، فكانه زال وذهب ولم يبق منه شئ .

أى : أن المال الذى يدخله الريا يحرقه الله ، ويذهب بركته ، وأما المال الذى يبذل منه صاحبه فى سبيل الله فإنه - سبحانه - يباركه وينميه ويزيده لصاحبه .

قال الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : « أعلم أنه لما كان الداعى إلى التعامل بالريا تحصيل المزيد من الخيرات ، والصارف عن الصدقات الاحتراز عن نقصان المال ، لما كان الأمر كذلك بين -

سبحانه - أن الربا وإن كان زيادة في المال إلا أنه نقصان في الحقيقة ، وأن الصدقة وإن كانت نقصاناً في الصورة إلا أنها زيادة في المعنى . واللائق بالماعل ألا يلتفت إلى ما يقضى به الطبع والحس والدواعي والصوارف بل يعمل على ما أمر به الشرع.

ثم قال: واعلم أن محق الربا وإرياء الصدقات يحتمل أن يكون في الدنيا وأن يكون في الآخرة. أما محق الربا في الدنيا فمن وجوه إحداها: أن الغالب في المرابي وإن كثر ماله أن تثول عاقبته إلى الفقر، وتزول البركة عنه ، ففى الحديث : « الربا وإن كثر فإلى قل » . وثانيها : إن لم ينقص ماله فإن عاقبته الذم والنقص سقوط العدالة وزوال الأمانة.. وثالثها : أن الفقراء يملكونه ويغضونه بسبب أخذه لأموالهم . ورابعها : أن الأطماع تتوجه إليه من كل ظالم وطماع بسبب اشتهاره أنه قد جمع ماله من الربا ويقولون : إن ذلك المال ليس له في الحقيقة فلا يترك في يده.

وأما أن الربا مسبب للمحق في الآخرة فلوجوه منها أن الله - تعالى - لا يقبل منه صدقة ولا جهاد ولا صلة رحم - كما قال ابن عباس -، ومنها أن مال الدنيا لا يبقى عند الموت بل الباقي هو العقاب وذلك هو الخسار الأكبر.

وأما إرياء الصدقات في الدنيا فمن وجوه منها : أن من كان لله كان الله له، ومن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه وزاده من فضله، ومنها أن يزداد كل يوم في ذكره الجميل وميل القلوب إليه، ومنها أن الفقراء يدعون له بالدعوات الصالحة وتقطع عنه الأطماع..

وأما إرياءها في الآخرة فقد روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إن الله تعالى يقبل الصدقات ويأخذها يمينه فيريها كما يرى أحدهم مهره ، أو فلوّه حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد » (٧٥).

ففى هذه الجملة الكريمة بشارة عظيمة للمتصدقين ، وتهديد شديد للمرابين . ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله:

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ . و « كفار » من كفر بمعنى ستر وأخفى وجحد فهي صيغة مبالغة لكافر.

و أثيم . فعيل بمعنى فاعل فهي صيغة مبالغة من آثم ، والأثيم هو المكثّر من ارتكاب الآثام المبطن عن فعل الخيرات.

أي : أن الله - تعالى - لا يرضى عن كل من كان شأنه الستر لنعمه والجهود بها، والتمادى في ارتكاب المنكرات، والابتعاد عن فعل الخيرات.

وقد جمع - سبحانه - بين الوصفين للإشارة إلى أن إيمان المرابين ناقص إن لم يستحلوه وهم كفار إن استحلوه . وهم في الحالتين آثمون معاقبون بعيدون عن محبة الله ورضاء. وسيعاقب - سبحانه - الناقصين في إيمانهم والكافرين به بما يستحقون من عقوبات.

فالجملة الكريمة تهديد شديد لمن استحلوا الربا، أو فعلوه مع عدم استحلالهم له.

ويعد هذا التهديد الشديد للمتعاملين بالربا ، ساق - سبحانه - آية فيها أحسن البشارات للمؤمنين الصادقين فقال تعالى :

٢٧٧ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا . أَيْ إِيْمَانًا كَامِلًا بِكُلِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ . أَيْ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَصْلَحُ بِهَا نَفْسُهُمْ وَالَّتِي مِنْ جَمَلَتِهَا الْإِحْسَانُ إِلَى الْمُحْتَاجِينَ ، وَالْإِبْتِعَادُ عَنِ الرِّبَا وَالْمَرَابِينَ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ . بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا ، بِأَنْ يُؤَدِّوَهَا فِي أَوْقَاتِهَا بِخُشُوعٍ وَاطْمِئْنَانٍ ، وَأَتَوْا الزَّكَاةَ . أَيْ أَعْطَوْهَا لِمُسْتَحِقِّيهَا بِإِخْلَاصٍ وَطِيبِ نَفْسٍ .

هؤلاء الذين اتصفوا بكل هذه الصفات الفاضلة . لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . أَيْ لَهُمْ ثَوَابُهُم الْكَامِلُ عِنْد خَالِقِهِمْ وَرَازِقِهِمْ وَمَرْيَمِهِمْ .

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ . يَوْمَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ . وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . لِأَيِّ سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، لِأَنْ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ أَمَانٍ وَاطْمِئْنَانٍ ، وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ - تَعَالَى - يَجْعَلُهُمْ فِي فَرَحٍ دَائِمٍ ، وَفِي سُرُورٍ مُقِيمٍ .

ثم ينتقل القرآن الكريم إلى أسلوب الخطاب المباشر للمؤمنين فيأمرهم بتقوى الله وبنهاهم عن التعامل بالربا فيقول :

٢٧٨ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ . . . . أَيْ اخْشَوْهُ وَصُونُوا أَنْفُسَكُمْ عَنِ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ الَّتِي تَفْضِي بِكُمْ إِلَى عِقَابِهِ .

وقوله : وَذَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ، أَيْ : اتركوا ما بقى في ذمم الذين عاملتموهم بالربا ولا تأخذوا منهم إلا رهوس أموالكم فحسب، فهذا مقابل لقوله تعالى قبل ذلك قُلْهُ مَا سَلَفَ أَيْ مَا سَلَفَ قَبْضُهُ مِنَ الرِّبَا قَبْلَ نَزُولِ الْآيَةِ فَهُوَ لَكُمْ ، وَمَا لَمْ تَقْبِضُوهُ فَانْتُم مَأْمُورُونَ بِتَرْكِهِ .

وقوله : مِنَ الرِّبَا . متعلق بمحذوف على أنه حال من فاعل : بقي . أَيْ اتركوا الذي بقى حال كونه بعض الربا ، وَمِنْ لِّلْمَعْصِيَةِ . أَوْ مَتَعْلَقٌ بِبَقْيِهِ .

و وَذَرُّوا . فعل أمر - بوزن علوا - مبنى على حذف النون والواو فاعل ، وأصله : وَذَرُّوا . فحذفت فاؤه ، والماضى منه « وذر » .

وقوله : إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . حض لهم على ترك الربا ، أَيْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقَّ الْإِيْمَانِ فَامْتَثِلُوا أَمْرَ اللَّهِ وَذَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا مِمَّا زَادَ عَلَى رِهْوسِ أَمْوَالِكُمْ .

قال ابن كثير : نزل هذا السياق في بنى عمرو بن عمير بن ثقيف ، وبنى المغيرة من بنى مخزوم، كان بينهم ربا في الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه ، طلبت ثقيف أن تأخذهم منهم فتشاوروا . وقالت بنو المغيرة : لا نؤدى في الإسلام ، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزلت



هذه الآية ، فكتب بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليه . فقالوا : نتوب إلى الله ونذر ما بقى من الربا فتركوه كله . وهذا تهديد شديد ووعد أكيد لكل من استمر على تعاظم الربا بعد الإنذار « (٧٦) » .

ثم هدّد الله - تعالى - كل من يتعامل بالربا تهديداً عنيفاً فقال :

٢٧٩ - فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

أى : فإن لم تتركوا الربا وأخذتم منه شيئاً بعد نهيككم عن ذلك ، فكونوا على علم ويقين بحرب كاتنة من الله - تعالى - ورسوله ، ومن حاربه الله ورسوله لا يفلح أبداً .

وقوله : فَأْذَنُوا . من أذن بالشئ يأذن إذا علمه . وقرئ : فَأْذَنُوا . من أذنه الأمر وأذنه به : أعلمه إياه : أى أعلموا من لم ينته عن الربا بحرب من الله ورسوله .

وتتكرر « حرب » للتهويل والتعظيم ، أى فكونوا على علم ويقين من أن حرباً عظيمة ستزل عليكم من الله ورسوله .

قال بعضهم : والمراد المبالغة فى التهديد دون نفس الحرب . وقال آخرون : المراد نفس الحرب بمعنى أن الإصرار على عمل الربا إن كان من شخص وقدر عليه الإمام قبض عليه وأجرى فيه حكم الله من الحبس والتعزير إلى أن تظهر منه التوبة . وإن وقع ممن يكون له عسكر وشوكة ، حاربه الإمام كما يحارب الفئة الباغية ، وكما حارب أبو بكر الصديق مانعى الزكاة .

وقال ابن عباس : من تعامل بالربا يستتاب فإن تاب فيها وإلا ضرب عنقه « (٧٧) » .

ثم بين - سبحانه - ما يجب عليهم عند توبتهم عن التعامل بالربا فقال :

وَأِنْ تَبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ .

أى : وإن تبتتم عن التعامل بالربا الذى يوجب الحرب عليكم من الله ورسوله فلكم رؤوس أموالكم أى أصولها بأن تأخذوها ولا تأخذوا سواها ، وبذلك لا تكونون ظالمين لغيرائكم ، ولا يكونون هم ظالمين لكم ، لأن من خذ رأس ماله بدون زيادة كان مقسطاً ومتفضلاً ، ومن دفع ما عليه بدون إنقاص منه كان صادقاً فى معاملته .

ثم أمر الله - تعالى - الدائنين أن يصبروا على المدينين الذين لا يجدون ما يؤدونه من ديونهم فقال تعالى :

٢٨٠ - وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنُظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ .

العسرة : اسم من الإعسار وهو تعذر الموجود من المال . يقال : أعسر الرجل إذا صار إلى حالة العسرة وهى الحالة التى يتعسر فيها وجود المال .

النظرة : اسم من الإنظار بمعنى الإمهال . يقال : نظره وانتظره وتظّره ، تأنى عليه وأمهله هى الطلب .

والميسرة : مقفلة من اليسر الذي هو ضد الإعسار . يقال : أيسر الرجل فهو موسر إذا اغتنى وكثر ماله وحسنت حاله . والمعنى : وإن وجد مدين معسر فامهلوه فى أداء دينه إلى الوقت الذى يتمكن فيه من سداد ما عليه من ديون ، ولا تكونوا كأهل الجاهلية الذين كان الواحد منهم إذا كان له دين على شخص وحل موعد الدين طالبه بشدة وقال له : إما أن تقضى وإما أن تربى ، أى تدفع زيادة على أصل الدين .

و « كان » هنا الظاهر أنها تامة بمعنى وجد أو حدث ، فتكتفى بفاعلها كسائر الأفعال . وقيل يجوز أن تكون ناقصة واسمها ضمير مستكن فيها يعود إلى المدين إن لم يذكر ، وقوله « فنظرة » الفاء جواب الشرط . ونظرة خبر لمبتدأ محذوف أى فالأمر أو فالواجب أو مبتدأ محذوف الخبر أى فعليكم نظرة .

ثم حبيب - سبحانه - إلى عباده التصديق بكل أو ببعض ما لهم من ديون على المدينين المعسرين فقال تعالى : وَأَنْ تَصَدُّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

أى : فإن فعلتم هذا يكون أكثر ثواباً لكم من الإنتظار .

وجواب الشرط فى قوله : إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . محذوف . أى إن كنتم تعلمون أن هذا التصديق خير لكم فلا تتباطؤوا فى فعله ، بل سارعوا إلى تنفيذه فإن التصديق بالدين على المعسر ثوابه جليل عند الله - تعالى - .

وقد أورد بعض المفسرين جملة من الأحاديث النبوية التى تحض على إمهال المعسر ، والتجاوز عما عليه من ديون .

ومن ذلك ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى قتادة أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال : « من نَفَسَ عن غريمه أو محا عنه كان فى ظل العرش يوم القيامة » (٧٨) .

وروى الطبرانى عن أسعد بن زُرارة أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال : « من سرّه أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه » (٧٩) .

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربه فليفرج عن معسر » (٨٠) .

ثم ساق - سبحانه - فى ختام حديثه عن الرىا آية كريمة ذكر الناس فيها بزوال الدنيا وفناء ما فيها من أموال ، وبالإستعداد للأخرة وما فيها من حساب فقال .. تعالى - : وَأَنْقَرُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

أى : واحذروا - أيها المؤمنون - يوماً عظيماً فى أهواله وشدائده ، وهو يوم القيامة الذى تعودون فيه إلى خالقكم فيحاسبكم على أعمالكم ثم يجازى - سبحانه - كل نفس بما كسبت من خير أو شر بمقتضى عدله وفضله ، ولا يظلم ربك أحداً .

فالأية الكريمة تعقيب حكيم يتناسب كل التناسب مع جو المعاملات والأخذ والعطاء، حتى يتعد الناس عن كل معاملة لم يأذن بها الله - تعالى - .

**قال الألبوسي :** أخرج غير واحد عن ابن عباس أن هذه الآية هي آخر ما نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من القرآن ، واختلف في مدة بقائه بعدها . فقيل : تسع ليال . وقيل : سبعة أيام . وقيل : واحداً وعشرين يوماً . وروى أنه قال : اجعلوها بين آيات الرِّيا وآية الدين ... ، <sup>(٨١)</sup> .

هذا ، والمتدبر في هذه الآيات التي وردت في موضوع الرِّيا، يراها قد نفّرت منه تنفيراً شديداً، وتوعدت متعاطيه بأشد العقوبات ، وشبهت الذين يأكلونه بتشبيهات تفرغ منها النفوس ، وتشتمل منها القلوب ، وحضت المؤمنين على أن يلتزموا في معاملاتهم ما شرعه الله لهم، وأن يتسامحوا مع المعسرين ويتصدقوا عليهم بما يستطيعون التصدق به .

وقد تكلم الفقهاء <sup>(٨٢)</sup> وبعض المفسرين عن الرِّيا وأقسامه وحكمة تحريمه كلاماً مستفيضاً، قال بعضهم: الرِّيا قسمان : رِّيا النسيئة ، ورِّيا الفضل .

فريّا النسيئة : هو الذي كان معروفاً بين العرب في الجاهلية ، وهو أنهم كانوا يدهون المال على أن يأخذه في موعد معين، فإذا حل الأجل طولب المدين برأس المال كاملاً، فإذا تعذر الأداء زادوا في الحق وفي الأجل .

ورِّيا الفضل : أن يباع درهم بدرهمين، أو دينار بدينارين ، أو رطل من العسل برطلين ، أو شعير كيلة بكيلتين .

وكان ابن عباس في أول الأمر لا يحرم إلا رِّيا النسيئة وكان يجيز رِّيا الفضل اعتماداً على ما روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال - : « إنما الرِّيا في النسيئة » <sup>(٨٣)</sup> ولكن لما تواتر عنده الخبر بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « الحنطة بالحنطة مثلاً بمثل يدا بيد » <sup>(٨٤)</sup> رجع عن قوله . لأن قوله - صلى الله عليه وسلم - « إنما الرِّيا في النسيئة » محمول على اختلاف الجنس فإن النسيئة تحرم وبيعاً والتفاضل كبيع الحنطة بالشعير . تحرم فيه النسيئة وبيعاً فيه التفاضل .

ولذلك وقع الاتفاق على تحريم الرِّيا في القسمين : أما رِّيا النسيئة فقد ثبت تحريمه بالقرآن كما في قوله تعالى : **وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَاَ .**

وأما رِّيا الفضل فقد ثبت تحريمه بالحديث الصحيح الذي رواه عبادة بن الصامت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر . والملاح بالملاح . مثلاً بمثل، سواء بسواء، يدا بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كانت يدا بيد » <sup>(٨٥)</sup> .

وقد اشتهرت رواية هذا الحديث حتى صارت مسلمة عند الجميع، وجمهور العلماء على أن الحرمة ليست مقصورة على هذه الأشياء المبينة، بل تتعداها إلى غيرها مما يتحد معها في العلة . وقد فسر بعضهم هذه العلة باتحاد الجنس والقدر ... ، <sup>(٨٦)</sup> .

ومن الحكم التي ذكرت في أسباب تحريم الربا : أنه يقتضى أخذ المال من الغير بدون عوض ، ويؤدى إلى امتناع أصحاب الأموال عن تحمل المشاق في الكسب والتجارة والصناعة ، وإلى استغلال حاجة المحتاج أسوأ استغلال ، وكل ذلك يفضى إلى إشاعة روح التباغض والتخاصم والتحاسد بين أفراد المجتمع - كما سبق أن أشرنا .

ومن الأحاديث الشريفة التي وردت في التحذير من تعاظم الربا ما رواه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « اجتنبوا السبع الموبقات - أى المهلكات - قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » (٨٧) .

وأخرج مسلم في صحيحه عن جابر عن عبيد الله قال : « لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه » (٨٨) .

وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين أن يسارعوا في التصديق على المحتاجين وأن يجتنبوا الربا والمرابين . وبين لهم أن أموالهم تزكو وتتمو بالإنفاق في وجوه الخير . وتمحق وتذهب بتعاظم الربا ، بعد أن وضع كل ذلك ساق لهم آية جامعة ، متى اتبعوا توجيهاتها استطاعوا أن يحفظوا أموالهم بأفضل طريق ، وأشرف وسيلة ، وأن يصونوها عن الهلاك والضياع عندما يعطى أحدهم أخاه شيئاً من المال على سبيل الدين أو القرض الحسن المنزه عن الربا ، استمع إلى القرآن وهو يتكلم عن أحكام الدين وعن أحكام بعض المعاملات التجارية الحاضرة فيقول :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضَلَّ أَحَدُهُمَا فَتَذَكَّرْ أَحَدُهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَفَسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ مُسَوِّفٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

قال ابن كثير : قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ . هذا إرشاد منه - تعالى - لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها ، وقد نبه على ذلك في آخر الآية حيث قال : ذَٰلِكُمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا . وروى البخارى عن ابن عباس أنه قال : أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله وأذن فيه ثم قرأ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ ... الآية .

وثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال : قدم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين والثلاث فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من أسلف فليسلف هي كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم » (٨٩) .

ومعنى تَدَايَنْتُمْ . تعاملتم بالدين وداين بعضكم بعضا . وحقيقة الدين - كما يقول القرطبي - « عبارة عن كل معاملة كان أحد الموضين فيها نقداً والآخر في الذمة نسيئة ، فإن العين عند العرب ما كان حاضرا ، والدين ما كان غائبا » (٩٠) .

والأجل في اللغة هو الوقت المضروب لانقضاء الأمد، وأجل الإنسان هو الوقت المحدد لانقضاء عمره . وأجل الدين هو الوقت المعين لأدائه في المستقبل . وأصله من التأخير ، يقال : أجل الشيء يأجل إذا تأخر والأجل نقيض العاجل.

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا عامل بعضكم بعضاً بالدين إلى وقت معين ، فاكثبوا هذا الدين، لأن في هذه الكتابة حفظاً له ، وضبطاً لمقداره ، ومنعاً للتنازع من أن يقع بينكم.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : إذا تداينتم إلى أجل مسمى ، أى حاجة إلى ذكر الدين؟ قلت: ذكر - لفظ الدين - ليرجع الضمير إليه في قوله : فاكثبوه. إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال : فاكثبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن ، ولأنه أبين لتتويع الدين إلى مؤجل وحال.

فإن قلت : ما فائدة قوله : مُسَمًّى . قلت : ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلوماً كالتوقيف بالسنة والأشهر والأيام . ولو قال : إلى الحصاد أو الدياس أو رجوع الحاج لم يجز لعدم التسمية « (١) ».

وجمهور العلماء على أن الأمر في قوله « فاكثبوه » للندب، ولأن الله - تعالى - قد قال بعد ذلك « فإن آمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أئتمن أمانته »، ولأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يلزم الدائنين بكتابة ديونهم. ولا المدينين بأن يكتبوها .

وقال الظاهرية : إن الأمر هنا للوجوب، ومن لم يفعل ذلك كان أثماً، لأن الأصل في الأمر أنه للوجوب ...

وقوله : وَلِيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ . بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وتعيين من يتولاها عقب الأمر بها على سبيل الإجمال.

أى : عليكم أيها المؤمنون - إذا تعاملتم بالدين إلى أجل معين أن تكتبوا هذا الدين، وليتول الكتابة بينكم شخص يجيدها وعنده فقهها وعلمها، بأن يكون على معرفة بشروط العقود وتوثيقها ، وما يكون من الشروط موافقاً لشريعة الإسلام وما يكون منها غير موافق.

وعلى هذا الكاتب أن يلتزم الحق مع الدائن والمدين في كتابته، لأن الله تعالى يقول : وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلْقُرْآنِ . (المائدة : ٨) . فالجملة الكريمة تحض المتعاملين بالدين أن يختاروا لكتابته شخصاً تتوافر فيه إجادة الكتابة والخبرة بشروط العقود وتوثيقها، كما تتوافر فيه الاستقامة وتحري الحق . ومفعول « يكتب » محذوف شدة بالفهامة ، أى وليكتب بينكم الكتابة كاتب بالعدل. والتقييد بالطرف بينكم للإيدان بأنه ينبغي للكاتب ألا يسمح لنفسه بأن ينفرد به أحد المتعاقدين لأن في هذا الانفراد تهمة يجب أن يربا بنفسه عنها .

والجار والمجرور هو : بِالْعَدْلِ . متعلق بمحذوف صفة لكاتب أى : وليكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين . أو متعلق بالفعل يكتب . أى : وليكتب بالحق.

ثم نهى الله - تعالى - من كان قادراً على الكتابة عن الامتناع عنها متى دعى إليها فقال : ولا يَأْب كاتبٌ أن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فليَكْتُبْ.

أى : ولا يمتنع كاتب من أن يكتب للمتدابين ديونهما بالطريقة التى علمه الله بأن يتحرى العدل والحق فى كتابته ، وأن يلتزم فيها ما تقتضيه أحكام الشريعة الإسلامية.

فالكاف ومجرورها فى قوله تعالى : كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ . نعت لمصدر محذوف والتقدير : فليكتب كتابه مثل ما علمه الله - تعالى : بمعنى أن يلتزم الحق والعدل فيها.

ويجوز أن تكون الكاف للتعليل فيكون المعنى : لا يمتنع عن الكتابة لأنه كما علمه الله إياها ويسرها له ونفعه بها ، فعليه أن ينفع غيره بها ، فهو كقوله تعالى : وَأَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ . (القصص : ٧٧) وفى الحديث الشريف « إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرك »<sup>(٩٢)</sup> وفى حديث : « من كتب علماً يعلمه الله الجاهم بلجام من نار يوم القيامة »<sup>(٩٣)</sup>.

وقوله : فليَكْتُبْ . تفريع على قوله : ولا يَأْب كاتبٌ . أى : فليكتب الكتابة التى علمه الله إياها فهو توكيد للأمر المستفاد من قوله : ولا يَأْب كاتبٌ . ويجوز أن يكون توكيداً للأمر الصريح فى قوله وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتبٌ بالعدل .

**قال القرطبي :** واختلف الناس فى وجوب الكتابة على الكاتب والشهادة على الشاهد فقال الطبرى : واجب على الكاتب إذا أمر أن يكتب ، وقال الحسن : ذلك واجب عليه فى الموضع الذى لا يقدر على كاتب غيره فيضرب صاحب الدين إن امتنع ، فإن كان كذلك فهو فريضة ، وإن قدر على كاتب غيره فهو فى سعة إذا قام بها غيره<sup>(٩٤)</sup>.

والى هنا تكون الآية الكريمة قد قررت مبدأ الكتابة فى الدين ، وبينت كيفية الكتابة ، وأشارت إلى إجابة الكاتب لها ، ونهته عن الامتناع عنها إذا دعى لها .

ثم انتقلت الآية بعد ذلك إلى بيان من يتولى الإملاء فقال تعالى : وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتْلِ الرَّبُّهُ وَلَا يَخْشَ مِنْهُ شَيْئًا .

والإملاء معناه الإملاء ، فهما لغتان معناهما واحد . وقد جاء القرآن بالفتن فقال تعالى : وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَخِيرًا . (الفرقان : ٥).

أى : وعلى المدين الذى عليه الدين وقد التزم بأدائه أن يمل على الكاتب هذا الدين ، وذلك ليكون إملاؤه إقراراً به وبالحقوق التى يجب عليه الوفاء بها . وعليه كذلك أن يراقب الله - تعالى - فى إملائه فلا ينقص من الدين الذى عليه شيئاً ، لأن هذا الإنقاص ظلم حرمه الله - تعالى - وقد أمر الله - تعالى - بأن يكون الذى يمل على الكاتب هو المدين لأنه هو المكلف بأداء مضمون الكتابة ، ولأنه بإملائه يكون قد أقر على نفسه بما عليه

ولأنه لو أملى الدائن فريماً يزيد في الدين ، أو يملأ شيئاً ليس محل اتفاق بينه وبين المدين ، ولأن المدين في الغالب في موقف ضعيف فاعطاء الله - تعالى - حق الإملاء على الكاتب حتى لا يغبن من الدائن .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد مكن المدين من الإملاء على الكاتب حتى تكون الكتابة تحت سمعه وبصره وباختياره ، ولكنه في الوقت نفسه أوجب عليه أمرين : تقوى الله ، وعدم الإنقاص من الدين الذي عليه . وأن ذلك لتشريع حكيم عادل لا ظلم فيه للدائن ولا للمدين .

ثم بين - سبحانه - الحكم فيما إذا كان الذي عليه الدين لا يحسن الإملاء فقال تعالى : **فإن كان الذي عليه الحق وهو المدين : سفيهاً . أى جاهلاً بالإملاء أو ناقص العقل ، أو متلافياً مبذراً لا يحسن تدبير أمره .**

**أو ضعيفاً . بأن يكون صبيهاً أو شيخاً تقدمت به الشيخوخة .**

**أو لا يستطيع أن يعمل هو .** بأن يكون عيباً أو أخرساً أو لا خبرة له بإملاء أمثال هذه المكاتبات .

فلينال وليه بالعدل . أى فعلى ولي أمره أو من يهمله شأنه ولا يرضى له أن يضيع حقه أن يتولى الإملاء متحرراً الحق والعدل فيما يكلف به .

وبعد هذا البيان الحكيم عن الكتابة وأحكامها في شأن الديون ، انتقل القرآن إلى الحديث عن الإشهاد فيه فقال تعالى : **وَأَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ .** أى : اطلبوا شاهدين عدلين من الرجال ليشهدوا على ما يجرى بينكم من معاملات مؤجلة ، لأن هذا الإشهاد يعطى الديون والكتابة توثيقاً وتبليغاً . والمبين والثناء في قوله : **« واستشهدوا » للطلب .**

قال الأئوسى : **« وفي اختيار صيغة المبالغة في : شَهِيدَيْنِ . للإيماء إلى من تكررت منه الشهادة ، فهو عالم بها مقتدر على أدائها وكان فيه رمزاً إلى العدالة ، لأنه لا يتكرر ذلك من الشخص عند الحكام إلا وهو مقبول عندهم ولعله لم يقل رجلين لذلك ، والأمر للندب أو للوجوب على الخلاف في ذلك » (٩٥) .**

وقوله : **من رَجَالِكُمْ .** متعلق بقوله : **وَأَشْهَدُوا .** ومن لابتداء الغاية . ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف صفة لشهيدتين ومن للتبويض ، أى من رجالكم المسلمين الأحرار فإن الكلام في معاملتهم .

ثم بين - سبحانه - الحكم إذا لم يتيسر شاهدان من الرجال فقال : **فإن لم يكنوا رجلين فرجلٌ وامرأتان ممن تَرْضُونَ مِنَ الشَّهَدَاءِ .**

وقوله : **مَنْ تَرْضُونَ .** متعلق بمحذوف على أنه صفة لرجل وامرأتان . أى فإن لم يتيسر رجلان للشهادة فليشهد رجل وامرأتان كاثنتون مرضيين عندكم بعدالتهن .

وهذا الوصف وإن كان في جميع الشهود إلا أنه ذكر هنا للتشدد في اعتباره ، لأن اتصاف النساء به قد لا يتوافر كثيراً .



وقوله : من الشُّهداء . متعلق بمحذوف حال من ضمير المفعول المقدر في «ترضون» العائد إلى الموصول : أى فليشهد رجل وامرأتان ممن ترضونهم حال كونهم من بعض الشهداء لعلكم بعدالهم ، وثقتكم بهم .

وقوله تعالى : مِنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهداء . أدق في الدلالة على صدق الشهادة من العدالة ، لأن الإنسان العدل قد يكون مرضياً في دينه وخلقه ولكنه يتأثر بالمشاهد المؤثرة فتخونه ذاكرته في وقت الحاجة إليها ، أو قد يكون ممن يمنعه منصبه وجاهه ومقامه في الناس من الكذب إلا أنه قد يرتكب بعض المعاصي ، فجاء - سبحانه - بهذه الجملة الحكيمة لكي يقول للناس : اختاروا الشهداء من الذين يرتضى قولهم ، ويقيمون الشهادة على وجهها بدون التأثير بأى نوع من أنواع المؤثرات .

هذا ، وشهادة النساء مع الرجال عند الحنفية في الأموال والطلاق والنكاح والرجعة وكل شيء إلا الحدود والقصاص . وعند المالكية تجوز في الأموال وتوابعها خاصة . ولا تقبل في أحكام الأبدان مثل الحدود والقصاص والنكاح والطلاق والرجعة .

ثم بين - سبحانه - العلة في أن المرأتين تقومان مقام الرجل الواحد في الشهادة فقال : أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى .

قال الترطبي : معنى تضل تنسى . والضلال إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء ، ويبقى المرء حيران بين ذلك ضالاً<sup>(١٦)</sup> .

والمعنى : جعلنا المرأتين بدل رجل واحد في الشهادة ، خشية أن تنسى إحداهما فتذكر كل واحدة منهما الأخرى . إذ المرأة لقوة عاطفتها ، وشدة انفعالها بالحوادث قد تتوهم ما لم تر ، فكان من الحكمة أن يكون مع المرأة أخرى في الشهادة بحيث تتذكران الحق فيما بينهما .

والعلة في الحقيقة هي التذكير ، ولكن الضلال لما كان سبباً في التذكير ، نزل منزلة العلة . وذلك كأن تقول : أعددت السلاح خشية أن يجيء العدو فادفعه فإن العلة هي الدفاع عن النفس ، ولكن لما كان مجيء العدو سبباً فيه نزل منزلته .

وكما أمر الله - تعالى - الكتاب في أول الآية بعدم الامتناع عن الكتابة ، أمر الشهود أيضاً بعدم الامتناع عن الشهادة فقال تعالى : وَلَا يَأْبُ الشُّهُادُ إِذَا مَا دُعُوا . أى : ولا يمتنع الشهود عن أداء الشهادة وتحملها متى دعا إليها ، لأن الامتناع عن تحمل الشهادة وأدائها قد يؤدي إلى ضياع الحقوق ، والله - تعالى - قد شرع الشهادة لإحقاق الحق ، ونشر العدل بين الناس ، فعلى من أشهروا بالعدالة ووثق الناس بهم أن يؤدوا الشهادة كما أمرهم الله - تعالى - . ثم أمر - سبحانه - بكتابة الدين سواء أكبر الدين أم صغر فقال : وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ .

السام : الضجر والمأل . يقال : سئمت الشيء أسأمه سأمًا وسأمة أى ملته وضجرت .

**والمعنى :** وعليكم أيها المؤمنون - ألا تسأموا من كتابة الدين إلى الوقت المحدد له سواء أكان هذا الدين كبيراً أم صغيراً ، لأن الكتابة في الحالتين أدعى إلى حفظ الحقوق وصيانتها ، وإلى عدم نشوب التنازع أو التخاصم بينكم ، ولأن الدين قد يكون صغيراً في نظر الفنى الملىء إلا أنه كبير في نظر الفقير المعسر ، ولأن التهاون في شأن الدين الصغير قد يؤدي إلى التهاون في شأن الدين الكبير ، لذا وجب عليكم أن تنقادوا لشرع الله وإن تكتبوا ما بينكم .

والضمير في قوله : أن تكتبوه . يعود إلى الدين أو إلى الحق . وقوله : صغيراً أو كبيراً . حال من الضمير . أى لا تسأموا أن تكتبوه على كل حال قليلاً أو كثيراً ، وقدم الصغير على الكبير اهتماماً به وانتقالاً من الأدنى إلى الأعلى .

ثم بين - سبحانه - ثلاث فوائد تعود عليهم إذا ما امتثلوا ما أمرهم الله - تعالى - به ، فقال : ذلكم أقسط عند الله .

واسم الإشارة : ذلكم . يعود إلى كل ما سبق ذكره في الآية من الكتابة والإشهاد ومن عدم الامتثال عنهما ، ومن تحرى الحق والعدل .

و أقسط . بمعنى أعدل . يقال : أقسط فلان في الحكم يقسط إقساطاً إذا عدل فهو مقسط . قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . (المائدة : ٤٢) .. ويقال : قاسط إذا جار وظلم . قال تعالى : وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا . (الجن : ١٥) .

أى : ذلكم الذى شرعناه في أمر الديون من الكتابة والإشهاد وغيرهما أعدل في علم الله - تعالى - ، وكل ما كان كذلك فهو أعدل وأفضل وأحكم في ذاته ؛ لأنه - سبحانه - هو الأعلم بما فيه مصلحتكم فاستجيبوا له ، وتلك هي الفائدة الأولى . أما الفائدة الثانية فهي قوله - سبحانه - : وَأَقْرُمُوا لِلشَّهَادَةِ . ومعنى أقروم . أبلغ في الاستقامة التي هي ضد الأعوجاج أى : أثبت لها وأعون على إقامتها وأداؤها ، وأما الفائدة الثالثة فهي قوله : وَأَدْنَى أَلْأَرْتَابُوا . أى : اقرب إلى زوال الشك والريبة . أى أن الأوامر والتواهي السابقة إذا نفذت على وجهها كان تنفيذها أعدل في علم الله - تعالى - ، وأعون في إقامة الشهادة إذ بها يتم الاعتماد على الحفظ ، وأقرب إلى عدم الشك في جنس الدين وقدره وأجله ، وإذا تواضعت هذه الفوائد الثلاث في المعاملات ساد الوفاق والتعاون بين الناس ، أما إذا قُعدت فإن الثقة تزول من بينهم ، ويحل محلها النزاع والشقاق .

ثم أباح - سبحانه - هي التجارة الحاضرة عدم الكتابة فقال : إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا .

والتجارة الحاضرة التي تدور بين التجار : وهي التي يجري فيها التقابض في المجلس أو التي يتأخر فيها الأداء زمناً يسيراً . وسميت الحاضرة ، لأن البيع والثمن كلاهما حاضر .

**والمعنى :** أن الله - تعالى - يأمركم بكتابة الديون وبالإشهاد عليها إلا أنه - سبحانه - رحمة بكم أباح لكم عدم الكتابة في التجارة الحاضرة التي تكثر من إدارتها والتعامل فيها، لأنه لو كلفكم بذلك لشق الأمر عليكم، وهو - سبحانه - : **وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** . (الحج ٧٨). ولأن أمثال هذه التجارات التي يحصل فيها التقايض ويكثر تكرارها ، لا يتوقع فيها التنازع أو النسيان .

والاستثناء هنا منقطع لأنه ليس هناك دين حتى يكتب، وليست التجارة الحاضرة من جنس التعامل بالدين فكأنه قيل : إذا تداينتم فتكاتبوا وأشهدوا لكن التجارة الحاضرة التي يجري فيها التقايض لا جناح عليكم في عدم كتابتها .

**وقيل :** الاستثناء متصل والجملة مستثناة في موضع نصب لأنه استثناء من الجنس، لا لأنه أمر بالكتابة في كل معاملة واستثنى منها التجارة الحاضرة . والتقدير: أمركم بالكتابة والإشهاد في كل معاملة إلا في حال حضور التجارة فلا بأس من ترك الكتابة و **تِجَارَةً** قرأها الجمهور بالرفع على أنها اسم تكون ، والخبر جملة **تُدِيرُونَهَا يَنْتَكُم** أو على أنها فاعل تكون إذا اعتبرناها تامة .

وقراها عاصم بالنصب على أنها خبر تكون واسمها ضمير مستتر فيها يعود على التجارة أي : إلا أن تكون التجارة حاضرة .

وقوله - تعالى - : **وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ** . أمره - سبحانه - بالإشهاد عند البيع، وهذا أمر للإرشاد والتعليم عند جمهور العلماء . ويرى الظاهرية أنه للوجوب .

**قال صاحب الكشاف :** هذا أمر بالإشهاد على التبايع مطلقاً ناجزاً أو كائناً - أي مؤجلاً - لأنه أحوط وأبعد مما عسى يقع من الاختلاف . ويجوز أن يراد : وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع . يعنى التجارة الحاضرة على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة . وعن الضحاك : « هي عزيمة من الله ولو على باقية بقل » <sup>(١٧)</sup> .

ثم نهى - سبحانه - عن المضارة فقال : **وَلَا يَضَارُّكَ أَتَى وَلَا يَضَارُّكَ أَتَى وَلَا يَضَارُّكَ أَتَى** .

**والمضارة :** إدخال الضرر . والفعل : **يَضَارُّ** . احتمل أن يكون مبنياً للفاعل ، وأن أصله « ولا يضار - بكسر الراء - ويحتمل أن يكون مبنياً للمفعول . وأن أصله لا يضار بفتح الراء الأولى .

**والمعنى على الأول :** نهى الكاتب والشاهد عن أن ينزلا ضرراً بأحد المتعاقدين ، بأن يبخس الكاتب أحدهما ، أو يشهد الشاهد بغير الحق .

**والمعنى على الثاني :** وهو الظاهر - نهى الدائن والمدين عن أن ينزل أحدهما ضرراً بالكاتب أو الشاهد لحملهما على كتابة غير الحق أو قول غير الحق، فإنهما أمينان ، والإضرار بهما قد يحملهما على الخيانة وفي ذلك ضياع للأمانة وذهاب للثقة ؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك : **وَأِنْ تَقَمَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ** .

أى : وإن فعلوا ما نهيتهم عنه أو تخالفوا ما أمرتهم به، فإنكم بذلك تكونون قد خرجتم عن طاعة الله ، وتلبستم بمعصيته ، وصرتم أهلاً للعقوبة، فعليكم أن تقفوا عند حدود الله حتى تتحقق لكم السعادة فى دينكم ودنياكم.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالأمر بخشيته . ويتذكركم بنعمه فقال : **وَأَقْرَأُوا اللَّهَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** .

أى : واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فهو - سبحانه - الذى يعلمكم ما يصلح لكم أمر دنياكم وما يصلح لكم أمر دينكم متى اتقيتموه واستجبتم له ، وهو - سبحانه - بكل شئ عليم لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

**ويعد** : فهذه هى آية الدِّين التى هى أطول آية فى القرآن ، تقرؤها فتراها قد اشتملت على أدق التشريعات، وأحكم التوجيهات ، وأنجح الإرشادات التى تهدى إلى حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل .

تقرؤها فترى الدقة العجيبة فى الصياغة بأن وضع كل لفظ فى مكانه المناسب، وترى الطلاوة فى التعبير، والعذوبة فى الألفاظ بحيث لا تلغى دقة الصياغة على جمال العرض .

وترى الوفاء الكامل ، لكل الجوانب التشريعية، والاحتراست التام من كل المبررات التى قد تؤثر على سلامة التعاقد، والإرشاد الجامع إلى كل ما يضمن وصول الحق . العدل إلى جميع الأطراف بدون محاباة أو غبن .

وترى قبل ذلك وبعد ذلك كيف يسوق القرآن تشريعاته بطريقة تغرس فى النفوس الخوف من الله - تعالى- والمراقبة له، والاستجابة لأوامره، لا كطريقة البشر فى قوانينهم التى صاغوها فى قوالب صماء من الألفاظ لا تشعر معها بتأثير فى النفس ولا باهتزاز فى القلب .

ولو لم يكن فى شريعة الله سوى هذا التأثير الذى تشعر به النفوس النقية الصافية عند تدبرها لكفاهها ذلك دليلاً على سموها وفضلها ؛ وعلى أنها من صنع الله - تعالى - ولو أن المسلمين أخذوا بها وتبججهاها فى سائر شئونهم لظفروا بالسعادتين : الدينية والدنيوية .

﴿وَأِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضٌ قَلِيلٌ ذُو الَّذِي أُوتِيتُمْ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عِندَ اللَّهِ قَلْبٌ مُدْبِرٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٢٨٢﴾

المفردات :

وإن كنتم على سفر : أى مسافرين فعلا، ولذا عبر بقوله : على سفر . إشعارًا بمباشرتهم له وتمكنهم منه تمكن الراكب مما يركبه .

فريهان مقبوضة : الرهان جمع رهن ، وهو ما يأخذه الدائن من الأعيان ذات القيمة ضمانًا لدينه ، وهو فى الأصل مصدر ، وشاع استعماله فى العين المرهونة حتى أصبح حقيقة عرفية فيها .

التفسير :

٢٨٢ - وَأِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ . . . لاحظ فى الآيات لوْنًا من ألوان التدرج فى التشريع ، فقد بين الله أن الكتابة فى الديون والإشهاد عليها مطلوبان ، فإن تعذرت الكتابة والشهادة لسبب من الأسباب فإنه يترخص حينئذ بالرهن المقبوض .

وقد يعتمد الدائن على أمانة المدين ، وسلامة ذمته ، فيجب على المدين أن يقدر هذه الأمانة ، قال تعالى :  
إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا . (النساء : ٥٨) .

معنى الآية :

وإذا كنتم - أيها المتدانيون - مسافرين ، ولم تجدوا كاتبًا يكتب بينكم الدين ، فالذى يستوثق به حينئذ ، رهن يقبضها الدائنون ، ويتبقى عندهم حتى أداء الدين فتد إلى المدين .

وإذا أودع أحدهم آخر ودعية تكون أمانة عنده وقد اعتمد على أمانته ، فليؤد الوديع المؤمن الأمانة عند طلبها وليخش الله الذى رياه وتولاه بالعناية حتى لا يقطع عنه نعمته فى الدنيا والآخرة .

ولا تخفوا الشهادة بما علمتم إذا دعيتم لأدائها ، ومن يكتم الشهادة بالحق فهو آثم خبيث القلب ، والله مطلع على أعمالكم ، عليم بما تعملون من خير وشر وسيجازيكم عليها حسب ما تستحقون .

فى أعقاب الآية :

١ - أخذ مجاهد بظاهر الآية فلم يجز الرهن إلا فى السفر ، وقيد الضحاك فى السفر بفقدان الكاتب ، ولكن الراجح جواز الرهن سفرا وحضرا .

قال القرطبي : ولم يرو عن أحد منع الرهن فى الحضر سوى مجاهد والضحاك وداود ، متمسكين بالآية ولا حجة فيها لهم ، لأن هذا الكلام وإن خرج مخرج الشرط ، فالمراد به غالب الأحوال ، وليس كون الرهن فى الآية فى السفر مما يحظر فى غيره (٩٨) .

٢ - روى البخارى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - « رهن درعه فى المدينة عند يهودى على ثلاثين صاعا من شعير »<sup>(٩٩)</sup> ومن الواضح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندما رهن درعه كان مقيماً ولم يكن مسافراً .

٣ - أخذ بعض الفقهاء من قوله تعالى : **فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ** . أن الرهن لا يتم إلا بالقبض فإذا افترق المتعاقدان من غير قبض كان الرهن غير صحيح بنص الآية ، وهذا مذهب الأحناف والشافعية، ويرى المالكية والحنابلة أن الرهن يتم من غير القبض، لأن القبض حكم من أحكامه، فمن حق الدائن بعد تمام عقد الرهن أن يطلب بقبض العين المرهونة، فالقبض حكم من أحكام العقد، وليس ركناً من أركانه ولا شرطاً لتمامه .

٤ - حث القرآن على أداء الشهادة بالحق ، قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ . (النساء: ١٣٥).

وهذه درة فى جبين التربية الإسلامية، ودليل على عناية القرآن بتكوين شخصية المسلم وتثبيت معالم الحق والفضيلة، ومحاربة الجبن والرديلة، وقد نهى القرآن عن كتمان الشهادة.

وفى هذه الآية :

**وَلَا تَكْمُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْمُمْهَا فَإِنَّهُ أُمُّ قَلْبٍ** . وقد نسب الإثم إلى القلب، لأن كتمان الشهادة من أعمال القلب، وإذا أثم القلب أثم صاحبه، لأن العبرة بأفعال القلوب، ولذا رفعت المواخضة عمن يفعل المعصية ناسياً، لأنه لا قصد له فيها .

« ولأن القلب رئيس الأعضاء ، والمضغة التى إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله، فكانه قيل : فقد تمكن الإثم فى أصل نفسه وملك أشرف مكان منه »<sup>(١٠٠)</sup>.

روى الشيخان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب »<sup>(١٠١)</sup>.

★ ★ ★

**﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**

المفردات :

تبدوا ما فى أنفسكم : تظهروه

يحاسبكم به : أى يبينه لكم، ويجازيكم عليه.

التفسير :

٢٨٤ - اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... الْآيَةُ . اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَجْزَائِهِمَا ، وَمَا اسْتَقَرَّ فِيهِمَا ، لَا يَشَارِكُهُ فِي خَلْقِهَا أَوْ مَلِكُهَا ، أَوْ التَّصَرُّفِ فِيهَا شَرِيكَ ، فَلَهُ أَنْ يُلْزِمَكُمْ - أَيُّهَا الْعِبَاد - بِمَا يَشَاءُ مِنَ التَّكَالِيفِ وَعَلَيْكُمْ - أَيُّهَا الْعِبَاد - أَنْ تَطِيعُوهُ وَلَا تَعْصُوهُ .

وَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَحَاسِبُكُمْ أَيُّهَا الْعِبَاد - عَلَى نِيَاتِكُمْ ، وَمَا تَكْسِبُهُ قُلُوبُكُمْ سِوَاءَ الْخَفِيَّتِمُوهُ أَمْ أَظْهَرْتُمُوهُ .

وقد بين المحققون من العلماء أن هذه المحاسبة إنما تكون على ما يعزم عليه الإنسان وينويه ويصر على فعله ، سواء أنفذ ما اعتزم عليه أم حالت دونه حوائل خارجة عن إرادته ، كمن عزم على السرقة وأصر عليها ثم وجد الشرطي فتركها .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إِنْ أَلَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا وَسَّوَسْتَ بِهِ صُدُورُهَا ، مَا لَمْ يَكْمَلْ أَوْ تَكْلَمْ »<sup>(١٠٢)</sup> .

وأخرج مسلم في صحيحه عن ابن عباس عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما يروى عن ربه تعالى قال : « إِنْ أَلَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالْمَسِيئَاتِ - ثُمَّ بَيْنَ ذَلِكَ - فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعَفَ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً »<sup>(١٠٣)</sup> .

وروى عن أبي هريرة قال : « جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَسَأَلُوهُ فَقَالُوا : إِنْ نَجِدْ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاطَلَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ ، قَالَ : وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ . وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - عَنِ الْوَسْوَسةِ ، قَالَ : تِلْكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ »<sup>(١٠٤)</sup> .

وفي كتب التفسير أن الصحابة لما سمعوا هذه الآية رقت قلوبهم ودمعت عيونهم ، وخافوا أن يحاسبهم الله على خطرات نفوسهم ، وهم لا يملكونها ولا يستطيعون التحكم فيها ، حيث قال سبحانه : وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفِّرُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ . (البقرة : ٢٨٤) .

فلما فعلوا نسخها الله فأنزل : لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . (البقرة : ٢٨٦) .

وروى ابن جرير الطبري عن مجاهد والضحاك أنه قال : هي محكمة لم تتسخ ، واختار ابن جرير ذلك ، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة ، وأنه تعالى قد يحاسب ويفقر ، وقد يحاسب ويعاقب .

وقد ورد في الصحيحين ومن طرق متعددة وعن قتادة عن صفوان بن محرز قال : بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف إذ عرض له رجل فقال : يا بن عمر : ما سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول في النجوى ؟ قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « يَدْنُو الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَفَّهُ فَيَقْرُرُ بِذَنْبِهِ فَيَقُولُ لَهُ : هَلْ تَعْرِفُ كَذَا ؟ » ، فيقول : رَبِّ أَعْرِفُ

مرتین، حتی إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ . قال : إني قد سترتها عليك في الدنيا وإنی أغفرها لك اليوم . قال : فيعطى صحيفة حسناته أو كتابه بيمينه ، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رعوس الشهداء : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين . ( هود : ١٨ ) (١٠٥).

وجاء في تفسير الألوسی : المؤاخذة على تصميم العزم على إيقاع المعصية في الأعيان وهو من الكيفيات النفسانية التي تلحق بالملكات ، وليس كذلك سائر ما يحدث في النفس - أي من خواطر لا تصميم ولا عزم معها - قال بعضهم :

مراتب القصد خمس، هاجس ذكروا

فخاطر فحديث النفس فاستمعا

يليه هم فعزم كلها رفعت

سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعا (١٠٦).

وجاء في ظلال القرآن :

« وهكذا يعقب على التشريع المدني البحث بهذا التوجيه الوجداني البحث ويربط بين التشريعات للحياة وخالق الحياة، بذلك الرباط الوثيق، المؤلف من الخوف والرجاء في ممالك الأرض والسماء ، فيضيف إلى ضمانات التشريع القانونية، ضمانات القلب الوجدانية .. وهي الضمان الوثيق المميز لشرائع الإسلام في قلوب المسلمين في المجتمع المسلم .. وهى والتشريع في الإسلام متكاملان، فالإسلام يصنع القلوب التي يشرع لها، ويصنع المجتمع الذي يقن له صنعة إلهية متكاملة متناسقة ، تربية وتشريعاً ، وتقوى وسلطاناً ، ومنهجاً للإنسان من صنع خالق الإنسان ، فأنى تذهب شرائع الأرض، وقوانين الأرض، ومناهج الأرض؟ أنى تذهب نظرة إنسان قاصر ، محدود العمر، محدود المعرفة، محدود الرؤية ، يتقلب هواه هنا وهناك ، فلا يستقر على حال ، ولا يكاد يجتمع اثنان على رأى ولا على رؤية ولا على إدراك ؟ ..

ألا إنها الشقوة للبشرية في هذا الشرود عن منهج الله وشرعه .

الشقوة التي بدأت في الغرب هرباً من الكنيسة الطاغية الباغية هناك .. ومن إلهها الذي كانت تزعم أنها تنطق باسمه، وتحرم على الناس أن يتفكروا أو يتدبروا ، وتفرض عليهم باسمه الإتاوات الباهظة والاستبداد المنفر .. فلما هم الناس أن يتخلصوا من هذا الكابوس ، تخلصوا من الكنيسة وسلطانها، ولكهم لم ينفوا عند حد الاعتدال ، فتخلصوا كذلك من إله الكنيسة وسلطانها .. ثم تخلصوا من كل دين يتودهم في حياتهم الأرضية بمنهج الله .. وكانت الشقوة وكان البلاء (١٠٧).

فأما نحن - نحن الذين نزعم الإسلام - فما بالنا ؟ ما بالنا نشرد عن الله ومنهجه وشرعيته وقانونه ؟ ما بالنا وديننا السمع القويم لم يفرض علينا إلا كل ما يرفع عنا الأغلال ، ويحطم عنا الأثقال ، ويؤدى إلى الرقى والفلاح ؟ (١٠٨).



﴿أَمَّا الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

المفردات :

وملائكته : الملائكة أجسام نورانية قادرة على التشكل، خلقوا للطاعة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

التفسير :

٢٨٥ - آمَنَ الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ... .

هذا ختام سورة البقرة أطول سورة في القرآن ، السورة التي اشتملت على التشريع وساهمت في بناء الفرد، وتكوين المجتمع.

قال الزجاج - رحمه الله - : لما ذكر الله - عز وجل - في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصيام والحج والطلاق والحيض والإيلاء والجهاد، وقصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والرياء والدين ، ختمها بقوله : آمَنَ الرُّسُولُ. لتعظيمه وتصديق نبیه - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين لجميع ذلك المذكور قبله، وغيره ليكون تأكيداً له (١٩٩).

معنى الآية :

آمَنَ الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا - إجمالاً وتفصيلاً، وآمَنَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ كَذَلِكَ. كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ . كل من النبي وأفراد المؤمنين، صدق بالله وما يتصف به من كل كمال، وما يتنزه به عن كل نقص، وصدق بملائكته وطهارتهم من المعاصي أنهم منفذون لأوامر الله تعالى ، وأن بعضهم سفراء بينه تعالى وبين رسله الأكرمين، وآمَنَ بِكُتُبِهِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى رُسُلِهِ مَتَعْبِدًا بِهَا عِبَادَهُ، وآمَنَ بِرُسُلِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ مَبْلُغُونَ لِكُتُبِهِ وَشَرَائِعِهِ إِلَى خَلْقِهِ.

لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ . بل نؤمن بهم جميعاً فهم رسل الله إلى خلقه، فمن كفر بأحدهم ، فهو كافر بهم جميعاً ، ولا نقول كما قال الضالون : نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ . (النساء : ١٥٠).

وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا : أى قالوا : بلغنا الرسول شمعنا القول سماع تدبر وفهم، وأطعنا ما فيه من الأوامر والنواهي طاعة إذعان وانقياد .

غُفْرَانَكَ رَبَّنَا : أى اغفر لنا غفرانك ، أو نسألك غفرانك ذنوبنا .

وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ : أى الرجوع بالموت والبعث إليك وحدك لا إلى غيرك، ومنك وحدك يكون الحساب والثواب والعقاب ، « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . (الشعراء : ٨٨-٨٩).

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

تختتم السورة بهذه الآية الكريمة ، وفيها يسر التشريع وسماحة الإسلام، فتكاليفه في تناول البشر، الصلوات الخمس ، والصوم شهر في السنة ، والزكاة نسبة قليلة من المال ، والحج فريضة لمن استطاع إليه سبيلا، وعند المرض والسفر يباح للإنسان قصر الصلاة وجمعها ويباح للصائم في رمضان الفطر والقضاء، وفي كثير من تشريعات الإسلام تتجلى سماحة هذا الدين ومراعاته لطبيعة الإنسان.

فالشرعية يسر كلها، ورحمة كلها، وعدل كلها، قال تعالى : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ . (البقرة: ١٨٥).

وقال سبحانه : مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ . (المائدة: ٦).

ويقول النبي - صلى الله عليه وسلم - « يَسْرُوا وَلَا تَعْسُرُوا ، وَيَسْرُوا وَلَا تَتَفَرُّوا .. » (١١٠).

ومجمل معنى الفقرة الأولى : إن الله لا يكلف عباده إلا ما يستطيعون تأديته والقيام به، ولذلك كان كل مكلف مجزئاً بعمله : إن خيراً فخير. وإن شراً فشر .. ومن هذه الفقرة تتضح المسؤولية الفردية، وتحمل الإنسان لتبعات عمله، فهو أهل للجزاء الحسن إذا أحسن، وهو مستحق للمؤاخذة إذا أساء ، قال تعالى :

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (الجاثية: ٢١).

وتسترد الآية في دعاء رضى ندى يملأ القلب نورا والنفوس خيراً وبركة.

رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا . ربنا لا تعاقبنا إن وقعنا في النسيان لما كلفتنا إياه، أو أهملنا أسباب السلامة فوقنا في الخطأ بسبب ضعف أو قصور.

فقد فتحت باب التوبة للتائبين ، وقيلت رجوع المذنبين إليك، ولم تغلق في وجههم باب رحمتك.

قال تعالى : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا.

(الزمر: ٥٢).

رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا . الإصر، معناه العبء الثقيل ، مأخوذ من أصره يأصره أى حسسه، والمراد به : التكاليف الشاقة، أى ربنا ولا تحمل علينا عبئاً ثقیلاً، كما حملته على الذين من قبلنا ولا تشدد علينا في التشريع كما شددت على اليهود بسبب تعنتهم وظلمهم.

فمن شرائعهم قتل النفس فى التوبة أو فى القصاص ، لأنه لا يجوز غيره فى شريعتهم، وقطع موضع النجاسة من الثوب، ونحوه ، وصرف ربع المال فى الزكاة.

قال تعالى : **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلِّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شَحْرُوهَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ** . (الأنعام: ١٤٦).

على أن الإصر الأكبر الذى رفعه الله عن هذه الأمة هو إصر المبودية للبشر، عيودية العبد للعبد، فآله ينادينا فى القرآن بأنه قريب لا يحتاج إلى واسطة : **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي فَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** . (البقرة: ١٨٦).

ولا بأس أن ننقل هنا طائفة مما حمله بنو إسرائيل من الأصار والعناء ننقله عن أسفارهم. فى سفر الخروج فى الإصحاح الحادى والعشرين:

(١٥) ومن ضرب إياه أو أمه يقتل قتلا.

(١٦) ومن سرق إنساناً وياعه أو وجد فى يده يقتل قتلا.

(١٧) ومن شتم إياه أو أمه يقتل قتلا.

وفى سفر اللاويين ، فى الإصحاح الحادى عشر تحريم بعض الطيور وفيه أصار كثيرة منها :

( ٢٣ ) وكل متاع خرف وقع فيه منها فكل ما فيه يتنجس وأما هو فتكسرونه.

وفى الإصحاح الثانى عشر أحكام النفساء عندهم ، والفرق بين ولادتها ذكراً وأنثى ، وأنها فى الأول تكون نجسة أسبوعاً، ثم ثلاثاً وثلاثين يوماً ، وفى الثانى أسبوعين ثم ستة وستين يوماً.

وفى الإصحاح الخامس عشر أحكام الحائض ومنها :

( ١٩ ) وكل من مسها يكون نجساً إلى المساء . (٢٠) وكل ما تضطجع عليه فى طمئتها يكون نجساً وكل ما تجلس عليه يكون نجساً . (٢١) وكل من مس ثيابه يغسل ثيابه.

### ومن دعاء المؤمنين :

رَبَّنَا وَلَا نُحِبُّكَ مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ إِيَّاكَ لَا تَكْلِفُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ مِنَ التَّكْلِيفِ.

والطاقة : اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة وذلك تشبيهه بالطوق المحيط بقوله تعالى لا نُحْمِلُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ إِيَّاكَ ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه : لا تحملنا ما لا قدرة لنا به <sup>(١١١)</sup>.

إنهم يتوجهون إلى الله راجين متطلعين أن يرحم ضعفهم، فلا يكلفهم ما لا يطيقون كى لا يعجزوا عنه ويقصروا فيه، وإلا فهى الطاعة والتسليم، إنه طمع الصغير فى كرم الكبير وبره وتيسيره.

ومن دعاء المؤمنين :

وَاغْفِرْ عَنَّا وَارْحَمْنَا . إِنَّهُ تَبَتَّلَ الْمُؤْمِنُ وَإِخْلَاصُهُ فِي طَلْبِ الْعَوْنِ مِنَ اللَّهِ .

اَعْفُ عَنَّا : يكرمك بأن تمحو عنا ما أَلَمْنَا بِهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَتَتَجَاوَزَ عَنْهَا .

وَاغْفِرْ لَنَا : سامحنا واشملنا برحمتك وغفرانك وسترك .

وَارْحَمْنَا : برحمتك الواسعة، فهم طلبوا من الله أن يعفوا عنهم بأن يسقط عنهم العقاب ، وأن

يفقر لهم بأن يستر عليهم ذنوبهم فلا يفضحهم ، وأن يشملهم بعطفه ورحمته ، ثم

ختموا دعاءهم بقوله :

أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .. أَنْتَ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَنَاصِرُ الْمُتَّقِينَ فَاجْعَلْنَا أَهْلًا لِعَوْنِكَ وَتَوْفِيقِكَ ،

وَانصُرْنَا عَلَى الْكَافِرِينَ الْجَاهِدِينَ فَضْلَكَ وَنِعْمَتَكَ، وَهُوَ خَتَامُ يَدٍ عَلَى كَمَالِ الْإِيمَانِ وَنَهَايَةِ الْخُضُوعِ وَالطَّاعَةِ .

لِلرَّحْمَنِ، وَالرَّغْبَةِ فِي إِحْقَاقِ الْحَقِّ وَنُصْرَةِ الدِّينِ وَهَزِيمَةِ الْكَافِرِينَ .

وفي تفسير ابن كثير عنوان عن :

( ذكر الأحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نعمنا الله بهما ) .

(الحديث الأول) قال البخاري عن ابن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «من قرأ بالآيتين -

من آخر سورة البقرة كفتاه» (١١٢) . ثم نقل عشرة أحاديث نبوية في فضل الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة .

وقد ورد في صحيح مسلم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الله تعالى قال عقب كل دعوة من هذه

الدعوات : قد فعلت .

أى لما قال المؤمنون : رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِيْنَا أَوْ أَخْطَاْنَا ، ( قَالَ اللَّهُ - عز وجل - قد فعلت ) رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا

إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ( قَالَ : قد فعلت ) وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا . ( قَالَ : قد فعلت ) أخرجه مسلم

في كتاب الإيمان .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجعلوا

بيوتكم مقابر إن الشيطان ينقر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة » ولفظ الترمذي : « وإن البيت الذي تقرأ فيه

سورة البقرة لا يدخله الشيطان » (١١٣) .

وأخرج سعيد بن منصور والترمذي والحاكم عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

« لكل شيء سنم ، وإن سنم القرآن سورة البقرة ، وفيها آية هي سيدة آي القرآن آية الكرسي » (١١٤) .

## هائدة

قال ابن القيم : تأمل خطاب القرآن ، تجد ملكاً له الملك كله ، وله الحمد كله ، أزمة الأمور كلها بيده ، ومصدرها منه ، وموردها إليه ، مستويا على العرش ، لا تخفى عليه خافية من أقطار مملكته ، عالماً بما فى نفوس عبیده ، مطلقاً على أسرارهم وعلانياتهم ، منفرداً بتدبير المملكة ، يسمع ويرى ويعطى ويمنع ، ويثيب ويعاقب ، ويكرم ويهين ، ويخلق ويرزق ، ويميت ويحيي ، ويقدر ويقضى ، ويدبر الأمور نازلة من عنده دقيقتها وجليلها ، وصاعدة إليه ، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه . ولا تسقط ورقة إلا بعلمه .

فتأمل كيف تجده يثى على نفسه ، ويمجد نفسه ، ويحمد نفسه ، وينصح عباده ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ، ويرغبهم فيه ويحذرهم مما فيه هلاكهم ، ويعترف إليهم بأسمائه وصفاته ، ويتعجب إليهم ، بنعمه وآلائه ، يذكرهم بنعمه عليهم ، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها ، ويحذرهم من نقمه ، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه ، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه ، ويخبرهم بصنعه فى أوليائه وأعدائه ، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء ، ويثى على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم ، ويذم أعداءه بسئ أعمالهم وقبيح صفاتهم ، ويضرب الأمثال وينوع الأدلة والبراهين ، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة ، ويصنق الصادق ويكذب الكاذب ، ويقول الحق ، ويهدى السبيل . ويدعو إلى دار السلام ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها ، ويحذر من دار البوار ويذكر عذابها وآلامها ، ويذكر عباده فقرهم إليه وشدة حاجتهم إليه من كل جهة ، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين ، ويذكرهم غناؤه عنهم ، وعن جميع الموجودات ، وأنه الغنى بنفسه عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ، وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضلته ورحمته ، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته ، وتشهد من خطابه عتابه لأحبابه اللطف عتاب ، وأنه مع ذلك مقبل عشراتهم ، وغافر ذلاتهم ، ومقيم أعدارهم ، ومصلح فسادهم ، والرافع عنهم ، والحامى عنهم ، والناصر لهم ، والكفيل بمصالحهم ، والمنجى لهم من كل كرب ، والموفى لهم بوعده ، وأنه وليهم الذى لا ولى لهم سواه . فهو مولاهم الحق ، وينصرهم على عدوهم ، فنعم المولى ونعم النصير . وإذا شهدت القلوب من القرآن ملكاً عظيماً ، جواداً رحيماً جميلاً هذا شأنه ، فكيف لا تحبه ، وتنافس فى القرب منه ، وتتفق أنفاسها فى التودد إليه ، ويكون أحب إليهما من كل ما سواه ، ورضاء أثر عندها من رضى كل من سواه ؟ وكيف لا تلج بذكره ، ويصير حبه والشوق إليه ، والانس به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها ، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتعج بحياتها ؟.

## أمهات المسائل الواردة في سورة البقرة

- ١ - دعوة الناس جميعاً إلى عبادة ربهم.
- ٢ - عدم اتخاذ أنداد له.
- ٣ - ذكر الوحي والرسالة، والحجاج على ذلك بهذا الكتاب المنزّل على عبده، وتحدى الناس كافة بالإتيان بمثله.
- ٤ - ذكر أسس الدين وهو توحيد الله .
- ٥ - إباحة الأكل من جميع الطيبات .
- ٦ - ذكر الأحكام العملية من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأحكام الصيام، والحج، والعمرة، وأحكام القتال والقصاص.
- ٧ - الأمر بإنفاق المال في سبيل الله .
- ٨ - تحريم الخمر والميسر .
- ٩ - معاملة اليتامى ومخالطتهم.
- ١٠ - أحكام الزوجية من طلاق ورضاعة وعدة.
- ١١ - تحريم الربا والأمر بترك ما بقي منه.
- ١٢ - أحكام الدين من كتابة وإشهاد وشهادة، وحكم النساء والرجال في ذلك.
- ١٣ - وجوب أداء الأمانة.
- ١٤ - تحريم كتمان الشهادة.
- ١٥ - خاتمة ذلك كله، الدعاء الذي طلب إلينا أن ندعوه به ..

## خاتمة من تفسير البقاعى

( ... ولما بشرهم بذلك عرفهم مواقع نعمه من دعاء رتبته على الأخف فالأخف، على سبيل التعليل، إعلاماً بأنه لم يؤاخذهم بما اجترحوه نسياناً، ولا مما قارفوه خطأ ولا حمل عليهم ثقبلاً، بل جعل شريعتهم حنيفةً سمحاء، ولا حملهم فوق طاقتهم، مع أن له جميع ذلك، وأنه عفا عن عقابهم ثم سترهم، فلم يخلجهم بذكر سيئاتهم، ثم رحمهم بأن أحلهم محل القرب فجعلهم أهلاً للخلافة، فلاح بذلك أنه يعلى أمرهم على كل أمر، ويظهر دينهم على كل دين، إذ كان - سبحانه وتعالى - هو الداعى عنهم، وليكون الدعاء محمولاً على الإصابة ومشمولاً بالإجابة.

فقال تعالى : رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِيَّاهُ تَعَاقِبُنَا ، إِنْ نُسِئْنَا أَمْرَكَ وَنُهِيكَ ، أَوْ أَخْطَاْنَا إِيَّاهُ فَلَا خِلَافَ لِمَا يُصَوِّبُ تَفْرِيطًا وَنَحْوَهُ (١١٥).

\* \* \*

اللهم اجعل هذا القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء حزنا ، وأعنا على إكمال ما قصدناه بفضلك ، يا أرحم الراحمين.

تم تفسير سورة البقرة عصر الجمعة ٢٣

من ربيع الثانى سنة ١٤٠١ هـ الموافق

٢٧ من فبراير (شباط) سنة

١٩٨١ بمدينة العين بدولة

الإمارات العربية

المتحدة والحمد لله

رب العالمين

★ ★ ★





# سورة آل عمران

## سورة آل عمران

سورة آل عمران سورة مدنية ، وآياتها مائتان ، نزلت بعد الأنفال ، والمراد بعمران هو والد مريم ، أم عيسى - عليهما السلام - وآل عمران هم عيسى ويحيى ومريم وأمه .

وتسمى الزهراء : لأنها كشفت عما التبس على أهل الكتاب في شأن عيسى عليه السلام.

والأمــــــــان : لأن من تمسك بها فيها أمن من الغلط في شأنه.

والكـــــــــز : لتضمنها الأسرار العيسوية.

والمجــــــــادلة : لنزول نيف وثمانين آية منها في مجادلة رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نصارى نجران.

وسورة الاستغفار : لما فيها من قوله تعالى : **وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ** . (آل عمران : ١٧).

### من أهداف سورة آل عمران

- ١ - بيان معنى الدين ، ومعنى الإسلام ، فليس الدين هو كل اعتقاد فى الله إنما هو صورة واحدة من صور الاعتقاد فيه سبحانه ، صورة التوحيد المطلق الناصع القاطع :  
توحيد الألوهية التى يتوجه إليها البشر.
- ٢ - توحيد القوامة على البشر وعلى الكون كله ، فلا يقوم شئ إلا بالله تعالى ، ولا يقوم على الخلق إلا الله تعالى.
- ٣ - تصوير حال المسلمين مع ربهم ، واستسلامهم له ، وتلقيهم لكل ما يأتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع الدقيق .
- ٤ - التحذير من ولاية غير المؤمنين ، والتهوين من شأن الكافرين مع هذا التحذير ، وتقرير أنه لا إيمان ولا صلة بالله مع تولى الكفار الذين لا يحتكمون لكتاب الله ، ولا يتبعون منهجه فى الحياة .
- ٥ - بيان أن اللذائذ الدنيوية زائلة ، والآخرة خير وأبقى .
- ٦ - محبة الله سبحانه لا تتم إلا بمتابعة الرسول - صلى الله عليه وسلم .
- ٧ - بيان قصص بعض المصطفين الأخيار : كمریم وزكريا ويحيى وعيسى - عليهم السلام - وما جرى لعيسى من المعجزات ، والرد على من ادعى أنه ابن الله .
- ٨ - أمر النبى أن يدعو أهل الكتاب إلى المباهلة والدعاء بأن ينزل الله لعنته على الكافرين.
- ٩ - بيان أنه تعالى أخذ الميثاق على الأنبياء : أن يؤمنوا بجميع الرسل ، وأن من صفة محمد كونه مصدقاً لما معهم .
- ١٠ - بيان أفضلية البيت الحرام على غيره ، وأن حجّه واجب على المستطيع .
- ١١ - ذكر غزوة أحد ، وبيان أن طريق الجنة : الجهاد والعمل الصالح ، وأن كثيراً من الأمم حاربت مع أنبيائهم .
- ١٢ - النبى صلى الله عليه وسلم رحيم بأمته ، ولو كان سيئ الأخلاق لابتعد الناس عنه ، وقد حث القرآن على مشاورة أصحابه والعزم والتوكل على الله . وقد تفضل الله على الخلق برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .
- ١٣ - بيان حال الشهداء وفضلهم ومنزلتهم السامية عند الله .
- ١٤ - بيان أن بعض أهل الكتاب آمنوا ، وحث المؤمنين على الصبر والمراعاة والتقوى والتمسك بالوحدانية المطلقة .

﴿ ١ ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿ ٢ ﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿ ٣ ﴾ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿ ٤ ﴾

المفردات :

الحى : ذو الحياة وهى صفة تستتبع الاتصاف بالعلم والإرادة.

القيوم : القائم على كل شئ بكلامته وحفظه.

الفرقان : القرآن ، أو جميع الكتب السماوية ، لأنها تفرق بين الحق والباطل.

ذو انتقام : ذو عقوبة شديدة لمن عصاه، لا يقدر على العقاب بمثلها أحد.

التفسير :

. آلِ

تحديثاً عن فواتح المور فى أول سورة البقرة ، وتكلمنا عن الحروف المقطعة التى بدت بها بعض السور.

وأراء العلماء فى هذه الفواتح ترجع إلى رأيين اثنين.

أحدهما : أنها جميعاً مما استأثر الله به ، ولا يعلم معناها أحد سواه - وهذا رأى كثير من الصحابة والتابعين.

ثانيهما : أن لها معنى وقد ذهبوا فى معناها مذاهب شتى . فمنهم من قال هى أسماء للسورة، ومنهم من قال هى رموز لبعض أسماء الله تعالى أو صفاته ، ومنهم من قال هى حروف للتنبيه، ومنهم من ذكر أنها حروف للتحدى والإعجاز ، وبيان أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن ، مع أنه مراد من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها ، وفى هذا دليل على أنه ليس من صنع بشر بل تنزيل من حكيم حميد.

٢ - اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .

رغم أن بعض الناس قد يؤلهون أرباباً كثيرة، ويعبدون أشياء عدة إلا أن الحقيقة الخالدة هى أن كافة المخلوقات تنتمى إلى الله الذى لم يكن له شريك أزلاً ولا شريك له أبداً، فهو الله الحى القيوم ، وأهب الحياة للخلق أجمعين لا عون ولا مدد إلا منه ، وهو المعين ولا معين سواه، لا شبيه له فى صفاته ، ولا ند له فى ذاته، ولا مثيل له، ولا شريك له ، ولذا فاتخاذ إله آخر - أيا كان - مع الله فى الأرض أو السماء . إن هو إلا زور ويهتان مبين.

روى ابن جرير وابن إسحاق وابن المنذر أن هذه الآيات وما بعدها إلى نحو ثمانين آية نزلت فى نصارى نجران إذ وفدوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكانوا نحو ستمين راکباً ، وخاصموه فى عيس ابن مريم وقالوا: من أبوه ؟ وقالوا على الله تعالى الكذب والبهتان ، فقال لهم النبى - صلى الله عليه وسلم : الستم

تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه ؟ قالوا : بلى ، قال أستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت ، وأن عيسى يأتي عليه الفناء ؟ قالوا : بلى ، قال : أستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا بلى . قال فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال أستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء . وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ، ولا يحدث الحدث ؟ قالوا بلى . قال أستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غُذي كما يغذي الصبي ، ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا : بلى . قال كيف يكون هذا كما زعمتم ، فعرفوا ثم أبوا إلا جحوداً ، فأنزل الله : **أَسْمَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .** إلى آخر الآيات .

ووجه الرد عليهم فيها ، أنه تعالى بدأ بذكر التوحيد لينفي عقيدة التثليث بادئ ذي بدء ، ثم أتبع ذلك بما يؤكد من كونه حياً قيوماً : أى قامت به السموات والأرض وهى قد وجدت قبل عيسى ، فكيف تقوم به قبل وجوده .

ويذكر البيضاوى فى تفسيره ( أنوار التنزيل وأسرار التأويل ) رواية تفيد أن الرسول (ﷺ) قال : إن اسم الأعظم فى ثلاث سور (١١٦) .

فى البقرة : **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .**

وفى آل عمران : **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .**

وفى طه : **وَعَبَّ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ .**

٣ - **نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ...**

نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ يعنى القرآن ، وللقُرآن أسماء كثيرة وردت متفرقات فى ثاىا الكتاب العزيز فهو القرآن ، والكتاب ، والفرقان ، والذكر ... وغير ذلك من الأسماء العديدة التى أوردها السيوطى فى كتابه (الإتقان) وقد عبر عن القرآن بالكتاب ، للإيدان بأنه هو الكتاب المتميز الذى ينصرف إليه هذا الاسم عند الإطلاق ، والألف واللام فيه للعهد أى الكتاب المعهود . أو الإشارة إلى أنه مشتمل على ما فى غيره من الكتب السماوية من المقاصد المشتركة بين الأديان فكانه جنس الكتب السماوية ، والألف واللام فيه على هذا للجنس .

بِالْحَقِّ أى بالصدق الذى لا شبهة فيه .

فقد أنزل الله القرآن متلبساً بالحق فى جميع صوره من توحيد الله وتنزيهه عن الصحابة والولد ، وإخباره عن أحوال الأمم السابقة ، وشهادته بنبوة محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وبين ما جاء به من العبادات والمعاملات والأخلاق وأحوال الآخرة ، فكل هذه الصور من الحق ، نزل بها القرآن .

**مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ .**

الضمير في يديه يعود على الكتاب ، والمعنى أن الكتاب العزيز مصدق لما قبله من الكتب السماوية التي أنزلها الله على رسله ، ومحقق لها فيما نزلت به ، فإن الله سبحانه لم يبعث رسولا قط إلا بالدعوة إلى توحيده، والإيمان به، وتنزيهه عما لا يليق به سبحانه ، مثل صفح إبراهيم ، وزبور داود ، وتوراة موسى .

قال أبو مسلم : المراد منه أنه تعالى لم يبعث نبيا قط إلا بالدعاء إلى توحيده والإيمان به، وتنزيهه عما لا يليق به، والأمر بالعدل والإحسان ، وبالشرائع التي هي صلاح كل زمان، فالقرآن مصدق لتلك الكتب في كل ذلك (١١٧) .

التَّورَةُ وَالْإِنْجِيلُ . أى أنزل التوراة على موسى وأنزل الإنجيل على عيسى .

٤ - مَنْ قَبْلُ هَدَىٰ لِلنَّاسِ . أى أنزل التوراة والإنجيل من قبل القرآن لأجل هداية الناس حين أنزلهما على موسى وعيسى، فلم يكن فيهما شيء من الضلال الذي يشتملان عليه الآن (١١٨) .

وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، المراد بالفرقان ما يفرق بين الحق والباطل، والمعنى الأقرب أن المقصود بالفرقان هو القرآن الكريم، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنه فصل بين الحق والباطل في أمر عيسى، لأن سورة آل عمران تحدثت في نصفها الأول عن عيسى عليه السلام وبينت حقيقته ، ونفت أن يكون ابنا لله . وناقشت من ذهب إلى تأليهه. وذهب مفسرون آخرون إلى أن القرآن فصل بين الحق والباطل في أحكام الشرائع، فقد أحل الحلال وحرم الحرام، وفرض الفرائض، وسن الأخلاق الرفيعة ...

أخرج ابن جرير ، عن محمد بن جعفر بن الزبير أنه - أى القرآن - الفاصل بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى - عليه السلام - وغيره .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ . المراد بالكافرين : النصارى الذين نزل صدر السورة بسببهم أو كل كافر فيدخل هؤلاء فيه دخولا أولياً .

والمراد بآيات الله : الكتب المنزلة على الرسل، أو ما يعمها وغيرها كالأيات والمعجزات .

وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . العزيز : الغالب الذي لا يغلب ، والانتقام : العقوبة، وكلمة عزيز : للإشارة إلى القدرة التامة على العقاب .

والجملة سبقت لتقرير الوعيد السابق عليها

## التوراة والإنجيل

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي في تفسير هذه الآيات ما يأتي :

يفهم الناس بوجه عام أن المراد بالتوراة هي الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم (١١٩) وأن المقصود بالإنجيل أناجيل العهد الجديد الأربعة الشهيرة (١٢٠) ومن هنا ظهرت هذه المشكلة.

أي هذه الكتب يا ترى هي كلام الله حقاً ؟ وهل يصدق القرآن فعلاً كل ما ورد فيها من أقوال ؟ والحقيقة أن التوراة ليست هي الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم بل هي منشورة في بطنها، وأن الإنجيل ليس هو الأنجيل الأربعة بل هو موجود بين سطورها.

فالمراد بالتوراة أصلاً تلك الأحكام التي نزلت على موسى عليه السلام منذ بعثته وإلى وفاته أي في مدة تقارب اثنين وأربعين عاماً كانت منها تلك الوصايا العشر التي دوّنها الله على الواح وأعطاهها له. أما بقية الأحكام فقد أمر موسى عليه السلام بكتابة اثنتي عشرة نسخة منها وأعطاهها لأسباط بني إسرائيل الاثني عشر، وأعطى نسخة من بين هذه النسخ إلى بني لاوى أحد أسباط بني إسرائيل كي يحفظوها. وكان هذا الكتاب يسمى بالتوراة، وقد ظل سليماً محفوظاً ككتاب مستقل حتى أول تدمير لبيت المقدس، وكانت نسخة بني لاوى والألواح الحجرية توضع في تابوت العهد ويعرفها بنو إسرائيل باسم ( التوراة ). غير أن غفلتهم ونسيانهم وصل إلى حد أنه حين حدث ترميم الهيكل السليماني في عهد ( يوسياه ) ملك يهوذا . عثر كبير الكهان على التوراة موضوعة في مكان ما في ( خلقيا ) وأعطاهها إلى كاتب الملك كأعجوبة أثرية فأخذها الكاتب وقدمها للملك كاككتشاف مذهش عجيب ( انظر الملوك الثاني إصحاح ٢٢ من ١٢٠٨ ).

وحين فتح ( بختنصر ) اورشليم وأحرق الهيكل والمدينة بأكملها وسواها بالتراب فقد بنو إسرائيل نسخ التوراة الأصلية ، التي كانت لديهم أعداد جد قليلة منها، وكانوا قد أسدلوا عليها ستائر النسيان .

ثم لما عادت بقية بني إسرائيل من الأسر البابلي في عهد الكاهن عزرا ( عزير ) إلى اورشليم وبنى بيت المقدس من جديد دون عزرا كل تاريخ بني إسرائيل بعون من بعض أكابر القوم وهو ما يضم الآن الأسفار السبعة عشر الأولى من العهد القديم.

والأسفار الأربعة من هذا التاريخ التي تحوى سيرة موسى عليه السلام وهي الخروج واللاويين والعدود والتثنية أدرجت فيها آيات التوراة التي كانت في يد عزرا ومعاونيه حسب موقعها وفق ترتيب نزولها.

فالتوراة الآن إذن هي تلك الأجزاء المتفرقة التي تنتثر فيها سيرة موسى عليه السلام بين صفحات العهد القديم، ونستطيع أن نبينها من بين هذا السرد التاريخي بعلامة واحدة هي أننا إذا وجدنا مصنف سيرة موسى يقول : قال الله لموسى كذا... أو قال موسى : الرب إلهكم يقول كذا... فلتعلم أن جزءاً من التوراة قد بدأ هنا . ثم إذا استأنف سرد السيرة فلتعلم أن هذا الجزء قد انتهى. وإذا ما أسهب مصنف التوراة في شرح وتفسير شيء ما في موضع وسط صفحاتها تعذر على المرء العادى أن يميز ما إذا كان هذا الجزء من التوراة أم من الشرح

والتفسير . ومع ذلك فمن لهم بصيرة فى تدبر الكتب السماوية فى مقدورهم أن يعرفوا إلى حد ما التفسير والشروح التى أضيفت وألحقت بهذه الأجزاء على نحو صحيح .

والقرآن يسمى هذه الأجزاء المتناثرة ( التوراة ) ويصدقها ، والحقيقة أننا لو جمعنا هذه الأجزاء وقارناها بالقرآن فلن نجد قيد شعرة من الاختلاف فى الأحكام الجزئية فى بعض المواضع ، والمتدبر لكليهما اليوم يستطيع أن يحس إحساساً واضحاً بأن كلا الرافين صادر من منبع واحد .

كذلك فالإنجيل فى أصله هو تلك الخطب والأقوال التى قالها المسيح عليه السلام حتى آخر عامين أو ثلاثة من حياته بوصفه نبياً من عند الله . أما هل كتبت هذه الكلمات الطيبات فى حياته أم لا فليس عندنا أى مصدر نستقى منه المعلومات حول ذلك وقد يجوز أن يكون بعض الناس قد دونوها ويجوز أن بعض المؤمنين به سمعوها وحفظوها شفاهة . على أى حال حين كتبت رسائل مختلفة عن سيرته الطاهرة بعده بربح من الزمن أدرجت فيها - إلى جانب البيان التاريخى - تلك الأقوال والخطب التى وصلت إلى مصنفى هذه الرسائل عن طريق الروايات الشفهية أو المذكرات المكتوبة . وكتب متى ومرقس ولوقا ويوحنا التى تسمى اليوم (أناجيل) ليست هى الإنجيل الأصيل وإنما الإنجيل الحق هو أقوال المسيح التى أدرجت بين سطورها وليس لدينا وسيلة للتعرف عليها أو التفريق بينها وبين كلام كتاب سيرة المسيح عليه السلام سوى أنه حين يقول المؤلف قال المسيح كذا ... أو علم المسيح الناس كذا ... فهذه هى أجزاء الإنجيل الأصيل ، والقرآن يسمى هذه الأجزاء بالإنجيل ويصدقها ولو جمع أمرؤ اليوم هذه الأجزاء المنثورة بين صفحات العهد الجديد وقارنها بالقرآن لما وجد بين كليهما سوى فرق طفيف وحتى هذا الفرق البسيط الذى يدركه من يقوم بهذه المقارنة يمكن حله وإزالته بسهولة ويسر بعد التفكير فيه بعقل بعيد عن التعصب (١٢١) .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۚ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ ۖ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦﴾

المفردات :

لا يخفى : لا يغيب .

يصوركم : يخلقكم على ما شاء من صورة .

الأرحام : جمع رحم وهى مكان الحمل مشتق من الرحمة .

التفسير :

٥ - إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . إن الله واسع العلم ، لا يخفى عليه شيء كائن فى الأرض ولا فى السماء ، لعلمه بما يقع فى العالم من كلى أو جزئى ، فهو العالم بما كان وما يكون ، وهو مطلع على



كفر من كفر بآيات الله، وإيمان من آمن بها، وهو مجازيهم عليه، والمسيحيون يؤمنون بالوهية عيسى غافلين عن أنه بشر محدود المعرفة فكيف يكون إلهاً ؟.

وعبر عن علمه - تعالى - بذلك إيذاناً بأن علمه سبحانه بالكائنات، ولو كانت في أقصى غايات الخفاء ليس من شأنه أن يكون فيه شائبة خفاء بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الوضوح والجلالة (١٢٢).

٦- هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ .

هو الذي يمتحكم الصورة التي يشاء ويمتحم الخصائص المميزة لهذه الصورة ، وهو وحده الذي يتولى التصوير بمحض إرادته ومطلق مشيئته .

قال أبو السعود في التفسير :

( يصوركم كائنين على مشيئته تعالى تابعين لها في قبول الأحوال المتغيرة من كونكم نطفاً ثم علماً ثم مضجاً غير مخلقة ثم مخلقة وفي الاتصاف بالصفات المختلفة من الذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك من الصفات ) .

لا إله إلا هو . إذ لا يتصف بشيء مما ذكر من الشئون العظيمة الخاصة بالألوهية أحد ليتوهم ألوهيته .

العزيز الحكيم . المتناهى في القدرة والحكمة؛ ولذلك يخلقكم على ما ذكر من النمط البديع .

وفي هذه اللمسة تجلية لشبهات النصارى في عيسى عليه السلام ونشأته ومولده قاله هو الذي صور عيسى ( كيف يشاء ) . لا أن عيسى هو الرب، أو هو الله أو هو الابن، أو هو الأقنوم اللاهوتي الناسوتي ، إلى آخر ما انتهت إليه التصورات المنحرفة الغامضة المجانبة لفكرة التوحيد .

★ ★ ★

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْبَيْتِ ۚ ﴾ (٧)

المفردات :

محكمات : واضحات .

متشابهات : محتملات لعدة معان لا يتضح مقصودها فاشتبه أمرها على الناس .

زَيْغٌ : ميل عن الحق إلى الباطل .

ابتغاء الفتنة : طلباً لها .

الراسخون في العلم : الثابتون فيه .

الألبساب : العقول الخالصة .

المعنى العام للآية :

وهو الذى أنزل عليك القرآن وكان من حكمته أن جعل منه آيات محكمات محددة المعنى بيّنة المقاصد، هي الأصل وإليها المرجع، وآخر متشابهات يديق معناها على أذهان كثير من الناس ، وتشتهى على الراسخين فى العلم وقد نزلت هذه المتشابهات لتبعت العلماء على العلم ، والنظر ودقة الفكر فى الاجتهاد، وفى البحث فى الدين .

وشأن الزائفين عن الحق أن يتبعوا ما تشابه من القرآن ، رغبة فى إثارة الفتنة، وهم يؤولون الآيات حسب أهوائهم ، وهذه الآيات لا يعلم تأويلها الحق إلا الله ، والذين تثبتوا فى العلم وتمكنوا منه، وأولئك المتمكنون منه يقولون : إننا نوقن بأن ذلك من عند الله ، لا نفرق فى الإيمان بالقرآن بين محكمه ومتشابهه، وما يعقل ذلك إلا أصحاب العقول السليمة التى لا تخضع للهوى والشهوة .

ويتعلق بتفسير الآية ما يأتى :

### ١ - المحكم والمتشابه

المحكمات : من أحكم الشيء بمعنى وثّقه وأتقنه ، والمعنى العام لهذه المادة المنع فإن كل محكم يمنع بإحكامه تطرق الخلل إلى نفسه أو غيره ، ومنه الحكم والحكمة، وحكمة الفرس، قيل وهي أصل المادة .

والمتشابه : يطلق فى اللغة على ما له أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضاً، وعلى ما يشتهى من الأمر أى يلتبس قال فى الأساس ( وتشابه الشيطان ، واشتهى ، وشبهته به، وشبهته إياه واشتهت الأمور وتشابهت : التبتت لإشياء بعضها بعضاً، وفى القرآن المحكم والمتشابه ) .

### ٢ - آراء العلماء فى المحكم

( أ ) هو الحلال والحرام ... روى عن ابن عباس ومجاهد .

( ب ) هو ما علم العلماء تأويله ...

( جـ ) هو ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان .

( د ) هو ما لم يحتمل من التاويل إلا وجهاً واحداً .

( هـ ) هو الأمر والنهى والوعيد والحلال والحرام .

( و ) عن ابن مسعود : قال أنزل القرآن على خمسة أوجه :

حرام وحلال ، ومحكم ومتشابه، وأمثال ، فأحل الحلال، وحرم الحرام ، وآمن بالمتشابه، وأعمل بالمحكم واعتبر بالأمثال .

( ز ) قال ابن عباس هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ . هن أصل الكتاب اللاتي يعمل عليهن في الأحكام ومجمع الحلال والحرام .

### ٣ - آراء العلماء في المتشابه

( أ ) هو ما لم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل كقيام الساعة .

( ب ) هو الحروف المقطعة في فواتح السور كقوله آلم . ونحو ذلك . وقد جاء في تفسير المنار أن المفسرين قد اختلفوا في المحكم والمتشابه على أقوال :

( أحدهما ) أن المحكمات هي قوله : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ... (الأنعام : ١٥١) إلى آخر الآية والآيتين اللتين بعدها (١٣٣) والمتشابهات هي التي تشابهت على اليهود وهي أسماء حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور .

( ثانيها ) أن المحكم هو الناسخ والمتشابه هو المنسوخ.

( ثالثها ) أن المحكم ما كان دليلاً واضحاً لاثبات دلائل الوحدانية والقدرة والحكمة ، والمتشابه ما يحتاج في معرفته إلى التدبر والتأمل.

( ورابعها ) أن المحكم كل ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جلي أو خفي، والمتشابه ما لا سبيل إلى العلم به كوقت قيام الساعة ومقادير الجزاء على الأعمال (١٢٤).

### ٤ - الوقف والوصل

في قوله تعالى :

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا .

للعلماء في تفسير هذه الآية رأيان :

١ - رأى بعض السلف وهو الوقف على لفظة الجلالة ، وجعل قوله : وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ . كلاماً مستأنفاً ، وعلى هذا فالمتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ، واستدلوا على ذلك بأمور منها :

( أ ) أن الله ذم الذين يتبعون تأويله.

( ب ) أن قوله : يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا . ظاهر في التسليم المحض لله تعالى، ومن عرف الشيء وفهمه لا يعبر عنه بما يدل على التسليم المحض.

وهذا رأى كثير من الصحابة رضوان الله عليهم كابن كعب وعائشة.

٢ - ويرى بعض آخرون الوقف على لفظ : **الْعِلْمُ** . ويجعل قوله : **يَقُولُونَ آمَنَّا** . كلام مستأنف ، وعلى هذا فالمتشابه يعلمه الراسخون ، وإلى هذا ذهب ابن عباس وجمهرة من الصحابة ، وكان ابن عباس يقول : أنا من الراسخين في العلم ، أنا أعلم تأويله .

وردوا على أدلة الأولين بأن الله تعالى إنما ذم الذين يبتغون التأويل بذهابهم فيه إلى ما يخالف المحكمات يبتغون بذلك الفتنة، والراسخون في العلم ليسوا كذلك فإنهم أهل اليقين الثابت الذي لا اضطراب فيه، فالله يفيض عليهم فهم المتشابه بما يتفق مع فهم المحكم (١٢٥) ويشهد لصحة هذا الرأي أمران :

**أحدهما :** أن الله تعالى ما أنزل القرآن إلا ليعمل به ، فلا ينبغي أن يكون فيه الغاز ومعميات لا يمكن فهمها وإدراكها، فمتشابهه يجب أن يرد إلى محكمه كما قال تعالى **هُنَّ أُمُّ الْكُتَابِ** : أي مرجعه عند الاشتباه .

**وثانيهما :** أن الله تعالى أثنى على الراسخين في العلم بقوله : **وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ** ففى وصفهم بأنهم أصحاب العقول الخالصة المتذكرة دليل على أنهم استعملوها في كشف التشابهات والتذكر بها .

## ٥ - الحكمة في وجود المتشابه

( أ ) امتحان قلوب المؤمنين في التصديق به .

(ب) هو حافظ للعقول إلى النظر فيه .

(ج) البحث عن المتشابه ومحاولة فهمه من حظ الخاصة كما أن التسليم والتفويض من حظ العامة .

قال الزمخشري : **فإن قلت : فهلا كان القرآن كله محكما ؟**

قلت: لو كان كله محكما لتعلق الناس به، لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل والنظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك، لمطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به (١٣٦) .

ولما في المتشابه من الابتلاء ، والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتباع القرائح - في استخراج معانيه ورده إلى المحكم ، من الفوائد الجلية، والعلوم الجمّة، ونيل الدرجات عند الله ، ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف فيه - إذا رأى فيه ما يناقض ظاهره - وأهمه طلب ما يوفق بينه ، ويجريه على سنن واحدة ففكر وراجع نفسه وغيره ، ففتح الله عليه ، وتبين مطابقة المتشابه للمحكم- ازداد طمأنينة إلى معتقده ، وقوة إيمانه ... اهـ .

## ٦ - زعم التناقض

زعم النصارى أن القرآن فيه تناقض حين نفى نبوة عيسى لله ، ثم أثبتها حين ذكر أنه روح منه، وهذا زيف منهم يبتغون به الفتنة، فإن المراد من قوله « روح منه » أنه صادر من الله ، فكما أن كل شيء صادر من الله بالخلق والإبداع ، فكذلك روح عيسى، وصدق الله إذ يقول : **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ \* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** (الإخلاص : ٣ - ٤) .

## ٧ - صفات الله

جاء في القرآن الكريم آيات تدل بظاهرها على أن لله وجهاً وبيدين وجهة هي السماء ومكاناً هو العرش ونحو ذلك مما يوهم التشبيه والجسمية والانتقال، وآيات أخرى تثبت له صفات مختلفة من العلم والقدرة والكلام ونحوها .

وطائفة ثالثة : منها ما يصرح بأنه لا تتركه الأبصار ومنها ما يدل على جواز رؤيته تعالى .

فراى رجال السلف الصالح متابعة الصعابة والتابعين فى موقفهم منها .

« فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها، وعلموا استحالة التشبيه ، وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمناها ببحث ولا تأويل (١٢٧) وقد سئل الإمام مالك عن معنى قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » فقال : « الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة » (١٢٨).

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود فى تفسير سورة آل عمران :

ونشأت المشكلة : حينما بدأ الباحثون يتعرضون للآيات التى وردت فى القرآن الكريم ، والتى توهم التشبيه، كاليد والوجه والاستواء، أو التى وردت فى الأحاديث : كالنزول والصورة ، والأصابع.

بدأت المشكلة: حينما تعرض بعض الباحثين لهذه الأنفاظ وأمثالها : تأويلا لها، أو نفياً لمعناها، أو تفسيراً أو شرحاً ... ( ... والموقف الذى يقفه من أراد متابعة السلف الصالح إذن تجاه كلمات الصورة واليد والنزول، إنما هو الإيمان بها مع التنزيه لله تعالى عن الجسمية وتوابعها، وليس معنى ذلك ، أن هذه الأنفاظ معطلة عن المعنى ، بل لها معنى يليق بجلال الله وعظمته : مما ليس بجسم ولا عرض فى جسم، وأن يؤمن بأن ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله - صلى الله عليه وسلم - فهو كما وصفه، وحق بالمعنى الذى أراد - وعلى الوجه الذى قال ، وأن لا يحاول لها تفسيراً ولا تأويلا.

وشعار السلف معروف فى هذه الكلمات وهو :

« أمروها كما جاءت » - يقول الإمام الرازى فى كتابه ( أساس التقديس ) : « إن هذه المتشابهات ، يجب القطع فيها بأن مراد الله تعالى فيها ، شىء غير ظواهرها، ثم يجب تفويض معناها إلى الله تعالى، ولا يجوز الخوض فى تفسيرها ».

إن الأصول الدقيقة للعقيدة والشريعة ، قاطعة الدلالة مدركة المقاصد وهى أصل هذا الكتاب.

والذين فى قلوبهم زيغ، يتركبون الأصول الواضحة، ويجرون وراء المتشابه لأنهم يجدون فيه مجالاً لإيقاع الفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقيدة ، والاختلافات التى تنشأ عن بليلة الفكر نتيجة إقحامه فيما لا مجال للفكر فى تأويله ، وأما الراسخون فى العلم فيقولون فى طمأنينة وثقة أننا به كلٌّ من عند ربنا أى الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له وليس شىء من عند الله بمختلف ولا متضاد .

روى الإمام أحمد أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سمع قومًا يتدارسون فقال : (إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضا ، فلا تكذبوا بعضه ببعض ، فما علمتم منه فقولوا به ، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه ) (١٢٩).

★ ★ ★

﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ رَبِّ رَبِّهِمْ فِيهِ الْيَوْمُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادُ ۝ ﴾

المضردات :

**لا ترغ قلوبنا** : لا تملها عن الحق .

**من لَدُنْكَ** : من عندك .

**ليوم لا رب فيه** : ليوم لا يصح أن يشك فيه وهو يوم القيامة .

التفسير :

٨ - رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ .

هذه الآية من تنمة كلام الراسخين في العلم فهم أمام المتشابه من القرآن ، يؤمنون به ، ويصدقون بأنه كلام الله وينحنون بعقولهم أمام كلام ربهم قائلين : آمنا به كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبَّنَا ثُمَّ يَنْتَسِلُونَ فِي الدُّعَاءِ سَائِلِينَ اللَّهَ الثَّابِتَ عَلَى الْحَقِّ وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَى الْهَدْيِ ، وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ لَهُمْ .

ويذهب الشريف الرضي في تفسيره هنا إلى أنه دعاء بالتثبيت على الهداية ، وإمدادهم بالألطف التي معها يستمرون على الإيمان ، وعلى طريق المعتزلة يسوق الشريف تفسيره في نطاق جدلي ينتهي إلى الجواب السليم فيجري تساؤلا بقوله : وكيف يكون مزيقا لقلوبهم بالا يفعل اللطف ؟ ثم يتولى الإجابة قائلا :

من حيث كان المعلوم له متى قطع إمدادهم بالطافه وتوفيقه زاغوا وانصرفوا عن الإيمان ، ويمضى شارحا ضاريا المثل قائلا : ويجري هذا مجرى قولهم :

اللهم لا تسلط علينا من لا يرحمنا ، ومعناه لا تغل بيننا وبين من لا يرحمنا فيتسلط علينا .

وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ . هم يعرفون أنهم لا يقدرون على شيء إلا بفضل الله ورحمته ، وأنهم لا يملكون قلوبهم فهي في يد الله .. فيتجهون إليه بالدعاء أن يمدهم بالعون والنجاح .

روى ابن أبي حاتم عن أم سلمة أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » (١٣٠) ثم قرأ : رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ .

والوهاب : كثير الهبات والعطايا أى إنك أنت وحدك الوهاب لكل موهوب، وفيه دليل على أن الهدى بتوفيق الله ، والضلال بعدم الإعانة منه، لتقصير العبد فى سلوك سبيله ، وأنه متفضل بما ينعم به على عباده، من غير أن يجب عليه شيء .

٩ - رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ... .

أى أنت يا ربنا ، جامع المهتدين والزائغين ، لحسابهم وجزائهم فى يوم لا ينبغى أن يرتاب فى وقوعه .  
ليجزى كل إنسان بما عمله فى الدنيا من خير وشر .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ . هذه الجملة من كلام الله بعد أن تم كلام الراسخين فى العلم . كان القوم لما قالوا : « إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه » صدقهم الله فى ذلك وأيد كلامهم بقوله « إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ » وقيل هو كلام الراسخين .

والمعنى على هذا :

إنك لا تخلف وعده للمسلمين والكافرين بالثواب والعقاب .

والتأكيد بـان ، وإظهار لفظ الجلالة بدلا من الضمير يفيد تأكيد نفى الريب، كما يفيد تأكيد قيام الساعة تأكيداً حاسماً .

★ ★ ★

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ١٠ ﴿كَذَٰبٌ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُّوهُمْ فِي شِدَارِ اللَّهِ سَٰبِقَةً﴾ ١١ ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ١٢ ﴿

المفردات :

وقود النار : وقود النار - بالفتح - ما توقد به النار ، وبالضم : الاشتعال .

كذاب : الداب ، العادة ، والصنيع والحال ، و الشأن والأمر .

التفسير :

١٠ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ . التى يبدلونها هى جلب المنافع ودفع- المضار .

وَلَا أَوْلَادُهُمْ . الذين بهم يتناصرون ، وعليهم يعتمدون .

مِنَ اللَّهِ شَيْئًا . أى من عذاب الله شيئاً من الإغناء أى لن تدفع عنهم شيئاً من عذابه .

قال تعالى : يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ \* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . (الشعراء : ٨٨ ، ٨٩).

وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ . يفتح الواو اى حطبها وقرئ بالضم بمعنى اهل وقودها ، واكثر اللغويين على أن الضم للمصدر اى التوقد ، والفتح للحطب .

وقال الزجاج المصدر مضموم ، ويجوز فيه الفتح ، وهذا كقوله تعالى : إِنُّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ . (الأنبياء : ١٨).

١١ - كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . قال ابن عباس كصنيع آل فرعون ، أو كسنة آل فرعون ، وكفعل آل فرعون ، وكشبه آل فرعون والألفاظ متقاربة .

والدأب بالتسكين والتحريك أيضاً كهر ونهر هو الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة كما يقال : لا يزال هذا دأبى ودأبك .

وقال امرؤ القيس :

كذابك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

والمعنى كعادتك فى أم الحويرث حين أهلكت نفسك فى حبها وبكىت دارها ورسمها ••

والمعنى فى الآية :

لن تغنى عن هؤلاء الكفار أموالهم ولا أولادهم ، شأنهم فى هذا شأن آل فرعون حيث لم يغن عنهم ما ملكوه من أموال طائلة ، وما أنجبهوه من أبناء عديدين ، فأغرقوا وأدخلوا نارا بسبب كفرهم ، وكما دخلوا النار بكفرهم فسيدخلها كل كافر مفسد .

والذين من قبلهم . اى الأمم الكافرة التى كذبت الرسل .

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا بَيَانٍ وَتفسير لدأبهم الذى فعلوا على طريقة الاستئناف المبني على السؤال المقدر . والآيات : المعجزات والبراهين التى أيد بها الرسل ، أو الأدلة على وجود الله ووحدانيته أو هما معاً .

فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ أَى عاقبهم وأهلكهم بسببها وقد استعمل الأخذ لأن من ينزل به العقاب يصير كالماخوذ الماسور الذى لا يقدر على التخلص .

وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ . أى الأخذ بالذنب ، فيه تهويل للمؤاخذه وزيادة تخويف للكفرة ، وهو تذييل مقرر لمضمون ما قبله من الأخذ للجميع وتكملة له .



﴿ قُلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتُغْلُبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمِهَادُ ﴾ (١٢)

المفردات :

المهاد : الفراش .

سبب النزول :

روى أبو داود فى سننه والبيهقى فى الدلائل عن طريق ابن إسحاق عن ابن عباس :

أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما أصاب ما أصاب من بدر ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال :

يا معشر اليهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا . فقالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش : كانوا أغمارا لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس ، وأنك لم تكن مثنا .. هأنزل الله :

قُلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتُغْلُبُونَ وَتُحْشَرُونَ . إلى قوله : لأُولَى الْأَبْصَارِ . وحكم الآية يعم جميع الكافرين ، وإن نزلت بسبب اليهود :

المعنى : قل ، يا محمد لهؤلاء الكفار : ستغلبون - ألبتة - عن قريب وستحشرون بعد موتكم إلى جهنم وبئس الفراش : جهنم ، التى مهدتموها لأنفسكم بذنوبكم وآثامكم .

والتعبير عن جهنم بالمهاد ، للتهكم بهم ، فإن المهاد هو الفراش الذى يهدد ليستراح عليه ، ولا مهاد ولا راحة فى السعير ، وقد صدق الله وعده بقتل يهود بنى قريظة (١٣١) ، وإجلاء بنى النضير وفتح خيبر (١٣٢) وضرب على من عداهم وهو من أوضح شواهد النبوة ، حيث أخبر القرآن به قبل وقوعه .

★ ★ ★

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فَتْيَيْنِ النَّفْتِ فَمَنْ تَقَتَّلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولَى الْأَبْصَارِ ﴾ (١٣)

المفردات :

آية : الآية هنا ، العبرة والعظة .

نفث : النفث ، الطائفة من الناس .

الأبصار : البصائر والمقول .

التفسير :

١٣ - قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ النَّصَارَى . . .

أى قل لأولئك اليهود الذين غرقتهم أموالهم واعتزوا بأولادهم وأنصارهم لا تغرنكم كثرة العدد ولا المال والولد، فليس هذا سبيل النصر والغلب فالحوادث التى تجرى فى الكون أعظم دليل على تنفيذ ما تدعون .

انظروا إلى الفئتين اللتين التقتا يوم بدر، فئة قليلة من المؤمنين تقاتل فى سبيل الله كتب لها الفوز والغلب على الفئة الكثيرة من المشركين .

وفى هذا عبرة أيما عبرة لذوى البصائر السليمة التى استعملت العقول فيما خلقت لأجله من التأمل فى الأمور والاستفادة منها .

ووجه العبرة فى هذا أن هناك قوة فوق جميع القوى قد تؤيد الفئة القليلة فتغلب الفئة الكثيرة بإذن الله .

فَتَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . أى فئة مؤمنة فى أعلى درجات الإيمان تجاهد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله وحماية الحق والدفاع عن الدين وأهله .

وَأُخْرَى كَافِرَةٌ . أى فئة أخرى كافرة ، والمراد بها كفار قريش .

وكان المسلمون فى بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً معهم فرسان وستة أدرع وثمانية سيوف، وأكثرهم رجالة . وكان المشركون قريباً من ألف .

يَرَوْنَهُمْ مِنْهُمْ . أى يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين قريباً من ألفين، أو مثلى عدد المسلمين .

والمراد من الرؤية الظن والحسبان ، وقد كثر الله المسلمين فى أعين المشركين ليهابوهم فيحترزوا عن قتالهم ، أو أنزل الله الملائكة حتى صار عدد المسلمين كثيراً فى نظر المشركين .

رَأَى الْعَيْنَ . أى رؤية ظاهرة لا لبس فيها .

لقد كانت هناك مواقف مختلفة للمعركة . فقبل المعركة قاتل الله المسلمين فى أعين المشركين حتى يجترئوا عليهم كما قاتل الله المشركين فى أعين المسلمين ، ليزداد حماس المسلمين ويقينهم بالنصر .

قال تعالى : وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّمِيمَ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ . (الأنفال : ٤٤) .

فلما بدأت المعركة والتحم الجيشان ، كثر عدد المسلمين فى أعين الكفار ليهابوهم وتتزلزل أقدامهم ، فيفشلوا وينهزموا .

ويحتمل أن المسلمين كثروا أولاً فى أعين المشركين ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع، ثم لما حصل التّصاف والتقى الفريقان قاتل الله هؤلاء فى أعين هؤلاء ليقدّم كل منهما على الآخر ليقتضى الله أمراً كان مفعولاً .

ومضمون الآيات يرجح الرأي الأول ، والعبرة أنه كان هناك تقليل للعدد في مواطن ، وتكثير للعدد في مواطن أخرى من المعركة ، وأن ذلك كان سبباً من سبل النصر .

وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ . وَاللَّهُ يَقْوَىٰ بِنَصَرِهِ وَعُونَهُ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَالنَّصْرُ وَالظَّفَرُ ، إِنَّمَا يَحْصِلَانِ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ وَنَصَرِهِ لَا بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَلَا بِقُوَّةِ الشُّوْكَةِ ، وَلَا بِقُوَّةِ السِّلَاحِ : وَقَدْ تَقَفَّ بَعْضُ الْمُقَاتِلَاتِ فِي طَرِيقِ النَّصْرِ وَلَكِنَّ الْعَاقِبَةَ دَائِمًا لِلْمُتَّقِينَ .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ . إِنْ فِي التَّكْثِيرِ وَالتَّقْلِيلِ ، وَغَلْبَةِ الْقَلِيلِ مَعَ عَدَمِ الْعِدَّةِ عَلَى الْكَثِيرِ الشَّاكِي السِّلَاحِ لَعِبْرَةٌ أَيْ لاعتباراً وآية وموعظة لأُولِي الْأَبْصَارِ لِذَوِي الْعُقُولِ وَالْبَصَائِرِ .

★ ★ ★

﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَفْئِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ (١٤)

المفردات :

حب الشهوات : حب المشتبهات للنفس .

المقنطرة : المجمة أو المضمة .

المسومة : الراعية في المرمى ، مأخوذ من سوّم خيله ، إذا أرسلها في المرمى ، أو المطهمة الحسان .

والأنعام : الإبل والبقر ، والغنم والمعز .

والحَرْث : مصدر مراد به المزروع .

التفسير :

في آية واحدة يجمع السياق القرآني أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان : النساء والبنين والأموال المكسبة والخيل والأرض الخضراء والأنعام .. وهي خلاصة الرغائب الأرضية إما بذاتها وإما بما تستطيع أن توفره لأصحابها من لذائذ أخرى .

وقد بدأت الآية أنواع المشتبهات بقولها :

١ - مِنَ النَّسَاءِ وَهَـذِهِمْ عَلَى الْكُلِّ لِأَنَّ التَّمَتُّعَ بِهِنَ أَكْثَرَ وَالِاسْتِئْثْنَاسَ بِهِنَ أَتَمَّ ، إِذْ يَحْصِلُ مِنْهُنَّ أَتَمُّ اللَّذَاتِ .

٢ - وأبين والمراد بهم الأولاد الذكور للتكثر بهم والتفاخر والزينة، وقيل المراد بهم الأولاد مطلقاً كما قال تعالى: **أَمَّا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَبَنَاتُ** . (الأنفال : ٢٨) وفي الحديث (الولد مجبنة مبخلة) (١٣٢). والعلة في حب الزوجة، وحب الولد واحدة وهي تسلسل النسل وبقاء النوع، وهي حكمة مطردة في غير الإنسان من الحيوانات الأخرى.

وقدم حب النساء على حب الأولاد مع أن حبهن قد يزول وحب الأولاد لا يزول، لأن الولد لا يعظم فيه الغلو والإسراف كحب المرأة . فكم من رجل جنى حبه للمرأة على أولاده، وكم من غنى عزيز يعيش أولاده عيشة الذل والفقر، بسبب حب والدهم لغير أهم.

٣ - **وَالْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ** أى الأموال الكثيرة من الذهب والفضة، والقناطر جمع قنطار، ويطلق أحياناً على المال الكثير بغير عدد وقد يستعمل في مقدار كثير معين من المال وهو ١٢ ألف أوقية.

وفي القاموس القنطار مائة رطل من الذهب والفضة ووصف القناطر بالمقنطرة للمبالغة، فمن عادة العرب أن يصفوا الشيء بما يشق منه للمبالغة ، كقولهم الوف مؤلفة، ويدر مبدرة، وإبل مؤيلة، ودرهم مدرهمة، وظل ظليل.

ونهم المال هو الذى ترسمه القناطر المقنطرة ولو كان يريد مجرد الميل إلى المال لقال : والأموال ، أو الذهب ، والفضة، ولكن القناطر المقنطرة توحى بالنهم الشديد لتكديس الأموال، ذلك أن التكديس ذاته شهوة، بغض النظر عما يستطيع المال توفيره لصاحبه من الشهوات الأخرى.

وحب المال غريزة فطرية، وقد يبلغ النهم بالإنسان في جمع المال أن ينسى أن المال وسيلة لا مقصد فيفتن في الوصول إليه القنوت المختلفة، ولا يبالي أمن حلال كسب أم من حرام.

وقد أباح الإسلام الملكية ولكنه هدبها وقلم أظافرها وأوجب أن يكون تملك المال من طرق سليمة، كما أوجب فيه الزكاة، وغير ذلك من الواجبات، وبذلك يكون المال نعمة لا نقمة، فتعم المال الصالح للرجل الصالح.

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ) (١٣٤).

٤ - **وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ** . : التى ترعى فى الأودية، يقال : سام الدابة : رعاها، وأسامها : أخرجها إلى المرعى كما قال تعالى : **مَنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ** . (التحل : ١٠).

**وقال ابن جرير** : المسومة المألّمة ، التى عليها السيمياء وهى العلامة.

**وقال أبو مسلم** : المراد من هذه العلامات الأوصاف والفرق التى تكون فى الخيل ، وهى أن تكون الأفراس غرا، وقال النابغة :

بسمر كالقصداح مسومات  
عليها معشر أشباه جن

**وقال ابن جرير** : إن معنى المظهمة والمألّمة والرائحة واحد.

وكل من الخيل الراعية التي تقتنى للتجارة، والمطهمة التي يقتنيها الكبراء والأغنياء للمفاخرة، من متاع الدنيا الذي يتنافس فيه، ومن الناس من يفلو في حب الخيل وأشبابها حتى يفوق عنده كل حب.

٥ - وَالْأَنْعَامُ . وهى الإبل والبقر والغنم، والأنعام مال أهل البادية بها ثروتهم، وفيها تكاثرهم وتفاخرهم، ومنها معاشهم ومراققتهم .

وقد امتن الله بالأنعام على عباده فقال :

وَالْأَنْعَامُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ \* وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ \* وَنَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَلِيهِ إِنَّا بِأَعْيُنِنَا أَعْيُنُكُمْ إِنَّا أَنْفُسُ إِيَّاكُمْ لَرِءُوفٌ رَّحِيمٌ \* وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ : (النحل : ٥ - ٨).

٦ - وَالْحَرْث . أى الزرع والنبات والشجر على اختلاف أنواعه وهو قوام حياة الإنسان والحيوان فى البدو والحضر.

ذلك متاع الحياة الدنيا . أى ذلك الذى ذكر من الأنواع الستة هو ما يستمتع به الناس فى حياتهم الدنيا أى الأولى.

وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ . واللّه عنده حسن المرجع فى الحياة الآخرة التى تكون بعد موت الناس وبعثهم فلا ينبغي لهم أن يجعلوا كل همهم فى هذا المتاع القريب العاجل بحيث يشغلهم عن الاستعداد لما هو خير منه فى الآجل.

والإسلام دين وسط فهو لم يعزّم التمتع بالطيبات ، فإن التمتع بها حلال كما قال - سبحانه - قُلْ مِنْ حَرَمِ رَبِّهِ اللَّهُ الَّذِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . (الأعراف : ٣٢).

فالزوجة الصالحة نعمة والدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة.

وينبغى أن تكون وسيلة للعفة والاستقامة والذرية الصالحة.

والابن الصالح نعمة، والمال نعمة وهو وسيلة لإخراج الزكاة والصدقة. وكذلك الخيل والأنعام والحرث.

ولكن على المؤمن ألا يشتغل بها عن طاعة الله، وألا يجعلها أكبر همٍّ أو شاغلا له عن آخرته.

فإذا اتقى ذلك واستمتع بها بالقصد والاعتدال فهو السعيد فى الدارين.

ومن دعاء المؤمنين :

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . (البقرة : ٢٠١).

﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِيْنَ اٰتَقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا وَاَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ بِبَصِيْرٍ بِالْعٰبِدِيْنَ ۝١٥  
الَّذِيْنَ يَقُوْلُوْنَ رَبِّكَ اِنَّمَا اَفْعَفْنَا دُنُوْبَكَ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٦ الصّٰدِقِيْنَ  
وَالصّٰدِقِيْنَ وَالْقٰنِتِيْنَ وَالْمُنْفِقِيْنَ وَالْمُسْتَغْفِرِيْنَ بِالْاَسْحَارِ ۝١٧﴾

المفردات :

**أُوْنِيْكُمْ** : الهزمة للاستفهام ، والمراد منه : التنبية والتشويق إلى ما ينبئهم به . والإنباء : الإخبار . فكانه يقول : إني مخبركم بخير يستدعي انتباهكم وشوقكم إلى سماعه ، فاستمعوا إليه .

**وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ** : وزوجات مطهرة من الأدناس حسية ومعنوية .

**وَالْقَانِتِينَ** : والمطيعين لله ، الخاضعين له ، المقربين بعبوديتهم له .

**بِالْأَسْحَارِ** : الأسحار جمع سحر ، وهو آخر الليل قبيل الفجر .

**وَرِضْوَانٌ** : الرضوان : الرضا العظيم .

التفسير :

١٥ - قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِيْنَ اٰتَقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . .

بعد أن بين سبحانه زخارف الدنيا وزينتها ، وذكر ما عنده من حسن المآب إجمالاً ، أمر رسوله بتفصيل ذلك الجميل للناس مبالغة في الترغيب .

**والمعنى** : قل لقومك وغيرهم : أخبركم بخير من جميع ما تقدم ذكره من النساء والبنين إلى آخره ، وجئ بالكلام على صورة الاستفهام لتوجيه النفوس إلى الجواب وتشويقها إليه . وقوله خير يشعر بأن تلك الشهوات خير في ذاتها ، ولا شك في ذلك إذ هي من أجل النعم التي أنعم الله بها على الناس ، وإنما يعرض الشر فيها كما يعرض في سائر نعم الله على عباده كالحواس والعقول وغيرها .

ثم أجابهم عن هذا الاستفهام المشوق فقال :

لِلَّذِيْنَ اٰتَقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . .

جبل ما أعدّه للمتقين من الجزاء على التقوى نوعين :

نوعاً جسمانياً نفسياً وهو الجنات وما فيها من الخيرات ، والأزواج المطهرات .

ونوعاً روحياً عقلياً وهو رضوان الله تعالى .

قال القاسمي :

و لِلَّذِينَ اتَّقَوْا . خبر المبتدأ الذي هو :جَنَاتٌ

و تَجْرِي . صفة لها و عِنْدَ رَبِّهِمْ . صفة للجَنَاتِ في الأصل قدم فانتصب على الحال، والعندية مقيدة لكمال علو رتبة الجَنَاتِ وسمو طبقتها .

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (١٣٥) .

خَالِدِينَ فِيهَا . أى ماكثين فيها أبداً الأبد لا ينفون عنها حولا .

وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ . من الدنس والخبث والأذى والحيز وغير ذلك مما يمتري نساء الدنيا .

وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ . أى يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده، وهذه اللذة الروحانية تتممة ما حصل لهم من اللذات الجسمانية وأكبرها كوناً قال تعالى : وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . ( التوبة: ٧٢) .

روى الشيخان عن ابى سعيد الخدرى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطينا ما لم نتمتع أحداً من خلقك ؟ فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك قالوا: يا ربنا أى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً (١٣٦) .

وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ : أى عالم بمصالحهم فيجب أن يرضوا لأنفسهم ما اختاره لهم من نعيم الآخرة، وأن يزهدوا فيما زهدهم فيه من أمور الدنيا .

١٦ - الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَفْغَرْنَا نَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . هؤلاء الملتقون هم الذين يقولون :

ربنا إِنَّا صدقنا بالذى أنزلته على رسولك محمد وسائر من سبقه من الرسل، فأغفر لنا ذنوبنا واحفظنا من عذاب النار. قال الحاكم : فى الآية دلالة على أنه يجوز للداعى أن يذكر طاعاته وما تقرب به إلى الله، ثم يدعو، ويُؤيده ما فى الصحيحين من حديث أصحاب الغار (١٣٧) وتوسل كل منهم بصالح عمله، ثم تقرير البارى تعالى عنهم .

١٧ - الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ .

الصَّابِرِينَ . على البأساء والضراء وحين البأس .

وَالصَّادِقِينَ . فى إيمانهم وأقوالهم ونياتهم .

وَالْقَاتِنِينَ . الْمُطِيعِينَ لِلَّهِ الْخَاضِعِينَ لَهُ .

وَالْمُنْفِقِينَ . أموالهم فى حقوق الله تعالى، وحقوق ذويهم، وفى أنواع البر التى ندينهم الله ورسوله إليها .  
وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ . أى هم يعيدون الله ويصلون بالليل، وفى آخر الليل يستغفرون الله تعالى .  
وَالْأَسْحَارَ جَمْعُ سَحَرٍ . وهو الهزيع الأخير من الليل قبل الفجر .

روى ابن جرير عن حاطب قال : سمعت رجلاً فى السحر فى ناحية المسجد وهو يقول : يارب أمرتني فأطعك وهذا السحر فاغفر لى ، فنظرت فإذا هو ابن مسعود . وثبت فى صحيح البخارى ومسلم وغيرهما من المسانيد والسنن من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ينزل ربنا، تبارك وتعالى ، كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، يقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفر لى فأغفر له ؟ » (١٣٨) .

وفى رواية لمسلم : « ثم يبسط يديه تبارك وتعالى ويقول : من يقرض غير عدوم ولا ظلوم ؟ » وفى رواية « حتى ينفجر الفجر » .

« ويروى أن بعض الصالحين قال لابنه : يا بنى لا يكن الديك أحسن منك ينادى بالأسحار وأنت نائم ، والحكمة فى تخصيص الأسحار كونه وقت غفلة الناس عن التعرض للنفحات الرحمانية والألطاف الإلهية وعند ذلك تكون العبادة أشق، والنية خالصة، والرغبة وإفرة، مع هريه تعالى وتقدس من عباده .

قال السيوطى : فى الآية فضيلة الاستغفار فى السحر، وأن هذا الوقت أفضل الأوقات . وقال الرازى : واعلم أن الاستغفار بالسحر له مزيد أثر فى قوة الإيمان وفى كل العبودية » (١٣٩) .

لطيفة :

قال الزمخشري : الواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم فى كل واحدة منها .

★ ★ ★

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٨)

المفردات :

شهد الله أنه لا إله إلا هو : أى بين لعباده ذلك بالأدلة الواضحة، فكان ذلك منه شهادة، وأى شهادة، أما شهادة الملائكة وأولى العلم فهى: إقرارهم بذلك .

قائماً بالقسط : أى قائماً بالعدل فى تدبير الكون .



التفسير :

١٨ - شهد الله أنه لا إله إلا هو . أى علم وأخبر، أو قال أو بين أنه لا معبود حقيقى سوى ذاته العلية .

وتطلق هذه الشهادة على ما أقامه القرآن من الأدلة على وحدانيته، كقوله تعالى :

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا . (الأنبياء : ٢٢).

وقوله عز شأنه : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . (الإخلاص : ١).

وقوله تعالى : فَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . (محمد : ١٩).

وكما شهد الله بأنه لا إله إلا هو ، فقد شهد الملائكة الذين : لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (التحريم : ٦).

وكذلك أصحاب العلم والفكر السديد من الأنبياء والمرسلين ، ومن آمن بهم، وكل من فكّر فى آيات الله الكونية فآمن به . هؤلاء جميعاً ، شهدوا لله بالوحدانية ، حال كونه قائماً بالقسط والعدل فى تدبيره للكون، فبعدله قامت السموات والأرض .

....والعدل هنا هو : الحكمة فى التدبير ، الذى استقامت به أمور الكون.

لا إله إلا هو . كرهه تأكيداً وليضيف إليه قوله : الْعَزِيزُ ، فلا يرام جنباه .

الْحَكِيمُ . لا يصدر عنه شئ إلا على وفق الاستقامة .

( وقال العارف الشعرائى فى كتاب « الجواهر والدرر » : سألت أخى أفضل الدين : لِمَ شهد الحق تعالى

لنفسه بأنه لا إله إلا هو ؟ فقال :

لينبه عباده على غناء عن توحيدهم له، وإنه هو الموجد نفسه بنفسه- فقلت له : فلم عطف الملائكة على نفسه دون غيرهم ؟ فقال : لأن علمهم بالتوحيد لم يكن حاصلًا من النظر فى الأدلة كالبشر، وإنما كان علمهم بذلك حاصلًا من التجلى الإلهى ، وذلك أقوى العلوم وأصدقها، فلذلك قُدموا فى الذكر على أولى العلم . وأيضاً فإن الملائكة واسطة بين الحق وبين رسله فتناسب ذكرهم فى الوسط فاعلم ذلك « (١٤٠).

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنْ يَكْفُرٍ شَائِتٍ اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١٩﴾  
 فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ  
 ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ  
 بِالْعِبَادِ ۝٢٠﴾

المفردات :

بِقِيَّةٍ بَيْنَهُمْ : ظلماً قائماً فيهم، وحسداً موجوداً في بيئتهم .

إِنْ حَاجُّوكَ : أى جادلوك .

أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ : أخلصت ذاتي ونفسي له تعالى .

وَالْأُمِّيِّينَ : المراد بهم، من لا يكتبون من مشركي العرب من غير الكتابيين لشيوخ الأمية فيهم .

التفسير :

١٩ - إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ... . الإسلام هنا معناه إخلاص الوجه لله تعالى، فاليهودية إسلام في مدتها والمسيحية إسلام في فقرتها والرسالة المحمدية إسلام بمعنى إخلاص الوجه لله والامتثال لطلاعته.

وتسمية أتباع الدين الإسلامي في العصر الحاضر بالمسلمين كانت تسمية سابقة على وجودهم الزماني قال تعالى :

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا لِبِرَائِهِمْ هُوَ سَمَاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ... . (الحج : ٧٨).

وإذا تتبعنا المعنى اللغوي لكلمة إسلام والمعنى الشرعي لها خرجنا بالنتائج الآتية :

- إن الدين وإسلام الوجه لله، والتوحيد والإسلام كلها بمعنى واحد يفسر بعضها بعضاً ويشرح بعضها بعضاً.

- إن جوهر الشخصية الإسلامية ، أو شخصية المسلم هو إسلام الوجه لله، أو التوحيد أو التدين الصادق أو الإسلام.

يقول ابن الأنباري المتوفى سنة ٣٢٨هـ في المعنى اللغوي للإسلام: المسلم معناه المخلص لله في عباداته، من قولهم سلم الشيء لفلان خلس له، فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى .

والإسلام لا يشير إلى شخص معين، ولا إلى شعب معين ولا إلى إقليم معين، ولا يحُد بالبعثة المحمدية. فرسالة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى هي الإسلام بنص القرآن الكريم.

قال تعالى : مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . (آل عمران: ٦٧).

ومن دعاء يوسف الصديق :

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . (يوسف : ١٠١).

- وقال سيدنا موسى لقومه :

يَا قَوْمُ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ سُوْرَةُ . (يونس : ٨٤).

وفى شأن عيسى يقول القرآن الكريم :

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ \* رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . (آل عمران : ٥٢-٥٣).

معنى الآية :

إن الملة المرضية عند الله هي الإسلام ، فلا يقبل من أحد دين غيره بعد رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد أرسله الله مصداقاً لما سبقه من الرسل والكتب ومهيئاً عليها يقر صحتها ويقوم عوجها وينسخ ما قبله من الأديان والشرائع.

وكما أن الإسلام هو دين هذه الأمة الذي رضيه لها، فهو دين جميع الأنبياء والمرسلين وأمهم من قبل محمد، فهو دين الله دائماً في جميع الأزمان، لاشتغاله على توحيدته تعالى وتزجيده عن الصلابة والولد واحتوائه على أصول الشرائع المشتركة بينها .. أما الفروع، فإنها مختلفة باختلاف الأمم قال تعالى : لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا . (المائدة : ٤٨).

فإن ما يصلح منها لأمة لا يصلح لأمة أخرى.

« فالصيام مشروع في جميع الأديان، ولكن كميته تختلف باختلاف الأمم. والميراث مشروع في جميع الشرائع، ولكن كميته تختلف باختلاف الأمم. وهكذا الأمر بالنسبة لباقي الأحكام » (١٤١).

وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَلْتُوا إِلَهُكُمُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِنُبِيِّهِمْ . لقد أخذ الله الميثاق على الأنبياء والرسل أن يصدق بعضهم بعضاً وأن يؤمنوا بالنبي محمد عند ظهوره، وكان اليهود ييشرون بنبي سيظهر ويستفتحون به ويدعون الله أن ينصرهم بسببه.

ومن دعاء اليهود في حروبهم مع المشركين :

(اللهم افتح علينا ، وانصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان).

وكانوا يقولون لأعدائهم المشركين :

قد أظلم زمان بنى يخرج بتصديق ما قلنا ، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما ظهر الإسلام آمن بعضهم كعبد الله بن سلام ، وزيد بن سعدة من أحبار اليهود ، وكفر أكثرهم من بعد ما جاءهم العلم اليقيني بأنه الحق ، إذ جاء الإسلام ونبيه وفق أوصافه ونعوته فى كتبهم .

وما كان اختلافهم فيه - من بعد ما آتاهم العلم - إلا بغيا وحسداً .

قال تعالى : **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا . (النساء : ٥٤)**

**بَغْيًا بَيْنَهُمْ .** أى حسدا كائنا بينهم ، وطلبا للرئاسة . وهذا تشنيع عليهم إثر تشنيع .

**وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .**

**المعنى :**

ومن يجحد آيات الله الشاهدة بأن الإسلام هو الدين عند الله فإنه تعالى يجازيه ويعاقبه على كفره عن قريب ، فإنه سريع الحساب .

**قال أبو السعود فى التفسير :**

**فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** قائم مقام جواب الشرط : **له .** أى ومن يكفر بآياته تعالى فإن حسابه يأتى عن قريب ، أو يتم حسابه بسرعة فإن الله سريع الحساب .

وإظهار الجلالة لتربية الهابة وإدخال الروعة ، وفى ترتيب العقاب على مطلق الكفر بآياته تعالى من غير تعرض لخصوصية حالهم من كون كفرهم بعد إيتاء الكتاب وحصول الاطلاع على ما فيه وكون ذلك للبغى دلالة على كمال شدة عقابهم (١٤٢) .

**٢٠ - فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعِ ...**

**المعنى :**

فإن جادلوك أهل الكتاب ، أو جميع الناس فى الدين بعد ما جاءهم العلم به ، وظهرت لهم براهيته ، فقل لهم أسلمت وجهى لله ، أى أخلصت ذاتى ونفسى له ومن آمن معى أخلصوا له أنفسهم كذلك .

وإطلاق الوجه على الذات كلها ، لأنه ترجمان النفس ، وعليه تظهر آثارها ، وهو من إطلاق اسم الجزء على الكل لأهميته .

والمراد من الآية أن الله تعالى أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لأهل الكتاب ذلك ليعلموا أنه ليس مستثلاً عن انحرافهم وكفرهم ، وأن تبعة ذلك عليهم وحدهم ، وأنه سائر فى طريق عبادة الله وحده هو

وأتباعه ، دون أكرثات بضالهم لأن المحاجة والجدل معهم لا فائدة فيهما ، بعدما جاءهم العلم بأن ما عليه هو الحق .

وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسَلْتُمْ ... أَيْ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْأُمِّيِّينَ أَيْ الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ وَهُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ الَّذِينَ عَرَفُوا بِهَذَا الْوَصْفِ لَعْدَمِ مَعْرِفَةِ سُوَادِهِمُ الْأَعْظَمِ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ ، قُلْ لَهُمْ : هَلْ أَجْدَى مَعَكُمْ هَذَا وَاسَلْتُمْ مُتَّبِعِينَ لِي كَمَا فَعَلَ الْمُؤْمِنُونَ . أَمْ أَنْتُمْ بَعْدَ عَلَى الْكُفْرِ .

**قال الزمخشري :** يعنى أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام ويقتضى حصوله لا محالة ، فهل أسلتم؟ أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ، ولم تبق من طرق البيان والكف طريقاً إلا سلكته : هل فهمتها؟ ومنه قول الله عز وعلا **فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ** . ( المائدة: ٩١) بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر ، وهى هذا الاستفهام استقصار وتعمير بالمعاندة وقلة الإنصاف ، لأن النصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق . انتهى .

**فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا :** أى خرجوا من الضلال فتنبهوا أنفسهم .

**وَأَنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .** وإن أعرضوا عن الإسلام فلا يضرك إعراضهم فما عليك إلا تبليغهم وقد فعلت ، فخلصت بذلك من التبعة . **وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .** عليم بأحوالهم فلا تخفى عليه أعمالهم فيجزى من أسلم بإسلامه ، ويعاقب من أعرض على إعراضه . والجملة وعد ووعد قال ابن كثير : هذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث فمن ذلك قوله تعالى : **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً** . (الأعراف: ١٥٨) .

وقد أرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - كتبه إلى ملوك الآفاق وطوائف بنى آدم من عريهم وعجمهم ، كتابيهم وأميينهم ، امتثالاً لأمر الله له بذلك ، وروى البخارى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : **«عُطِيتْ خَمْسًا لَمْ يَعْطُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي ، نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَأُعْطِيتِ الشَّفَاعَةُ ، وَأُرْسِلُ كُلَّ نَبِيٍّ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبِعَثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»** (١٤٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ  
الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١ ﴾ وَأُولَئِكَ  
الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَأْلَهُمْ مِنَ النَّصْرِ ٢٢ ﴾

المفردات :

المراد بالذين يكفرون بآيات الله هم اليهود خاصة .

**بغير الحق** : بغير شبهة لديهم .

**القسط** : العدل .

**فبشرهم بعذاب أليم** : البشارة والبشرى الخبر السار تنبسط له بشرة الوجه، واستعمالها في الشر جاء على طريق التهكم والسخرية .

**حبطت أعمالهم** : بطلت أعمالهم الحسنة، فضاع ثوابها .

التفسير :

٢١ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

إن الذين ينكرون آيات الله فيكفرون بما يجب الإيمان به ، ويقتلون أنبياءهم بغير جريمة تقتضى القتل، ويقتلون الواعظين المذكرين الذين يأمرونهم بالعدل من صفوة الناس ، فأنذرهم يا محمد بعذاب شديد الإيلام، والمراد بهم اليهود ، فإنهم قتلوا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، وقتلوا حزقيال عليه السلام ، قتله قاض يهودى لما نهاه عن منكر فعله، وزعموا أنهم قتلوا عيسى ابن مريم عليه السلام.

روى ابن جرير عن أبى عبيدة بن الجراح قال : « قلت: يا رسول الله، أى الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: رجل قتل نبياً ، أو رجلاً أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ثم قرأ الآية : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ... » (١٤٤).

ثم قال « يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة واثنا عشر رجلاً من عباد بنى إسرائيل فأمرؤا قتلهم بالمعروف ونهؤهم عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار » (١٤٥).

« و الصفات المذكورة فى الآية توحى بأن التهديد كان موجهاً لليهود فهذه سمتهم فى تاريخهم يعرفون بها حتى ذكرت، ولكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام موجهاً للتصارى كذلك فقد كانوا حتى ذلك التاريخ قتلوا الألوف من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهب الدولة الرومانية المسيحية بما فيهم من جاهروا بتوحيد الله تعالى وبشرية

المسيح عليه السلام ، وهؤلاء ممن يأمرون بالقسط . كما أنه تهديد دائم لكل من يقع منه مثل هذا الصنيع البشع .. وكثير ما هم في كل زمان .. » (١٤٦).

٢٢ - أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

اسم الإشارة هنا مبتدأ وما فيه من معنى البعد للدلالة على ترامي أمرهم في الضلال وبعد منزلتهم في فظاعة الحال ، والموصول بما في حيز صلته خبره، أى أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة، الذين بطلت أعمالهم التي عملوها من البر والחסنات ولم يبق لها أثر في الدارين (١٤٧) أما في الدنيا فيبطل المدح بالذم، والثناء باللعن والخزى، ويدخل فيه ما ينزل بهم من القتل وأخذ الأموال منهم غنيمة، والاسترقاق لهم ، إلى غير ذلك من الذل والصغار الظاهر فيهم ، وأما حيوط أعمالهم في الآخرة ، فيبطل الثواب بالعذاب الأليم.

وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . ينصرونهم من عذاب الله .

وقد دلت الآية على عظم حال الأمر بالمعروف ، وعظم ذنب قاتله ، لأنه قرن ذلك بالكفر بالله تعالى وقتل الأنبياء .

قال الحاكم : وتدل على صحة ما قيل ، أنه يأمر بالمعروف وإن خاف على نفسه ، وإن ذلك يكون أولى لما فيه من إعزاز الدين ، وقد روى أبو داود أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » (١٤٨).

★ ★ ★

﴿الَّذِينَ الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ تَوَلَّوْا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعَتْ لَهُمْ لَيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

المفردات :

الم تر : استفهام لتعجب النبي - صلى الله عليه وسلم - من حالهم .

أوتوا نصيبا من الكتاب : أعطوا حظا منه ، والكتاب : اسم جنس لكل كتاب سماوى ، والمقصود من النصيب التوراة والإنجيل .

وهم معرضون : وهم منصرفون .

أيام معدودات : يقصدون بها أيام عبادتهم للعجل .

وغيرهم : وأطعمهم .

**ما كانوا يفترون** : ما كانوا يكذبون من أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات.  
**ووفيت كل نفس ما كسبت** : وأعطيت كل نفس جزاء ما عملته من خير أو شر وافياً.

التفسير :

٢٣ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ .

أخرج ابن إسحاق وجماعة عن ابن عباس قال :

دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيت المدراس - مدرسة اليهود لدراسة التوراة - على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله . فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت يا محمد ؟ قال : على ملة إبراهيم ودينه . قالوا : فإن إبراهيم كان يهودياً ، فقال لهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : فهلما إلى التوراة فهى بيننا وبينكم فأنزل الله الآية (١٤٨).

والخطاب فى قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ . لكل من تتأتى منه الرؤية أو للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، والاستفهام للتعجب من حالهم ، أى ألم تر إلى هؤلاء الذين تستحق أن تعجب لهم من اليهود ، كيف يعرضون عن العمل بالكتاب الذى يؤمنون به إذا لم يوافق أهواءهم ؟ وهذا دأب أرباب الديانات فى طور انحلالها واضمحلالها ، ومن المفسرين من ذكر أن الآية إشارة إلى قصة تحاكم اليهود إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ، لما رنا منهم اثنان فحكم عليهما بالرجم ، فأبوا ، وقالوا : لا نجد فى كتابنا إلا التحميم (١٥٠) ، فجاء بالتوراة فوجد فيها الرجم ، فرجما ، ففضبوا فشنع عليهم بهذه الآية .

أخرج البخارى فى كتاب التفسير ، سورة آل عمران باب قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاؤا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - برجل منهم وامرأة قد زنيا . فقال لهم : « كيف تعملون بمن زنا منكم ؟ » قالوا نحممهما ونضريهما ، فقال لهم : « لا تجدون فى التوراة الرجم ؟ » فقالوا لا نجد فيها شيئاً ، فقال لهم عبد الله بن سلام : كذبت ، فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فوضع مدراسها الذى يدرسها منهم كفه على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ، ولا يقرأ آية الرجم ، فنزع يده عن آية الرجم ، فقال : ما هذه الآية ؟ فلما رأوا ذلك قالوا هى آية الرجم فامر بهما فرجما قريباً من موضع الجنائز عند المسجد (١٥١)

قال بعض المفسرين . ومن ثمار هذه الآية ، أن من دعى إلى كتاب الله تعالى وإلى ما فيه من شرع وجب عليه الإجابة ، وقد قال العلماء رضى الله عنهم : يستحب أن يقول : سمعاً وطاعة ، لقوله تعالى : إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْبَاقُونَ . (النور ٥١) ، والمقصود من الفريق الذى تولى مثهم : علماءهم ، فهم الذين كانوا يديرون النقاش والكلام مع الرسول - صلى الله عليه وسلم .



٢٤ - ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

المعنى :

ذلك : إشارة إلى التولى والإعراض.

بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات : أى بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم . وبسبب هذا القول الذى رسخ اعتقادهم له ، فلم يبالوا معه بارتكاب المعاصى والذنوب

وخلاصة ذلك أنهم استخفوا بالعقوبة واستسهلوا، انكالا على احتمال نسبهم بالأنبياء واعتماداً على مجرد الانتساب إلى هذا الدين ، واعتقاداً أن هذا كافٍ فى نجاتهم.

ومن استخف بوعيد الله تزول من نفسه حرمة الأوامر والنواهى ، فيقدم بلا مبالاة على انتهاك حرمت الدين . ويتهاون فى أداء الطاعات ، وهكذا شأن الأمم حين تفسق عن دينها ولا تبالى باجتراح الميثاق . وقد ظهر ذلك فى اليهود ثم فى النصارى ثم فى المسلمين ، فإن كثيراً من المسلمين اليوم يعتقدون أن المسلم المرتكب لكبائر الإثم والفواحش ، إما أن تدركه الشفاعات، أو تنجيه الكفارات، وإما أن يمنح العفو والمغفرة إحساناً من الله وفضلاً . فإن فاتته ذلك عذب على قدر خطيئته ، ثم يخرج من النار ويدخل الجنة . وأما المنتسبون إلى سائر الأديان فهم خائفون من النار مهما كانت أعمالهم . والقرآن قد ناطل أمر الفوز والنجاة من النار بالإيمان الذى ذكر الله علاماته وصفاته أهله ، وبالعامل الصالح والخلق الفاضل ، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن . كما جعل المنفرة لمن لم تحط به خطيئته . أما الذين صار همهم إرضاء شهواتهم ولم يبق للدين سلطان على نفوسهم ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والمراد بالأيام المعدودات هى أربعون يوماً ، وهى مدة عبادة اليهود العجل .

وقال الشيخ محمد عبده : إنه لم يثبت فى عدد هذه الأيام شيء اهـ . والسباق يفيد اعتقاد اليهود بأنهم لا يعذبون إلا مدة قليلة ، لزمعهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وخدعهم فى دينهم ما كانوا يفترونه من هذا الزعم الذى لا نصيب له من الصحة .

٢٥ - فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ : أى كيف يصنعون إذا جمعناهم للجزاء فى يوم لا شك فى مجيئه .

وفى هذا الاستفهام تهويل لما سيكون ، واستعظام لما أعد لهم ، وأنهم سيقعون فيما لا حيلة فى دفعه والخلص منه .

وأن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها بتعليلاتهم وأباطيلهم تلمح بما لا يكون .

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . أى ورات كل نفس ما عملت من خير أو شر محضراً لا نقص فيه ثم جوزيت عليه وكان منشأ سعادتها أو شقاءها ، ولا يفيدهم الانتماء إلى دين معين أو مذهب خاص ، إذ لا امتياز لشعب على شعب وإن تسمى بعضهم بشعب الله ، ولا بين الأشخاص وإن لقبوا أنفسهم بأبناء الله فإن

الجزء إنما يكون من جنس العمل في ذلك اليوم : يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا . ( آل عمران : ٢٠٠ ) .

★ ★ ★

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

المفردات :

اللهم

: أصله يا الله ، فحذف ( يا ) وعوض عنها الميم وشددت لكونها عوض عن حرفين ،

ولا تجمع الميم مع ( يا ) إلا شذوذاً كقول الشاعر :

إنى إذا ما حدث ألتأ أقول يا اللهم يا اللهم

مالك الملك

: الملك - بضم الميم وفتحها وكسرهما - معناه الاحتواء . أى الحيازة مع القدرة على

التصرف . مأخوذ من : ملك الشيء يملكه : احتواه قادراً على حرية التصرف فيه .

وهو بهذا المعنى يطلق على : ملك الله وملك غيره ، ومعنى : مالك الملك : صاحب

السلطان والتصرف المطلق .

بيدك الخير

: بقدرتك منح الخير ومنعه .

تولج الليل في النهار : الولوج الدخول ، والإيلاج : الإدخال ، ويراد به زيادة زمان الليل في النهار ، فيطول الليل

ويقصر النهار وتولج النهار في الليل معنى عكس المعنى السابق .

وتخرج الحي من الميت : أى وتكون الأحياء من المواد الأولية التى لا حياة فيها : كالهواء والماء والغذاء والتراب .

وتخرج الميت من الحي : وتجعل الحي يموت ، فتخرجه بذلك من جنس الأحياء .

سبب النزول :

روى الواحدى عن ابن عباس وأنس بن مالك : أنه لما فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة وعد

أمته ملك فارس والروم ، قتال المناهقون واليهود : هيهات ، من أين لمحمد ملك فارس والروم ؟ هم أعز وأمنع من

ذلك . ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى يطمع فى ملك فارس والروم ؟ هاتنزل الله تعالى هذه الآية .

وروى غير ذلك فى سبب النزول .

## سياق الآية :

بينت الآيات السابقة ان الدين عند الله الإسلام وناقشت أهل الكتاب فى إحقاقهم عن الإيمان بالنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - بنفيا وحسدا مع علمهم بصدقه ومعرفتهم بأمارات نبوته، ثم بينت هذه الآية أن الملك لله يؤتية من يشاء من عباده .

٢٦ - قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ .

أى أنت يا ربنا سبحانه لك السلطان الأعلى والتصرف التام فى تدبير الأمور وإقامة ميزان النظام العام فى الكائنات ، هانت تؤتى الملك من تشاء من عبادك إما تبعا للنبوة كما وقع لآل إبراهيم ، وإما بالاستقلال بحسب السنن الحكيمة الموصلة إلى ذلك واتباع الأسباب الاجتماعية بتكوين القبائل والشعوب، وتنزع الملك ممن تشاء بانحراف الناس عن الطريق السوى الحافظ للملك من العدل وحسن السياسة وإعداد القوة بقدر المستطاع، كما نزع من بنى إسرائيل وغيرهم بظلمهم وفسادهم.

وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ : هى الدنيا والآخرة ، بأسباب العزة والكرامة.

وَتُذَلِّلُ مَنْ تَشَاءُ : أن تذله فى إحداهما أو فيهما من غير ممانعة من الغير ولا مدافعة.

يَبْدَأُ الْخَيْرُ : أى بقدرتك الخير كله لا بقدره أحد غيرك تتصرف فيه قبضاً وبسطا حسبما تقتضيه مشيئتك.

إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ : فقدرتك لا حدود لها ، وعطاؤك غير منقوص ، وأنت قادر على أن تعطى الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء .

## من كتب التفسير :

## ١ - جاء فى تفسير ابن السعدي :

روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما خطب الخندق عام الأحزاب، وقطع لكل عشرة من أهل المدينة أربعين ذراعا وأخذوا يحفرونه خرج من بطن الخندق صخرة كالتل لم تعمل فيها الماويل فوجهوا سلمان إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخبره فجاء عليه السلام وأخذ منه المول فضربها ضربة صدعتها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها لكان مصباحاً فى جوف بيت مظلم ، فكبر وكبر معه المسلمون وقال: أضاعت لى منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية فقال: أضاعت لى منها القصور الحمر من أرض الروم ، ثم ضرب الثالثة فقال: أضاعت لى قصور صنعاء وأخبرنى جبريل أن امتى ظاهرة على كلها فأبشروا . فقال المنافقون : ألا تعجبون بمنىكم ويمدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يشرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها افتتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا فنزلت هذه الآية : قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ

الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ... (١٥٧)

## ٢ - جاء في التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر:

الملك - بضم الميم - في حق الله تعالى هو - على ما قاله المحققون - صفة قائمة بذاته تعالى ، متعلقة بما سواه ، تعلق التصرف التام ، المقتضى استغناء المتصرف وافتقار المتصرف فيه ، ولا يصح إطلاقه- بهذا المعنى - على غير الله تعالى .

وهو أخص من الملك - بكسر الميم - فإنه صفة تقتضى الاستيلاء والتسلط على شئ بطريق مشروع، وتجعله صاحب الحق في التصرف فيه ، من غير نظر إلى استغناء المتصرف وافتقار المتصرف فيه ، ولهذا يصح إطلاقه على غير الله تعالى .

## ٣ - جاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة تعليقا في

الهامش على قوله تعالى : تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وتُخْرِجُ الْمَيِّتَ . هو ما يأتي :

« دورة الحياة والموت هي معجزة الكون وسر الحياة نفسها والسمات الرئيسية في هذه الدورة أن الماء وثاني أكسيد الكربون والنيتروجين والأملاح غير العضوية في التربة تتحول بفضل طاقة الشمس والنباتات الخضراء وأنواع معينة من البكتيريا إلى مواد عضوية هي مادة الحياة في النبات والحيوان ، أما في الشق الثاني من هذه الدورة فتعود هذه المواد إلى عالم الموت في صورة نفايات الأحياء ونواتج أيضها وتفسها .

ثم في صورة أجسامها كلها عندما تموت وتستسلم لعوامل التحلل البكتيري والكيمائي التي تحيلها إلى مواد غير عضوية بسيطة مهياة للدخول في دورة جديدة من دورات الحياة ، وهكذا في كل لحظة من الزمان يخرج الخالق القدير حياة من الموت وموتاً من الحياة، وهذه الدورة المتكررة لا تتم إلا في وجود كائن أودعه الله سر الحياة كبذرة النبات مثلاً.

والآية الكريمة تذكر أولى الأبواب بالمعجزة الأولى وهي خلق الحياة من مادة الأرض - لإخراج الميت من الحي وهذا هو الإعجاز بعينه .

٢٧ - تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرَزِّقُ مِنَ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

يطيل الله الليل في بعض فصول السنة . بإضافة جزء من النهار إليه ، ويطيل النهار في بعض فصولها ، بزيادة جزء من زمان الليل فيه ، ويخرج الحي من المواد الأولية الميتة التي خلق منها ، كالماء والتراب وبعض عناصر الهواء، ويخرج الميت من الحي بأن يلقده أسباب الحياة فيموت ويعود إلى أصله ، ويرزق من يشاء رزقه بغير حساب أى رزقاً واسعاً بغير تضييق عليه.

وكما يرزق من يشاء بغير حساب ، يضيئه على من يشاء لحكمة تقتضيه؛ ولم يذكر ذلك في الآية لعلمه من أمثاله فيما سبق ، ولأن من يملك الإعطاء يملك المنع.

ويرى بعض المفسرين : أن إخراج الحى من الميت ، معناه إخراج الجنين من النطفة ، أو الفرح من البيضة ، وإن إخراج الميت من الحى ، معناه إخراج النطفة من الحيوان أو البيضة من الدجاجة .

ولكن هذا الرأى لا يقبل إلا على سبيل التشبيه ، بجعل النطفة - أو البيضة بجانب الحيوان الذى يتكون منها- كالشيء الميت ، لعظم الفرق بينهما ، أما على الحقيقة فلا ، لأن النطفة مليئة بالكائنات الحية المتحركة ، كما يتبين ذلك تحت آلة التكبير - المجهر ، ومثلها البيضة .

وكذا القول بأن المراد من الميت الذى يخرج من الحى : النطفة أو البيضة التى يخرجها الله من الحيوان ، لا يصح أن يقبل إلا على سبيل المجاز ، لما قدمناه .

وقال الحسن فى معنى الآية : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، فعلم الحياة والموت على المجاز ، وروى هذا التفسير عن أئمة أهل البيت .

ويمكن تفسيرها مجازاً بمعنى : يخرج الطيب من الخبيث ، والخبيث من الطيب ، والعالم من الجاهل ، والجاهل من العالم ، والذكى من البليد والبليد من الذكى ، وإلى غير ذلك قال القفال ، والكلمة محتملة لكل ما ذكر ، أما الكفر والإيمان فقد قال تعالى :

أَوْ مَن كَانَ مِنَّا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا . (الأنعام : ١٢٢) .

يريد كان كافرًا فهديناه فجعل الموت كفرًا والحياة إيمانًا ، وسمى إخراج النبات من الأرض إحياء وجعلها قبل ذلك ميتة فقال :

يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . (الروم : ٥٠) .

وقال سبحانه : فَسُقْنَاهُ إِلَى بَدَنٍ مِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . (هاطر : ٩) .

وقال عز شانه : كَيْفَ نَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْْوَآتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (البقرة : ٢٨) .

★ ★ ★

﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٢٨)

المفردات :

: أصدقاء ، أو أنصار .

أولياء

من دون المؤمنين : متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين .

فليس من الله في شيء : فليس من دين الله في شيء .

إلا أن تتقوا منهم تقاة : إلا لتقوا أنفسكم وتحفظوها مما يتقى ويحذر منهم .

المصير : المرجع .

سبب النزول :

روى عن ابن عباس ، قال : كان الحجاج بن عمرو ، وكهمس بن أبي الحقيق ، وقيس بن زيد والكل من اليهود - يبايئون نفرا من الأنصار ليقتلهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير ، وسعد بن خيثمة لأولئك النفر :

اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا مبايعتهم لا يفتنوكم عن دينكم ، فابى أولئك النفر إلا مبايعتهم وملازمتهم ، فانزل الله هذه الآية .

التفسير :

٢٨ - لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ...

تقرر الآية أن موالاة الكافر خطر على من والا، وأنها لا تكون إلا عند الضرورة ، لاتقاء ضرر يكون من ناحيته ، على ألا تبلغ الموالاة درجة المباينة بخفايا المؤمنين .

والموالاة تطلق لغة على الحب والصداقة والمباينة بالأسرار ، وتطلق على النصرة وكلا المعنيين تصح إرادته ، ولهذا لا يحل للمؤمنين أن يوالوا الكافرين ، بأى معنى من معانى الموالاة ، ومن يفعل ذلك فليس من دين الله في شيء وقد يذكر ذلك صريحاً في قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (المائدة: ٥١).

وقد تكرر النهى عن موالاة المؤمنين للكافرين في عديد من آى القرآن لخطورتها على كياناتهم فهم دائماً يتربصون بهم الدوائر ، ويبغونهم الفتنة ، وفى المسلمين سماعون لهم ، وهم المناقون وضعايف النفوس .

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ... (المتحنة : ١).

وقال عز شانه : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (النساء : ١٤٤).

فعلى المؤمنين أن يحذروا موالاتهم حتى يأمنوا شرهم ، عليهم أن يقصروا موالاتهم على المؤمنين ، لا يتجاوزونهم إلى الكافرين لغرض من الأغراض ، إلا أن يتقوا أو يحفظوا أنفسهم من ضرر من شأنه أن

يتقى ويحذر. فإذا اضطُر المسلمون لمولاتهم دهاغاً عن الوطن، أو المال أو العرض، فلهم ذلك في حدود الضرورة.

وأجاز المحققون من العلماء: الاستعانة بالكفار، بشرط الحاجة والوثوق .. أما بدونها فلا تجوز .

واستدل لذلك، بأن النبي - صلى الله عليه وسلم -، استعان بيهود بنى قينقاع، ورضخ لهم <sup>(١٥٢)</sup> واستعان بصقوان بن أمية في هوازن.

على أن بعضهم ذكر أن الاستعانة المنهى عنها، هي استعانة الدليل بالعزیز، أما غيرها فلا.

#### جاء في تفسير القاسمي :

واعلم أن الموالاة التي هي المباينة والمشاورة وإفضاء الأسرار للكفار لا تجوز، فإن قيل : قد جوز كثير من العلماء نكاح الكافرة، وفي ذلك من الخلطة والمباينة بالمرأة ما ليس بخاف فجواب ذلك أن المراد موالاتهم في الدين، وفيما فيه تعظيم لهم.

فإن قيل في سبب نزول الآية : إن النبي - صلى الله عليه وسلم - منع عبادة بن الصامت من الاستعانة باليهود على قريش <sup>(١٥٤)</sup> وقد حالف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اليهود على حرب قريش، وفي هذا دلالة على جواز الاستعانة بهم.

وقد ذكر الراضى أنه يجوز الاستعانة بالفاسق على حرب المبطلين، قال : وقد حالف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اليهود على حرب قريش وغيرها إلى أن تقضوه يوم الأحزاب، وحده - صلى الله عليه وسلم - الحلف بينه وبين خزاعة. قال الراضى بالله : وهو ظاهر عن آباؤنا عليهم السلام، وقد استعان على عليه السلام بقتلة عثمان. ولعل الجواب والله أعلم أن الاستعانة جائزة مع الحاجة إليها، ويحمل على هذا استعانة الرسول - صلى الله عليه وسلم - باليهود، وممنوعة مع عدم الحاجة أو خشية مضرة منهم، وعليه يحمل حديث عبادة بن الصامت.

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .

مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ . حال . أى متجاوزين المؤمنين إليهم، استقلالاً أو اشتراكاً، وفيه إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة، وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة.

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ . أى ومن يوال الكفرة فليس من ولاية الله في شيء تقع عليه اسم الولاية . يعنى أنه منسلخ من ولاية الله رأساً. وهذا أمر معقول، فإن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان <sup>(١٥٥)</sup>.

إِلَّا أَنْ تَقْتُلُوا مِنْهُمْ تَقَاتُ أَيْ تَخَافُوا مِنْهُمْ مَحْذُوراً، فأظهروا معهم الموالاة باللسان دون القلب لدفعه، روى البخارى في كتاب الأدب، باب المداواة مع الناس . عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قال: «إننا لنكشر» <sup>(١٥٦)</sup> في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم». <sup>(١٥٧)</sup>.

وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ : أى ذاته المقدسة فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه وموالاة أعدائه وهو تهديد عظيم مشعر بتأهى المنهى فى القبح. وفى إضافة تحذيرهم إلى نفسه وإلى ذاته العلية، إيدان ببلوغ المنهى عنه منتهى الخطورة.

★ ★ ★

﴿قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

المفردات :

محضراً : يحضره ملائكة الله فى الصحف .

أمدًا بعيداً : غاية أو مسافة بعيدة .

التفسير :

٢٩ - قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

هذه الآية واضحة الصلة بما قبلها ، وهى توحى بأن صلات متعددة من القرابة أو التجارة أو غيرهما ، كانت تربط بين معسكر المسلمين ومعسكر الكافرين .

وتبين هذه الآية أن الله مطلع وشاهد لما يخفيه الإنسان وما يظهره، وقد شمل علم الله كل ما فى السموات والأرض، فقد أحاط بكل شيء علماً، وهو على كل شيء قدير .

والآية فيها تحذير واضح من موالة المؤمنين للكافرين ، وتهديد بأن الله عالم بخفايا النفوس، ومطلع على الظاهر والباطن .

٣٠ - يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا . . . تعرض الآية مشهداً من مشاهد القيامة ، وهو يوم الحساب والجزاء، وفى هذا اليوم يقف الإنسان وجهاً لوجه أمام عمله الذى قدمه فى الدنيا ، فالخير شاخص أمام صاحبه، يفرح به وتشتد سعادته . .

وتجد كل نفس أيضاً : ما عملته من سوء وشر فى الدنيا محضراً يوم القيامة فى صحائفها لتساء به، وتتمنى حين تراه لو أن بينها وبينه مسافة بعيدة بعد المشرقين .



وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ . يخوفكم الله من نفسه إن خالفتم ما كلفكم به، ومن رافة الله ورحمته هذا التحذير وهذا التذكير ، وهو دليل على إرادته الخير والرحمة بالمعباد .

★ ★ ★

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾  
قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

التفسير :

قال القرطبي : روى أن المسلمين قالوا : يا رسول الله ، والله إننا لنحب ربنا ، فأنزل الله عز وجل : قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ .

وقال محمد بن جعفر بن الزبير : نزلت في نصارى نجران وذلك أنهم قالوا : « إنما نعظم المسيح حباً لله تعالى وتعظيماً له » فأنزل الله الآية ردا عليهم . رواه محمد بن إسحاق.

والمعروف أن سبب النزول قد يتعدد لنازل واحد من القرآن الكريم ، والعبرة مع هذا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

إن تعاليم الإسلام واضحة، وأوامره واجبة الاتباع وحب الله ليس دعوى باللسان ، ولا هياماً بالوجدان، ولكنه التزام بأحكام الشرع ، واتباع لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كل ما جاء به قال - صلى الله عليه وسلم - « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » (١٥٨) فقد أتم الله الدين ، وأكمل على المسلمين نعمة الإسلام ، ووجب عليهم الاتباع دون الابتداع ، فمن ادعى أن عقله أو رأيه أو حكمه أصوب من حكم الله ، فقد احتكم إلى أحكام الجاهلية ، وخالف منهج القرآن وهدى نبي الإسلام .

روى البخارى في صحيحه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » (١٥٩).

وروى البخارى في صحيحه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » (١٦٠).

وجاء في تفسير ابن كثير :

هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله - وليس على الطريقة المحمدية - بأنه كاذب في دعواه، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله.

إن العمل بشرع الله يورث المسلم إخلاصاً وحبا لله ولرسوله ، وأفضل درجات العبادة أن يعبد المؤمن ربه حبا له ، وشوقاً إلى لقاءه ورغبة في مرضاته ، وإذا دوام العبد على طاعة الله أحبه الله وغفر ذنبه وهداه إلى الطريق القويم .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- « إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : « إني أحب فلاناً فأحبه . قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادى في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه أهل السماء . قال : ثم يوضع له القبول في الأرض . » (١١١)

وإذا أبغض الله عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادى في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه قال : فيبغضونه . ثم توضع له البغضاء في الأرض .

٣٢ - قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ .

إن حقيقة الإسلام هي طاعة الله والرسول في جميع الأوامر والنواهي ، ومن أعرض عن طاعة الله ورسوله فقد أغلق باب الهدى وأعرض عن الإيمان .

والإعراض عن الإيمان ، والنفور من شرع الله يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله تعالى .

« أما لو كان توليه وإعراضه مجرد ترك لما أمر به ، اتباعاً لشهوته - مع اعتقاده أن ذلك حرام ، وأنه مذنب فيما يفعل ، ومقتصر على حقه تعالى - فإن الكفر بالنسبة له كفر للنعمة وعدم قيام بشكرها . والله لا يحب من عصاه بكفر أو فجور » (١١٢) .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٣) ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

المضردات :

اصطفى :

اختار ، والاصطفاء أخذ ما صفا من الشيء .

وآل إبراهيم وآل عمران : المراد بالآل فيهما من كان من ذريتهما من الأنبياء .

ذرية :

الذرية هي أصل اللغة الصغار من الأولاد ، ثم استعملت عرفاً في الصغار والكبار ، وللواحد والكثير .

التفسير :

٣٣ - إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ .

أي أن الله اختار هؤلاء ، وجعلهم صفوة العالمين ، بجعل النبوة والرسالة فيهم .

فأولهم : آدم . خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ، وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها لما في ذلك من الحكمة .

وثانيهم نوح : وهو الأب الثاني للبشر ، فقد حدث على عهده ذلك الطوفان العظيم فانقرض من السلاسل البشرية من انقرض ، ونجا هو وأهله في الفلك العظيم ، وجاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين ، ثم تفرقت ذريته وانتشرت في البلاد وفشت فيهم الوثنية . فظهر إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه نبيا مرسلا ، ثم تتابع من بعده النبيون والمرسلون ، من ذريته وآله كإسماعيل وإسحاق ، ويعقوب والأسباط وكان من أرفع أولاده قدرا ، وأنبههم ذكرا آل عمران وهم عيسى وأمه مريم ابنة عمران ، وينتهي نسبها إلى يعقوب عليه السلام ، وختمت النبوة بولد إسماعيل محمد - صلوات الله وسلامه عليه - المبعوث رحمة للعالمين . وقد دعا إبراهيم ربه أن يبارك له في ذريته ، وأن يرسل فيهم رسولا يعلمهم هدى السماء ، ويرشدهم إلى الخير والمعروف ، ومن دعا إبراهيم ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم ينزل عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . (البقرة : ١٢٩) .

ولذلك قال - صلى الله عليه وسلم « أنا دعوة أبى إبراهيم » . (١٦٣) .

على العالمين . أى عالمى زمانهم ، أى اصطفى كل واحد منهم على عالمى زمانه .

وقد فضلهم الله بما آتاهم من النبوة والكتاب فى معظمهم ، وفى مريم : بحملها وولادتها من غير مماسة بشر ، مع طهارتها وانقطاعها لعبادة ربها ، وإمدادها فى مصلاها برزق الله فى غير أوانه ، واختيارها لتكون أما لعيسى : الذى شاء له مولده أن يكون بغير أب .

٣٤ - ذُرِيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . أى ذرية يشبه بعضها بعضا فى الخير والقضيلة التى كانت سببا فى اصطقاتهم ، وهذه الذرية هى التى ذكرها الله فى سياق الكلام عن إبراهيم بقوله : وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فضلنا على العالمين (٨٦) وَمَنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) (الأنعام : ٨٤ - ٨٧) .

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٥ ﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٦ ﴾

المفردات :

نذرت لك ما في بطني : النذر ما يوجه الإنسان على نفسه .

محراً : خالصاً ، أى أوجبت على نفسي أن يكون ما في بطني لخدمة بيتك خالصاً .

أعنيها بك : أجبرها بك ، وأصل العوذ الاتجاء إلى سواك والتعلق به ، يقال عاذ بفلان إذا استجار به .

الرجيم : المرجوم ، المطرود من الخير .

التفسير :

٣٥ - إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ امرأة عمران هي حنة بنت فاقوذا ، كما رواه إسحاق بن بشر عن ابن عباس والحاكم عن أبي هريرة .. وكانت هذه السيدة عاقراً لا تلد ، وكانوا أهل بيت من الله بمكان فتحركت نفسها يوماً لأن تكون أما فلاذت بربها ودعته متضرعة أن يهب لها ولداً ، ونذرت إن حقق الله أميتها ، أن تجعل ولدها محرراً . أى خالصاً للعبادة وخدمة بيت المقدس عتيقاً من سوى ذلك ، فلا تشغله بشيء من أمورها .

فَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . أى تقبل مني قرباني وما جعلت لك خالصاً ، والتقبل أخذ الشيء على وجه الرضا .

( قال أبو منصور في « التاويلات » : جعلت ما في بطنها لله خالصاً لم تطلب منه الاستئناس به ولا ما يطمع الناس فيه من أولادهم ، وذلك من الصفوة التي ذكر الله عز وجل ، وهكذا الواجب على كل أحد إذا طلب ولداً أن يطلب للوجه الذي طلبت امرأة عمران وذكرها حيث قال : رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً . (آل عمران : ٣٨) .

وما سال إبراهيم : رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ . (الصافات: ١٠٠)

وقوله تعالى : وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (الفرقان : ٧٤) . هكذا الواجب أن يطلب الولد ، لا ما يطلبون من الاستئناس والاستتصار والاستعانة بأمر المعاش بهم) - انتهى .

٣٦ - فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ

وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَي فلما وضعتها أنثى على خلاف ما كانت تأمله - قالت متجسرة حزينة على فوات رجائها .

رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى . قالت ذلك وهي لا تعلم بمكانة ما وضعت ، والله وحده هو الذى يعلم بشأنها ، وما علق بها من عظام الأمور ودقائق الأسرار، وقالت في تحسرها : وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى . فى خدمة بيت المقدس ، فإنها مقصورة على العلمان دون الإناث فكانها تقول : ماذا أصنع فى نذرى يارب؟ .

وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ . وإنى غير راجعة عما انتويته من خدمتها بيت المقدس، وإن كانت أنثى فإن لم تكن جديرة بسدائنه فلتكن من العابدات القانتات ، ومعنى مريم : العابدة .

وقد أطلقت عليها اسم مريم فى اليوم الذى ولدت فيه وهى السنة فى شريعتنا أيضاً .

فقد أخرج الشيخان عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « ولد لى ولد سميت باسم أبى إبراهيم » . (١٦١) .

وأخرج الشيخان أيضاً أن النبى - صلى الله عليه وسلم - حمل إليه وليد فحنكه وسماه عبد الله .

وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .

وإنى أجبرها بحفظك ورعايتك من الشيطان المطرود من الخير .

روى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « كل بنى آدم يعمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها » (١٦٥) . والمراد أن الشيطان يطعم فى إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وابنها، فإن الله تعالى عصمها ببركة هذه الاستعاذة .

★ ★ ★

﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ إِنِّي لِلْهِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٧)

#### المفردات:

فَقَبَّلَهَا : أى قبل مريم - فى النذر - مكان الذكر .

أَنْبَتَهَا : أى رباها تربية طيبة .

- وكفلها زكريا** : وجعل زكريا كافلاً وضامناً لها، وزكريا من ولد سليمان بن داود عليهما السلام.
- المحارب** : المحارب هنا هو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح «هو مقصورة في مقدم المعبد لها باب يصعد إليه بسلام ذي درج قليلة يكون من فيه محجوباً عن من في المعبد.
- أنتى لك هذا** : أى من أين هذا، والأيام أيام قحط وجذب.
- بغير حساب** : أى بغير عد ولا إحصاء لكثرته.

### التفسير:

- ٣٧ - فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ . . . . أى فتقبل مريم من أمها ورضى أن تكون للعبادة وخدمة بيته على صغرها وأنوثتها، وكان التحرير لا يجوز إلا لغلام عاقل قادر على خدمة البيت . :
- وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا . أى رباها تربية حسنة كما يربى النبات فى الأرض ونماها صلاحاً وعفة وسداد رأى.
- وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا . أى جعل زكريا كافلاً لها، لتقتبس منه العلوم والمعارف ولتمضى على سنته من الصلاح، وكان زوج اختها كما ورد فى الصحيح «فإذا بيع يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة» ويحيى ابن زكريا عليهما السلام.
- وهكذا تهيأت لها البيئة الصالحة كما تهيأت لها الوراثة الصالحة فكانت سيدة نساء العالمين.
- كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا . وجد ألواناً من الطعام لم تكن توجد فى مثل تلك الأحيان.
- قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا . أى من أين لك هذا والأيام أيام جذب وقحط، أو من أين لك هذا ولا كافل لك سوى؟
- قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . الله يرزق الناس جميعاً بتسخير بعضهم لبعض، وقد جرى العرف فى كل زمان بإضافة الرزق إلى الله، وليس فى هذا دلالة أنه من خوارق العادات.
- ويحتمل أن تكون جملة : إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . من كلام الله تعالى وليس من كلامها، سيقت: للإيذان بأنه لا يتبغى أن تعجب من هذا الرزق، فإن الله يرزق من يشاء بغير حساب.
- والرزق قد يكون حسبياً وقد يكون معنوياً يشمل الهدى والتقى والبركة والتوفيق لمصالح الأعمال. وفى الحديث الشريف... « ما رزق المرء بعد تقوى الله خيراً من المرأة الصالحة ».

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝٢٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٢٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝٣٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَذَكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۝٣١﴾

المفردات :

هناك : أى في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب أو في ذلك الوقت،

وهناك يشار به إلى المكان والزمان.

الذرية : الولد، وتقع على الواحد والكثير.

طيبة : الطيب: ما تستطاب أفعاله وأخلاقه.

سميع الدعاء : أى مجيبه.

مصدقاً بكلمة من الله : كلمة الله عيسى عليه السلام، حيث جاء بقوله تعالى (كن) من غير توسط أب.

وحصوراً : الحصور الذي لا يباشر النساء، أو هو الذي يمنع نفسه من المعاصي.

أنى يكون : كيف يحصل لى.

بلغنى الكبير : أدركتني الشيخوخة.

وامراتى عاقر : عقيم لا تلد.

آية : أى علامة أعرف بها ميقات الحمل.

ألا تكلم الناس : أى لا تقدر على كلامهم من غير آفة.

إلا رمزا : الإشارة بيد أو رأس أو غيرها.

بالعشى : الوقت من الزوال إلى الغروب، وقيل من العصر إلى زهاب صدر الليل.

الإبكار : من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

## التفسير:

٣٨ - هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ . أى فى هذا المكان الذى خاطبته فيه مريم بما ذكر دعا ربه بهذا الدعاء .

أو فى تلك الحالة التى شاهدها، قال زكريا فى نفسه إن الذى جاء مريم بهذا الرزق لقادر على أن يصلح لى زوجتى ويرزقنى منها ذرية، فعند ذلك، قام فى المحراب، وابتهل إلى الله تعالى قائلاً:  
«رب هب لى من عندك ذرية صالحة مباركة، إنك كثير الإجابة لمن يدعوك».

قال علماؤنا: وهفت النبوة فى كتاب الله مرتين تتعلم من الصالحين، الأولى: عندما وقف موسى أمام الخضر يقول له : هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَ مِنَّمَا عَلَّمْتُ رَسُولًا . (الكهف: ٦٦). والثانية: عندما وقف زكريا أمام مريم وسألها: أَأَنْتِ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (آل عمران: ٣٧). فتعلم زكريا من مريم التبتل إلى الله وإخلاص الدعاء، والتعلم هنا من مشاهدة الحال، أكثر من سماع الأقوال.

٣٩ - فَجَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ .

ناداه جبريل عليه السلام وهو من جنس الملائكة كما تقول فلان ركب السفن وهو إنما ركب سفينة واحدة، ويرى ابن جرير وغيره أن المراد جماعة من الملائكة، إذ لا ضرورة تدعو إلى التاويل وبهذا قال قتادة وعكرمة ومجاهد .

نادته الملائكة وهو قائم يصلّى فى المسجد، أن الله تعالى يبشرك بولد ذكر سماه الله يحيى، وقد أحياء الله من أبوين كبيرين وحملت البشارة طائفة من البشريات فهو غلام ذكر.

وهو مؤمن يصدق بعيسى عليه السلام الذى سمي كلمة الله لأن الله خلقه بقوله (كن) فكان، ومعنى تصديقه به إيمانه بأنه رسول الله، وهو بذلك يكون أول من آمن به، ويحيى أكبر من عيسى . ومن صفات يحيى أنه سيكون سيّدا، والسيد من يسود قومه، ثم أطلق على كل فائق فى الدين والدنيا، كما قال بعض المحققين . ويمكن أن يجتمع فيه الأمران: الرئاسة فى قومه، والتفوق فى الدين فإنه نبي الله، ومن الصالحين .

ومن صفات يحيى أيضاً أنه حصور .. وفسره ابن عباس، بأنه الذى لا يأتى النساء مع القدرة على ذلك، ولعل هذا لأن انهماكه فى العبادة شغله عنهن .

وفسر الحصور بعض المفسرين: بأنه المبالغ فى حصر النفس وحبسها عن المعاصي والشهوات .

ومن صفات يحيى التى بشر بها والده زكريا .

أنه سيكون نبيا من الصالحين .

أى سيوحى إليه إذا بلغ سن النبوة، وسيكون فى أعلى مراتب الصلاح .



وإذا أسند الفعل إلى الملائكة جاز تذكره بتأويل الجمع كقوله تعالى : **وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ** . (الرعد: ٢٣) . وجاز ثانيه على تأويل الجماعة مثل قوله تعالى:

**فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ** . والملائكة لا توصف بالذكورة ولا بالأنوثة، فهم عباد مكرمون لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

٤٠ - قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وأمرأتى عاقراً قال كذلك الله يفعل ما يشاء . لما بشرته الملائكة بذلك، وتحقق من البشارة، تعجب من وقوع ذلك مع وجود الموانع، فقد كان عمره (١٢٠) سنة وعمر زوجته ٩٨ سنة وهى عقيم لا تلد فى صباها فكيف تلد فى شيخوختها؟

#### قال الشيخ محمد عبيد :

إن ذكرى لما رأى ما رأى من نعم الله على مريم، من كمال إيمانها وحسن حالها، واعتقادها أن المسخر لها، والرازق لها عندها، هو من يرزق من يشاء بغير حساب، أخذ عن نفسه، وغاب عن حسه، وانصرف عن العالم وما فيه، واستغرق قلبه فى ملاحظة فضل الله ورحمته فتطرق بهذا الدعاء فى حال غيبته، وإنما يكون الدعاء مستجاباً إذا جرى به اللسان بتقنين القلب حال استغراقه فى الشعور بكمال الرب.

ولما عاد من سفره فى عالم الوحدة إلى عالم الأسباب ومقام التفرقة، وقد أوزن بسماع دوائه واستجابة دعائه سأل ربه عن كيفية الاستجابة وهى على غير السنة الكونية فأجابه بقوله:

قال كذلك الله يفعل ما يشاء : أى الله يفعل ما يشاء مثل ذلك من الأفعال الخارقة للعادة، الخارجة عن القياس.

٤١ - قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا . أى قال: رب اجعل لى علامة تدلنى على الحمل، وقد سأل ذلك استعجالا للسرور، وقيل ليتلقى تلك النعمة بالشكر حين حصولها . قال الله: علامتك، ألا تقدر على مكالمة الناس ثلاثة أيام متوالية من غير آفة.

وتقييد عدم الكلام بالناس، مؤذن بأنه كان غير محبوبس عن ذكر الله تعالى، وكان حديثه مع الناس فى هذه المدة مقصوراً على الإشارة باليد أو الرأس أو نحوهما وهذا معنى : **إِلَّا رَمْزاً** . وإنما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكره تعالى شكراً على ما أنعم به عليه، وقيل: كانت عقوبة منه تعالى بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه.

**وَأَذْكُرُ رَبَّنَا كَثِيرًا** : أى ذكرنا كثيراً.

**وَسَبِّحْ بِالنَّشِيِّ وَالْإِبْكَارِ** : أى سبح الله ونزهه عما لا يليق به فى وقت العشى - من الزوال إلى الغروب - وفى وقت الإبطار - من الفجر إلى الضحى.

والمراد من العشى والإبطار جميع الأوقات، والذكر: يتناول ما كان باللسان والقلب.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيئُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِيئُ اقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَنْهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

المفردات :

إن الله اصطفاك : قبلك واختارك لخدمة بيت المقدس وكان ذلك خاصا بالرجال .  
وطهرتك : من الأدناس، أو طهرتك بالإيمان عن الكفر وبالطاعة عن العصيان .  
واصطفاك على نساء العالمين : اختارك عليهن، بأن تكوني أما لعيسى من غير أب، - وجعلك وإياه آية للعالمين، ولم يكن ذلك لأحد من النساء .

اقتنى لربك :

: داومى على طاعته .

واسجدى :

: واخضعى .

واركعى مع الرَّاكِعِينَ :

: الركوع الانحناء والمراد لازمه وهو التواضع والخشوع فى العبادة .

ياقون أقلامهم :

: أى الأقلام التى يكتبون بها التوراة أو السهام والأقلام التى يضربون بها

القرعة ويقامرون بها .

يختصمون :

: يتنازعون فى كفالتها .

التفسير :

٤٢ - وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . الملائكة هنا يمكن أن تطلق على جبريل بدليل قوله تعالى فى سورة مريم: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . (مريم: ١٧).

ويجوز أن يكونوا جماعة من الملائكة قالت لمريم:

يا مريم، إن الله اختارك لخدمة بيته، ولم يكن يخدمه قبلك إلا الرجال، وطهرتك من الأدناس حسية كانت أو خلقية أو اعتقادية، وبرأك من العيوب واختصك بولادة نبي دون أن يمسك رجل، فكنت فريدة فى ذلك بين نساء العالمين لطهرتك وفضلك . أو فضلك على نساء أهل زمانك، كما فضل آسية امرأة فرعون على نساء أهل زمانها، وفضل الله خديجة زوج النبي على نساء أهل زمانها، وفضل الله فاطمة بنت محمد على نساء أهل زمانها، وقد ورد ذلك فى الحديث الشريف .

٤٣ - يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . وقالت الملائكة لمریم :

داومی على طاعة ربك واخضعی له ، وصلى مع المصلين ، وقد أمرها الله بذلك حتى لا يحدث لها فتور أو غفلة . بعد ما علمت مكانتها عند الله تعالى .

٤٤ - ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ . أى هذه أخبار قصصناها عليك من أخبار مريم وزكريا ، لم تشهدا أنت ولا أحد من قومك ، ولم تقرأها فى كتاب ، بل هى وحى نوحیه إليك على يد الروح الأمين ، لتكون دلالة على صحة نبوتك ، والزاماً للمعاندين الجاحدين .

وصدق الله العظيم وَمَا كُنْتُمْ تَلْقَوْنَ مِنْ كَلِمَةٍ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْمِلُهُ يَمِينُكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ . (العنكبوت : ٤٨) .

وَمَا كُنْتُمْ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتُمْ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

أى وما كنت يا محمد معانيث لفعلمهم وما جرى من أمرهم فى شأن مريم إذ يلقون أقلامهم أى سهامهم التى جعلوا عليها علامات يعرف بها من يكفل مريم على وجه القرعة : وَمَا كُنْتُمْ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ . بسببها تنافسا فى كفالتها مع زوج خالتها زكريا ، فكان زكريا يريدأها ، لأن خالتها معه ، ولأنه كان رئيس الأخبار ، ويرى أنه أحق بها لذلك . وكان كل واحد من القراء يريدأها لأنها ابنة علمهم ، فاقترحوا حلا لهذه المشكلة أن يقترعوا :

وطريقة الاقتراع لم يرد بها خبر صحيح ، وقد روى عن قتادة وغيره أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هناك على أن يلقوا أقلامهم ، فأبهم ثبت فى جريه الماء فهو كافلها ، فالتقوا أقلامهم ، فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت (١٦٦) .

وأيا كانت كيفية القرعة التى اتفقوا عليها ، فإن هذه القرعة كانت سبيلا إلى فوز زكريا عليه السلام بكفالة مريم .

وفى هذه الآية دليل على أن القرعة سبيل مشروع لتمييز الحقوق . والاستهام (١٦٧) ورد فى القرآن فى موضعين ، هذا الموضع وقوله تعالى : فَسَاهُمْ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ . (الصافات : ١٤١) . وروى الشيخان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأبهم خرج سهمها سافرت معه (١٦٨)

وإنباء القرآن بما وقع فى كفالة مريم من نزاع وخصام ولجوء المتنازعين إلى القرعة ، دليل على نبوته - صلى الله عليه وسلم - ، لأن ذلك لا يعلم إلا عن طريق الوحى .

قال تعالى :

وَمَا كُنْتُمْ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتُمْ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

أى ما كنت عندهم فى الحالين ، حتى تعلم أمرهم . وإنما أعلمك الله بوحيه .

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٤٥ ﴾ وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ٤٦ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّ سَنِي بَشَرًا قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٤٧ ﴾

المضردات :

: التبشير، الإخبار بالبشارة وهي الخبر السار، وأطلق عليه ذلك لظهور أثره على البشرية.

يبشرك

: لفظ معرب وأصله مشيحا، وعيسى معرب يسوع بالعبرانية.

المسيح

: صاحب جاه وكرامة.

وجيها

: المهدي هنا فراهش الطفل الرضيع.

المهدي

: من جاوز الثلاثين إلى الأربعين، وقيل من جاوز الثلاثين إلى إحدى وخمسين سنة.

الكهل

والكهل من خطه الشيب في جلال ووقار، وهو بين حالي الغلومة والشيوخوخة، ومنه اكتهلت الروضة إذا عمها النوار.

ولم يمسنني بشر : المس هنا، كناية عن الجماع.

تمهيد :

بعد أن ذكر قصة مريم أردفها بذكر قصة عيسى وقد ذكر هنا طرْفًا من القصة، وفي سورة مريم نجد جانبًا من القصة يناسب جو السورة ويؤكد ما فيها، وهنا نجد جانبًا آخر، مما يؤكد أن القصص في القرآن يأتي لعدة أغراض منها.

١ - بيان قدرة الله تعالى.

٢ - تأكيد ما تهدف إليه الآيات السابقة على القصة.

٣ - تحذير الكفار والطفلة من مصارع السابقين.

٤ - تثبيت المؤمنين عن طريق استلھام مضمون القصة ومحتواها.

التفسير :

٤٥ - إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ.

المعنى :

اذكر يا محمد، حين قالت الملائكة لريم: يا مريم، إن الله يخبرك بخبر يسرك، هو: أنه سيمن عليك بفلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم ذى جاه وشرف فى الدنيا بما يظهره الله على يديه من المعجزات، وبما اتصف به من الصلاح والتقوى، وذى جاء فى الآخرة بظهور صدقه وعلو درجته ومن المقربين إلى الله والناس، المحبوبين لديهم.

ويلحق بالآية ما يأتى:

١ - المراد من الملائكة هنا جبريل عليه السلام، لقوله تعالى فى سورة مريم فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا وذكر بلفظ الجمع لأنه رئيسهم.

٢ - إطلاق لفظ كلمة على عيسى عليه السلام، لأنه خلق بغير أب بمقتضى كلمة التكوين المعبر عنها بقوله سبحانه إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) وكما قال سبحانه إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران : ٥٩). وبما أن كُنْ كلمة، فلذا سمى (كلمة).

وقد خص المسيح بإطلاق الكلمة عليه وإن كان كل شئ خلق بكلمة التكوين، لأنه لما فقد فى تكوينه، وحمل أمه به، ما جعله الله سببا للحمل فى العادة، وهو تلقيح ماء الرجل للمرأة، اضيف إلى الله واطلقت الكلمة على هذا المكون إيدانا بذلك، بخلاف الأشياء فإنها تنسب فى العرف إلى الأسباب العادية.

٣ - المسيح لقب لعيسى عليه السلام، وهو من الألقاب ذات الشرف، كالفارق لعمر، وهو لقب عبرى ومعناه القائم على عبادة الله، ومع كونه لقبًا، فقد صرحت الآية بأنه اسم له والألقاب إذا اشتهرت صارت أسماء.

٤ - قال القاسمى :

اسم الوليد الذى يميزه لقبًا الْمَسِيحُ وعلمًا عِيسَىٰ معرب يسوع ، ويسوع بالسين المهمله كلمة يونانية معناها (مخلص) ويرادفها يشوع بالمعجمة، إلا أنها عبرانية، والمسيح بمعنى الممسوح أو المدهون. قال البقاعى، وأصل هذا الوصف أنه كان فى شريعتهم من مسحه الإمام بدهن القدس فكان طاهرًا متاهلًا للملك والعلم والولايات الفاضلة مباركًا، فدل سبحانه على أن عيسى عليه السلام ملازم للبركة الناشئة عن المسح وإن لم يمسح.

٤٦ - وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ .

ويشرتها الملائكة بأنه يكلم الناس طفلا فى المهد مثلما يكلمهم وهو رجل ذو جلال ووقار فكلامه فى كلتا الحالتين كلام رصين، مفيد نافع، ومن كلامه فى طفولته ما نطق به عقب ولادته : قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٢٣) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٢٤) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا . (مريم: ٣٠ - ٣٢).

أما كلامه في كهولته فهو كلام الوحي والرسالة، والكهل من وخله الشيب، أو من جاوز الثلاثين إلى الأربعين أو الخمسين.

قال الأعرابي: يقال للغلام مراهق، ثم محتل ثم يقال تخرج وجهه، ثم اتصلت لحيته، ثم مجتمع، ثم كهل. وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، قال الأزهرى، وقيل له كهل حينئذ لانتهاء شبابه وكمال قوته.

وَمِنَ الصَّالِحِينَ . أى ومعدودا من الصالحين الذين أنعم الله عليهم من التبيين والصديقين.

٤٧ - قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

تلقت مريم البشارة كما يمكن أن تتلقاها فتاة، واتجهت إلى ربها تتاجيه وتتطلع إلى كشف هذا اللغز الذى يحير عقل الإنسان.

ومن أين لى ولد ولم يتصل بى بشر، والمولود لا يولد إلا من نكاح أو من سفاح وأنا لم أتزوج زوجاً حلالاً ولست من أهل البغى والسفاح.

وفى سورة مريم : قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢١) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيٌّ هَيْنَ وَنَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا . (مريم : ٢٠ - ٢١).

لقد بلغها جبريل أن الله يفعل ما يشاء ولو خالف القياس بدون معاناة ولا صعوبة، ولا يحتاج تحقيق المراد إلى قوله تعالى «كن» بل يكفى أن يريده الله فيتحقق فى الحين الذى اراده سبحانه فيه، والأمر بكن محمول - عند الأكثرين - على أنه تمثيل لتأثير قدرته تعالى فى مراده بأمر المطاع للمطيع فى حصول المأمور به، من غير امتناع ولا توقف، وأجاز بعضهم: أن يكون ذلك على الحقيقة، بأن يتعلق كلام الله النفسى: الذى هو بمعنى كن، على ما أراد الله تكوينه، فيكون ويحدث.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٤٨) ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِى الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٤٩) ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجَنَّاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ قَاتِلُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (٥٠) ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (٥١)

المفردات :

الأكمه : من ولد أعمى.

الأبرص : من بجلده بقع بيضاء تخالف لون سائره.

التفسير :

٤٨ - وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ .

فى جملة ما بشرت به الملائكة مريم عن ولدها عيسى المنتظر أن الله تعالى يعلمه الكتابة بالقلم كما قاله ابن عباس وابن جريج أو يعلمه الخط والنظر فى الكتب والعلم الصحيح ويفقهه فى التوراة، ويعلمه أسرار أحكامها، وقد كان المسيح عليهما بها يرشد قومه إلى أسرارها ومغازيها، وكذلك يعلمه الإنجيل الذى أوحى به إليه.

وتعليم المسيح : الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل صالح لأن يكون موهبة إلهية، ولأن يكون بعلم، روى أنه لما ترعرع أسلمته أمه إلى المعلم، ولكن لا ندرى ماذا علمه المعلم، ولعله علمه ما تضمنته الآية من الكتابة والتوراة، أما الإنجيل فقد أنزله الله عليه، والحكمة يراد بها وضع الشيء فى موضعه، أو حسن التصرف، وحسن الفهم والاستنباط، وهى أقرب إلى الموهبة، ويمكن أن تمتى بالجد والعمل، قال تعالى : يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ سورة (البقرة : ٢٦٩).

٤٩ - وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ .

لقد أرسل الله المسيح رسولا إلى بنى إسرائيل، وهذا يؤذن بخصوص بعثته إليهم، روى أن الوحي آتاه وهو ابن ثلاثين سنة، وكانت نبوته ثلاث سنين ثم رفع إلى السماء.

أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ . أى ويجعله الله رسولا إلى بنى إسرائيل، يخبرهم: انى قد جئتكم ببرهان من ربكم على نبوتى هو أنى أنشئ لكم من الطين تمثالا كهية الطير وشكله، فأنفخ فيه فيكون بعد النفخ طيرا بأمر الله الذى جعل ذلك معجزة وبرهانا على أنه أرسلنى إليكم، فإن مثل ذلك لا يقدر عليه البشر، لأنه مما اختص الله به، فإذا أمكن الله بعض عبادہ من ذلك، فذلك يعتبر تأييدا من الله له فى دعوى الرسالة.

وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ . وأشفى الأكمه الذى ولدته أمه أعمى فيصير بصيرا، وأشفى من يجلده برص، وهو بياض يخالف لون سائر الجلد. وهاتان العلتان أعجزتا الأطباء فى عصر عيسى، وقد كان الطب متقدما جدا فى عهده، فأراهم الله المعجزة من جنس ما برعوا فيه، وقد جرت السنة أن تكون معجزة كل نبي من جنس ما اشتهر فى زمنه.

فأعطى موسى العصا واليد البيضاء، حيث كان المصريون قد برعوا فى السحر، وأعطى عيسى من المعجزات ما هو من جنس الطب الذى حنقه أطباء عصره، وأعطى محمد - صلى الله عليه وسلم - القرآن حيث كان العرب قد برعوا فى البيان واشتهروا بالفصاحة والبلاغة وهنون القول.

وتفيد الآية أن قدرة المسيح على شفاء المرضى كانت بإذن الله، وأن إحياء الموتى كان بإذن الله.

وفى كل معجزة من هذه المعجزات كان المسيح يلجأ إلى الله ويدعوه، فيحقق الله دعاءه، دون ممارسة الوسائل الطبية.

والأمر متعلق بإرادة الله وقدرته والله على كل شيء قدير.

وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ . وأخبركم بما تاكلونه فى بيوتكم، ولم أشاهدهم، وما تدخرونه للمستقبل من مال وطعام لا سبيل لى إلى عمله.

والمراد: الإخبار بهذين النوعين بخصوصهما، وقيل المراد أنه يخبرهم بالمغيبات.

واقصر على ذكر هذين الأمرين لحضورهما لديهم فلا يبقى لهم شبهة، ولا شك أن صدقه فيما أخبر به شاهد على صدقه فى دعواه الرسالة إليهم.

إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إن فى ذلك لحجة ودلالة على صدقى فى دعوى الرسالة إن كنتم مصدقين بآيات الله.



وقد ذكر في الإنجيل أنه عليه السلام رد بصر أعميين في كفر ناحوم، وأعمى في بيت صيدا، ورجل ولد أعمى في اورشليم، وشفى عشرة مصابين بالبرص في السامرة، وأبصر أبرص في كفر ناحوم، وأقام ابن الأرملة من الموت في بلدة نايين، وأحيا ابنة جيروس في كفر ناحوم والعازر في بيت عينا.

٥٠ - وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . وارسلت إليكم مصدقاً لشريعة التوراة التي نزلت على موسى ولأبيح لكم بعض ما حرم عليكم من قبل وقد جئتمكم بأية من الله على صدق رسالتي فاتقوا الله وأطيعوني.

(والآية تكشف عن طبيعة المسيحية الحققة فالتوراة التي نزلت على موسى - عليه السلام - وهي تتضمن التشريع المنظم لحياة الجماعة وفق حجة ذلك الزمان، وملابسات حياة بني إسرائيل (بما أنها ديانة خاصة لمجموعة من البشر في فترة من الزمان) - هذه التوراة معتمدة في رسالة المسيح - عليه السلام -، وجاءت رسالته مصدقة لها مع تعديلات تتعلق، بإجلال ما حرم الله عليهم وكان تحريمه في صورة عقوبات حلت بهم على معاصٍ وانحرافات، أدبهم الله عليها بتحريم بعض ما كان حلالاً لهم، ثم شاعت إرادته أن يرحمهم بالمسيح عليه السلام فيحل لهم بعض الذي حرم عليهم.

ومن هذا يتبين أن طبيعة الدين - أي دين - أن يتضمن تنظيمًا لحياة الناس بالتشريع، وألا يقتصر على الجانب التهذيبي الأخلاقي وحده، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها، ولا على الشعائر والعبادات وحدها كذلك، فهذا لا يكون ديناً، فما الدين إلا منهج الحياة الذي أراده الله للبشر، ونظام الحياة الذي يربط حياة الناس بمنهج الله، ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية عن الشعائر التعبدية، وعن القيم الخلقية، وعن الشرائع التنظيمية، في أي دين يريد أن يصرف حياة الناس وفق المنهج الإلهي، وأي انفصال لهذه المقومات يبطل عمل الدين في النفوس وفي الحياة، ويخالف مفهوم الدين وطبيعته كما أراد الله.

(وهذا ما حدث للمسيحية.. فقد انتهت المسيحية إلى أن تكون نحلة بغير شريعة، وعجزت المسيحية عن أن تكون نظاماً شاملاً للحياة البشرية، واضطر أهلها إلى الفصل بين القيم الروحية والقيم العملية في حياتهم كلها، ومن بينها النظام الاجتماعي الذي تقوم عليه هذه الحياة، فالمسيحية كما جاء بها السيد المسيح، هي الشريعة المنظمة للحياة، المنبثقة من التصور الاعتقادي في الله، وهي تصدق بالتوراة وتؤيدها، ولكن العداء بين اليهودية والمسيحية جعل كل فريق يرفض ما عند الفريق الآخر<sup>(١٦٦)</sup>).

قال تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا الَّذِينَ آتَوْا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ . (البقرة: ١٤٥).

٥١ - إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . يعلن المسيح حقيقة التوحيد والإيمان بالله وحده هذا الاعتقاد الذي قامت عليه جميع الرسالات السماوية، ويؤيد المسيح عليه السلام أن المعجزات التي جاءهم

بها لم يَجِئْ بها من عند نفسه، فما له قدرة عليها وهو بشر، إنما جاءهم من عند الله، ودعوته تقوم ابتداء على تقوى الله وطاعة رسوله، ثم يؤكد ربوبية الله له ولهم على السواء، - فما هو برب وإنما هو عبد، وأن يتوجهوا بالعبادة إلى الرب، فلا عبودية إلا لله ... ويختم قوله بالحقيقة الشاملة.. فتوحيد الرب وعبادته وطاعة الرسول والنظام الذى جاء به هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ .. وما عداه عوج وانحراف وما هو قطعاً بالدين.

★ ★ ★

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا لِمَكَرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

المفردات :

**فلما أحس :** أصل الإحساس الإدراك بإحدى الحواس، ويستعار للعلم بلا شبهة وفي الأساس: أحسست منه مكرًا، وأحسست منه بمكر، وما أحسنا منه خيرا، وهل تحس من فلان بخير.

**والأنصار :** جمع نصير، وهو من يؤيدك وينصرك.

**الحواريون :** جمع حواري، وهو الصفي والناصر. يقال: فلان حواري فلان، خاصته من أصحابه وناصريه.

التفسير :

٥٢ - فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ . فلما شعر عيسى من قومه بنى إسرائيل بالإصرار على الكفر والعناد وقصد الإيذاء، فقد صبح أنه لقي من اليهود شذائد كثيرة، فقد كانوا يجتمعون عليه، ويستهزئون به ويقولون له : يا عيسى ما أكل فلان البارحة؟ وما أدرى فى بيته لغد؟ فيخبرهم، فيسخرّون منه، حتى طال ذلك به ويهم، وهما يقتله فخافهم واختفى عنهم، وخرج هو وأمه يسىحان فى الأرض. وفى هذا عبرة وتسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - .

ولما اشتد الكرب بعيسى، واستيقن بالخطر المهدق اتجه إلى من خلصت نيته من قومه بقوله :

مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ..

وقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْخَوَارِثِ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ. (الصف: ١٤).

قال المسيح للمخلصين من قومه وخاصتهم، من ينصروني ويؤيدوني وأنا متجه إلى الله داعياً لدينه، لا يصرفه عن ذلك صارف ولا يمنع ما عني.

فاستجاب له الخلاص المتقون.

قال الحواريون نحن أنصارُ الله. أي قال خاصة أصحابه وناصريه: نحن أنصار دين الله، والباذلون كل ما في الوسع في تأييد دعوتك، وسننضم معك في نصرة الله وتبليغ دعوته.

آمنًا بالله وأشهد بأننا مسلمون. اعلتوا إيمانهم وأظهروا استعدادهم للبذل والتضحية، وأشهدوا المسيح بأنهم مسلمون متقادون لكل ما يريده الله منهم.

٥٢ - رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَأَتَّبِعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . بعد أن لبوا دعوة عيسى عليه السلام، اتَّجَّهُوا إلى الله تعالى قائلين، رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ عَلَى جَمِيعِ رُسُلِكَ، وَأَتَّبِعْنَا الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَامْتَلَنَّا مَا آتَى بِهِ مِنْ عِنْدِكَ.

فاكتبنا عندك ببركة هذا الإيمان - مع الشاهدين من جميع الأمم: بصدق الأنبياء والمرسلين. ولا تجعلنا من المعاندين المكابرين، الذين ينكرون الحق مع وضوح دليله.

٥٤ - وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . ومكر أولئك القوم الذين علم عيسى كفرهم من اليهود بأن وكلوا به من يقتله غيلة.

ومكر الله فابطل مكرهم فلم ينجحوا فيه، ورفع عليه السلام إلى السماء، وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل.

قال ابن عباس: لما أراد ملك بني إسرائيل قتل عيسى عليه السلام، دخل عيسى خوخة فيها كوة، فرفعه جبريل عليه السلام من الكوة إلى السماء، فقال الملك لرجل خبيث منهم ادخل عليه فاقتله، فدخل الخوخة فالتقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام فخرج إلى أصحابه يخبرهم أنه ليس في البيت، فقتلوه وصلبوه، فلما منهم أنه عيسى.

وقد جاء في إنجيل برنابا ما يصدق هذا المروي عن ابن عباس وفيه أيضاً:

أن الخبيث هو يهوذا وكان من الحواريين المناهقين، وهو الذي دلهم على مكانه، وذلك أن عيسى جمع الحواريين تلك الليلة، وأوصاهم وقال: ليكن منكم من يذهب يهوذا إلى ملك اليهود وأخبره بمكانه، ومكان حواريه، فلما توجه إليه الملك، برجاله ودخلوا عليه البيت لم يجدوه فقد رفعه الله إليه وألقى شبه عيسى على يهوذا فأمر الملك بقتله، فقال له: أنا يهوذا؟ فقال الملك: إن كنت يهوذا فأين عيسى؟ فقال يهوذا: إن كنت عيسى فأين يهوذا؟ فلم يعبا الملك بهذه المعارضة، وصلبه لشبهه بعيسى. ومن العجيب أن النصارى لا يعترفون بهذا الإنجيل مع أنه وجد بمكتبة بابا روما، وترجم إلى اللغة الإيطالية، ثم إلى الإنجليزية، وغيرهما من لغات العالم، ولم يوجد بالعربية إلا بعد ترجمته من الإنجليزية أخيراً.



التفسير :

٥٥ - إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْثُوكَ وَارْفَعُكَ إِلَيَّ وَمُظْهَرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فُورًا الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

اختلف العلماء في المراد من التوفى هنا .

١ - فمن العلماء من قال : إنه على حقيقته المعروفة ، وإنه مرتبط بالآية السابقة .

**والمعنى :** ومكر اليهود بعيسى يريدون قتله ، ومكر الله فأحبط تدبيرهم ، وقال سبحانه وتعالى لعيسى : إني مَرْثُوكَ حين يأتي أجلك ، ولن أسلطهم عليك ليقْتُلُوكَ ، وقد حقق الله وعده له إذ القى شبهه على يهوذا فقتلوه ، وأنجى عيسى ورفعوه إليه ، وسيبقى إلى آخر الزمان ليبلغ شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - للناس ، ثم يتوفاه بعد ذلك ، كما ورد في السنة الصحيحة .

فالآية على هذا كناية عن عصمته من الأعداء ، مشفوعة بالبخارة برفعته .

٢ - ومن العلماء من ذهب إلى أن الآية على ظاهرها ، وأن التوفى هو الإمامة العادية وأن الرفع بعده للروح ، ولا غرابة في خطاب الشخص وإرادة روحه فالروح هي حقيقة الإنسان ، والجسد كالثوب المستعار يزيد وينقص ويتغير ، والإنسان إنسان بروحه .

**والمعنى :** إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع عندي كما قال في إدريس عليه السلام «ورفعناه مكاناً علياً» ونظرنا في تفسير هذه الآية يحكم علينا أن نشفع القرآن بالسنة الصحيحة التي تقيد أن عيسى عليه السلام قد رفع حيا بدون وفاة ، وتقيد أنه سينزل آخر الزمان ليحدد ما درس من شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم .

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص <sup>(١٧١)</sup> ، فلا يسعى عليها ، وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد » <sup>(١٧٢)</sup> .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « كيف أنتم إذا أنزل فيكم ابن مريم وامامكم منكم » <sup>(١٧٣)</sup> .

وبما أن عيسى سينزل آخر الزمان ، فلا بد أن يبقى حيا إلى حين ينزل ويبليغ شرع الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - ، إذ لو مات قبل ذلك ، لكان نزوله هذا بعتاً له في الدنيا ولا بعث إلا في الآخرة .

ومن المفسرين من ذهب إلى أن حديث الرفع والنزول في آخر الزمان حديث آحاد يتصل بأمر اعتقادي ، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالدليل القاطع من قرآن أو حديث متواتر ، ولا يوجد هنا واحد منهما ، وقالوا ربما كان المراد بنزول المسيح وحكمه في الأرض غلبة روحه ، وسر رسالته على الناس بالأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها ، والمتمسك بقشورها دون لبائها <sup>(١٧٤)</sup> وسئل الشيخ محمد عبده عن المسيح الدجال وقتل عيسى له فقال : « إن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها ،

والأخذ بأسرارها وحكمها، وإن القرآن أعظم هاد إلى هذه الحكم والأسرار ، وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مبيّنة لذلك فلا حاجة للبشر إلى إصلاح وراء الرجوع إلى ذلك « (١٧٥) .

ونرى أن الدين لا يؤخذ بالرأى، وأن الحديث الصحيح قاطع الدلالة في هذا الموضوع فينبغي أن نقبل حكمه وقد مدح الله المؤمنين بأنهم يؤمنون بالحكم . ويفوضون إلى الله معرفة المتشابه مع الإيمان بما ورد على وجه الإجمال، وتقويض حقيقة المراد إلى الله تعالى .

#### جاء في ظلال القرآن ما يأتي :

« لقد أرادوا صلب عيسى عليه السلام وقتله ، وأراد الله أن يتوفاه ، وأن يرفعه إليه، وأن يطهره من مخالطة الذين كفروا والبقاء بينهم وهم رجس وندس ، وأن يكرمه فيجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .. وكان ما أَرَادَهُ اللهُ ، وأبطل الله مكر المكابرين .. »

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

فأما كيف كانت وفاته ، وكيف كان رفعه ... فهي أمور غيبية تدخل في المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله ، ولا طائل وراء البحث فيها ، لا في عقيدة ولا في شريعة، والذين يجرون وراءها، ويجعلونها مادة للجدل، ينتهي بهم الحال إلى المراء، وإلى التخليط، وإلى التعقيد دون ما جزم بحقيقة ، ودون ما راحة بال في أمر موكل إلى علم الله.

وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا . أى أنجيك مما كانوا يريدون بك من الشر، أو مما كانوا يرمونه به من القبايح ونسبة السوء إليه.

وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . من إكرام الله لعيسى أنه قد جعل الذين اتبعوه في الدين وآمنوا به فوق الذين كفروا والمراد أنهم أعلى منهم روحاً وأحسن خلقاً وأكمل أدباً . وقيل فوفهم في الحكم والسيادة وإن يكن هذا غير مطرد بالنسبة لليهود والنصارى . والمعروف الذي يحدثنا به التاريخ أن كل جماعة تتمسك بدينها وأدابه وإخلاقه لا بد أن تكون فوق الجميع (١٧٦).

ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . أى ثم مصيركم إلى يوم البعث ، فأحكم بينكم حينئذ . فيما اختلفتم فيه من أمور الدين، وهذا شامل للمسيح والمختلفين معه، وشامل للاختلاف بين أتباعه والكافرين به . وحينئذ يبين لهم الحق في كل ما اختلفوا فيه.

٥٦ - فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

المعنى :

فأما الذين كذبوك وهم اليهود أو كفروا بالحق وحادوا عنه، أو جحدوا نبوة المسيح أو جعلوه إلهاً أو ابناً

لله، كل خارج عن الحق سيقع في العذاب الشديد في الدنيا، بالقتل أو الأسر أو الضيق النفسى وعدم الهداية والسعادة. وفي الآخرة ينتظرهم عذاب أشد وأكثى، وما لهم من ناصرين يدفعون عنهم عذاب الله.

٥٧ - وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورُهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

إن الجزء من جنس العمل، فالكاfer ينتظره العقاب في الدنيا والآخرة والمؤمن ينتظره الثواب في الدنيا والآخرة. إنه سبحانه يوفى المؤمنين أجورهم في الدنيا بطمأنينة النفس وهدوء البال وسعة الرزق، والتصور والعون، يستوى في ذلك الأفراد والجماعات، فالتقاعدة الإلهية العامة هي أن كل من آمن بالله وعمل صالحاً، فإن الله سبحانه وتعالى يكتب له الفوز والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة. يقول سبحانه فيما يتعلق بالأفراد:

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (النحل : ٩٧).

ويقول سبحانه عن الجماعات :

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . (الأعراف : ٩٦).

وفي ختام هذه الآية نجد هذه القاعدة الأصلية.

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . فالظلم خروج عن قوانين الفطرة، وجور في العدل، ووضع للشيء في غير موضعه، والظالم يتعرض لغضب الله في الدنيا ولعقوبته يوم القيامة.

قال صلى الله عليه وسلم :

«إن الله ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته» . ثم قرأ : وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه اليه شديد (هود : ١٠٢) .

والظالم يتعرض للقصاص العادل في يوم الجزاء، أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » (١٧٧).

٥٨ - ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ .

أي هذه الأنبياء التى أنبأك بها عن عيسى وأمه مريم وأمهها، وزكريا وابنه يحيى، وما قص من أمر الحواريين واليهود من بنى إسرائيل تقرؤها لك على لسان جبريل، وهو القرآن الحكيم الذى يبين وجوه العبر في الأخبار والحكم في الأحكام فهى الموجهة للمؤمنين إلى لب الدين وفقهه الشريعة، وأسرار الاجتماع البشرى.

وفىها حجة على من حاجك من وفد نجران، ويهود بنى إسرائيل الذين كذبوك وكذبوا ما جنتهم به من الحق.

﴿إِنَّمِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾  
 الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ  
 تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ  
 فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا  
 اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

المفردات :

إن مثل عيسى : المثل : الحال الغريبة والشأن البديع.

كـن فيكون : أى صر بشرا ، فصار بشرا ، والتعبير بالمضارع بدل الماضى ، لتصويره بصورة الحاضر  
 المشاهد، إيدانا بفرايته فلا تكن من المُمْتَرِينَ الامتراء الشك، أو الجدال أى لا تكن من  
 الشاكين ، أو من المجادلين فى شأنه بعد وضوح الحق ، والخطاب لكل مكلف .

حاجك : أى جادللك .

ثم نبتهل : أى ثم ندع الله ، مضارع من الابتهال وهو الدعاء .

وما من إله : ما : نافية ، ومن : لتأكيد الاستغراق المفهوم من النكرة المنفية ، وهى كلمة (إله) .

سبب النزول :

نزلت هذه الآيات على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند حضور وفد نجران ، وكان من جملة  
 شبههم أن قالوا : يا محمد لما سلمت أنه لا أب لعيسى من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى ، وزعموا أن  
 معنى كونه « كلمة الله ، وروح الله » أن الله حل فى أمه ، وأن كلمة الله تجسدت فيه فصار إنسانا وإلهًا ، فضرب  
 مثلا بأدم ليرد به على الكافرين والمفتونين .

التفسير :

٥٩ - إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . إن حال عيسى - وصفته  
 العجيبة فى خلقه من غير أب - كحال آدم أبى البشر، أراد الله خلقه من تراب، ثم قال له : صر وكن بأمرى  
 بشرا سوياً : ذا لحم ودم ، وعظام وأعصاب وعقل وإرادة فصار بشراً كما أراد الله .

وتم بذلك خلقه من تراب دون أب أو أم ، فكان بذلك أعجب من خلق عيسى من أم دون أب .

وإذا كنتم أيها النصارى لا تقولون بالوهمية آدم، ولا ببنيه لله، فكيف تقولون بالوهمية عيسى، أو بنوته لله،  
 وهو دون آدم فى غرابة خلقه، والآية دليل على صحة القياس ، وشرعية النظر والاستدلال . فقد احتج الله عليهم  
 بخلق آدم من غير أب ولا أم ، وحيث لم يقولوا بالوهمية آدم، وجب القول بعدم الوهمية عيسى من باب أولى .



٦٠ - الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . أى هذا الذى أخبرتك به هو الحق فى شأن عيسى عليه السلام، قدم على يقينك وعلى ما أنت عليه من الاطمئنان إلى الحق والتتره عن الشك فيه .

والخطاب قد يوجه للنبي، ويراد به كل من يجادل فى شأن عيسى و كل من يخالجه شك فى أمره . وتظهر فائدة ذلك من وجهين :

١ - أنه إذا سمع - صلى الله عليه وسلم - مثل هذا الخطاب ازداد رغبة فى الثبات على اليقين واطمئنان النفس .

٢ - أنه إذا سمعه غيره ازدجر ونزع عما يورث الامتراء، إذ إنه - صلى الله عليه وسلم - على جلالة قدره قد خوطب بمثل هذا فما بالك بغيره ؟ .

وذهب بعض المفسرين إلى أن الخطاب فى هذه الآية ليس للنبي - صلى الله عليه وسلم - إذ لا يصح أن يكون الرسول شاكاً أو مجادلاً بالباطل وإنما الخطاب لمن يجادل فى شأن عيسى ، أو يشك فى أمره .

والمعنى :

الحق فى شأن عيسى، نازل من ربك أيها المجادل فى شأنه فلا تكون من الشاكين فى أمره ، بعد ما أسفر الصبح لدى عيني ، بهذه الحجة القاطعة لكل ريب. ويصح أن يكون الامتراء بمعنى المجادلة بالباطل، أى فلا تكون بعد هذا الحق النازل من ربك من المجادلين فيه بالباطل . والخطاب فيه كسابقه لغير الرسول، من المجادلين والشاكين ، أو هو لكل من يتأتى منه الخطاب.

٦١ - فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَكُمْ وَأَبْنَاؤَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ .

الخطاب فى هذه الآية للرسول - صلى الله عليه وسلم - لقد بينت الآيات السابقة حقيقة عيسى عليه السلام بما فيه كفاية وغناء لطالب الإيضاح والبيان .

وهنا يوجه الله تعالى رسوله الكريم إلى أن ينهى الجدل والمناظرة حول هذه القضية الواضحة، وحول هذا الحق المبين .. والمعنى ، فمن جادلَكَ فى شأن عيسى بعد هذا البيان فلا تجادلهم فى شيء منه، وأفجمهم وقل لهم : تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَكُمْ وَأَبْنَاؤَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ . ويضرب كل منا إلى الله تعالى ويدعوه أن يجعل لعنته على الكاذبين منا .

وقد حدث أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما نزلت هذه الآية أخبر وقد نجران بها ودعاهم إلى اجتماع حاشد ومعهم نساؤهم وأبنائهم ، ليبتل الجميع إلى الله تعالى أن ينزل لعنته على الكاذب من الفريقين .

وحضر الرسول فى الموعد، ومعه الحسن والحسين، وفاطمة وعلي، فلم يجدهم، فقد تشاوروا فيما بينهم، فقالوا للمعاقب - وكان صاحب رأيهم : يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟ فقال : والله يا معشر النصارى، لقد عرفتم أن محمداً نبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لا عن قوم نبي قط فبقى

كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فاتوا النبي - صلى الله عليه وسلم- فقالوا: يا أبا القاسم ، قد رأينا ألا نلاعنك ، ونتركك على دينك ، وأن نرجع على ديننا، ولكن ابعت معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا ؛ يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضا . فأمر النبي أبا عبيدة بن الجراح أن يخرج معهم، ويقضى بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه (١٧٨).

وأخرج أبو نعيم في الدلائل ، عن الضحاك وابن عباس : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - صالحهم على الجزية ، ومقدارها ألف حلة في صفر ومثلها في رجب، ودرهم ، وذلك بعد أن أشار عليهم يهود المدينة بالصالح وعدم الملاعة وقالوا : هو النبي الذي نجده في التوراة (١٧٩).

قد يقول قائل: إن الجزية فرضت بعد فتح مكة، ووجد نجران جاء قبلها فكيف يقال إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صالحهم على الجزية ؟ الجواب أن ذلك من باب المصالحة على ترك المباهلة وجاء فرض الجزية بعد ذلك على وفق ما صنعه الرسول ، وقد أجيب بأجوبة أخرى، فارجع إليها إن شئت في تفسير ابن كثير.

٦٢ - إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

إن هذا الذي قصصناه عليك في شأن عيسى هو القصص الحق المطابق للواقع الذي لا يصح العدول عنه إلى ما عليه النصراني في شأنه : من أنه الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة .

وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ . فلا شريك له في ملكه بأي وجه من الوجوه ولا معبود بحق سواه .

إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . أي الغالب الذي لا يقهر ، المتقن لما يصنعه ويدبره .

٦٣ - فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ .

فإن أعرضوا عن اتباعك في دينك، ولم يقبلوا عقيدة التوحيد التي جئت بها ، ولم يجيبوك إلى المباهلة ، فجزأوهم وعقابهم عند الله وإن الله عليم بحال المفسدين فيجازيهم على فسادهم وإفسادهم . وأظهر في مكان الإضمار، فلم يقل عليم بهم بل قال عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ لإظهار فسادهم ، واستحقاقهم للعقوبة، وفي هذا تهديد بليغ لهم.

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ إِلَّا أَنْ نَجِيلَ إِلَّا مَنْ بَعْدَهُ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰئَانْتُمْ هَٰؤُلَاءِ حُجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

المفردات :

|                                         |                                                                                                  |
|-----------------------------------------|--------------------------------------------------------------------------------------------------|
| أهل الكتاب :                            | اليهود والنصارى .                                                                                |
| تعالوا :                                | أقبلوا ووجهوا النظر إلى ما دعيتم إليه .                                                          |
| إلى كلمة :                              | إلى العمل بكلمة ، والمراد بها هنا الكلام الآتي بيانه في الآية الكريمة .                          |
| سواء بيننا وبينكم ولا يتخذ بعضنا بعضا : | مستوية عادلة نعمل بها جميعاً ، ولا نخلف فيها .                                                   |
| أريابا من دون الله :                    | الرب هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر وينهى ، ويراد به هنا ما له حق التشريع من تحريم وتحليل . |
| مسلمون :                                | منقادون لله مخلصون له .                                                                          |
| تحتاجون :                               | تجادلون .                                                                                        |
| حنيفاً مسلماً :                         | الحنيف : المائل عن العقائد الزائفة ، المسلم : الموحد المخلص لله .                                |
| تمهيد :                                 |                                                                                                  |

بين الله فيما سلف أحوال عيسى عليه السلام ، وما يعتوره من الأطوار المنافية للألوهية ، ثم دعا أهل الكتاب إلى المباهلة فأعرضوا ، وبذلك انقطعت مجتهدتهم .

وهنا يدعوا القرآن إلى أمر آخر هو أصل الدين وروحه الذى اتفقت عليه دعوة الأنبياء جميعاً ، ألا وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، فلما أعرضوا أمر النبي أن يقول لهم : اشهدوا بأننا مسلمون .

التفسير :

٦٤ - قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ...

قل يا أهل الكتاب هلموا وانظروا فى مسألة عادلة اتفقت عليها الرسل والكتب، وأمرت بها التوراة والإنجيل والقرآن ثم بين هذه الكلمة فقال :

أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا . لا صنمًا ولا كوكبًا ، ولا نارًا ، ولا ملائكة ولا غير ذلك .

وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . فلا يتخذ اليهود عزيزًا ابنا الله ، ولا يتخذ النصارى المسيح ابنا لله ، ولا يقولون إنه ثالث ثلاثة.

وقد حوت هذه الآية وحدانية الألوهية ، ووحدانية الربوبية، وهذا القدر متفق عليه فى جميع الأديان فقد جاء إبراهيم بالتوحيد ، وجاء به موسى وعيسى ، ومحمد خاتم النبيين . وقد جاء فى أسفار العهد القديم، نصوص عديدة، ناطقة بتوحيد الله وتزييه عن الشريك (١٨٠).

وقد كان اليهود موحدين وفى التوراة يقول الله لموسى « إن الرب إلهك، لا يكن لك آلهة أخرى ».

ومنع شقاء اليهود اتباعهم لرؤساء الدين فيما يقررون من الأحكام وجعله بمنزلة الأحكام المنزلة من عند الله . وسار النصارى على هذا المنوال، وزادوا مسألة غفران الخطايا، وهى مسألة كان لها أثر خطير فى المجتمع المسيحى حتى بلغ من أمرها أن ابتلعت الكنائس أكثر أموال الناس ، فقامت طائفة جديدة تطلب الإصلاح وهى فرقة ( البروتستانت ) وقالت: دعونا من هؤلاء الأرياب، وخذوا الدين من الكتاب ، ولا تشركوا معه شيئًا سواء من قول فلان وفلان .

روى عدى بن حاتم قال : « أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفى عنقى صليب من ذهب، فقال يا عدى اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ فى سورة براءة اتَّخَذُوا أَجْرَاهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فقلت : يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم . فقال : أما كانوا يحللون لكم ويحرمون ، فتأخذون بأقوالهم . قال : نعم . فقال عليه الصلاة والسلام : هو ذلك (١٨١).

ثم قال الله لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم :

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ . أى فإن أعرضوا عما دعوتهم إليه من توحيد الله ، وعدم إشراك غيره معه فى العبادة فاعلموا أنهم لزمتمهم الحجة، ولكنهم إن أبوا الحق عنادا فقولوا لهم : أنصفونا ، واشهدوا - معترفين لنا بأننا مسلمون مخلصون لرينا .

وقد ورد فى صحيح البخارى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أرسل كتابه إلى قيصر ملك الروم يدعوه للإسلام ، وفيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فأسلم تسلم يؤتلك الله أجركم مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الإريسين :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَخَذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . (١٨٢) .

٦٥ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتنازعوا عنده فقالت الأخبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً ، فأنزل الله :

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ... أى كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى ؟ .

وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً ، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر ؟ .

وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

أى وما أنزلت التوراة على موسى ، ولا الإنجيل على عيسى إلا من بعد إبراهيم بأحقاب طوال، وقد قالوا: إن بين إبراهيم وموسى سبعمائة سنة ، وبين موسى وعيسى حوالى ألف سنة (١٨٣) .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ . إن المتقدم على الشيء لا يمكن أن يكون تابعاً له .

٦٦- هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

المعنى :

ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم من أمر موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، فعندكم التوراة والإنجيل تعرفون منهما أمرهم، وإن كنتم غيرتم فيها وبدلتم فلماذا تحاجون فى أمر دين إبراهيم، وأنتم لا علم لكم بتفاصيله ولا بما جاء فى صحفه ؟ .

والله يعلم وأنتم لا تعلمون . أى والله يعلم ما غاب عنكم ولم تشاهدوه ولم يأتكم به الرسل من أمر إبراهيم وغيره مما تجادلون فيه .

٦٧- مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

ما كان إبراهيم يهودياً كما ادعى اليهود ، ولا نصرانياً كما ادعى النصارى، ولكن - حنيفاً أى مثلاً عن الأديان الباطلة، مسلماً: أى على طريقة الإسلام من التوحيد .

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . الذين يسمون أنفسهم الحنفاء ويدعون أنهم على ملة إبراهيم وهم قريش ومن وافقهم من العرب .

وليس المراد بكونه مسلماً ، أنه كان على مثل ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - من الشريعة بالتفصيل ، فإنه يرد على هذا أن هذه الشريعة جاءت من بعده كما كانت التوراة والإنجيل من بعده ، وإنما المراد أنه كان متحققاً بمعنى الإسلام ، الذى يدل عليه لفظه وهو التوحيد والإخلاص لله فى عمل الخير تحقيقاً لقوله سبحانه إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ . ( آل عمران : ١٩ ) .

٦٨ - إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ .

روى عن ابن عباس أنه قال : قال رؤساء اليهود : والله يا محمد لقد علمت أننا أولى بدين إبراهيم منك ومن غيرك ، وأنه كان يهودياً ، وما بك إلا الحسد فانزل الله تعالى هذه الآية .  
ومعنى الآية :

إن أولى الناس بإبراهيم ونصرته وولايته - هم الذين سلكوا طريقة منهاجه فى عصره فوجدوا الله مخلصين له الدين ، وكانوا حنفاء مسلمين غير مشركين وهذا النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - والذين آمنوا معه ، فإنهم أهل التوحيد الذى لا يشوبه اتخاذ الأولياء ولا التوسل بالشفعاء .

وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ . بالنصر والمعونة والمحبة .

★ ★ ★

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾  
يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ  
لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

المفردات :

ودت : ود الشيء أحبه .

ودت

جماعة وهم الأخبار والرؤساء .

طائفة

لو بمعنى أن ، أى أن يضلوكم .

لويضلونكم

وما يضلون إلا أنفسهم : الإضلال هنا بمعنى الإهلاك مجازاً فالعنى : وما يهلكون إلا أنفسهم بمعنى إضلالكم ، أو بمعنى : الإخراج عن الهدى ، فالعنى : وما تعود عاقبة الإضلال إلا على أنفسهم ، أو بمعنى الخداع ، فهم يخدعونكم ، وما يخدعون إلا أنفسهم فى الحقيقة .

وما يشعرون : وما يفطنون لذلك .

بآيات الله : الآيات هنا ما يدل على صدق نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وانتم تشهدون : أى تعلمون ما يدل على صحتها من التوراة والإنجيل .

تلبسون : تخططون .

تمهيد :

قال المفسرون : إن اليهود دعوا معادا وحذيفة وعمارا إلى دينهم فأنزل الله : وَذُتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضْلِمُونَكُمْ ... الآية (١٨٤) .

وقيل نزلت في اليهود والنصارى .

ولا شك أنهم كانوا أشد الناس حرصاً على إضلال المؤمنين سواء دعوا بعض الصحابة إلى دينهم أم لا .

وليس الإضلال خاصاً بالدعوة ، بل كانوا يلقون ضروباً من الشك في النفس ليصدوها عن الإسلام من أغربها ما في الآية الآتية (٧٢) .

والمعنى :

أحببت طائفة من أهل الكتاب أن يهلكوك بالتكفير والإخراج عن الإيمان ، وما يهلكون إلا أنفسهم بما يفعلون ، وما يفطنون لذلك ، لزعمهم أنهم على الحق .

٧٠ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ . لأى سبب تكفرون بما ترونه من البراهين الواضحة الدالة على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وانتم تشهدون بصحتها بما جاء في كتبكم من نعمته والبشارة به .

أو : لماذا تكفرون بآيات القرآن النازل من عند الله ، وانتم تعلمون من التوراة والإنجيل ما يدل على صحتها ، ووجوب الاعتراف بها ؟ .

٧١ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

يا أهل الكتاب ، لماذا تسترون الحق بالباطل ، أو تخططونه به ، وذلك بتحريفكم آيات التوراة والإنجيل وسوء تأويلكم لها ؟ لماذا تكتُمون الحق في شأن محمد ويشارته الموجودة في كتبكم ، وانتم تعلمون أنه حق ، وأن ما جاء به هو من عند الله تعالى ؟ .

﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ  
وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٧٢) وَلَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى  
اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن  
يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٧٣) يَخْنُصْ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٧٤)

المفردات :

أوله ، سمى وجهًا لأنه أول ما يواجهك منه .

وجه النهار

أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم : أى كراهة أن يؤتى مثل ما أوتيتم .

أو يحاجوكم عند ربكم : أى يحاجوكم به عند كتاب ربكم بالتحاكم إليه .

التفسير :

٧٢ - وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

سبب النزول :

قال الحسن والسدي : توأما اثنا عشر رجلا من أئمة يهود خيبر وقرى عرينة وقال بعضهم لبعض :  
ادخلوا فى دين محمد أول النهار - باللسان دون الاعتقاد - واكفروا آخره ، وقولوا : إنا نظرنا فى كتبنا وشاورنا  
علماءنا فوجدنا محمدا ليس بذلك ، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه ، فإذا فعلتم ذلك . شك أصحابه فى دينهم ،  
وقالوا : إنهم أهل كتاب وهم أعلم به فيرجعون عن دينكم إلى دينكم .. (١٨٥) وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال :  
(صلى يهود مع محمد صلاة الصبح وكفروا آخر النهار مكرا منهم ليرى الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد  
أن كانوا اتبعوه ) (١٨٦) . قال الشيخ محمد عبده : هذا النوع الذى تحكيه الآية من صد اليهود عن الإسلام مبنى  
على قاعدة طبيعية فى البشر ، وهى أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه ، وقد فقه فى هذا هرقل  
صاحب الروم فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شئون النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما دعاه إلى الإسلام :  
(هل يرجع عن دين محمد من دخل فيه ؟ فقال أبو سفيان : لا ) .

وقد أرادت هذه الطائفة أن تقش الناس من هذه الناحية ليقولوا : لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما  
رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه ، واطلعوا على باطنه وخوافيه ، إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته  
ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب .

لطيفة :

قال الرازى : الفائدة من إخبار الله تعالى عن توأمتهم على هذه الحيلة من وجوه :

الأول : أن هذه الحيل كانت مخفية فيما بينهم وما أطلعوا عليها أحدا من الأجانب ، فلما - أخبر  
الرسول عنها كان ذلك إخبارا عن الغيب فيكون معجرا .



الثاني : انه تعالى لما اطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لها اثر فى قلوب المؤمنين ولولا هذا الإعلام لكان ربما أثرت فى قلب بعض من فى إيمانه ضعف.

الثالث : ان القوم لما افتضحوا فى هذه الحيلة صار ذلك رادعاً لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتليس.

٧٢ - وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

تواصى اليهود بالآل يطعموا المسلمين على شئ من أسرار كتابهم كالبشارة بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام وأمارته وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ .

من معانى الإيمان فى اللغة الثقة والطمأنينة.

والمعنى : ولا تتقوا إلا بأبناء ملئكم من اليهود . ولا تطمثوا إلا إليهم . فلا تضيعوا أسرارنا للمسلمين فإن ذلك يفسد علينا تدبيرنا .

وقد انتهى كلام اليهود عند قولهم : وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ . كما رجحه الفراء .

قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ . أى قل يا محمد لهؤلاء المتأمرين توبيخاً لهم : ان الهدى هدى الله ، فلا يتوقف على إظهاركم ما عندكم من البشائر بنبوة محمد ، والعلامات الدالة عليه ، ولا يزيله كفركم آخر النهار بعد إيمانكم أوله ، فمن أراد الله هداة أقتعه بما أيد به رسوله من الآيات البينات ، وأورثه الطمأنينة التامة فى قلبه وحفظه من كيد الكائدين، وكشف له دسائسهم ومؤامراتهم.

ثم أمر الله رسوله أن يقول لليهود :

أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ .

وفى الكلام جملة مقدره يقتضيهما المقام، والتقدير أنكيدون هذا الكيد كراهة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، أو يحاجوكم به عند ربكم ؟.

وجاء فى تفسير القاسمى :

أن بعد الألف على الاستفهام فى قراءة ابن كثير وتقديرها فى قراءة غيره ، أى دعاكم الحسد والبغى حتى قلتم ما قلتم ودبرتموه الآن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ من الشرائع والعلم والكتاب.

أو كراهة أن يُحَاجُّوكُمْ أى الذين أوتوا مثل ما أوتيتم عِنْدَ رَبِّكُمْ أى بالشهادة عليكم يوم القيامة أنهم آمنوا وكفرتهم بعد البيان الواضح فيفضحكم. ا هـ.

قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

أى قل لهم إن الرسالة فضل من الله ومنة واللّه واسع العطاء وهو العليم بالمستحق فيعطيه من هو له أهل. وفى هذا إيمان إلى أن اليهود قد ضيقوا هذا الفضل الواسع بزعمهم حصر النبوة فيهم ، وجعلوا الحكم والمصالح التى لأجلها يعطى النبوة من يشاء.

ويرى بعض المفسرين : أن الآية كلها يمكن أن تكون خطابا من الله للمؤمنين على جهة التثبيت لقلوبهم وتوثير بصائرهم، وحفظهم من تشكيك اليهود وتزويرهم فى دينهم.

والمعنى :

ولا تصدقوا - يا معشر المؤمنين - إلا من تبع دينكم أما غيرهم فاحذروهم، قل لهم يا محمد : إن الهدى هدى الله أنزله على محمد ، أما ما يقوله أعداء الإسلام فهو من تزويرهم ، فلا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الهدى والحق ولا أن يحاجوكم بما لديهم من دينهم عند ريكم فلا قدرة لهم على ذلك قل إن الفضل بيد الله ... إلخ.

وجاء فى تفسير المنار وغيره ، تفسيرات أخرى للآية ، لا تغلو من مأخذ .

٧٤ - يَخْصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

أى إن فضله الواسع ورحمته العامة يعطيها بحسب مشيئته لا كما يزعم أهل الكتاب من قصرها على الشعب المختار من بنى إسرائيل ، فهو يبعث من يشاء نبيا وبيعته رسولا ، ومن اختصه بهذا فإنما يختصه بمزيد فضله وعظيم إحسانه، لا بعمل قدمه، ولا لنسب شرفه، فالله لا يحابى أحدا، لا فردا ولا شعبا ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

★ ★ ★

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّتِينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

المفردات :

تأمنه : من أمنت به معنى ائتمنته ، ويقال أمنت به كذا أو على كذا .

قنطار : المراد به هنا العدد الكثير أو المال الكثير، كما أن المراد بالدينار العدد القليل.

قنطار

ليس علينا في الأميين سبيل : يعنون بالأميين العرب، بجهلهم وقتئذ بالكتابة والقراءة.

سبيل : مؤاخذه وذنب، ومعنى كلامهم: ليس علينا فيما نأخذ من أموالهم مأخذ ولا حساب.

التفسير :

٧٥ - وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدُّ إِلَيْكَ ...

هذه الآية من أظهر الأدلة على سماحة القرآن ، فقد تحدثت الآيات السابقة عن أهل الكتاب . والكلام هنا موصول عنهم والآية تتصفهم، وتذكر أن منهم أمناء يؤدون الأمانة مهما كثر مقدارها، ومنهم خونة يجحدون الأمانة مهما قل عددها .

فمن الأمناء عبد الله بن سلام استودعه عريى قرشى ألفاً ومائتي أوقية ذهباً - حين كان ابن سلام على يهوديته - فلما طلبها القرشي أداها إليه كاملة، ومن الخونة رجل اسمه فتحاص بن عازروا استودعه رجل آخر من قريش ديناراً فجحدته، ثم بينت الآية السبب في هذا السلوك فقالت : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ أي ليس علينا إثم في أكل أموالهم فلا حساب ولا عقاب في أكل أموال العرب.

وخلاصة رأيهم - أن كل من ليس من شعب الله المختار وليس من أهل دينهم فلا يأبه الله له بل هو مبغض عنده محقر لديه، فلا حقوق له ولا حرمة لماله، فكل ما يستطيع أخذه منه فلا ضير فيه، ولا شك أن هذا من الصلف والغرور والغلو في الدين واحتقار المخالف وهضم حقوقه .

روى ابن جرير أن جماعة من المسلمين باعوا لليهود بعض سلع لهم في الجاهلية ، فلما أسلموا تقاضوهم الثمن فقالوا : ليس علينا أمانة ولا قضاء لكم عندينا، لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، فرد الله عليهم بقوله :

وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وهم إذ يقولون هذا - يكذبون على الله تعالى - عن عمد وعلم بأنهم كاذبون . لأن ما جاء من عند الله فهو في كتابه ، والتوراة التي بين أيديهم ليس فيها خيانة الأميين ولا أكل أموالهم بالباطل .

أخرج عبد الرزاق عن أبي صمصمة بن يزيد أن رجلاً سأل ابن عباس فقال : إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاء، قال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال : نقول ليس علينا بذلك بأس ، قال ابن عباس هذا كما قال أهل الكتاب : لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ . إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم (١٨٧) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سميد بن جبير قال : لما قال أهل الكتاب لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ قال نبي الله - صلى الله عليه وسلم - « كُتِبَ أَعْدَاءُ اللَّهِ ، ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر » (١٨٨) .

ويستفاد من الآية ما يأتي :

- ١ - لا يعمل لمسلم أن يخون أحدا ولو خالفه في الدين.
- ٢ - لا يصح لمسلم أن يتصف بالخيانة مع من خانه.
- ٣ - قال القرطبي : في الآية رد على الكفرة الذين يجرمون ويحللون غير تحريم الله وتحليله ، ويجعلون ذلك من الشرع.
- ٤ - استدل أبو حنيفة بالآية على ما ذهب إليه من مشروعية ملازمة الغريم بقوله تعالى : **لَا يُؤْذِهِمُ الْإِيمَانُ إِلَّا مَا دُمْتُ عَلَيْهِ قَائِمًا** أى بالمطالبة والملازمة والإلحاق في استخلاص حقه.
- ومن هدى السنة ما رواه أبو داود والترمذى والحاكم والطبرانى والبخارى في التاريخ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : **« أَدِ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَكَ ، وَلَا تَخَنْ مِنْ خَائِكَ »** (١٨٩).

والله تعالى يقول : **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا** . ( المائدة : ٨ ) .

ولا نستطيع أن نبرح هذه الآية حتى نؤكد إنصاف القرآن لأهل الكتاب فهو لم يجردهم جميعاً من الأمانة أو الإيمان ، ومن هذا الإنصاف قوله تعالى :

**لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ** . ( آل عمران : ١١٣ ) .

ثم يقول سبحانه :

٧٦ - **بَلَىٰ مَن أَوفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** . أى بلى عليكم فى الأميين سبيل وعليكم الوفاء بعهودكم المؤجلة والأمانات ، فمن أقرضك مالا إلى أجل أو باعك بثمن مؤجل ، أو ائتمك على شيء وجب عليك الوفاء به وأداء الحق له فى حينه دون حاجة إلى الإلحاف فى الطلب أو إلى التقاضى ، وبذلك قضت الفطرة وحتمت الشريعة .

وفى هذا إيمان إلى أن اليهود لم يجعلوا الوفاء بالعهد حقاً واجباً لذاته ، بل العبرة عندهم بالمعاهدة ، فإن كان إسرائيلياً وجب الوفاء له ، ولا يجب الوفاء لغيره .

وقد أمر القرآن بالوفاء بالعهد والأمانة قال تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** .

- ومدح الله إبراهيم الخليل بقوله : **وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى** . ( النجم : ٣٧ ) .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

**« لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له »** (١٩٠) .

وروى البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر » (١٩١) وفى رواية « ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان » (١٩٢).

★ ★ ★

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٧٧)

المفردات :

يشترون : يستبدلون.

بعهد الله : بأمر الله المؤكد.

ثمنًا قليلاً : عوضاً قليلاً.

لا خلاق لهم : لا نصيب لهم.

ولا يزكهم : ولا يطهرهم.

التفسير :

٧٧ - إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ... .

سبب النزول :

ذكرت لهذه الآية أسباب نزول عديدة .

نذكر منها : ما أخرجه أصحاب الكتب الستة وغيرهم ، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من حلف على يمين هو فيها حاجر ليقطع بها حق امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان ».

فقال الأشعث بن قيس : فى والله كان ذلك ، كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحدنى ، فقدمته إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم - : ألك بينة ؟ قالت : لا . فقال لليهودى : احلف . فقلت : يا رسول الله إذا يحلف فيذهب مالى . فأنزل الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ... الآية (١٩٣) .

وما أخرجه ابن جرير ، عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية في أبي رافع ولبابه بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف، وحیی بن الأخطب : حرقوا التوراة وبدلوا نعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، وحكم الأمانات وغيرهما ، وأخذوا على ذلك الرشوة.

والمعنى :

إن الذين يستبدلون بما عاهدكم الله عليه ، من بيان نعت محمد وعدم كتمانته، ويتفاوضون عن إيمانهم الكاذبة الفاجرة، بالأثمان القليلة من أعراض الدنيا الزائلة - مهما عظمت - أولئك لا نصيب لهم في ثواب الآخرة، ولا حظ لهم في نعمها.

وَلَا يَكْلِبُهُمُ اللَّهُ كَلَامًا فِيهِ لُطْفٌ بِهِمْ .

وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِعَيْنِ رَحْمَتِهِ تَعَالَى .

وَلَا يَرْكَبُهُمْ أَى يطهرهم من دنس الذنوب بالمغفرة. بل يأمر بهم إلى النار. ولهم عذاب اليم على الكتمان، واستبدلهم عهد الله ، والحلف زورا، واستحللهم أخذ المقابل على التزوير.

**قال القرطبي :** وقد دلت هذه الآية والأحاديث على أن حكم الحاكم لا يحل المال في الباطن بقضاء الظاهر، إذا علم المحكوم له بطلانه .

وفى حديث صحيح عن أم سلمة، قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فاقضى له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من النار.. فليأخذها أو ليتركها » (١٩٤).

★ ★ ★

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ أَلِ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٨)

المفردات :

يلوون ألسنتهم بالكتاب : يميلونها بالكتاب، عدولا به عن الحق تحريفاً أو تاويلاً.

والى : الميل . يقال : لوى برأسه إذا أماله. والكتاب التوراة والإنجيل.

التفسير :

٧٨ - وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ

اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

روى الضحاك عن ابن عباس : أن الآية نزلت في اليهود والتصارى جميعاً . وذلك أنهم حرفوا التوراة والإنجيل ، وألحقوا بكتاب الله تعالى ، ما ليس منه .

والمعنى :

وإن من أهل الكتاب الخائنين ، جماعة من علمائهم : يحرفون كلام الله ، ويميلون به عن القصد ، لتظنوا - أيها المسلمون - حينما تسمعونهم : أن ما حرفوه هو من صميم كتابهم الذي أنزله الله على رسولهم . وما هو - في الحقيقة - من الكتاب ، بل من كلامهم ويؤكدون نسبته إلى الكتاب بقولهم : هو من عند الله . وما هو من عند الله بل من عند أنفسهم . ويقولون على الله الكذب بنسبته إليه ، وهم يعلمون أنهم عليه - سبحانه - يكذبون ، وكما وقع التحريف في القراءة ، وقع في تأويل النصوص في الكتابة .

ولهذا ترى التناقض والتكاذب والتهافت بين نسخها .

فمن يقرأ الأناجيل الأربعة يجد الاختلاف بينها واسع النطاق . وبخاصة : فيما تورده عن صلب المسيح عليه السلام ، وكذلك التوراة .

وأما احتجاج الرسول بقوله : فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . (آل عمران : ٩٣) .

فيحمل على أن رسول الله كان يعلم ببقاء بعض ما يقى بالفرض سالماً عن التغيير . فإنهم لم يغيروا جميع ما في التوراة : إما لجهلهم بدلالة ما بقى عى المقصود ، أو لصرف الله إياهم عن تغييره .

★ ★ ★

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيُنَا بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (٧٩) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

المفردات :

والحكم

: أى الحكمة . وهى إصابة الحق .

ريائين

: منسوبين إلى الرب سبحانه . والألف والنون يزدان للمبالغة كثيراً كالحيانى العظيم اللحية ، وربانى الغليظ الرقبة . والمراد من الريانى : العالم الفقيه ، الراسخ فى علوم الدين . وقيل : الحكيم التقى .

بعد إذ أنتم مسلمون : منقادون مستعدون للدين الحق .

التفسير :

٧٩ - مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ .

لا يزال الكلام متصلاً مع وفد نجران ، فإنه روى : أن السورة - كلها - إلى قوله : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ... نزلت بسببهم .. ذكره القرطبي .

وروى ابن إسحاق وغيره ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى الإسلام - أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له : الرئيس : أو ذلك تريد منا يا محمد ؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره ، ما بذلك بعثي ، وما بذلك أمرني » فانزل الله تعالى الآية (١٩٥) .

وأخرج ابن أبي حاتم قال : كان ناس من يهود : يتعبدون الناس - من دون ربهم بتحريفهم كتاب الله عن موضعه . فقال : مَا كَانَ لِبَشَرٍ ... الآية .

وأيا كان سبب النزول ، فمعنى الآية : ما صح وما استقام لبشر اصطفاؤه ربه لتبليغ الرسالة إلى خلقه ، وأعطاه الكتاب الذي يرشد الناس إلى عبادة ربهم ، وأعطاه الحكمة - أي حسن التصرف في الأمور - وأعطاه النبوة العاصمة من الخطأ ، ثم يتكرر لربه الذي اختاره لهداية خلقه فيقول للناس : كونوا عبيداً لى إشاركا مع الله أو أفرادا : متجاوزين توحيد الله إلى ما طلبته منكم . ولكن يقول لهم : كونوا علماء عاملين ، كاملين في العلم والعمل ، لأنكم تعلمون الناس الكتاب وتدرسونه ، فاولى بكم أن تتبعوه ولا تحيدوا عنه .

والتعبير بلفظ ( ثم ) لاستبعاد حصول ذلك القول من الرسول .

وإذا كان لا يصح لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة : أن يدعو الناس إلى عبادة نفسه فلا يصح له أن يدعوهم إلى عبادة غيره من باب أولى .

وبهذه الآية حصل الرد البليغ من الله تعالى على النصارى الذين ألوهوا المسيح وعبدوه ، وعلى اليهود الذين ألوهوا عزيراً وقدرسوه ، وعلى من زعم أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - ، يقصد بنبوته : أن يدعو الناس إلى عبادته ، وعلى الأحبار الذين يتعبدون الناس من دون ربهم : بتحريفهم كتاب الله عن موضعه لمصلحتهم .

وخلاصة الرد : أن رسل الله براء مما يصنعه أتباعهم . فإنه لا يعقل أن يأمرهم بهذا الكفر . وذلك هو ما يقوله عيسى عليه السلام ، لربه لما يسأله : أَلَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَبِيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ . ثم قال : سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتَ قُلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ



أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . ( المائدة : ١١٦ ، ١١٧ ) .

والآية توجب على أهل العلم أن يقرنوه بالعمل، حتى لا تنزل قدم بعد ثبوتها .

٨٠ - وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ...

وَلَا يَأْمُرُكُمْ : بالنصب ، معطوف على يَقُولُ في الآية السابقة، داخل معه في حيز ما لا يجوز على الرسل .

**المعنى :**

ما كان ليُشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولا أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً .. أيليق به - وهو رسول الله - أن يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مخلصون منقادون لربكم؟

ومن قرأ : وَلَا يَأْمُرُكُمْ بِالرَّفْعِ ، فعلى الاستئناف .

والمقصود من القراءتين واحد . وهو استحالة حدوث ذلك من الرسول .

وإذا كان سبب النزول وفد نجران . فلا إشكال في قوله تعالى لهم : « بعد إذ أنتم مسلمون » فإن الإسلام يراد منه حينئذ ، والاستعداد للدين الحق، إرخاء للنعان ومجاراة لهم.

وقيل إن سبب نزول الآيتين ، ما أخرجه عبد بن حميد عن الحسن قال :

بلغنى أن رجلاً قال : يا رسول الله ، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ؟ أهلا نسجد لك ؟ قال : « لا . ولكن أكرموا نبيكم ، واعرضوا الحق لأهله ، فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله تعالى » (١٩٦) . وعلى هذا ، فالإسلام على ظاهره .

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

المفردات :

ميثاق النبيين : الميثاق ، العهد الموثق المؤكد .

لما آتيتكم : اللام موطنه للقسم . وما : بمعنى الذى . كما نقله سيبويه عن الخليل . أى للذى آتيتكموه . وقيل : إن ما شرطية بمعنى إن . وهو الظاهر .

وحكمة : أى نبوة . سميت حكمة ، لأنها منبها .

إصرى : عهدى وميثاقى .

التفسير :

٨١ - وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ .

واذكر يا محمد ، لأهل الكتاب ، كيف أخذ الله العهد على النبيين جميعاً : لئن آتيتكم من كتاب تبلغونه لأممكم ، وحكمة - أى نبوة ورسالة إليهم - ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتصدقن بأنه مرسل من عندى إلى الناس ، ولتنصرنه بالتبشير به ، وحض أممكم على أن تؤمن به ، إذا بعث إليهم وتنصرو ، تؤيده فيما جاء به ٩ .

قال تعالى لهم بعد أخذ الميثاق عليهم : هل أقررتم بالإيمان به ونصرته وأخذتم على ذلكم عهدي وقبلتموه لترفدوه وتعملوا به ٩ . قالوا : أقررنا ووافقنا . قال الله تعالى : فليشهد بعضهم على بعض بهذا الإقرار ، وأنا معكم من الشاهدين على إقراركم وشهادة بعضكم على بعض .

والمراد من الرسول الذى يجيئهم مصدقاً لما معهم : كل رسول يعاصرهم أو يأتى بعدهم فالآية الكريمة ، تفيد : أن الله تعالى ، أخذ الميثاق على الأنبياء : أن يصدق بعضهم بعضاً ويؤيده ولا يمارضه ، ويوصى باتباعه . فإن دين الجميع واحد . قال صلى الله عليه وسلم : « الأنبياء بنو علات (١٧٧) أمهاتهم شتى ودينهم واحد » (١٨٨)

وبمعموم الرسول ، أخذ سعيد بن جبير وقتادة وطاوس والسدى والحسن . وهو ظاهر الآية . قال طاووس : أخذ الله ميثاق الأول من الأنبياء : أن يؤمن بما جاء به الآخر .

ومن العلماء من قال : المراد من الرسول ، هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الأرجح ، وبه قال الإمام على رضى الله عنه . فقد أخرج عنه ابن جرير قال : « لم يبعث الله نبيا من آدم فمن بعده ، إلا أخذ عليه العهد فى محمد - صلى الله عليه وسلم : لئن بعث - وهو حى - ليؤمنن به ولينصرنه - ويأمره فيأخذ العهد على قومه » .

وسواء أكانت الآية عامة فى تأييد جميع الرسل بعضهم لبعض ، وحث أممهم على اتباعهم ، أم خاصة بتأييدهم لنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ونصرتهم بحث أممهم على تأييده إن بعث - فالغرض من الآية : أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - وقد أيداه الله بالمعجزات المحققة لرسالاته وجاء مصدقا لما مع الأنبياء قبله فهو مؤيد من المرسلين قبله ، وأن على أهل الكتاب المعاصرين له : أن يؤمنوا به ، امتثالاً لما جاء عنه فى كتب رسلم . فإن كتب المرسلين توصى بالإيمان بكل رسول .

والقرآن الكريم جرى على هذا المنهج قال تعالى : قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . ( البقرة : ١٣٦ ) .

٨٢ - فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ :

أى فمن أعرض عن الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - بعد هذا الميثاق والإقرار والشهادة فأولئك هم الخارجون فى الكفر إلى أحشى مراتبه ، المستحقون لأشد العقاب .

ولما كان دين الأنبياء واحداً ، ودين محمد هو دين الأنبياء جميعاً - أتبع هذا التهديد قوله :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا  
وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (٨٣) قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى  
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى  
وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ  
غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

المفردات :

أسلم : دان بالإسلام . أو انقاد وخضع .

والأسباط : الأسباط ، الحفدة . والمراد بهم هنا : ذرية يعقوب عليه السلام . فهم حفدة لأبيه إسحاق وجده إبراهيم .

ومن يبتغ : ومن يطلب .

التفسير :

٨٣ - أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ :

سبب النزول :

ذكر الواحدى فى سبب النزول ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن أهل الكتابين اختصموا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام كل فرقة زعمت أنها أولى بدينه . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « كلا الفريقين برىء من دين إبراهيم » فغضبوا وقالوا : والله ما نرضى بقضائك ، ولا نأخذ بدينك . فأنزل الله هذه الآية (١٩٩) .

وعلى أى حال كان سبب النزول ، فالكلام - فى هذه الآية - مع أهل الكتاب الذين استمسكوا بدينهم ، ونازعوا فى الإسلام ، وأعرضوا عنه .

فبعد أن أخبرهم الله تعالى أنه أوصى الأنبياء بتأييده ونصرته ، وأنذر من تولى عنه ، وويخهم على إعراضهم ، وأنكره عليهم - قال ما معناه :

أيتولى هؤلاء عن الإسلام إلى أديانهم المحرفة المنسوخة ، فيبغون بذلك ديناً غير دين الله : كيف يطلبون غير دينه سبحانه وتعالى ، وقد استسلم وخضع له - من فى السموات والأرض طائعين وكارهين : فمشيئة الله نافذة فيهم ، وقدره جار عليهم ، أحبوا ذلك أم كرهوا . فالصحيح مستسلم لقدر الله ، محب لما وهبه الله من صحة . والعليل منقاد لقدر الله بمرضه طوعاً وكرهاً ..

وهكذا كل أقدار الله تجري في خلقه ، فيخضعون لها ، وإن جرت على غير ما يحبون ويشتهون . فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . فكيف يتمرد أهل الكتاب على دين هذا الإله القوى الفعال ، ويكفرون به . مع أنهم إليه يرجعون مقهورين ، فيحاسبهم على طغيانهم وكفرهم .

وتحتمل أن يكون المراد به : ما يشمل العقلاء وغيرهم ، ويكون المعنى : ولشيئته تعالي . خضع وانقاد جميع الكائنات في السموات والأرض : طائفة أو مسخرة . كما هي قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ كَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ (الحج : ١٨) .

٨٤ - قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالْيَبُوسُ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ :

لما بين الله تعالى : أنه أخذ الميثاق على كل نبي : أن يؤمن بغيره من الأنبياء ، وأنه لا يصح لأهل الكتاب أن يكفروا بدين الله الذي أنزله على محمد - وهو ممن أخذ الله الميثاق على الإيمان بهم ودينهم - لما بين الله هذا كله - أمر نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - ، أن يؤمن بمن سبقه من الأنبياء ، ألا يفرق في الإيمان بين أحد من رسله ، ليكون في الإيمان بهم ، كما كانوا في شأن إخوانهم الأنبياء ، وهو خاتمهم .

المعنى :

قل يا محمد ، معبراً عن نفسك ، وعن المؤمنين : آمنا بالله وما أنزل علينا من القرآن العظيم آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأنبياء من إبنائهم والأسباط من كتب . وما أوتي موسى وعيسى من التوراة والإنجيل ، وما أعطى سائر الأنبياء من ربهم من مختلف الكتب : لا نفرق بينهم ، فلا نؤمن ببعض ، ونكفر ببعض كما فعل اليهود إذ كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام ، وكما فعل النصارى إذ كفروا بمحمد - صلى الله عليه وسلم ، ونحن له منقادون : نطيعه فيما أمرنا به ، وننتهي عما نهانا عنه .

٨٥ - وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ

ومن يطلب دينا غير دين الإسلام يتدين به : عقيدة وعملاً ، فلن يقبله الله منه ، لأنه غير ما شرعه الله لخلقه . وإذا كان الله لا يقبل دينا غير الإسلام - فكل من دان بغيره ، يكون في الآخرة من الخاسرين ، لأنه محروم الثواب ، خالد في العقاب .

روى أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ، لو أصبح فيكم موسى بن عمران ، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم » (٢٠٠) .

وروى أبو يعلى ، والبزار ، وأورده ابن كثير : « لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا اتباعي » وفي رواية : « لو كان موسى وعيسى حيين لما سعهما إلا اتباعي » .

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْنَهُم لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾

المفردات :

لعنة الله : أى الطرد من رحمته .

ولا هم ينظرون : أى ولا هم يمهلون . فعذابهم مستمر . أو لا ينظر إليهم ، ولا يعتد بهم .

التفسير :

٨٦ - كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ .

سبب النزول :

أخرج عبد بن حميد وغيره ، عن الحسن : أنهم - أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوا نعت محمد - صلى الله عليه وسلم - فى كتابهم وأقروا وشهدوا أنه حق . فلما بعث من غيرهم ، حسدوا العرب على ذلك فانكروا . وكفروا بعد إقرارهم .

المعنى :

أى سبيل لأن يهدى الله قوماً كفروا بمحمد ، بعد ما آمنوا به قبل مبعثه ، امتثالاً لما جاء فى كتبهم ، وعلموا أن الرسول محمد حق حينما رأوه بعد مبعثه - مطابقاً لما جاء عنه فى كتبهم ، وجاءتهم الآيات الواضحات والمعجزات الشاهدات بصدقه : والله لا يهدى القوم الظالمين لأنفسهم بكفرهم ، ما داموا مصرين على عنادهم وحسدهم للرسول ، على ما آتاه الله من فضله .

٨٧ ، ٨٨ - أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْنَهُم لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ .

بعد أن بين الله شناعة الكفر بعد الإيمان ، ووضح أن شريعة الرسول حق بما أيده الله به من الآيات ، أتبعه عقاب أولئك الكافرين . وذكر أن : أولئك الذين كفروا - بعد ما جاءهم الرسول مؤيداً بالآيات والمعجزات بعد ما عقدوا العزم على الإيمان به حين يبعث - يلعنهم الله - ويطردهم من رحمته ، وتلعنهم الملائكة ، وتطلب لهم الطرد من رحمة الله ، ويلعنهم الناس أجمعون ، من أهل الإيمان أتباع الحق ، خالدين فى اللعنة - أو فى جهنم - التى هى مقر الملعونين : لا يخفف عنهم العذاب ، ولا هم يمهلون بأن يؤخر عنهم العذاب من وقت لآخر ، بل العذاب موصول مستمر .

ويجوز أن يكون معنى : **وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ** وَلَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نظر رحمة، لا يعتد بهم . فهم مهملون متروكون في عذابهم.

وهذه الآية وما قبلها وما بعدها إلى قوله تعالى : **وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** - وإن نزلت في أهل الكتاب الذين جحدوا نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد مبعثه، مع أنهم كانوا مجمعين على الإيمان به حين يبعث- لكنها عامة الحكم في كل من يكفر بعد الإيمان ، فتشمل المرتدين بعد الإسلام.

٨٩ - **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .**

يعنى : أى من تابوا من بعد كفرهم، وأصلحوا ما أفسدوه بالندم والإقبال على الطاعة بعد الإبداء عنها فإن الله يفر لهم ويرحمهم ، لأن الله عظيم الغفران، بليغ الرحمة، وذلك من عظيم كرمه، ووافر رحمته.

وقيل : معنى أصلحوا : دخلوا في الصلاح . كما يقال : أصبحوا : دخلوا في الصباح، وعلى هذا يكون الفعل لازماً غير متعد، بخلافه على المعنى السابق فهو متعد.

★ ★ ★

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ١٠** **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَرَاءُ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ١١** **أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ١٢** **لَنْ نَسْأَلَ الْبِرَّ حَتَّى تَنْفِقُوا مِمَّا مَحْبُوبٌ ١٣** **وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ١٤** ﴾

المفردات :

**وأولئك هم الضالون** : الذين أخطأوا طريق النجاة.

**ولو افتدى به** : معطوف على شرط مقدر يقتضيه المقام . والتقدير : لو أنفق فيما يراه خيرا في الدنيا ولو افتدى به في الآخرة.

**لن نسالوا** : لن تصيبوا ولن تدرخوا .

**البر** : الخير والإحسان .

**مما تحبون** : بعض ما تحبون فلا ينفقونه كله.

التفسير :

٩٠ - **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ .**

تمهيد :

علم اليهود بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يبعث وذلك من خلال إشارات الأنبياء به ، فلما بعثه الله رسولا نبيا من نسل إسماعيل جحدوا نبوته حقدا وحسدا .

**قال الشيخ محمد عبده :**

كان اليهود يعرفون بإشارات الأنبياء بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ، وكانوا عازمين على اتباعه إذا جاء في زمنهم ، وانطبقت عليه العلامات ، وظهرت فيه البشارات ، ثم أنهم كفروا به وعاندوه، بعد مجيئه بالبينات لهم، وظهرت الآيات على يديه ، والله لا يهدى أمثال هؤلاء الضالين (٢٠١) .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وشهادتهم أن الرسول حق ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا بمقاومة الحق وإيذاء الرسول والصد عن سبيل الله بالكيد والتشكيك ، وبالحرِب والكفاح، وبالتمادي في الكفر والمعاصي.

لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ : لأن الشر قد تغلغل في نفوسهم وتمكن فيها الكفر فإذا أرادت التوبة وجدت من الموانع ما يحول بينها وبين قبول الحق والحيـر .

وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ عن طريق الحق ، المخطئون سبيل النجاة.

قال الحافظ أبو بكر البزار عن عكرمة عن ابن عباس : أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا ، ثم أسلموا، ثم ارتدوا، فإرسلا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزلت هذه الآية:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ (٢٠٢).

وقد اختار الطبري رأى قتادة وعطاء والحسن في أن هذه الآية نزلت في اليهود كفروا بيمسى والإنجيل ، ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن وبالذنوب التي اكتسبوها .

وقال أبو العالية : نزلت في اليهود والنصارى ، كفروا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - بعد إيمانهم بنعمته وصفته ، ثم ازدادوا كفرا بإقامتهم على كفرهم

وعلماء القرآن يذكرون أن سبب نزول الآية قد يتعدد، ويعبر عنه بتعدد السبب والنازل واحد .

وسواء أكان سبب النزول اليهود وحدهم، أو اليهود والنصارى، أو تكرر الردة من بعض الناس، فإن الآية بعمومها تشمل كل من يكفر بعد إيمان ، فيدخل في حكمها من ارتد عن الإسلام.

وظاهر الآيات يخالف ما صرح به القرآن في غير موضع كقوله سبحانه وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ . (الشورى : ٢٥) . والجواب أن التوبة لمن أناب إلى الله ورجع إليه صادقاً في حياته وهو متمتع بصحته وقوته .

ما الذين يصرون على الكفر، ويزدادون كفراً، والذين يلجون في هذا الكفر حتى تقلت الفرصة المتاحة وينتهى أمد الاختيار ويأتي دور الجزاء، هؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة.



قال تعالى : إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . (النساء : ١٧-١٨).

وروى أحمد والترمذى وابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغفر » (٢٠٣).

من تفسير القاسمي :

« وقد أشكل على كثير من المفسرين قوله تعالى لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ مع أن التوبة مقبولة عند الجمهور ، فأجابوا بأن المراد عند حضور الموت.

قال الواحدى : فى الوجيز: لن تقبل توبتهم لأنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت وتلك التوبة لا تقبل .  
وقيل عدم قبول توبتهم كناية عن عدم توبتهم أى لا يتوبون ، وقيل لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقا ، لارتدادهم وازديادهم كفرا . وبقي للمفسرين وجوه أخرى هى فى التأويل أبعد مما ذكر .

ولا أرى هذه الآية إلا كاية النساء :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا . (النساء : ١٣٧)  
وكلتاها مما يدل صراحة على أن من تكررت رده لا تقبل توبته ، وإلى هذا ذهب إسحاق وأحمد ، وذلك لرسوخه فى الكفر.

وقد أشار القاشانى إلى أن هذه الآية مع التى قبلها يستفاد منها أن الكفرة قسمان :

قسم رسخت هيئة استيلاء النفوس الأمانة على قلوبهم فيهم وتمكنت، وتناهاوا فى الفى والاستشراء ، وتمادوا فى البعد والعناد حتى صار ذلك ملكة لا تزول.

وقسم لم يرسخ ذلك فيهم بعد ، ولم يصير على قلوبهم رينا، ويبقى من وراء حجاب النفس مسكة من نور استعدادهم ، عسى أن تتداركهم رحمة من الله وتوفيق فيندموا فإشار إلى القسم الأول بقوله ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ إِلَى آخِرِهِ ، وإلى الثانى بقوله إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا - انتهى (٢٠٤).

٩١ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ

تشير هذه الآية إلى مشهد من مشاهد القيامة حيث يرى الكافر ما أعد له من العذاب الشديد فيتمنى أن يفتدى نفسه من النار بملة الأرض ذهباً ، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . (المائدة : ٣٦) .

وروى الشيخان والإمام أحمد عن أنس بن مالك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكتفت مقتدياً؟ قال : فيقول: نعم ، فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم ألا تشرك بى شيئاً هابيت إلا أن تشرك » (٢٠٥) .

وقدر الزمخشري الكلام بمعنى : لن يقبل من أحد منهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً .. هـ . فإذا رفضت الفدية في هذه الحالة كان تبئها على أن ثم أحوالاً آخر لا ينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة .

وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من الوعيد، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس في ذلك اليوم .

ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل: لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلى في يدى هذه (٢٠٦) .

وقال ابن كثير : من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قرية . كما سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن عبد الله بن جدعان - وكان يقرى الضيف ويفك العاني، ويطعم الطعام - هل ينفعه ذلك ؟ فقال : « لا إنه لم يقل يوماً من الدهر : رب اغفر لى خطيئتي يوم الدين » (٢٠٧) . وفي ختام الآية نجد هذا الوعيد .

أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ أولئك المصرون على الكفر حتى ماتوا ، لهم عذاب شديد الإيلام «وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ يدهمون العذاب عنهم أو يخففونه كما كانوا ينصرونهم في الدنيا إذا حاول أحد أذاهم أو إيقاع المكروه بهم .

٩٢ - لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .

في هذه الآية استئناف خطاب للمؤمنين سيق لبيان ما ينفعهم ويقبل منهم إثر بيان ما لا ينفع الكفرة ولا يقبل منهم ، أى لن تبلغوا حقيقة البر ، وتلحقوا بزمرة الأبرار بناء على أن تعريف البر للجنس ، أو لن تنالوا بر الله سبحانه وتعالى وهو ثوابه وجنته إذا كان للمهد . حتى تنفقوا في سبيل الله تعالى مما تحبون ، أى تهوونه ويمعجبكم من كرائم أموالكم . وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .. أى شئ تنفقونه في سبيل الله طيباً أو خبيثاً فالله مجازيك به بحسب ما يعلم من نيتكم ، ومن موقع ذلك في قلوبكم، فرب منفق مما يحب لا يسلم من الرياء ، ورب فقير معدم لا يجد ما يحب فينفق منه ، ولكن قلبه يفيض بالبر ، ولو وجد ما أحبه لأنفقه أو أكثره .

وفى الآية حث على إنفاق الجيد، وإخلاص النية، وابتغاء وجه الله والدار الآخرة.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ. (البقرة: ٢٦٧).

وروى الشيخان عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء « موضع » وكانت مستقبله المسجد، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ قام أبو طلحة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وإن أحب أموالي إلى بيرحاء، وإنها صدقة لله عز وجل أرجو برها وذخرها عند الله، فضمها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « يا بغي. ذلك مال رابع، ذلك مال رابع، وقد سمعت ما قلت. وإنى أرى أن تجعلها في الأقربين ». قال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه (٢٠٨).

وفى الصحيحين أن عمر قال: يا رسول الله لم أصب مالا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخبير، فما تأمرني به قال: « احبس الأصل وأسبل الثمرة » (٢٠٩).

وروى الحافظ أبو بكر البزار أن عبد الله بن عمر قال: حضرتني هذه الآية، ذكرت ما أعطاني الله، فلم أجِد شيئاً أحب إلي من جارية لى رومية، فقلت: هي حرة لوجه الله، فلو أنى أعود في شيء جعلته لله، لنكحتها، يعنى تزوجتها، فأنكحتها ناهماً (مولى كان يعبه كأحد أولاده).

وآثار السلف في الإيثار وبذل المال ابتغاء مرضاة الله كثيرة ...



وسلام على المرسلين ... والحمد لله رب العالمين

تم تفسير الجزء الثالث، ويليه تفسير الجزء الرابع إن شاء الله تعالى



**تخريج أحاديث وهوامش**  
**تفسير القرآن الكريم**  
( الجزء الثالث )

خرج أحاديثه

الأستاذ

كمال سعيد فهمي

- (١) أحياناً يأتي مثل مصلصلة الجرس ٦ .  
رواه البخاري في بدء الوحي (٢) وفي بدء الخلق (٢٢١٥) ومسلم في الفضائل (٢٢٢٢) والترمذي في المناقب (٢٦٢٤) والنسائي في الافتتاح (٨٣٢ ، ٨٣٢) وأحمد (٢٤٧٢٤ ، ٢٥٦٦٦) ومالك في الموطأ (٤٧٤) من حديث عائشة، ونظر كتاب علوم الدين الإسلامي للكتور عبد الله شحاتة، وفي أوله موضوع (الوحي والقُرآن).
- (٢) انظر العقائد النسفية وشرحها للسعد : ص ٤٤٦ ، وقد ورد ذكر (١٨) ثمانية عشر نبياً في سورة الانعام الحكية ليذكر الله المشركين أن إرسال الرسل سنة الله في خلقه، وهي نعمة الله على عباده، قال تعالى: وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ابن ريك حكيم علم (٢) وروينا له إسحاق ويحطوب كلاً هدياً ونوحاً هدياً من قبل ومن قرينه داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك جزى المحسنين (٣) وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين (٤) وأسما عجل وإسحق ويونس وكلنا فضلنا على العالمين (٥) ومن آياتهم ودرياتهم وأخوانهم وأجبتهم وهديتهم إلى صراط مستقيم (٦) ذلك هدى الله ليهدي به من يشاء من عباده ولو أشر كوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون (الأنعام ٨٢ - ٨٨) .
- (٣) لا تفضلوا بين أنبياء الله ٧ .  
رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٢٤١٥) ومسلم في الفضائل (٢٢٧٢) من حديث أبي هريرة بلفظ: بينما يهودي يعرض سلعته أعطى بها شيئاً كرهه فقال لا والذي أصطفى موسى على البشر... فقال لم لمطمت وجهه فذكره فغضب النبي ﷺ حتى رآى في وجهه ثم قال لا تفضلوا بين أنبياء الله .. الحديث .
- (٤) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابوني ج ١ صفحة ٢٧٧ .
- (٥) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٢٩٧ .
- (٦) أنا سيد ولد آدم ولا فخر ٩  
رواه مسلم في الفضائل (٢٢٧٢) وأبو داود في السنة (٤٦٧٢) وأحمد (١٠٥٨٩) من حديث أبي هريرة. رواه الترمذي في تفسير القرآن (٢٦١٨) وفي المناقب (٢٦١٥) وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٨) وأحمد (١٠٦٠٤) من حديث أبي سعيد. ورواه أحمد (٢٥٤٢ ، ٢٦٨٧) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .
- (٧) في ظلال القرآن ج ١ صفحة ٢٨٢ .
- (٨) تفسير المنار ج ٣ صفحة ٨ .
- (٩) وانظر يا أخى إلى الحرب التي تثار بين هذا القطر وذلك من أقطار المسلمين وتراق فيها الدماء بسبب تحكم الأهواء . مع قول النبي الأمين «إذا انتفى المؤمنان بسيفهما فالتال والمقتول في النار».
- (١٠) تفسير المنار ج ٢ صفحة ٨ - ١٢ .
- (١١) أعطيت خمساً لم يعطهن نبي ١٢ .  
رواه البخاري في التيمم (٢٣٥) وفي الصلاة (٤٣٨) ومسلم في المساجد (٥٢١ ، ٥٢٢) والنسائي في الفصول (٤٢٢) وفي المساجد (٧٣٦) والدارمي في الصلاة (١٢٨٩) وأحمد (١٢٨٥٢) من حديث جابر . ورواه مسلم في المساجد (٥٢٢) والترمذي في السير (١٥٥٢) وابن ماجه في الطهارة (٥٦٧) وأحمد (٧٢٢٥ ، ٧٢٥٥ ، ٩٤١٢) من حديث أبي هريرة . ورواه أبو داود في الصلاة (٤٨٩) والدارمي في السير (٢٤٦٧) وأحمد (٢٠٧٩٢) من حديث أبي ذر ورواه أحمد (٢٢٥٦ ، ٢٧٣٧) من حديث ابن عباس. ورواه أحمد (٧٠٢٨) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . ورواه أحمد (١٩٣٣٦) من حديث أبي موسى رضى الله عنه .
- (١٢) لكل سنم وإن سنم القرآن سورة البقرة ١٢ .  
رواه الترمذي في تفسير القرآن (٧٨٧٨) من حديث أبي هريرة . قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير وقد تكلم شعبة في حكيم بن جبير وضعفه . قلت : وذكره السيوطي في الدرر زاد نسبته لسعيد بن منصور ومحمد بن نصر وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب .

- (١٣) تفسير القرطبي ج ١ صفحة ١٠٢ .
- (١٤) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني صفحة ٢١ .
- (١٥) تفسير الألوسي ج ٣ صفحة ٩ .
- (١٦) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني صفحة ٤٢٨ بتلخيص .
- (١٧) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٢٠٣ .
- (١٨) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٢٧٦ .
- (١٩) أي آية في كتاب الله أعظم .. ليهلك العلم أيا للتذ ١٦ .  
رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨١٠) وأبو داود في الصلاة (١٤٦٠) ، وأحمد (٢٠٧٧١) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه .
- (٢٠) إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي ١٦ .  
يشير إلى حديث أبي بن كعب المتقدم .
- (٢١) أعظم آية في القرآن ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ ١٦ .  
ذكره السيوطي في الدر وقال : وأخرج ابن مردويه والشيрази في الألقاب والهروري في فضائله .
- (٢٢) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٢٨٠ .
- (٢٣) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٣١١ .
- (٢٤) تفسير الفخر الرازي .
- (٢٥) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٢٩٠ .
- (٢٦) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٣١٤ .
- (٢٧) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٢٩٧ .
- (٢٨) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣٠٨ .
- (٢٩) تفسير الفخر الرازي ج ٧ صفحة ٤٤ .
- (٣٠) بارك الله لك فيما أمسكت ٢٨ .  
قال السيوطي في الدر : وأخرج الهزار وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة . قال الهيثمي في المجمع : رواه البزار من طريقين إحداهما متصلة عن أبي هريرة والأخرى عن أبي سلمة مرسله . قال ولم نسمع أحدا أسنده من حديث عمر بن أبي سلمة إلا طالوت بن عباد ، وفيه عمر بن أبي سلمة ولقنه المجلي وأبو حنيفة وابن حبان وضعفه شعبة وغيره، وبقية رجالهما ثقات . .
- (٣١) رخصت عن عثمان فارض ٢٨ .  
ذكره الهندي في الكنز (٢٢٨١١) ونسبه لأبي نعمان وابن عساكر . عن أبي سعيد رضي الله عنه .
- (٣٢) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٣١٦ .
- (٣٣) تفسير الفخر الرازي ج ٧ صفحة ٤٩ .
- (٣٤) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣١١ .
- (٣٥) حاشية تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٢١١ للشيخ أحمد بن المنير .

- (٢٦) الكلمة الطيبة صدقة ٣١ .  
رواه البخاري في الجهاد (٢٨٩) ومسلم في الزكاة (١٠٠٩) وأحمد (٨٠٤٩ . ٢٧٣٠٠ . ٢٧٤٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
- (٢٧) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٣٠٩ .
- (٢٨) تفسير الفخر الرازي ج ٧ صفحة ٤٩ .
- (٢٩) ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ٢٤ .  
رواه مسلم في الإيمان (١٠٦) والنسائي في الزكاة (٢٥٦٣ . ٢٥٦٤) وفي البيوع (٤١٥٨) وفي الزينة (٥٢٣٢) وأبو داود في البيوع (٤٠٨٧) وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٨ . ٢٠٨١١ . ٢٠٨٩٥ . ٢٠٨٩٦ . ٢٠٩٢٥ . ٢١٠٣٤) والدارمي في البيوع (٢٦٠٥) من حديث أبي ذر . ورواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٩) وفي الشهادات (٢٦٧٢) وفي الأحكام (٧٢١٢) وفي التوحيد (٧٤١٦) ومسلم في الإيمان (١٠٧) والترمذي في السير (١٥٩٥) والنسائي في الزكاة (٢٥٧٥) وفي البيوع (٤٤٦٢) وأبو داود في البيوع (٢٤٧٤) وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٧) وابن ماجه في الجهاد (٢٨٧٠) (٧٣٩٢ . ٩٨٦٦ . ٩٨٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم رجل خلف على سلمة لقد أعطى بها أكثر مما أعطى وهو كاذب ورجل خلف علي يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال رجل مسلم ورجل منع ففعل ماء فيقول الله اليوم أمتك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك .
- (٤٠) لا يدخل الجنة مومن خمر ٢٤ .  
قال السيوطي في الدر : وأخرج الطبراني وابن مردويه فذكره من حديث ابن عباس . والحديث بهذا النحو روى عن غيره من الصحابة فرواه النسائي في الأشربة (٥٦٧٢) والترمذي في الأشربة (٢٠٩٣ . ٢٠٩٤) من حديث عبد الله بن عمرو . ورواه أحمد (١٠٨٨٢ . ١١٣٧٢) أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
- (٤١) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣١٢ .
- (٤٢) تفسير القرطبي ج ٢ صفحة ٢١٨ .
- (٤٣) ورد في تفسير ابن جرير عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، وورد في تفسير ابن كثير . وفي مختصر تفسير ابن كثير تحقيق معتمد على الصابوني ج ١ صفحة ٢٤٠ ، وانظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر . الحزب الخامس صفحة ٤٦٠ وفيه أيضاً الترمذي : حديث حسن صحيح .
- (٤٤) ما من يوم يصبح فيه المباد إلا ملكان ينزلان ٢٨ .  
رواه البخاري في الزكاة (١٤٤٢) ، ومسلم في الزكاة (١٠١٠) وأحمد (٧٩٩٣) من حديث أبي هريرة . ورواه أحمد (٢١٢١٤) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .
- (٤٥) لا حصد إلا في اثنين ٢٨ .  
رواه البخاري في العلم (٧٣) وفي الزكاة (١٤٠٩) ، وفي الأحكام (٧١٤١) وفي الاعتصام (٧٣١٦) ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٦) وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٨) وأحمد (٤٠٩٨) من حديث عبد الله بن مسعود ورواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢١) وأحمد (٩٨٥٧) من حديث أبي هريرة . ورواه البخاري في التوحيد (٧٥٢٩) مسلم في صلاة المسافرين (٨١٥) والترمذي في البر والصلة (١٩٣٦) وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٩) وأحمد (١٥٣٦ . ٦٢٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنه .
- (٤٦) التفسير الوسيط للقرآن الكريم : تفسير سورتي الفاتحة والبقرة للدكتور محمد سيد طنطاوي جامعة بنغازي . صفحة ٧٦٩ .
- (٤٧) سبعة يظلمهم الله في ظله ٤٠ .  
رواه البخاري في الأذان (٦٦٠) وفي الزكاة (١٤٢٣) وفي الرقاق (٦٤٧٩) وفي الحدود (١٨٠٨) ومسلم في الزكاة (١٠٣١) ، والترمذي في الزهد (٢٣٩١) والنسائي في آداب القضاء (٥٢٨٠) وأحمد (٩٢٧٣) ومالك في الجامع (١٧٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .



- (٤٨) صدقة السر تطمئن غضب الرب ٤٠  
رواه الترمذى فى الزكاة باب ما جاء فى فضل الصدقة (٦٥٨) وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه . قال المرفاى فى تخريج الإحياء أخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة وزواه أبو الشخ فى كتاب الثواب والبهيق فى الشعب من حديث أبى سعيد كلاهما ضعيف .. ولابن حبان نحوه من حديث أنس وهو ضعيف جداً .
- (٤٩) روى ذلك ابن جرير الطبرى فى تفسير الآية ، ونقله ابن كثير عنه فى تفسير هذه الآية .
- (٥٠) لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم ٤١ .  
قال السيوطى فى الدر : وأخرج ابن أبى شيبه عن سعيد بن جبیر قال رسول الله ﷺ لا تصدقوا إلا على أهل دينكم . فأنزل الله ﷻ عليكم هداهم إلى قوله ﴿وما تفعلوا من خير يوف إليكم﴾ فقال رسول الله ﷺ : تصدقوا على أهل الأديان وقال : وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والضيضاء عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يأمرنا أن لا نتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية ﷻ ليس عليكم هداهم إلى آخرها . فأمر بالصدقة بعدها على كل من سالك من كل دين.
- (٥١) أمرت أن أخذ الصدقة من أغنيائكم ٤١ .  
قال فى المجمع : كتاب الإيمان باب منه : وعن رجل من بنى عامر أنه استأذن على النبي ﷺ فقال : أيتلج ؟ فقال ﷺ لخادمته - أخرجى إليه فإنه لا يحسن الاستئذان فقولى له فيقل السلام عليكم أدخل ؟ قال : سمعته يقول ذلك فقلت السلام عليكم أدخل ؟ قال : فاذن أو قال فدخلت فقلت : بما أتيتنا؟ قال : لم أتم إلا بغير أيتكم أن تميدوا الله وحده لا شريك له قال شعبة أحسبه قال وحده لا شريك له وأن تدعوا الثلاث والعزى وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات وأن تصوموا من السنة شهراً وأن تحجوا البيت وأن تأخذوا من أموال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم قال فقال : هل بقى من الغيب شئ لا تعلمه قال : قد علم الله عز وجل خيراً كثيراً وإن من الغيب ما لا يعلمه إلا الله عز وجل الخمس وإن الله عنده الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﷻ قلت عند أبى داود طرف منه . وقد رواه أحمد ورجاله كله ثقات أئمة .
- (٥٢) تفسير الألوسى ج ٢ صفحة ٤٥ بتصريف وتلخيص .
- (٥٣) تفسير الفخر الرازى ج ٧ صفحة ٨٣ .
- (٥٤) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ صفحة ٣٣٥ . بتصريف يسير .
- (٥٥) الصفة . بضم الصاد وتشديد الفاء . اسم الموضع بناء النبي . صلى الله عليه وسلم . فى المسجد النبوى بالمدينة ليأوى إليه فقراء المهاجرين الذين تركوا أموالهم يبكة وماجروا إلى المدينة لإعلام كلمة الله .
- (٥٦) تفسير القرطبى ج ٢ صفحة ٣٣٩ .
- (٥٧) تفسير الفخر الرازى ج ٧ صفحة ٨٦ .
- (٥٨) اتقوا فراسة المؤمن ٤٥  
الترمذى فى التفسير (٢١٢٧) وقال : "حديث غريب" .
- (٥٩) تفسير الكشف ج ١ صفحة ٢١٨ .
- (٦٠) تفسير الفخر الرازى ج ٧ صفحة ٨٧ .
- (٦١) ليس المسكين الذى تردد اللمعة ٤٥ .
- البخارى فى الزكاة (١٤٧٦) ومسلم فيها (١٠٢٩) واللسانى فيها (٢٥٧١) والدارمى فيها ٢٧٩/١ والموطأ فى صفة النبي ﷺ ٩٣٢/٢ وأحمد ٣١٦/٢ عن أبى هريرة .
- (٦٢) لا تزال المسألة بأحكام ٤٥ .  
مسلم فى الزكاة (١٠٤٠) . وأحمد ٨٨٠ ١٥/٢ . كلاهما عن عبد الله بن عمر ؓ.

- (٦٣) ألا يتابعون رسول الله ... أن تعبدوا الله ٤٥ .  
رواه مسلم في الزكاة باب كراهة المسألة للناس (١٠٤٣) وأبو داود في الزكاة باب كراهية المسألة (١٦٤٢) والنسائي في الصلاة باب البيعة على الصلوات الخمس، وابن ماجه في الجهاد باب البيعة (٢٨٦٧) من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه.
- (٦٤) ما حملك على هذا ... لك ذلك ٤٦ .  
ذكره القرطبي في "الجامع" وقال : وروى عن ابن عباس أنه قال : نزلت في علي بن أبي طالب .. فتكره .
- (٦٥) إياك والذنوب التي لا تغفر ٤٨ .  
قال الميوطي في الدر : وأخرج الطبراني عن عوف بن مالك .. فذكره .
- (٦٦) تفسير الألوسي صفحة ٤٩ .
- (٦٧) تفسير الفخر الرازي ج ٧ صفحة ٩٦ .
- (٦٨) تفسير الكشاف للزمخشري ج ١ صفحة ٣٢ .
- (٦٩) اللهم إني أعوذ بك من التردى ٤٩ .  
رواه أبو داود في الصلاة (١٥٥٢) وأحمد (١٥٠٩٧) النسائي في الاستعاذة (٥٥٣١ ، ٥٥٣٢) من حديث أبي اليسر رضي الله عنه.
- (٧٠) الإتيان على الكشاف لابن المنير ج ١ صفحة ٣٢٠ من الكشاف .
- (٧١) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣٢١ .
- (٧٢) تفسير الألوسي ج ٣ صفحة ٥٠ .
- (٧٣) كل ربا في الجاهلية موضوع ٥٠ .  
رواه مسلم في الحج في أشاء حديث طويل في صفة حجة ﷺ (١٢١٨) والترمذي في الحج (٨٥٦) رواه في مناسك الحج (٢٩٣٩) وأبو داود في المناسك (١٩٠٥) وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٤) وأحمد (١٤٢٥١) والدارمي في المناسك (١٨٥٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.
- (٧٤) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٣٢٧ .
- (٧٥) إن الله تعالى يقبل الصدقات ٥٢ .  
البخاري في الزكاة (١١١٠) وفي التوحيد (٧٤٣٠) ، ومسلم في الزكاة (١٠١٤) ، وأحمد ٣٢١/٢ ، ٤١٩ ، كلهم عن أبي هريرة . ولفظه : من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب . ولا يقبل الله إلا الطيب . فإن الله يأخذها بيمينه فيريها .
- (٧٦) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٣٣٠ ، بتصريف يسير .
- (٧٧) تفسير الفخر الرازي ج ٧ صفحة ١٠٦ .
- (٧٨) من نفس عن غريمه أو معا عنه ٥٥ .  
رواه أحمد (٢٢٠٥٢ ، ٢٢١١٧) والدارمي في البيوع (٢٥٨٩) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.
- (٧٩) من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فليسر ٥٥ .  
قال الميوطي في الدر : وأخرج الطبراني عن أسعد بن زرارة قال : قال رسول الله ﷺ : من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فليسر على معسر أو ليضع عنه . قال الهندي في الكنز (١٥٤١٨) : عن عاصم بن عبيد الله بن أسعد بن زرارة ، وهو منقطع وهذا يدخل فيمن أسند عنه من الصحابة الذين ماتوا في حياة النبي ﷺ لأن أسعد بن زرارة مات على رأس تسعة أشهر من الهجرة ، قال البغوي : بلنسى أنه أول من مات من الصحابة بعد الهجرة وأول ميت صلى عليه النبي ﷺ . ونحن باليقين وذلك قبل بدر قال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني في الكبير من طريق عاصم بن عبيد الله عن أسعد ، وعاصم ضعيف ولم يدرك أسعد بن زرارة .

- (٨٠) من أراد أن تستجاب دعوته ٥٥ .  
رواه أحمد (١٣٧٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.
- (٨١) تفسير الألوسي ج ٢ صفحة ٥٤ .
- (٨٢) راجع على سبيل المثال تفسير القرطبي ج ٢ صفحة ٢١٧ ، وتفسير المنار ج ٣ صفحة ١٠٦ .
- (٨٣) إنما الريا في النسبة ٥٦ .
- البخاري في البيوع (٢١٧٨ ، ٢١٧٩) ومسلم في المساقاة (١٥٩٦) والنسائي في البيوع (٤٥٩١) وابن ماجه في التجارات (٢٢٥٧) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
- (٨٤) الحنطة بالحنطة مثلاً بمثل ٥٦ .  
رواه مسلم في المساقاة (١٥٨٧) وأبو داود في البيوع (٢٣٤٩) ، كلاهما عن عبادة بن الصامت .
- (٨٥) الذهب بالذهب والفضة بالفضة ٥٦ .  
رواه البخاري في البيوع (٢١٧٠) ومسلم في المساقاة (١٥٨٦) وأبو داود في البيوع (٢٣٤٨) والترمذي في البيوع (١٢٤٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائي في البيوع (١٥٥٨) وابن ماجه في التجارات (٢٢٥٣) والدارسي في البيوع ٢/٢٥٨ . كلهم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
- (٨٦) تفسير آيات الأحكام بتصرف وتلخيص . للشيخ محمد علي السائيس ج ١ صفحة ١٦١ .
- (٨٧) اجتنبوا السبع الموبقات ٥٦ .  
رواه البخاري في الوصايا ٣٣٧ ، ومسلم في الإيمان ح ٨٩ ، والنسائي في الوصايا ح ٣٦٧١ ، وأبو داود في الوصايا ح ٢٨٧٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
- (٨٨) لمن رسول الله أكل الريا ٥٦ .  
رواه مسلم في المساقاة (١٥٩٨) من حديث جابر بن عبد الله . ورواه مسلم في المساقاة (١٥٩٧) عن عبد الله قال لمن رسول الله ﷺ أكل الريا ومؤكله قال قلت وكان به وشاهديه قال إنما نحدث بها سمعنا ، وأبو داود في البيوع (٢٣٣٢) والنسائي في الطلاق (٢٤١٦) وابن ماجه في التجارات (٢٢٧٧) وأحمد (٣٧١٧ ، ٣٧٢٩ ، ٣٧٩٩ ، ٣٨٧١ ، ٤٠٧٩ ، ٤٢٧١ ، ٤٢٧٢ ، ٤٣١٥ ، ٤٣٨٩) والترمذي في البيوع (١٢٠٦) وقال : حديث عبد الله حديث حسن صحيح . ورواه النسائي في الزينة (٥١٠٣) ، وأحمد (٦٣٦ ، ٨٤٦ ، ٩٨٢ ، ١٢٩١ ، ١٣٦٨) من حديث علي . ورواه البخاري في البيوع (٢٠٨٦ ، ٢٢٢٨) ، وفي المطلاق (٥٣٤٧) وفي اللباس (٥٩٤٥ ، ٥٩٦٢) عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال لمن النبي ﷺ الواشمة والمستوشمة أكل الريا ومؤكله ونهى عن ثمن الكلب وكسب البغي ولمن المسورين . قلت : لفظه : وكتابه وشاهديه فيه نظر . والصحيح مع الحديث هو : لمن رسول الله ﷺ أكل الريا ومؤكله .
- (٨٩) من أسلف فيسلف في كيل معلوم ٥٧  
البخاري في السلم (٢٢٤٠) ومسلم في المساقاة (١٦٠٤) وأبو داود في البيوع (٢٤٦٣) ، كلهم عن ابن عباس .
- (٩٠) تفسير القرطبي ج ٢ صفحة ٣٧٧ .
- (٩١) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣٢٤ .
- (٩٢) تعين صانعاً وتضمن لأخرق - الإيمان بالله ، والجهاد في سبيله .  
رواه مسلم في الإيمان (١٣٦) عن أبي ذر : قال : قلت : يا رسول الله ! أي الأعمال أفضل؟ قال : « الإيمان بالله ، والجهاد في سبيله » قال قلت : أي الرقاب أفضل؟ قال : « أنفسها عند أهلها ، وأكثرها ثمناً » قال قلت : فإن لم أفعل؟ قال : « تعين صانعاً أو تضمن لأخرق » قال قلت : يا رسول الله ! أرايت إن ضمنت عن بعضي العمل؟ قال : « تكف شرك من الناس ، فهنا صدقة منك على نفسك » .

- (٩٣) من كتم علماً يعلمه ٥٩ .  
رواه أبو داود في العلم (٣٦٥٨) والترمذي في العلم (٣٦٤٩) وابن ماجه في المقدمة (٢٦٦) وأحمد (١٠٢١٩ ، ١٠١٠٩) من حديث أبي هريرة ، ورواه ابن ماجه في المقدمة (٣٦٤) من حديث أنس . ورواه ابن ماجه أيضاً في المقدمة (٣٦٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
- (٩٤) تفسير القرطبي ج ٢ صفحة ٢٨٥ .
- (٩٥) تفسير الألوسي ج ٣ صفحة ٥٧ .
- (٩٦) تفسير القرطبي ج ٢ صفحة ٢٩٧ .
- (٩٧) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣٧٧ .
- (٩٨) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٤٠٧ .
- (٩٩) رهن درعه عند يهودي ٦٤ .  
رواه البخاري في البيوع (٢٢٠٠) وفي الزهن (٢٥٠٩) من حديث عائشة . ورواه البخاري في الزهن (٢٥٠٨) وابن ماجه في الأحكام (٢٤٢٧) من حديث أنس رضي الله عنه .
- (١٠٠) تفسير النسفي ج ١ صفحة ١٤٢ .
- (١٠١) الا إن في الجمد مضنة ٦٥ .  
رواه البخاري في الإيمان ج ٥٠ . ومسلم في المساقاة ح ٢٩٩٦ ، وابن ماجه في الفتن ح ٢٩٧٤ ، والدارمي في البيوع ح ٢٤١٩ .
- (١٠٢) إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست ٦٦ .  
رواه البخاري في الأيمان والندور (٦٦٦٤) ، ومسلم في الأيمان (١٢٧) ، كلاهما عن أبي هريرة .
- (١٠٣) إن الله كتب الحسنات والسيئات ٦٦ .  
رواه البخاري في الرقاق ح ١٠١٠ ومسلم في الإيمان ح ١٨٧ ، وأحمد ح ٢٦٨٤ ، ٢٢٢٨ . من حديث ابن عباس رضي الله عنه .
- (١٠٤) وقد وجدتموه ... ذلك صريح الايمان ٦٦ .  
رواه مسلم في الإيمان (١٢٢) من حديث ابن مسعود . وأحمد ح ٢٢٥/١ وأبو داود في الأدب (٥١١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
- (١٠٥) يدين المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه ٦٦ .  
رواه البخاري في التوحيد (٧٥١٤) ومسلم في التوبة (٢٧٦٨) ، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣) ، كلهم عن ابن عمر رضي الله عنه .
- (١٠٦) تفسير الألوسي ٦٤/٣ .
- (١٠٧) يراجع في هذا الموضوع كتاب الإنسان بين المادية والإسلام وكتاب معركة التقاليد لـ محمد قطب .
- (١٠٨) ظلال القرآن بقلم سيد قطب المجلد الأول ، طبعة دار الشروق . ج ١ ص ٣٢٨ .
- (١٠٩) نقلًا عن تفسير المقاسمي ج ٣ صفحة ٧٢٨ .
- (١١٠) يسروا ولا تسروا ٦٩ .  
رواه البخاري في الأدب (٦١٢٤) ومسلم في الأشربة (١٧٣٣) البخاري في المغازي (٤٣١٤ ، ٤٣٤٢) عن أبي بردة ، والدارمي في المقدمة ٧٣/١ عن ابن عمر بنحوه .
- (١١١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني صفحة ٣١٢ .

- (١١٢) من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة ٧١ .  
رواه البخاري في الملازم (٤٠٠٨) وفي فضائل القرن (٥٠١٠ ، ٥٠٤٠ ، ٥٠٥١) ومسلم في صلاة المسافرين (٨٠٧ ، ٨٠٨) والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٨١) وأبو داود في الصلاة (١٣٩٧) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٦٨ ، ١٣٩٦) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.
- (١١٣) لا تجلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر ٧١ .  
رواه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٨٠) ، والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٧٧) وقال : «هذا حديث حسن صحيح . وأحمد ٢٨١/٢ ، ٣٢٧ ، ٣٨٨ ، ثلاثتهم عن أبي هريرة .
- (١١٤) لكل سنن سنم ، وإن سنم القرآن ٧١ .  
تقدم صفحة ١٣ .
- (١١٥) انظر تفسير القاسمي : ٧٣٢/١ .
- (١١٦) إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور ٨٠ .  
رواه ابن ماجه في الدعاء (٢٨٥٦) عن القاسم : قال : اسم الله الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجاب ، في سور ثلاث : البقرة وآل عمران وطه .. وقال السيوطي في الدر : وأخرج ابن أبي الدنيا في الدعاء والطبراني وابن مردويه والهروري في فضائله والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي أمامة يرفعه قال : اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب ، في ثلاث سور : سورة البقرة ، وآل عمران ، وطه . قال أبو أمامة : فالتمسيتها فوجدت في البقرة في آية الكرسي «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» وفي آل عمران «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» (آل عمران الآية ٢) وفي طه «وَعَسَى أَن تَمْسُكَنَّهُ لُحَى الْقَوْمِ» (طه الآية ١١١) . وقال أيضاً : وأخرج ابن جريج وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله «الم» و«حم» و«طس» : قال : هي اسم الله الأعظم . وقال أيضاً : وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي وابن ماجه وابن جرير ، عن خاتمة بنت علي قالت : كان ابن عباس يقول في «كهيعص» و«حم» و«فيس» وأشياء هذا ، هو اسم الله الأعظم . قال المناوي في فيض القدير : وقد اختلف في الاسم الأعظم على نحو أربعين قولاً أقرها المصنف وغيره بالتأليف . قال ابن حجر : وأرجحها من حيث السند الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .
- (١١٧) تفسير القاسمي ج ٤ صفحة ٧٩٤ .
- (١١٨) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية الأزهر الحزب الخامس صفحة ٥١٣ .
- (١١٩) هي التكوين والخروج واللايين والمد والتثنية .
- (١٢٠) هي إنجيل متى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا .
- (١٢١) أبو الأعلى المودودي تفهم القرآن الجزء الأول من الفتاحة إلى آل عمران تريب أحمد إدريس ٢٠١ .
- (١٢٢) قال أبو السعود محمد بن محمد العمادي المتوفى سنة ٩٥١هـ في تفسيره ج ٢ صفحة ٦ ما يأتي :-  
( والجملة المنفية خبر لأن وتكرير الإيذان لتقوية الحكم وكلمة في متعلقة بمحذوف وقع صفة لنشؤ مؤكدة لعمومة الاستدراك من وقوعه في سباق النفي ، أي لا يخفى عليه شئ ما كان في الأرض ولا في السماء ، أمم من أن يكون ذلك بطريق الاستدراك غير أو الجزئية منها وقيل متعلقة بيشفي ، وإنما عبر بهما عن كل العالم لأنهما قطران وتقدم الأرض على السماء لإظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلها وتوسيط حرف النفي بينهما للدلالة على الطريق من الأدنى إلى الأعلى باعتبار القرب والبعد من المستعنيين للفتاوت بالنسبة إلى علوئها) .
- (١٢٣) نص الآيات هو : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِيمَانٍ بِحَنِّ رُزُقِكُمْ وَأَبَائِهِمْ وَلَا تَقْتُلُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَبْطِنُ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَعَصَاكُمْ بِهِ لَعْنُكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٥٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأُولُوا الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا تَكُلْ مِنْهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمْ وَعَصَاكُمْ بِهِ لَعْنُكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٥٤) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمْ وَعَصَاكُمْ بِهِ لَعْنُكُمْ تَعْقِلُونَ . (الأنعام ١٥١-١٥٢) .

- (١٢٤) تفسير المازي : ١٣٦/٢ . وهذه الأربعة ذكرها الرازي في تفسيره .
- (١٢٥) تفسير المازي : ١٠٠/٢ .
- (١٢٦) وهو التنكير المعنى والتدبر في الآيات .
- (١٢٧) د . عبد الله شحاتة ، علوم القرآن ، والتفسير ، دار الاعتصام : صفحة ٢٨٥ .
- (١٢٨) المثل والنحل : ١١٨/١ .
- (١٢٩) إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله ٨٨ .
- رواه مسلم في العلم (٣٦٦٦) ، وأحمد ١٨٥/٢ .
- (١٣٠) يا مقلب القلوب ثبت قلبي ٨٩ .
- الترمذي في القدر (٢١٤٠) وقال : حسن ، وابن ماجه في الدعاء (٢٨٢٤) كلاهما عن أنس ، وأحمد ١٨٢/٤ عن الثواس بن سيمان والحاكم في المستدرک ٢٨٨/٢ .
- (١٣١) أخرجه البخاري في كتاب المغازی باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومغبره إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم .
- (١٣٢) ورد ذلك في البخاري ، في كتاب المغازی ، وفي كتاب السير .
- (١٣٣) الولد مجنبه مبخله ٩٤ .
- رواه ابن ماجه في الأدب (٣٦٦٦) من حديث يعلى العامري في الزوائد : إسناده صحيح . رجاله ثقات .. وقال الهيثمي في المجمع : الولد شمره القلب ، وإنه مجنبه مبخله محزنة رواه أبو يعلى واليزار وفيه عطية المعوف وهو ضعيف . إن الولد مبخله مجنبه زوروا البزار ورجاله ثقات . إن الولد مبخله مجنبه وإن آخر وصاة ومثلها الله بوج . قلت رواه ابن ماجه غير ذكر بوج . رواه أحمد والطبرانی إلا أنه قال آخر وصاة ومثلها رب العالمين ، ورجالهما ثقات .
- (١٣٤) لو كان لابن آدم واديان ٩٤
- رواه البخاري في الرقاق (٦٤٣٦) ومسلم في الزكاة (١٠٨٤) والترمذي في الزهد (٣٣٣٧) وأحمد (١١٨١٩) عن أنس . ومسلم فيما تقدم (١٠٥٠) من حديث أبي الأسود .
- (١٣٥) تفسير القاسمي : ٨٠٦/٤ .
- (١٣٦) إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة هل رضيتم ٩٧ .
- رواه البخاري في الرقاق (٦٥٤٩) ، ومسلم في الجنة (٧٨٢٩)
- (١٣٧) إن ثلاثة آراهم الميت إلى غار - حديث أصحاب الغار - ٩٧ .
- رواه البخاري في الإجارة (٢٧٢٧) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٣) وأبو داود في البيوع (٣٢٨٧) وأحمد في مسنده (٥٩٣٧) من حديث ابن عمر .
- (١٣٨) ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة ٩٨ .
- رواه البخاري في الجمعة (١١٤٥) ، وفي النعوات (٦٣٢١) ، وفي التوحيد (٧٤٩٤) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٨) ، ومالك في الموطأ كتاب النداء إلى الصلاة (٤٩٦) ، وأبو داود في الصلاة (١٣١٥) وفي السنة (٤٣٢٢) ، والترمذي في الصلاة (٤٤٦) ، وفي الدعوات (٣٤٩٨) ، والدارسي في الصلاة (١٤٧٨) ، ١٤٧٩ ، ١٤٨٤ ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٦٦) ، وأحمد (٧٥٧ ، ٧٥٣٨ ، ٧٥٦٧ ، ٧٧٣٢ ، ٨٧٥١ ، ٩٤٤٠ ، ١٠١٦٦ ، ١٠٣٧٧ ، ١٠٩٠٢ ، ١١٤٨٢ ، ١١٦٢٠) من حديث أبي هريرة ورواه الدارسي في الصلاة (١١٨٠) ، وأحمد (١٦٣٠٢ ، ١٦٣٠٣) من حديث جبير بن مطعم . ورواه أحمد (١٥٧٨٢ ، ١٥٧٨٥) من حديث رفاعة الجهني ورواه أحمد (٣٦٦٤ ، ٣٨١١ ، ٤٢٥٦) من حديث ابن مسعود . ورواه الدارسي في الصلاة (١٤٨٣) من حديث علي رضي الله عنه .

(١٣٩) تفسير القاسمي : ٨٠٩/٤ .

(١٤٠) تفسير القاسمي : ٨١١/٤ .

(١٤١) التفسير الوسيط . مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب السادس صفحة ٥٣٦ .

(١٤٢) تفسير أبي السعود : ١٨/٢ .

(١٤٣) أعطيت خمسا .. جعلت لى الأرض ١٠٣

رواه البخارى فى التيمم ح ٣٢٢ ، وفى الصلاة ح ٤١٩ ، ومسلم فى المساجد ح ٨١٠ ، وأحمد ح ٣٦٠٦ ، والنسائى فى التمس والتميم ح ٤٢٩ ، والدارسى فى الصلاة ح ١٣٥٣ ، وفى السير ح ٣٣٥٨ .

(١٤٤) رجلاً قتل نبياً ١٠٣ .

قال المصطفى فى الدر : وأخرج أحمد عن ابن مسعود . أن رسول الله ﷺ قال " أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبياً أو قتله نبي . وإمام شاذلة وممثل من المثلثين " أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة بن الجراح قال " قلت يا رسول الله أى الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال : رجل قتل نبياً ، أو رجل أمر بالترك ونهى عن المعروف ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ إلى قوله ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ : يا أبا عبيدة قتل بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً أول النهار فى ساعة واحدة . فقام مائة وسبعون رجلاً من عبيد بنى إسرائيل . فأمرؤا من قتلهم بالمعروف ونهؤهم عن المنكر . فقتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم . فهم الذين ذكر الله " ذكره فى المجمع من حديث ابن مسعود : رواء الطبرانى فى الكبير وفى الصحيح منه قصة المصور وفيه الحارث الأعور وهو ضعيف . وقال فى موضع آخر : رواء الطبرانى وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس . وبقية رجاله ثقات . ورواه البزار إلا أنه قال وإمام شاذلة . ورجاله ثقات . وكذلك رواء أحمد . وذكره من حديث أبي عبيدة قال : رواء البزار وفيه ممن لم أعرفه الثان .

(١٤٥) تفسير أبي السعود : ١٩/٢ .

(١٤٦) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٣٨٢/١ مطبعة دار الشروق .

(١٤٧) تفسير أبي السعود : ٢٠/٢ .

(١٤٨) أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ١٠٤ .

رواه ابو داود فى الملاحم (٤٣٤٤) والترمذى فى الفتن (٢١٧٤) وابن ماجه فى الفتن (٤١١١) وأحمد فى مسنده (١٠٧٥٩) من حديث أبي سعيد . وقال الترمذى : حديث غريب . ورواه النسائى فى البيعة (٤٢٠٩) وأحمد فى مسنده (١٨٣٤٩) . (١٨٣٥١) من حديث طارق بن شهاب . ورواه ابن ماجه فى الفتن (٤٠١٢) وأحمد فى مسنده (٢١٦٥٤) من حديث أبي أمامة .

(١٤٩) على ملة إبراهيم ودينه ١٠٥ .

قال المصطفى فى الدر : أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : جاء رافع بن حارثة . وسلام بن مشكم . ومالك بن الصنف . ورافع بن حرملة . قالوا : يا محمد الست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه . وتؤمن بما عندنا من التوراة . وتشهد أنها من حق الله ؟ فقال النبي ﷺ بلى . ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق . كنتم منها ما أمرتم أن تبنوا للناس فيرث من أحدكم . قالوا : فإننا نأخذ مما فى أيدينا فإننا على الهدى والحق ولا تؤمن بك ولا تنيك . فانزل الله فيهم ﴿ قل يا أهل الكتاب استمع على شئ حتى تقيموا التوراة والإنجيل ﴾ إلى قوله ﴿ القوم الكافرين ﴾ . أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال " دخل رسول الله ﷺ بيت المدارس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله فقال له التمان بن عمرو . والحارث بن زيد : على أى دين أنت يا محمد ؟ قال : على ملة إبراهيم ودينه قالوا : فإن إبراهيم كان يهودياً فقال لهما رسول الله ﷺ : فهلما إلى التوراة فهي بيننا وبينكم . فأبيا عليه . فانزل الله ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ﴾ إلى قوله ﴿ وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون ﴾ .

(١٥٠) جاء فى مختار الصحاح مادة ح م م .

(حمة تمحيماً) سغم وجهه بالقحم .

والحميم الماء الحار . وقد (استحم) أى اغتسل بالحميم هذا هو الأصل . ثم صار كل اغتسال استعمالاً بأى ماء كان .

- (١٥١) كيف تعملون بن زنا .. رجم اليهوديين ١٠٥  
ذكره الهندي في الكنز (١٢٥٤٩) ونسبه لعبد الرزاق .
- (١٥٢) أؤتد رأيت يا سلمان .. أضافت لي منها قصور الشام ١٠٨  
رواه في المجمع بن حديث ابن عباس وقال : رواء الطبراني ورواه رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونعيم الغنبري وهما قهتان . وقال السيوطي في الدر : وأخرج ابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل من طريق كثير ابن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده .. فنكره.
- (١٥٣) أي أعطاهم مالاً قليلاً في مقابل معونتهم .
- (١٥٤) كان عبادة بن الصامت بدرياً نقيباً ، وكان له حلف من اليهود فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ، قال عبادة يا نبي الله ، إن معي خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معي فاستظهر بهم على العدو . فأنزل الله تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ... الآية .
- (١٥٥) ورد هذا المعنى في تفسير الزمخشري للآية .
- (١٥٦) تكشر : نيش ، وتنيسم .
- (١٥٧) إنا لنكشر في وجوه أقوام ١١٢ .  
ذكره البخاري تعليقاً في الأدب باب المداواة مع الناس قال : وينكر عن أبي الدرداء : إنا لنكشر في وجوه أقوام ، وإن قلوبنا لتلتهم .
- (١٥٨) لا يؤمن أحدهم حتى يكون هواه تبهاً لما جئت به ١١٤ .  
البخاري في شرح السنة (٢١٣/١) والخطيب في تاريخ بغداد ٣٦٩/٤ ، وذكر ، ابن رجب الحنبلي حديث ٤١ ، وقال : حسن صحيح . واستشهد بها التلوي في فضي القدير وقال : أخرجه الحسن بن سفيان وغيره قال ابن حجر ورواه ثقات وصححه النووي في الأربعين وذكره الهندي في كنز العمال (١٠٨٤) ونسبه للحكيم وأبو نصر السجزي في الإبانة وقال حسن غريب والخطيب عن ابن عمرو .
- (١٥٩) من عمل عملاً ليس عليه أمرنا ١١٤ .  
رواه مسلم في الأفضية (١٧١٨) ، وأحمد (٢٤٦٠٤ ، ٢٤٩٤٤ ، ٢٥٦٥٩) من حديث عائشة . وذكره البخاري في باب النجش ومن قال لا يجوز ذلك البيع وقال ابن أبي أوفى التاجي أكل ربا خائن وهو خداع بامل لا يحل قال النبي ﷺ : الخديعة في النار ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد . تعليقاً .
- (١٦٠) ثلاث من كن فيه وجد ١١٤ .  
البخاري في الإيمان (١٦ ، ٢١) ، ومسلم في الإيمان (٤٢) ، والنسائي في الإيمان (٤٩٨٨) ، كلهم عن أنس بن مالك رضى الله عنه .
- (١٦١) إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل ١١٤ .  
البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٩) ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٧) .
- (١٦٢) التفسير الوسيط لجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب السادس صفحة ٥٥٤ بتصريف واختصار .
- (١٦٣) أتا دعوة أبي إبراهيم ١١٦ .  
رواه أحمد في مسنده (١٦٧٠٠ ، ١٦٧١٢) من حديث عرياض بن سارية . ورواه (٢١٧٥٨) من حديث أبي أمامة .
- (١٦٤) ولد لي ولداً سميت باسم أبي إبراهيم ١١٧ .  
أخرجه مسلم في الفضائل (٣٣١٥) وأبو داود في الجنائز (٣١٣٦) وأحمد (١٣٠٢) .
- (١٦٥) كل بني آدم يمسه شيطان يوم ولادته ١١٧ .  
رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٢٣٤١) ومسلم في الفضائل (٢٣٦٦) وأحمد (٧٨١٩ ، ٧٨٥٥ ، ٨٠٥٧) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه .



- (١٦٦) تفسير القاسمي : ٨٤٢/٤ .
- (١٦٧) الاستهلام : إجراء القرعة .
- (١٦٨) كان إذا أراد السفر أقرع ١٢٣ .
- البخاري في الهبة (٢٥٩٢) وفي الشهادات (٣٦٦١ ، ٣٦٦٨) وفي الجهاد (٢٨٧٩) وفي المغازي (٤١٤١) وفي التفسير (٤٥٧٠) وفي النكاح (٥٢١١) ومسلم وفي فضائل الصحابة باب في فضل عائشة (٢٤٤٥) وفي التوبة (٢٧٧٠) ، وأبو داود في النكاح باب في القسم بين النساء (٢١٢٨) وابن ماجه في النكاح (١٩٧٠) وفي الأحكام باب القضاء بالقرعة (٣٣٤٧) والشافعي في مسنده (٧٨) والدارمي في النكاح (٢٢٠٨) وفي الجهاد (٢٤٢٣) من حديث عائشة رضي الله عنها .
- (١٦٩) هذه الأحكام مستقاة من تفسير في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٤٠٠/١ بتصرف وتلخيص .
- (١٧٠) "رب أعنى ولا تمن على " ١٣١ .
- الترمذي في الدعوات (٢٥٥١) وأبو داود في الصلاة (١٥١٠) وابن ماجه في الدعاء (٢٨٢٠) وأحمد (١٩٩٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنه .
- (١٧١) القلاص : جمع قلوص ، وهي الناقطة الشابة .
- (١٧٢) "وَالله لينزلن ابن مريم حكماً " ١٢٢ .
- رواه مسلم في الإيمان (١٥٥) وأحمد (١٠٠٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
- (١٧٣) "كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم " ١٢٢ .
- والحديث رواه البخاري في البيوع (٢٢٢٢) ومسلم في الإيمان (١٥٥)
- أي أن عيسى لن يأتي بشرع جديد ينسخ به شريعته بل ينزل داعياً للإسلام الذي نزل على محمد . صلى الله عليه وسلم . وهو دعوة جميع الأنبياء . ومعنى وإمامكم منكم أن قبيلة المسلمين ستكون بأيديهم وقادهم واحد منهم .
- (١٧٤) انظر تفسير المنار : ١٦١/٣ . وقد نقل هذا الكلام أحمد مصطفى المراغي في تفسير المراغي : ١٦٩/٣ . ولم ينسبه إلى المنار .
- (١٧٥) تفسير المنار ٣/٣٦١ .
- (١٧٦) التفسير الواضح د . محمد محمود حجازي : ٦٤/٣ .
- (١٧٧) اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات ١٢٤ .
- رواه مسلم في البر (٢٥٧٨) من حديث أبي هريرة . وأحمد (٥٦٢٩ ، ٦١٧١) من حديث ابن عمر رضي الله عنه .
- (١٧٨) انظر القرطبي ، وابن كثير ، وقد ورد هذا المعنى في رواية أحمد والترمذي والنسائي وقال الترمذي حتمن صحيح . وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ١/٢٨٩ ، كما روى في صحيح ومسلم وغيرهما .
- (١٧٩) انظر مختصر تفسير ابن كثير للصابوني : ٢٨٩/١ .
- (١٨٠) راجع سفر الخروج فقرة ١٦٠ ٦ . وراجع سفر أشعيا فقرة ٩ .
- (١٨١) أما كانوا يفعلون لهم الحرام ١٢٩ .
- رواه الترمذي في التفسير (٣٠٩٥) وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب ، وغليف بن عيين ليس بمعروف في الحديث .
- (١٨٢) من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ١٣٩ .
- رواه البخاري في بدء الوحي (٧) وفي الجهاد (٢٩٤١) وفي التفسير (٤٥٥٣) وفي الاستئذان (٦٢٦١) ومسلم وفي الجهاد (١٧٧٣) وأبو داود في الأدب (٥١٣٦) والترمذي في الاستئذان (٢٧١٧) وأحمد (٢٣٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنه .

- (١٨٣) تفسير المراغي : ١٨١/٣ .
- (١٨٤) تفسير المنار جـ ٣ صفحة ٣٧٤ .
- (١٨٥) تفسير المنار جـ ٣ صفحة ٣٧٤ .
- (١٨٦) تفسير المنار وانظر باب النقول في أسباب النزول للسيوطي ففيه روايات أخرى في سبب نزول الآية .
- (١٨٧) تفسير ابن كثير .
- (١٨٨) "كذب أعداء الله" ١٤٦ .
- قال السيوطي في الدر : وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سماعيل بن جبير قال : لما نزلت ﴿ ومن أهل الكتاب ﴾ .. فذكره .
- (١٨٩) "اد الأمانة إلى من ائتمنك" ١٤٦ .
- أبو داود في البيوع (٣٥٣٥) والترمذي في البيوع (١٣٦٤) وقال : «هذا حديث حسن غريب» .
- (١٩٠) "لا إيمان لمن لا أمانة له" ١٤٧ .
- رواه أحمد في مسنده (١١٩٧٥ ، ١٢١٥٧ ، ١٣٧٨٧ ، ١٣٢٢٥) من حديث أنس بن مالك .
- (١٩١) "أربع من كن فيه" ١٤٧ .
- رواه البخاري في الإيمان (٣٤) ومسلم في الإيمان (٥٨) عن عبد الله بن عمرو .
- (١٩٢) "ثلاث من كن فيه كان منافقاً .. آية المنافق ثلاث" ١٤٧ .
- يشير إلى رواية : آية المنافق ثلاث ، أخرجها البخاري في الإيمان (٣٣) وفي الشهادات (٢٨٢) وفي الوصايا (٢٧٤٩) وفي الأدب (٦٠٩٥) ومسلم في الإيمان (٩٥) والترمذي في الإيمان (٢٦٣١) وأحمد (٨٤٧٠) .
- (١٩٣) "من حلف على يمين هو فيها فاجر" ١٤٧ .
- رواه البخاري في المساقاة (٢٣٥٧) وفي الخصومات (٢٤١٧) وفي الرهن (٢٥١٦) وفي الشهادات (٢٦٦٧ ، ٢٦٧٠ ، ٢٦٧٣ ، ٢٦٧٧) وفي التفسير (٤٥٥٠) وفي الإيمان والنذور (٦٦٥٩ ، ٦٦٦٦) ، ومسلم في الإيمان (١٣٨) وأبو داود في الإيمان (٢٢٤٣) والترمذي في البيوع (١٣٦٩) وفي التفسير (٢٩٩٦) وابن ماجه في الأحكام (٣٣٢٣) وأحمد (٣٥٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
- (١٩٤) "إنكم تختصمون إلي" ١٤٨ .
- رواه البخاري في الشهادات (٢٦٨٠) ، ومسلم في الأفضية (١٧١٣) ، وأبو داود في الأفضية (٣٥٨٣) ، والترمذي في الأحكام (١٣٣٩) وقال : «حديث حسن صحيح» وابن ماجه في الأحكام (٣١٧) ، ومالك في الموطأ ٧/٢ .
- (١٩٥) "معاذ الله أن نعيد غير الله" ١٥٠ .
- قال السيوطي في الدر : أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحزاب من اليهود والنصارى .. فذكره .
- (١٩٦) "لا ولكن أكرموا نبيكم" ١٥١ .
- قال السيوطي في الدر : وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : "بلغني أن رجلاً ..
- (١٩٧) أي بنو ضرات .
- (١٩٨) الأنبياء بنو علات ١٥٢ .
- رواه مسلم في السلام باب فضائل عيسى عليه السلام (٢٣٦٥) وأبو داود في السنة (٤٦٧٥) بإلفاظ : الأنبياء أولاد علات ، وليس بيني وبينه نبي ، ورواه البخاري في الأنبياء (٢٤٤٢) ، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

- (١٩٩) كلا الفريقين يرى من دين إبراهيم ١٥٣ .  
ذكره القرطبي في الجامع .
- (٢٠٠) والذي نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ١٥٤ .  
رواه أحمد (١٥٤٣ ، ١٧٨٧١) من حديث عبد الله بن ثابت . وذكره الهندي في الكنز (١٠١١) ونسبه لابن سعد وأحمد والحاكم في  
الكنى والطبراني والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن ثابت الأنصاري . قال الهيثمي في الجمع : رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال  
الصحيح إلا أن فيه جرير الجعفي وهو ضعيف .
- (٢٠١) تفسير المنار : ٢٩٩/٢ .
- (٢٠٢) أخرجه البزار . قال ابن كثير في إسناده جيد .
- (٢٠٣) إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ ١٥٧ .  
الترمذي في الدعوات (٣٥٣٧) وقال : "حديث حسن غريب" . وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٢) وقال البيهقي في الزوائد : "في إسناده  
الوليد بن مسلم ، وهو مدلس . وقد عنفنه . وكذلك مكحول النمشقي" . وأحمد ١٣٢/٢ ، ١٥٣ كلهم عن ابن عمر رضي الله عنهما .
- (٢٠٤) تفسير القاسمي ج ٤ صفحة ٨٨٥ بتصريف واختصار .
- (٢٠٥) يقال للرجل يوم القيامة : آرايت إن كان مالك ما على الأرض ١٥٨ .  
رواه البخاري في الأنبياء باب : قول الله تعالى (٢١٥٦) وفي الرقاق باب : من توفق الحساب عذب (٦١٧٣) وباب : صفة الجنة والنار  
(٦١٨٩) ومسلم في صفة القيامة باب طلب الكافر الفداء (٢٨٠٥) وأحمد في مسنده من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .
- (٢٠٦) تفسير القاسمي : ج ٤ صفحة ٨٨٨ بتصريف .
- (٢٠٧) إنه لم يقل يوماً من الدهر : رب اغفر لي ١٥٩ .  
رواه مسلم في الإيمان باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل (٣٦٥) عن عائشة قالت " قلت يا رسول الله : إن ابن  
جدعان ، كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذاك نافعه ؟ قال " لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لي خطيئتي يوم  
الدين " وكذلك رواه أحمد .
- (٢٠٨) بلغ ذلك مال رابع ١٦٠ .  
رواه البخاري في الزكاة (١٤٦١) وفي الوصايا (٣٧٦٩) وفي التفسير (١٥٥٥) وفي الأشربة (٥٦١١) ومسلم في الزكاة (٩٩٨) وأحمد  
(١٢٠٣٠) ومالك في الجامع (١٨٧٥) والدارمي في الزكاة (١٦٥٥) "وبير جاء" روى بكسر الباء وفتحها وفتح الراء وضمها مع اللد والقصير  
وهو اسم حديقة بالمدنية . وفي الفائق أنها فيعلم من الرجاء وهو الأرض الظاهرة وفي كتاب في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب بير  
(حاء) وهو تصحيف وتحريف .
- (٢٠٩) أحبس الأصل وأسبل الثمرة ١٦٠ .  
رواه النسائي في الأحباس (٣٦٠٣ ، ٣٦٠٤ ، ٣٦٠٥) وابن ماجه في الأحكام (٢٣٩٧) وأحمد (٥٩١١ ، ٦٤٢٤) من حديث ابن عمر  
رضي الله عنهم جميعاً .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث  
بحمد الله وبها تم الجزء الثالث

## محتويات الكتاب

| رقم الآية | الآية المفسرة                              | رقم الصفحة |
|-----------|--------------------------------------------|------------|
|           | <b>أولاً : سورة البقرة</b>                 |            |
| ٢٥٣       | ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾          | ٤٣٩        |
| ٢٥٤       | ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا ﴾              | ٤٤٥        |
| ٢٥٥       | ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾         | ٤٤٧        |
| ٢٥٦       | ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾                      | ٤٥١        |
| ٢٥٧       | ﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾                   | ٤٥٣        |
| ٢٥٨       | ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ﴾     | ٤٥٤        |
| ٢٥٩       | ﴿ أو كالأذى مرّ على قرية ﴾                 | ٤٥٧        |
| ٢٦٠       | ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى ﴾ | ٤٥٧        |
| ٢٦١       | ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم ﴾               | ٤٦٣        |
| ٢٦٢       | ﴿ الذين ينفقون أموالهم ﴾                   | ٤٦٣        |
| ٢٦٣       | ﴿ قول معروف ومغفرة ﴾                       | ٤٦٦        |
| ٢٦٤       | ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم ﴾  | ٤٦٦        |
| ٢٦٥       | ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ﴾              | ٤٦٩        |
| ٢٦٦       | ﴿ أيودّ أحدكم ﴾                            | ٤٦٩        |
| ٢٦٧       | ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا ﴾              | ٤٧١        |
| ٢٦٨       | ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾                    | ٤٧٢        |
| ٢٦٩       | ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء .. ﴾                 | ٤٧٣        |
| ٢٧٠       | ﴿ وما أنفقتم من نفقة ﴾                     | ٤٧٤        |
| ٢٧١       | ﴿ إن تبدوا الصدقات فتعمّا هى ﴾             | ٤٧٥        |
| ٢٧٢       | ﴿ ليس عليك هدام ﴾                          | ٤٧٧        |
| ٢٧٣       | ﴿ للفقراء الذين أحصروا ﴾                   | ٤٧٧        |
| ٢٧٤       | ﴿ الذين ينفقون أموالهم ﴾                   | ٤٧٧        |
| ٢٧٥       | ﴿ الذين يأكلون الربا ﴾                     | ٤٨٤        |
| ٢٧٦       | ﴿ يمحى الله الربا ﴾                        | ٤٨٤        |
| ٢٧٧       | ﴿ إن الذين آمنوا ﴾                         | ٤٨٤        |
| ٢٧٨       | ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾         | ٤٨٤        |

| رقم الآية | الآية المفصلة                                                     | رقم الصفحة |
|-----------|-------------------------------------------------------------------|------------|
| ٢٧٩       | ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ ﴾                    | ٤٨٤        |
| ٢٨٠       | ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾                                     | ٤٨٤        |
| ٢٨١       | ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ ﴾                          | ٤٨٤        |
| ٢٨٢       | ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ ﴾            | ٤٩٥        |
| ٢٨٣       | ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ ﴾                                  | ٥٠٣        |
| ٢٨٤       | ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾                                  | ٥٠٤        |
| ٢٨٥       | ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾         | ٥٠٧        |
| ٢٨٦       | ﴿ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾                 | ٥٠٨        |
|           | أمهات المسائل الواردة في سورة البقرة                              | ٥١٢        |
|           | <b>ثانيًا : تفسير سورة آل عمران</b>                               | ٥١٥        |
|           | <b>سورة آل عمران</b>                                              | ٥١٦        |
|           | <b>من أهداف لتسوية آل عمران</b>                                   | ٥١٧        |
| ١         | ﴿ اَلَمْ ﴾                                                        | ٥١٨        |
| ٢         | ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾           | ٥١٨        |
| ٣         | ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾                                   | ٥١٨        |
| ٤         | ﴿ مِنْ قَبْلِ هَدَى لِلنَّاسِ ﴾                                   | ٥١٨        |
|           | التوراة والإنجيل                                                  | ٥٢١        |
| ٥         | ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ﴾                     | ٥٢٢        |
| ٦         | ﴿ هُوَ الَّذِي يَصَوِّرُكُمْ ﴾                                    | ٥٢٢        |
| ٧         | ﴿ هُوَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾                     | ٥٢٣        |
|           | المحكم والمتشابه                                                  | ٥٢٤        |
|           | صفات الله                                                         | ٥٢٧        |
| ٨         | ﴿ رَبَّنَا لَا تَزِغْ هُلُوبَنَا ﴾                                | ٥٢٨        |
| ٩         | ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ ﴾                             | ٥٢٨        |
| ١٠        | ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُفْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ | ٥٢٩        |
| ١١        | ﴿ كَذَّابٌ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾                                       | ٥٢٩        |
| ١٢        | ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾                                      | ٥٣١        |

| رقم الآية | الآية المفسرة                      | رقم الصفحة |
|-----------|------------------------------------|------------|
| ١٣        | ﴿ قد كان لكم آية ﴾                 | ٥٣١        |
| ١٤        | ﴿ زين للناس حب الشهوات ﴾           | ٥٣٣        |
| ١٥        | ﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ﴾        | ٥٣٦        |
| ١٦        | ﴿ الذين يقولون ربنا ﴾              | ٥٣٦        |
| ١٧        | ﴿ الصابرين والصادقين ﴾             | ٥٣٦        |
| ١٨        | ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾     | ٥٣٨        |
| ١٩        | ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾      | ٥٤٠        |
| ٢٠        | ﴿ فإن حاجوك ﴾                      | ٥٤٠        |
| ٢١        | ﴿ إن الذين يكفرون ﴾                | ٥٤٤        |
| ٢٢        | ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم ﴾       | ٥٤٤        |
| ٢٣        | ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا ﴾         | ٥٤٥        |
| ٢٤        | ﴿ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار ﴾ | ٥٤٥        |
| ٢٥        | ﴿ فكيف إذا جمعناهم ﴾               | ٥٤٥        |
| ٢٦        | ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾            | ٥٤٨        |
| ٢٧        | ﴿ تولج الليل في النهار ﴾           | ٥٤٨        |
| ٢٨        | ﴿ لا يتخذ المؤمنون ﴾               | ٥٥١        |
| ٢٩        | ﴿ قل إن تخفوا ما في صدوركم ﴾       | ٥٥٤        |
| ٣٠        | ﴿ يوم تجد كل نفس ﴾                 | ٥٥٤        |
| ٣١        | ﴿ قل إن كنتم تحبون الله ﴾          | ٥٥٥        |
| ٣٢        | ﴿ قل أطيعوا الله ﴾                 | ٥٥٥        |
| ٣٣        | ﴿ إن الله اصطفى آدم ﴾              | ٥٥٦        |
| ٣٤        | ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾              | ٥٥٦        |
| ٣٥        | ﴿ إذ قالت امرأة عمران ﴾            | ٥٥٨        |
| ٣٦        | ﴿ فلما وضعتها قالت ﴾               | ٥٥٨        |
| ٣٧        | ﴿ فتقبلها ربها ﴾                   | ٥٥٩        |
| ٣٨        | ﴿ هنالك دعا زكريا ﴾                | ٥٦١        |
| ٣٩        | ﴿ فتداته الملائكة ﴾                | ٥٦١        |
| ٤٠        | ﴿ قال رب أنى يكون لى غلام ﴾        | ٥٦١        |

| رقم الآية | الآية المفصلة                | رقم الصفحة |
|-----------|------------------------------|------------|
| ٤١        | ﴿ قال رب اجعل لى آية ﴾       | ٥٦١        |
| ٤٢        | ﴿ وإذ قالت الملائكة ﴾        | ٥٦٤        |
| ٤٣        | ﴿ يا مريم اقنتى لربك ﴾       | ٥٦٤        |
| ٤٤        | ﴿ ذلك من أنباء الغيب ﴾       | ٥٦٤        |
| ٤٥        | ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم ﴾ | ٥٦٦        |
| ٤٦        | ﴿ ويكلم الناس فى المهد ﴾     | ٥٦٦        |
| ٤٧        | ﴿ قالت رب أنى يكون لى ولد ﴾  | ٥٦٦        |
| ٤٨        | ﴿ ويعلمه الكتاب ﴾            | ٥٦٩        |
| ٤٩        | ﴿ ورسولا إلى بنى إسرائيل ﴾   | ٥٦٩        |
| ٥٠        | ﴿ ومصدقا لما بين يدى ﴾       | ٥٦٩        |
| ٥١        | ﴿ إن الله ربي وربكم ﴾        | ٥٦٩        |
| ٥٢        | ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾ | ٥٧٢        |
| ٥٣        | ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾      | ٥٧٢        |
| ٥٤        | ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾         | ٥٧٢        |
| ٥٥        | ﴿ إذ قال الله يا عيسى ﴾      | ٥٧٤        |
| ٥٦        | ﴿ فامّا الذين كفروا ﴾        | ٥٧٤        |
| ٥٧        | ﴿ وأما الذين آمنوا ﴾         | ٥٧٤        |
| ٥٨        | ﴿ ذلك نتلوه عليك ﴾           | ٥٧٤        |
| ٥٩        | ﴿ إن مثل عيسى ﴾              | ٥٧٨        |
| ٦٠        | ﴿ الحق من ربك ﴾              | ٥٧٨        |
| ٦١        | ﴿ فمن حاجك فيه ﴾             | ٥٧٨        |
| ٦٢        | ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾    | ٥٧٨        |
| ٦٣        | ﴿ فإن تولوا فإن الله ﴾       | ٥٧٨        |
| ٦٤        | ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا ﴾  | ٥٨١        |
| ٦٥        | ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجّون ﴾ | ٥٨١        |
| ٦٦        | ﴿ ها أنتم هؤلاء حاجتكم ﴾     | ٥٨١        |
| ٦٧        | ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ﴾    | ٥٨١        |
| ٦٨        | ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم ﴾   | ٥٨١        |

| رقم الآية | الآية المفصلة                                         | رقم الصفحة |
|-----------|-------------------------------------------------------|------------|
| ٦٩        | ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ ﴾                                 | ٥٨٤        |
| ٧٠        | ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴾            | ٥٨٤        |
| ٧١        | ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ ﴾            | ٥٨٤        |
| ٧٢        | ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾        | ٥٨٦        |
| ٧٣        | ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾   | ٥٨٦        |
| ٧٤        | ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾               | ٥٨٦        |
| ٧٥        | ﴿ وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ إِنْ تَأْمَنَهُ ﴾     | ٥٨٨        |
| ٧٦        | ﴿ بَلَى مِنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ ﴾                     | ٥٨٨        |
| ٧٧        | ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾       | ٥٩١        |
| ٧٨        | ﴿ وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا ﴾                        | ٥٩٢        |
| ٧٩        | ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾                                | ٥٩٣        |
| ٨٠        | ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ ﴾                                | ٥٩٣        |
| ٨١        | ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾      | ٥٩٦        |
| ٨٢        | ﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ ﴾                     | ٥٩٦        |
| ٨٣        | ﴿ أَغْفِرَ دِينَ اللَّهِ ﴾                            | ٥٩٨        |
| ٨٤        | ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾   | ٥٩٨        |
| ٨٥        | ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾        | ٥٩٨        |
| ٨٦        | ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا ﴾           | ٦٠٠        |
| ٨٧        | ﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ ﴾                             | ٦٠٠        |
| ٨٨        | ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾                                 | ٦٠٠        |
| ٨٩        | ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾                          | ٦٠٠        |
| ٩٠        | ﴿ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾       | ٦٠١        |
| ٩١        | ﴿ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ | ٦٠١        |
| ٩٢        | ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُتَّقُوا ﴾          | ٦٠١        |
|           | خَتَامُ الْجُزْءِ الثَّالِثِ                          | ٦٠٥        |
|           | تَخْرِيجُ أَحَادِيثِ وَهَوَاشِ الْجُزْءِ الثَّالِثِ   | ٦٠٧        |
|           | الْقَهْرُسُ                                           | ٦٢٢        |



# تفسير القرآن الكريم

الجزء الرابع من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته

  
دار غريب  
الطباعة والنشر والتوزيع  
القاهرة



﴿ أَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٩٣) ﴿ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٩٤) ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٩٥) ﴿

المفردات :

**حلال** : أى حلالا، وهو مصدر نعت به ؛ ولذلك يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، كما قال تعالى : ( لَا هُنَّ حِلٌّ ) .

**إسرائيل** : هو يعقوب عليه السلام ، وبنوه : ذريته .

**افترى على الله الكذب** : أى اختلقه، والقرية هى الكذب .

**حنيفًا** : أى مائلا عن العقائد الباطلة، فالحنف هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة ، والجنف ميل عن الاستقامة إلى الضلال .

المعنى الإجمالى :

اعترض اليهود على استباحة المسلمين بعض الأطعمة كلحوم الإبل والبانها ، وأدّعوا أن ذلك حرّمته شريعة إبراهيم ، فرد الله سبحانه دعواهم ببيان أن تناول كل الأطعمة كان مباحاً لبني يعقوب من قبل نزول التوراة إلا ما حرّمه يعقوب على نفسه لسبب يختص به فحرموه على أنفسهم .. وأمر الله نبيه أن يطلب منهم أن يأتوا من التوراة بدليل يثبت أن شريعة إبراهيم تحرم ذلك إن كانوا صادقين ، فعجزوا وأفحموا .

التفسير :

جاء فى تفسير النيسابورى <sup>(١)</sup> ما يأتى :

بعد أن قرر سبحانه الدلائل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعد توجيهه الإلزامات الواردة على أهل الكتاب فى هذا الباب أجاب عن شبهة اللقوم ، وتقرير ذلك من وجوه :

**أحدها :** أنهم كانوا يعوثون في إنكار شرع محمد صلى الله عليه وسلم على إنكار النسخ<sup>(٢)</sup> ، فأورد عليهم أن الطعام الذي حرّمه إسرائيل على نفسه كان حلالاً ثم صار حراماً عليه، وعلى أولاده وهو النسخ، ثم إن اليهود لما توجه عليهم هذا السؤال زعموا أن ذلك كان حراماً من لدن آدم، ولم يحدث نسخ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يطالبهم بإحضار التوراة إلزاماً لهم، وتضييحا، ودلالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه كان أمياً، فامتنع أن يعرف هذه المسألة الغامضة من علوم التوراة إلا بخبر من السماء .

**وثانيها :** أن اليهود قالوا له إنك تدعى أنك على ملة إبراهيم فكيف تأكل لحوم الإبل، وألبانها وتفتى بحلها مع أن ذلك كان حراماً في دين إبراهيم ، فأجيبوا بأن ذلك كان حلالاً لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب إلا أن يعقوب حرّمه على نفسه بسبب من الأسباب وبقيت تلك الحرمة في أولاده فأنكروا ذلك فأمروا بالرجوع إلى التوراة .

**وثالثها :** لما نزل قوله تعالى : **فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ** . (النساء : ١٦٠) . وقوله : **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي ظُفْرٍ** . (الأنعام : ١٤٦) ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه إنما حرم عليهم كثير من الأشياء جزاء لهم على بغيهم وظلمهم غاظهم ذلك واشمازوا وامتعصوا من قبل أن ذلك يقتضى وقوع النسخ<sup>(٣)</sup> ومن قبل أنه تسجيل عليهم بالبغي والظلم وغير ذلك من مساوئهم فقالوا لسنا بأول من حرمت عليه وما هو إلا تحريم قديم فنزلت : **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ** .<sup>(١)</sup>

من إشارات الآية :

يمكن أن نلاحظ في هذه الآية بيانا لخصال اليهود وعنادهم ولجأتهم في الخصومة، ويتضح ذلك من الآتي :

١ - لقد أنكروا النسخ وقالوا هو شبيه بالبداء وذلك لا يليق بالله تعالى ، والبداء هو أن تعمل عملاً أو تقر رأياً ثم يبدو لك أن الأفضل ترك هذا العمل، أو تغيير هذا الرأي، وهذا أمر يليق بالمخلوق لقصر رأيه وتبدل أفكاره وحكمه، ولا يليق بالخالق، ومن هنا أنكروا النسخ.

وقد بين القرآن أن من سنة الله التدرج في التشريع ومراعاة مصالح الناس واختيار ما يناسب مراحل حياتهم ، فقد أمر المسلمين بالصبر في مكة، ثم أمروا بالجهاد في المدينة، وحرمت الخمر على مراحل، وأبىح زواج النعمة في أول عهد المسلمين بالإسلام، وعند خروجهم للجهاد، ثم حرّم زواج النعمة وهو الزواج المؤقت.

وهكذا نجد أن من حكمة الله نسخ الأحكام وتبديلها بما هو أنسب لعباده ، قال تعالى : **مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسْأَلَهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** . (البقرة : ١٠٦) .

٢ - نلاحظ عناد اليهود ومكابرتهم حيث ادعوا أن تحريم لحوم الإبل وألبانها قديم من عهد الرسل السابقين، فكذبهم الله تعالى .

٣ - ادعى اليهود أن التوراة حرمت عليهم لحوم الإبل وألبانها اتباعاً لطريقة إسرائيل حيث حرّمها على نفسه ثم حرمت على ذريته وأبنائه متابعة لأبيهم ، فطلب الله منهم أن يأتوا بالتوراة إن كانوا صادقين.

( وبالرجوع إلى التوراة في مظان هذا الموضوع، لم نجد فيها أساسا لدعواهم أن ذلك التحريم شرعه الله في أى عهد من عهود النبوات، ولا لدعواهم أن التحريم انتقل إليهم من الشرائع السابقة، ولا لدعواهم أن الله حرّمها عليهم بتحريم يعقوب لها على نفسه، ولقد كان اليهود يدعون أن ذلك شرع قديم، ولكن الرسول كشف الغطاء عن الحق فيبتوا ويان لهم - بذلك - أنهم في ضلالهم يمهون )<sup>(٥)</sup>.

#### في أعقاب الآية :

قد يقول إنسان : إن الله تعالى قد مدح اليهود وأثنى على إيمانهم ووصفهم بصفات طيبة، مثال ذلك آيات كثيرة وردت في القرآن الكريم ومنها قوله تعالى : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . ( البقرة : ٤٧ ) . والجواب أن الله مدح اليهود عندما آمنوا بموسى واتبعوا تعاليم التوراة ودفعوا تكاليف الإيمان فكان كل هذا سببا في مدحهم والثناء عليهم وتفضيلهم على أهل زمانهم، ثم لما حرقوا التوراة، واعتدوا في السبت، واتهموا مريم في شرفها، وظهر منهم العدوان والعناد وإنكار رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقد استحقوا عقاب السماء ؛ ولذلك لعنهم الله وغضب عليهم واستحقوا عقوبة الدنيا وعذاب الآخرة .

ونجد آيات كثيرة في القرآن الكريم تشير إلى هذا ، مثل قوله تعالى : فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَانَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . ( المائدة : ١٣ ) . وقوله عز شأنه : لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ \* كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُكْرَ فَعْلُوهُ لُبْسٌ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . ( المائدة : ٧٨ ، ٧٩ ) .

#### ٢ - من مسند الإمام أحمد :

روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضی الله عنهما قال : حضرت عصابة من اليهود نبى الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : حدثنا عن خلال نسالك عنها لا يعلمن إلا نبى ، قال سلوني ما شئتم . قالوا أخبرنا: أى الطعام حرّم إسرائيل على نفسه؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم .<sup>(٦)</sup> ( أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى: هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضا شديدا وطال سقمه، فنذر لله نذرا لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الأشياء إليه، وأحب الطعام إليه ، وكان أحب الطعام إليه لَحْمَانِ الإبل، وأحب الشراب إليه البانها فقالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم أشهد عليهم<sup>(٧)</sup> .. إلى آخر الحديث .

وتفيد الآثار أن يعقوب عليه السلام اشتكى مرضا فنذر لله تعالى لئن شفاه الله من هذا المرض ليحرمن على نفسه لحوم الإبل والبانها أو عروقها .

قال ابن جرير الطبرى : وأولى هذه الأقوال بالصواب قول ابن عباس الذى رواه الأعمش عن حبيب عن سعيد عنه أن ذلك العروق ولحوم الإبل لأن اليهود مجمعة إلى اليوم على ذلك من تحريمها كما كان عليه من ذلك أو أكلها .

ويرى الشيخ محمد عبده : أن المراد بإسرائيل في قوله تعالى : **إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ** . هو شعب بني إسرائيل.

وتابعه على هذا الرأي السيد رشيد رضا في تفسير المنار حيث قال :

والتبادر عندى أن المراد بما حرّمه إسرائيل على نفسه : ما امتنعوا من أكله وحرّموه على أنفسهم، بحكم العادة والتقليد لا بحكم من الله ، كما يعمد مثل ذلك فى جميع الأمم ، ومنه تحريم العرب للبحيرة والسائبة <sup>(٨)</sup> وغير ذلك مما حكاه القرآن عنهم . ا هـ .

وعند التحقيق ترى أيها القارئ أن رأى الشيخ محمد عبده مرجوح لا راجح ، و خصوصاً إذا عرفنا أسباب نزول الآية وما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن سبب نزولها .

وفائدة قوله تعالى : **مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ** . أنه لو كان الله شرع له ولبنى إسرائيل ذلك لذكر فى التوراة ، لأنه سابق على نزولها على موسى .

٩٤ - **فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** . فمن اختلف الكذب من بعد قيام الحجة وظهور البينة **فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** . لأنفسهم بالكفر ، ولن أضلوهم بالإغواء .

وما فى الآية من تهديد ينتظم كل من افترى الكذب على الله بعد ما تبين له الحق ، واليهود داخلون فى ذلك بالأولى .

٩٥ - **قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** . أى يا محمد قل لليهود- بعد ظهور كذبهم فيما زعموا .

ظهر صدق الله فى كل ما أخبر به على لسان نبيه ، وفيما شرعه القرآن ، وإن الله لصادق فى كل حين ، ولكن المناسبة هنا حاضرة لتقرير هذه الحقيقة .

**فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** . فاتبعوا ملة إبراهيم فقد كان على الحنيفية السمحة . ودين إبراهيم هو الأصل ، وعليه كان يعقوب ، وهو دين محمد فكل من أرادوا الصدق حقاً فعليهم بدين إبراهيم ، وعليهم إذن أن يدينوا بالإسلام الذى ترجع جذوره إلى ملة إبراهيم ، وأن يتوجهوا إلى البيت الذى بناه ، والذى هو أول بيت خصص للعبادة .

لقد جاء إبراهيم برسالة الإسلام ، وجاء الرسل بهذه الرسالة السامية ، ثم جاء القرآن بالرسالة الإسلامية واضحة بينة كاملة تامة .

كما قال تعالى : **قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** . ( الأنعام : ١٦١ ) .

وقال تعالى : ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (النحل : ١٢٣).

★ ★ ★

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

اول بيت : أول موضع لعبادة الله وحده .

وضع للناس : خصص لعبادتهم .

بكة : من أسماء مكة ، وبكة علم على البلد الحرام ، وقيل بكة : للبيت ، ومكة البلد ، أضله من البكة وهو الازدحام .

آيات بينات : دلائل واضحات .

مقام إبراهيم : أى محل قيام إبراهيم ، وهو الحجر الذى قام عليه لما ارتفع بناء البيت ، أو هو المكان الذى كان يقوم فيه للصلاة والعبادة .

آمنًا : أى أوجب الله الأمان لمن يأوى إليه فلا يمتدى عليه بقتل أو أذى .

حجج : بالكسرة هو لغة فى مصدر حج يحجج .

سبب النزول :

روى عن مجاهد قال : تفاخر المسلمون واليهود ، فقالت اليهود : بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة ، لأنه مهاجر الأنبياء وفى الأرض المقدسة ، وقال المسلمون بل الكعبة أفضل فانزل الله هذه الآية <sup>(٩)</sup> .

التفسير :

إن أول بيت أقيم لعبادة الله وحده ، هو البيت الحرام بمكة ، فقد بناه إبراهيم عليه السلام - بأمر الله ، وعاونوه فى البناء ولده إسمائيل ، وأمر الله أن يؤذن فى الناس بالحج إليه ، قال تعالى : وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . ( الحج : ٢٧ ) .

قال النيسابورى فى تفسيره :

والبيت الحرام أول بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة .

واعلم أن الغرض الأصلي من ذكر هذه الأولوية، بيان الفضيلة وترجيحه على بيت المقدس، ولا تأثير لأولية البناء في هذا المقصود وإن كان الأرجح ثبوت تلك الأولوية أيضاً ..

ومن فضائل البيت الحرام أن الأمر ببناؤه الرب الجليل والمهندس جبريل وبانيه الخليل، وتلميذه ابنه إسماعيل، ومنها أنه محل إجابة الدعوات ومهبط الخيرات والبركات ومصعد الصلوات والطاعات.

ومن فضائل البيت الحرام أن الطيور تترك المرور فوق الكعبة وتتحرّف عنها ألبتة إذا وصلت إلى محاذاتها.

ومنها أن الحيوانات المتضادة في الطباع لا يؤذى بعضها بعضاً عنده كالكلاب والقطط.

ومن فضائل البيت أمن مكانه فلم ينقل ألبتة أن ظالماً هدم الكعبة أو خرب مكة بالكعبة، وأما بيت المقدس فقد هدمه يختصر بالكعبة، وقصة أصحاب الفيل الذين صدهم الله عن البيت الحرام معروفة مشهورة (١٠).

ومن بركات البيت الحرام قدوم الناس إليه من مشارق الأرض ومغاربها ومعهم خيرات الأرض، استجابة لدعوة سيدنا إبراهيم : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ . (إبراهيم : ٣٧).

ومن بركات البيت الحرام: أنه مكان لأكبر عبادة جامعة للمسلمين وهي فريضة الحج، وإليه يتجه المسلمون في صلاتهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأماكنهم.

#### الوضع والبناء :

أخرج الشيخان، واللفظ لمسلم، عن أبي ذر - رضى الله عنه - قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول بيت وضع في الأرض ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أي ؟ قال : المسجد الأقصى، قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون عاماً، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة، فصل (١١).

قال ابن القيم في زاد المعاد تعقيباً على هذا الحديث، قد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به فقال : معلوم أن سليمان بن داود هو الذى بنى المسجد الأقصى، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام، وهذا من جهل القائل، فإن سليمان كان له من المسجد الأقصى تجديد لا تأسيسه، والذى أسسه هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام بعد بناء جده إبراهيم للكعبة بهذا المقدار أى بأربعين عاماً (١٢).

#### أولية زمان شرف ومنزلة :

ذهب بعض المفسرين إلى أن أولوية البيت الحرام زمانية بالنسبة إلى وضع البيوت مطلقاً. فقالوا إنّ الملائكة بنته قبل خلق آدم، وإن بيت المقدس بنى بعده بأربعين عاماً. قال الشيخ محمد عبده : إذا صح الحديث فلا شيء في العقل يحيله ولكن الآية لا تدل عليه ولا يتوقف الاحتجاج بها على ثبوته.



وبيت المقدس المعروف الذى انصرف إليه الإطلاق قد بناء سليمان بالاتفاق . والمعروف أنه تم بناؤه سنة ١٠٠٥ قبل ميلاد المسيح عليه السلام (١٣).

وذهب آخرون إلى أنه أول البيوت فى الشرف والرفعة ، ( وعن على أن رجلاً قال له : هو أول بيت؟ قال : لا قد كان قبله بيوت ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة ) (١٤).

( هذا وإن أخبار التاريخ ليست مما بُلِّغ على أنه دين، والموضوعات المروية فى بناء الكعبة كثيرة، ولا حاجة إلى إضاعة الوقت فى ذكرها وبيان وضعها ) (١٥).

#### من تفسير الفخر الرازى :

قال الفخر الرازى : فى اتصال هاتين الآيتين بما قبلهما وجوه ، الأول : أن المراد منهما الجواب عن شبهة أخرى من شبهات اليهود فى إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك لأنه لما حولت القبلة إلى الكعبة طعن اليهود فى نبوته وقالوا : إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال ، وذلك لأنه وضع قبل الكعبة وهو أرض المحشر ، وقبله جملة الأنبياء، وإذا كان كذلك كان تحويل القبلة منه إلى الكعبة باطلاً، فأجاب الله عنه بقوله : **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ..** فبين سبحانه أن الكعبة أفضل من بيت المقدس وأشرف ، فكان جعلها قبلة أولى .. (١٦).

والمراد بالأولية أنه أول بيت وضعه الله لعبادته فى الأرض، وقيل : المراد بها كونه أولاً فى الوضع وفى البناء ، ورووا فى ذلك آثاراً ليس فيها ما يعتمد عليه (١٧).

**لَلَّذِي بِبَكَّةَ** بكة لغة فى مكة عند الأكثرين، والباء والميم تعقب إحداهما الأخرى كثيراً ومنه ضريبة لازم وضريبة لازب ، وقيل : مكة البلد، وبكة موضع المسجد، وفى الصحاح بكة اسم مكة.

وأما اشتقاق بكة فمن قولهم بكه إذا زحمه ودفعه، وعن سعيد بن جبير سميت بكة لأنهم يتباكون فيها أى يزحمون فى الطواف ، وهو قول محمد بن على الباقر ومجاهد وقتادة، قال بعضهم : رأيت محمد بن على الباقر يصلى ، فمرت امرأة بين يديه فذهبت أدهنها، فقال : دعها فإنها سميت بكة لأنه يُبَكُّ بعضهم بعضاً، تمر المرأة بين يدي الرجل وهو يصلى ، والرجل بين يدي المرأة وهى تصلى، ولا بأس بذلك فى هذا المكان ، ويؤكد هذا قول من قال : بكة موضع المسجد لأن المطاف هناك وفيه الازدحام.

وقيل : سميت بكة لأنها تيك أعناق الجبابرة أى تدقها ، لم يقصدها جبارٌ بسوء إلا اندقت عنقه .. (١٨). **مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ** أى كثير الخير والبركة والنماء والزيادة لما يحصل لمن حجه واعتمره وعكف عنده وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب .

قال : صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » (١٩).

وفى تفسير ابن كثير ما يأتى :

قال قتادة : إن الله بكَّ به الناس جميعاً ، فيصلى النساء أمام الرجل ولا يفعل ذلك ببلد غيرها ، وقال شعبة عن إبراهيم : بكَّة البيت والمسجد ، وقال عكرمة : البيت وما حوله بكَّة وما وراء ذلك مكة ، وقال مقاتل بن حيان : بكَّة موضع البيت وما سوى ذلك مكة .

وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة : ( مكة ، وبكة ، والبيت العتيق ، والبيت الحرام ، والبلد الأمين ، وأم القرى ، والقدس لأنها تطهر من الذنوب ، والمقدسة ، والحاطمة ، والرأس ، والبلدة ، والبنية ، والكعبة ) .

وَهْدَى لِلْعَالَمِينَ . أى هو بذاته مصدر هداية ، لأنه قبلتهم ومعتبدهم وفى استقباله توجيه للقلوب والعقول إلى الخير ، ولعله لا تمر ساعة من ليل أو نهار وليس فيه أناس يتوجهون إلى ذلك البيت يصلون ، فأى هداية للعالمين أظهر من هذه الهداية ؟ (٢٠) .

قال النيسابورى فى تفسيره :

( ولو استحضر العاقل فى نفسه أن الكعبة كالنقطة ، وصفوف المتوجهين إليها فى الصلوات فى أقطار الأرض واكتافها ، كالنواير المحيطة بالمركز ، ولأشك أنه يحصل فيما بين هؤلاء المصلين أشخاص أرواحهم علوية ، وقلوبهم قدسية ، وأسرارهم نورانية ، وضمايرهم ربانية ، علم أنه إذا توجهت تلك الأرواح الصافية إلى كعبة المعرفة ، واستقبلت أجسادهم هذه الكعبة الحسية اتصلت أنوار أولئك الأرواح بنوره ، وعظم لمعان الأضواء الروحانية فى سره ) (٢١) .

٩٧ - فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ... الآية ، أى فى البيت دلالات واضحات على أنه من بناء إبراهيم عليه السلام .

منها : مقام إبراهيم - وهو الحجر الذى كان يقوم عليه عند بناء البيت . أو المكان الذى كان يقوم فيه للصلاة والعبادة .

ومنها : وجوب الأمن لداخله استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام ، بقوله : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا .. . ( البقرة : ١٢٦ ) .

ومنها : وجوب الحج إليه استجابة لنداء إبراهيم ، كما فى قوله تعالى : وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . ( الحج : ٢٧ ) .

وكما ثبت هذا بالقرآن ، فهو ثابت أيضاً تاريخياً . ومعروف بالتواتر لدى العرب جيلاً بعد جيل .

ومع دلالة هذه الآيات البينات على أولية البيت الزمنية ، فهى - كذلك - أدلة واضحة على فضله وعلو شأنه .

وقد عرضت الآية فرضية الحج بقوله تعالى : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا

والحج : أحد الأركان الخمسة للإسلام . فمن استطاعه لزمه ، وندب إليه تعجيله . والاستطاعة : تكون بوجود الزاد والماء والراحلة ، والقدرة البدنية ، وأمن الطريق .

والمقصود من الزاد : ما يكفيه من الطعام مدة سفره في حجه ، زائداً على نفقة من تلزمه نفقته ممن يعول . والمراد من الراحة : وسيلة الانتقال أيا كانت .

وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

أى ومن أنكر الفريضة أو تهاون فيها ، فوبال ذلك عائد عليه وحده ، لأن الله سبحانه غنى عن العالمين . فلا تنفعه طاعتهم ، ولا تضره معصيتهم . وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ . (النمل : ٤٠) .

وفى أسلوب الآية وختامها بقوله تعالى :

وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ما يدل على أهمية فريضة الحج وعظيم منزلتها عند الله ، وأنه فريضة لا يحل لأحد أن ينكرها ، وإلا كان كافراً بشريعة الله . كما لا يجوز له أن يتكاسل عنها ، حتى لا يكون كافراً بنعم الله عليه ، غير شاكر له على أفضاله .

★ ★ ★

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ مِنْ ءَمَنَ تَبَغُّوهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَآبَ يَرُدُّوكُمْ بِعِلَآئِكُمْ كَافِرِينَ ۝١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَنْ يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

المفردات :

|                    |                                                                                            |
|--------------------|--------------------------------------------------------------------------------------------|
| بآيات الله         | : المراد بها ، الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنها آيات القرآن الكريم . |
| شهود               | : مشاهد لما تعملون ، رقيب عليه .                                                           |
| تصدون عن سبيل الله | : تمنعون الناس عن طريقه ، وهو الإسلام .                                                    |
| تبغونها عوجا       | : تريدونها معوجة .                                                                         |
| وانتم شهداء        | : تشهدون بأنها سبيل مستقيمة .                                                              |
| يعتصم بالله        | : يمتسك بدينه .                                                                            |

التفسير :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ . . الآية .

المعنى : أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، أن يوبّخ كفار أهل الكتاب على كفرهم بما جاء به من الحق، فقال تعالى : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ . . الآية .

وإنما دعاهم بقوله : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ للمبالغة في توبيخ كفرهم، فإن من كان على بينة من كتاب الله : تهدى إلى الحق- يكون كفره أشد قبيحاً من غيره. فقد جاء في كتابهم من الأمارات الواضحة، ما يشهد بصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وضحة نبوته، إذ كانوا يتحدثون بذلك قبل بعثته. فلما بعث ، تفرقوا واختلّفوا .

وقد ختمت الآية بقوله عز وجل : وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ . لتشديد التوبيخ، وتأكيد الإنكار عليهم، وتهديدهم على هذا الكفر القبيح :

٩٩ - قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّنْ آمَنَ . . الآية .

وهذا أمر آخر من الله لنبيه، صلى الله عليه وسلم ، بتوبيخهم على الإضلال ، إثر أمره إياه بتوبيخهم على الضلال .

وتكرير الخطاب يَا أَهْلَ الْكِتَابِ . لتأكيد المبالغة في التوبيخ، لأن ذلك العنوان- كما يستدعي منهم الإيمان بما هو مصدق لما معهم- يستدعي منهم كذلك، دعوة الناس إليه، وترغيبهم فيه. فصدّهم عنه- بعد كفرهم به، وهم يعلمون أنه حق - في أقصى مراتب القبح، وأبعد درجات الجحود ، إذ لم يكتفوا بكفرهم وضلالهم، بل أضعفوا في الإضلال وأوغلوا في الفتنة، فاحتالوا لفتنة المسلمين ، وصد من يريد الإسلام عن الدخول فيه. وادّعوا أن صفة محمد صلى الله عليه وسلم ليست في كتبهم، ولا وجدت البشارة به عندهم.

ثم أفصح عن غايتهم من جحودهم وكفرهم، فقال سبحانه من قائل : تَبَوَّءْنَا عِزًّا وَاتَّخَذْنَا شُهَدَاءَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أي تريدون أن تكون سبيل لله معوجة، وأنتم تشهدون أنها لا تحوم حولها شائبة اعوجاج.

ثم ختم الآية بقوله تعالى : وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . وهى هذا من التهديد والوعيد ما لا يخفى.

ولما كان كفرهم صريحا ظاهرا، ختمت الآية الأولى بشهادة الله تعالى على ما يعملون.

ولما كان صدّهم للمؤمنين ، بطريق السر والخفية، ختمت الآية الثانية بما يحسم حيلتهم من إحاطة علمه- سبحانه وتعالى - بأعمالهم.

١٠٠ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِعَانِكُمْ كَافِرِينَ .

كان اليهود في المدينة يكوّنون طابورا خامسا يثيرون الفتن والقتال، ويشيعون الفرقة في صفوف المسلمين ، وكان لليهود في الجاهلية قوة وقدرة مالية، فكانت لهم زراعة وثروة ومنزلة في المدينة المنورة ، وكانت تسمى ( يثرب ) فلما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، ووحد صفوفهم وجمع كلمتهم وانتقلت سيادة المدينة وزعامتها إلى جماعة المسلمين ، وقد أذهب ذلك نيران الحقد والبغض في نفوس اليهود، فأنكروا رسالة النبي صلى الله عليه وسلم : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا . (النمل : ١٤).

وكان شيوخ اليهود يضرمون نيران العداوة والفتنة بين الأوس والخزرج من أهل المدينة .

وقد ورد في تفسير الطبري والنيسابوري وغيرهما، كما ورد في أسباب النزول للسيوطي، وأسباب النزول للواحدي أن سبب نزول هذه الآية محاولة اليهود تقريق صفوف المسلمين .

قال زيد بن أسلم : مر شاس بن قيس اليهودي وكان شيخا قد غبر (٢٣) في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم، فمر على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من جماعتهم وألفهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة، فقال : قد اجتمع ملائكة بني قيلة (٢٤) بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار ، فأمر شاسا من اليهود كان معه، فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم ذكرهم بعثت وما كان فيه ، وأنشدهم بعض ما كانوا يتناولوا فيه من الأشعار، وكان يعاثر يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ، ففعل فتكلم القوم عند ذلك ، فتنازعوا وتناخروا حتى تواءب رجلان من الحيين أوس بن قيطي أحد بني حارثة من الأوس، وجابر بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتناولوا ، وقال أحدهما لصاحبه : إن شئت رددتها جذعا، وغضب الفريقان جميعا وقالا : ارجعا، السلاح السلاح، موعدهم الظاهرة ، وهي حرة، فخرجوا إليها فانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعوام التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ، اتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم، فترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا . الله الله . فغرف القوم أنها نغمة من الشيطان وكيد من عدوهم فالتقوا السلاح من أيديهم ويكوا، وعانق بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، فأنزل الله عز وجل : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . يعني الأوس والخزرج إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب . يعني شاسا وأصحابه يردوكم بعد إيمانكم كافرين . قال جابر ابن عبد الله : ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ إلينا بيده، وأصلح الله تعالى ما بيننا ، فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيت يوما أقيح ولا أوحش أولا وأحسن آخرنا من ذلك اليوم (٢٥).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ .

أى إن استمعتم إلى ما يلقيه بعض أهل الكتاب بينكم من دسائس ولنتم لهم، لا يكتفون بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم ، بل يتجاوزون ذلك إلى محاولتهم إعادتكم إلى وثنييتكم القديمة وكفرهم بالله بعد إيمانكم.

وقد وصف - سبحانه - الذين يحاولون الوقية بين المؤمنين بأنهم فريق من الذين أوتوا الكتاب، إنصافاً لمن لم يفعل ذلك منهم.

ونعتهم بأنهم أوتوا الكتاب . للإشعار بأن تضليلهم متعمد وبأن تأمرهم على المؤمنين مقصود، فهم أهل كتاب وعلم، ولكنهم استعملوا علمهم فى الشرور والآثام.

وقوله : يردُّوكُم . أصل الرد الصرف والإرجاع، إلا أنه هنا مستعار لتغيير الحال بعد المخالطة فيفيد معنى التصيير ، كقول الشاعر :

فرد شعورهن السود بيضا

ورد وجوههن البيض سودا

أى يصيروكم بعد إيمانكم كافرين، والكاف مفعوله الأول وكافرين مفعوله الثانى .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ . (البقرة : ١٠٩).

١٠١ - وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ .

أى : كيف يتصور منكم الكفر أو يسوغ لكم أن تسيروا فى أسبابه ، وآيات الله تقرأ على مسامعكم غضة طرية صباح مساء ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين ظهرانيكم ، يردكم إلى الصواب إن أخطأتم ، ويزيح شبهكم إن التبس عليكم أمر.

وهذا كقوله تعالى : وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِمُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ . (الحديد : ٨).

قال ابن كثير : وكما جاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوماً : « أى المؤمنين أعجب إيماناً ؟ قالوا : الملائكة ، قال وكيف لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ؟ قالوا : فتحن، قال : وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ قالوا : فأى الناس أعجب إيماناً ؟ قال : قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفاً فيؤمنون بما فيها ».

وقوله : وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ . جملتان حاليتان من فاعل تَكْفُرُونَ . وهو ضمير الجماعة، وهاتان الجملتان هما محط الإنكار والاستبعاد.

أى أن كلا من تلاوة آيات الله وإقامة الرسول فيهم وأزع لهم عن الكفر، وداهع لهم إلى التمسك بعرى الإيمان.

قال قتادة : أما الرسول فقد مضى إلى رحمة الله، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر.

ومن يعصم بالله فقد هبني إلى صراط مستقيم . أى ومن يستمسك بدين الله - وهو الإسلام ، ويلتجئ إلى الله فى كل أحواله ويتوكل عليه حق التوكل، فقد هدى إلى الطريق الذى لا عوج فيه ولا انحراف.

قال الطبرى ، وأصل العصم المنع، فكل مانع شيئاً فهو عاصمه، والممنوع به معصم به، ولذلك قيل للحبل عصام، وللسبب الذى يتسبب به الرجل إلى حاجته عصام، وأفصح اللغتين إدخال الباء كما قال عز وجل : واعتصموا بحبل الله جميعاً .

وقد جاء اعتصمته كما قال الشاعر :

إذا أنت جازيت الإخاء بمثله

وأسيتني ثم اعتصمت حباليا

فقال : اعتصمت حباليا ولم يدخل الباء، وذلك نظير قولهم تناولت بالخطام وتناولت الخطام، وتعلقت به وتعلقتة<sup>(٢٥)</sup>.

وفى ختام الآية نجد أنها محتملة لمعنيين :

**المعنى الأول :** أن الكفر بعيد عنكم ، ولا يتأتى منكم الكفر لأن الوحي ينزل عليكم والرسول بينكم. وفى هذا المعنى ما يؤمن إلى إلقاء اليأس فى قلوب هذا الفريق من اليهود من أن يصلوا إلى ما يبتغونه من تفريق المؤمنين ، لأن الوحي والنبي عصمة لهم.

**المعنى الثانى :** استقهام إنكارى عن احتمال كفرهم مع أن معهم أسباب الإيمان.

قال ابن جرير الطبرى : يعنى بذلك جل ثأؤه :

وكيف تكفرون أيها المؤمنون بعد إيمانكم بالله وبرسوله، فترتدوا على أعقابكم وأنتم تتلى عليكم آيات الله يعنى حجج الله عليكم التى أنزلها فى كتابه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيكم رسوله حجة أخرى عليكم لله، مع أى كتابه ، يدعوكم جميع ذلك إلى الحق ويصيركم الهدى والرشاد ، وينهاكم عن الفى والضلال.

يقول لهم - سبحانه وتعالى - فما وجه عزركم عند ربكم فى جحودكم نبوة نبيكم وارتدادكم على أعقابكم ورجوعكم إلى أمر جاهليتكم<sup>(٢٦)</sup>.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾

المضردات :

حق تقاته : أى حق تقواه.

بحبل الله : أى بالإسلام أو القرآن. استعمار له كلمة الحبل حيث إن التمسك به سبب النجاة ، كما أن التمسك بالحبل سبب السلامة.

ولا تفرقوا : أى ولا تتفرقوا، حذف إحدى التائين تخفيفاً.

فألف : أى فجمع.

شفا حفرة : الشفا طرف الشيء وحرفه مثل شفا البئر وشفا حفرة. ومنه يقال فلان أشفى على الشيء إذا أشرف عليه، كأنه بلغ شفا أى حده وحرفه.

التفسير :

١٠٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ .

التقوى هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتزليل ، والاستعداد ليوم الرحيل.

وقيل التقوى : هى ذوبان الحشا لما سبق من الخطا.

وقيل تقوى الله : هى ألا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

ومعنى الآية : راقبوا الله تعالى، وأطيعوا أمره واجتنبوا مخالفته، بحيث يطاع ولا يعصى، ويذكر ولا ينسى، ويشكر ولا يكفر به.

وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ . أى لا تقابلوا ريكم إلا وأنتم على حالة الإسلام الصحيح.

والمراد : داوموا على التخلق بأخلاق الإسلام لأن من شب على شيء شاب عليه، ومن شاب على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه.



قال الزمخشري في الكشاف : وَلَا تَمُوتُنَّ . معناه ولا تكونين على حال سوى حال الإسلام إذا أدرركم الموت، وذلك كأن تقول لمن تستعين به على لقاء العدو: لا تأتني إلا وأنت على حصان، فانت لا تنهض عن الإتيان، ولكلك تنهض عن خلاف الحال التي شرطت عليه في وقت الإتيان.

وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بنسختها الآية الكريمة : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . (التغابن : ١٦). والجمهور على أنها غير منسوخة.

#### قال النيسابوري :

لما حذر الله المؤمنين من قتل أهل الكتاب أمرهم بمجامع الطاعات ومعاهد الخيرات فأولها لزوم سيرة التقوى.

وعن ابن عباس : لما نزلت : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ . هو أن يطاع فلا يعصى طرفه عين، وأن يشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى، أو هو القيام بالواجبات كلها والابتعاد عن المحارم بأسرها، وأن لا يأخذ في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين ، شق ذلك على المسلمين فنزلت فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . والجمهور على أنها غير منسوخة لأن معنى حق تقاته واجب تقواه، وكما يحق أن يتقى ، وهو أن يجتنب جميع معاصيه.. فلم يبق فرق بين الآيتين (٢٧).

والمراد من قوله تعالى: فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ . هو عين المراد من قوله تعالى: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . (التغابن : ١٦). لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها.

والاستثناء مفرغ في قوله : وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . أي لا تموتن على حالة من الأحوال إلا على هذه الحالة الحسنة التي هي حال الدأومة على التمسك بالإسلام وتعاليمه وآدابه.

١٠٣ - وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا .. الآية.

أي : كونوا جميعاً متمسكين بكتاب الله وبيدته ويهوده، ولا تتفرقوا كما كان شأنكم في الجاهلية.

ثم يذكر الله المسلمين بنعمته عليهم، نعمة تأليف القلوب ورأب الصدوع، والارتقاء على حزازات الصدور، والتفاني في غاية أسامي من الشخصيات الزائلة والأمجاد الفارغة، والفخر بالعصبيات والأنساب.. وإنها معجزة تلك التي تحول شتات العرب إلى وحدة، وعداوتهم إلى مودة، وتربط على قلوبهم هذا الرباط الذي لم تشهد له البشرية من قبل أو من بعد نظيراً.

( والنص هنا يعمد إلى مكنى المشاعر والروابط ( القلب ) فلا يقول : فألف بينكم ، إنما ينفذ إلى المكنى العميق فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ . وهو تعبير مصور مقصود.

كذلك يرسم النص صورة لما كانوا عليه ، بل مشهدا حيا متحركا يتملأه الخيال ويتوقع في كل لحظة حركة كانت ستكون لو لم تدركهم معجزة الإيمان وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا . . . فيتصور الخيال هؤلاء الأناس على شفا حفرة من النار، ويظل يتوقع حركة السقوط المتوقعه، حتى تتم حركة الإنتقاذ المفاجئة ( ٢٨).

كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . أى يمثل هذا البيان الواضح ، يبين الله لكم سائر آياته ، لكي تثبتوا على الهدى، وتزدادوا فيه اعتصاما وقوة.

والقرآن حافل بالدعوة إلى الوحدة والأخوة والتماسك والتكافل والتراحم، والتحذير من الفرقة و العداوة والبغضاء والسخرية والاستهزاء.

ويمثل هذا الهدى الإلهي، والتوجيه النبوي رأيا وحدة لم يعرف التاريخ لها نظيرا، وحدة الأخوة بين المهاجرين والأنصار، وحدة الألفة والمودة على الدين الجديد والنور الجديد والدعوة الإسلامية الخالدة .

قال تعالى : وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . ( الأنفال : ٦٣ ) .

روى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ترى المؤمنين في تراحمهم وتعاملتهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » (٢٩).

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويسخط لكم ثلاثا : يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » (٣٠).

١٠٤ - وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

والمراد بالأمّة هنا الطائفة من الناس التي تصلح لمباشرة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمراد بالخير ما فيه صلاح للناس ديني أو دنيوي... والمراد بالمعروف ما حسنه الشرع وتعارف العقلاء على حسنه. والمنكر ضد ذلك.

والمعنى : ولتكن منكم أيها المؤمنون طائفة قوية الإيمان عظيمة الإخلاص، تبذل أقصى طاقتها وجهدها في الدعوة إلى الخير الذي يصلح من شأن الناس، وفي أمرهم بالتمسك بالتعاليم وبالأخلاق التي توافق الكتاب والسنة والقول السليمة، وفي نهيمهم عن المنكر الذي يأباه شرع الله وتتفر منه الطباع الحسنة.

وقد دلت الآية على أن الأمّة يجب عليها أن تخصص طائفة منها تقوم بالدعوة إلى الله ، كما قال سبحانه: فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ . وهذا لا يعنى سائر أفراد الأمّة، من القيام بهذا الواجب كل بحسب طاقته .

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . أى وأولئك القائلون بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم الكاملون فى الفلاح والنجاح.

( وقال بعض العلماء : وفى الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها وركن مشيد من أركانها وبه يرتفع سنامها ويكمل نظامها ) (٣١).

وقد أورد الحافظ ابن كثير بعض الأحاديث النبوية الشريفة فى الدعوة إلى المحافظة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقيام كل فرد من الأمة بهذا الواجب بحسب قدرته وطاقته .

وهذان حديثان نبويان من تفسير ابن كثير :

١ - جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . وفى رواية : «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» (٣٢).

٢ - وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن النبى ﷺ قال : « الذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم تدعونه فلا يستجب لكم » (٣٣).

وجاء فى كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة تحت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منها ما يأتى :

( ١ ) روى الشيخان عن جرير بن عبد الله قال : بايعت النبى ﷺ على السمع والطاعة، فلقننى : فيما استطعت والنصح لكل مسلم (٣٤).

(ب) روى أبو داود والترمذى وابن ماجه والنسائى : عن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - قال: « يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلٍّ إِذَا اهْتَضَيْتُمْ . (المائدة : ١٠٥) وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » (٣٥).

(ج) روى الترمذى عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال : سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله (٣٦).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝١٠٦ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١٠٧ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ۝١٠٨ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝١٠٩﴾

المعنى الإجمالي :

حث الآيات السابقة على لزوم الوحدة والجماعة ، ودعت إلى الاعتصام بحبل الله ، وتخصيص طائفة من الهداة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهنا تحذر الآيات من الفرقة ، وتدعو إلى الاعتبار بالذين تفرقوا واختلقوا من بعد ما جاءهم البينات ، وما ينتظرهم من عذاب عظيم ، في ذلك اليوم الذي تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه .

التفسير :

١٠٥ - وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

احذروا الفرقة والاختلاف ، واعتبروا بمن سبقكم من الأمم ، وهم اليهود والنصارى ، حيث تفرق كل منهما فرقا مختلفة يكفر بعضها بعضا ، واختلقوا باستخراج التاويلات الزائفة ، وكتم الآيات الناطقة ، بسبب ما أخذوا إليه من حطام الدنيا ، ولقد كان تفرقهم هذا واختلافهم من بعد ما جاءهم البينات . أى الآيات والحجج والبراهين الدالة على الحق ، والداعية إلى الاتحاد والوئام لا إلى التفرق والاختلاف .

والاختلاف المنهى عنه في هذه الآية ، إنما هو الاختلاف في الأصول ، أما الاختلاف في الفروع ، الناشئ عن الاجتهاد في فهم النصوص ، فأمر ثبت في عهد رسول الله ﷺ وأقره ، ومن ثم كان للمجتهد المخطئ أجر كما أن للمصيب أجرين ، لأن الاختلاف في الفروع أفسح المجال للرخص ، والمسلمون بحاجة إليها (٣٧) .

ومن الأحاديث التي ذمت الخلاف ، ما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن أبي عامر ( عبد الله بن نحى ) قال : حججنا مع ( معاوية بن أبي سفيان ) ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعنى الأهواء - كلها في النار إلا واحدة - وهى الجماعة - وأنه سيخرج في أمتى أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب (٣٨) بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله » (٣٩) .

ثم ختم الله سبحانه الآية ببيان سوء عاقبة المتفرقين والمختلفين في الحق فقال : وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

أى وأولئك الموصوفون بتلك الصفات الذميمة لهم عذاب أليم بسبب تفرقهم واختلافهم الباطل.

( فإنت ترى القرآن الكريم قد نهى عن التفرق والاختلاف بأبلغ تعبير والطف إشارة، وذلك بأن بين لهم حسن عاقبة المعتصمين بحبل الله دون أن يتفرقوا ، وما بشر به- سبحانه - المواطنين على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أنهم هم المفلحون الفائزون .

ثم بين لهم سوء عاقبة التفرق والاختلاف الذى وقع فيه من سبقهم من اليهود والنصارى، وكيف أنه ترتب على تفرقهم واختلافهم أن كفر بعضهم بعضاً، وقاتل بعضهم بعضاً، ورمى بعضهم بعضاً بالزيف والضلال، هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فهؤلاء المتفرقين والمختلفين العذاب العظيم ) (١٠).

١٠٦ - يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ .

المراد ببياض الوجوه، بهجتها وسرورها ويسواد الوجوه حزنها وكآبتها.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ \* إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ \* وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ \* تَنْظُرُ أَن يُغْفَلَ بِهَا فَافِرَةٌ . (القيامة: ٢٢-٢٥).

وقوله سبحانه : وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ . (الزمر : ٦٠).

وقوله عز شأنه : وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ \* ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ \* وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَاسِقَةٌ \* تَرْتَفِئُهَا قَتَرَةٌ \* أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ . (عبس : ٣٨ - ٤٢).

قال الزمخشري فى تفسيره : ( البياض من النور والسواد من الظلمة : فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه، وابيضت صحيفته وأشرقت، وسعى النور بين يديه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم يستواد اللون وكسوفه وكمده، واسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب، نعوذ بالله ويسعة رحمته من ظلمة الباطل وأهله ) (١١).

وذهب بعض العلماء إلى أن السواد والبياض محمولان على حقيقتهما ، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما، ولا دليل يوجب ترك هذه الحقيقة، فوجب الحمل على ذلك .

جاء في تفسير التيسابورى :

وهى أمثال هذه الألوان للمفسرين قولان :

أحدهما : وإليه ميل أبى مسلم أن البياض مجاز عن الفرح والسواد عن الغم وهذا مجاز مستعمل قال تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . (النحل : ٥٨) .

ولما سلم الحسن بن على الأمر إلى معاوية قال له رجل : يا مسودّ وجوه المؤمنين .

ولبعض الشعراء فى الشيب قوله :

يا بياض القرون سودت وجهى

عند بياض الوجوه سود القرون

وثانيهما : أن السواد والبياض محمولان على ظاهريهما، وهما النور والظلمة إذ الأصل فى الإطلاق الحقيقة، فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه وانبضت صحيفته وسعى النور بين يديه وبيمينه ، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكمدت وأسودت صحيفته وأحاطت به الظلمة من كل جانب .

قالوا والحكمة فى ذلك أن يعرف أهل الموقف كل صنفًا فيعظمونهم، أو يصغرونهم بحسب ذلك، ويحصل لهم بسببه مزيد بهجة وسرور أو ويل وثبور .

وقد اختار الفخر الرازى أن التعبير القرآنى فى الآية محمول على المجاز لا على الحقيقة . فقال

وهذا مجاز مشهور، قال تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . (النحل : ٥٨) .

ويقال لفلان عندى يد بيبضاء، وتقول العرب لمن نال بغيته وقاز بمطلوبه: ابيض وجهه ومعناه الاستبشار والتهلل.. ويقال لمن وصل إليه مكروه: أريد وجهه واغبرّ لونه، وتبدلت صورته ، وعلى هذا فمعنى الآية : أن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه، فإن رأى ما يسره ابيض وجهه بمعنى استبشر بنعم الله وفضله، وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة عليه أسود وجهه بمعنى أنه يشتد حزنه وغمه (٤٢) .

ومن الطرائف ما روى أن شخصين أحدهما أبيض والآخر أسود تقابلا، فقال الاسود :

ألم تر أن سواد العين لا شك نورها

وأن بياض العين لا شئ فاعلم

وأن سواد المسك لا شئ مثله

وأن بياض اللفت حمل بدرهم

فقال الأبيض :

ألم تر أن بياض البدر لا شيء مثله  
وأن سواد الفصح حمل بدرهم  
وأن رجال الله بيض وجوههم  
وأن سود الوجوه مأواهم جهنم

وهى مغالطة من الأبيض لأن سواد أهل النار ليس سواد الخلقة ولكنه سواد الظلمة والمعصية.

وفى الأثر (كم من وجه صبيح ولسان فصيح وجسم مليح غدا بين أحشاء النار يصيح ) .

وكان زعيم المنافقين حسن الهيئة جميل الصوت ، يجيد تزويق الكلام فقال فيه القرآن : وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَبَٰعْثُكُمُ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُّسْنَدٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ فَاٰتَنَّهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُفَكَّرُونَ . ( المنافقون : ٤ ) .

وقد ورد فى هدى النبوة « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» .  
ومما تقدم يتضح أن الراجح فى سواد الوجوه وبياضها ، هو أنهما محمولان على المجاز لا على الحقيقة ،  
وأن بياض الوجه لا يقرب صاحبه إلى الله ، وأن سواد الوجه لا يبعد صاحبه عن الله ، وإنما يقرب الإنسان من  
الله العمل الصالح ، ويبعده عن الله العمل الطالح .

فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

أى أما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم - على سبيل التوبيخ أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب  
بسبب كفركم .

والاستفهام فى قوله تعالى : أَكْفَرْتُمْ . للتوبيخ والتعجب من حالهم . قال الألوسى : والظاهر من السياق  
أن هؤلاء هم أهل الكتاب ، وكفرهم بعد إيمانهم ، هو كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد الإيمان به  
قبل مبعة ، وقيل هم جميع الكفار لإعراضهم عما يجب عليهم من الإقرار بالتوحيد حين أشهدهم على أنفسهم  
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى . ( الأعراف : ١٧٢ ) . ويحتمل أن يراد بالإيمان ، الإيمان بالقوة والفطرة ، وكفر جميع  
الكفار كان بعد هذا الإيمان لتمكنهم بالنظر الصحيح ، والدلائل الواضحة ، والآيات البينة من الإيمان بالله -  
تعالى - ورسوله صلى الله عليه وسلم .<sup>(١٣)</sup>

وقوله : فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ . أى فادخلوا جهنم وذوقوا مرارة العذاب وآلامه بسبب  
استمراركم على الكفر وموتكم عليه .

١٠٧ - وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . أى وأما الذين ابيضت وجوههم بركة إيمانهم وعملهم الصالح ففي رَحْمَةِ اللَّهِ ، أى ففى جنته ونعيمها لأنها محل الرحمة ومكانها هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . أى خلوداً أبدياً سرمدياً فى نعيم لا يحد بحد ولا تبلغ العقول مداها .

ومما تقدم نجد أن الناس فريقان يوم القيامة .

كفار اسودت وجوههم ، ومؤمنون ابيضت وجوههم . وقد ذكر بعض العلماء أن الذين اسودت وجوههم يوم القيامة هم الخوارج لأنهم كفروا بعد إيمانهم .

وقال آخرون : عنى بذلك كل من كفر بالله بعد الإيمان .

وقال آخرون بل الذين عنوا بقوله أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ . هم المنافقون ، كانوا أعطوا كلمة الإيمان بالسنتهم وأنكروها بقلوبهم وأعمالهم .

قال ابن جرير الطبرى - بعد أن ذكر هذه الآراء .

وأولى الأقوال التى ذكرناها فى ذلك بالصواب القول الذى ذكرناه على أبى بن كعب، أنه عنى بذلك جميع الكفار، وأن الإيمان الذى يويخون على ارتدادهم عنه هو الإيمان الذى أقروا به يوم قيل لهم : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَلَاؤا بلى شهدنا . (الأعراف : ١٧٢) . وذلك أن الله جل ثناؤه جعل جميع أهل الآخرة فريقين أحدهما سوداء وجوههم، والآخر بيضاء وجوههم ، فمعلوم إذا لم يكن هنالك إلا هذان الفريقان أن جميع الكفار داخلون فى فريق من اسود وجوهه، وأن جميع المؤمنين داخلون فى فريق من ابيض وجهه .

١٠٨ - تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَوَى عَنْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ . هذه الحقائق التى تتصل بعذاب الكافرين ونعيم المؤمنين أو هذه الآيات البينات والحجج الواضحات تَنْتَوَى عَنْكَ . أى محقين عادلين فيما بيناه من جزاء لعباد حسب أعمالهم وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ . أى ليس بظالم لهم، بل هو الحكم العدل الذى لا يجور، لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه .

١٠٩ - وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

أى الجميع ملك له وحده : خلقا وتديبها وتصرفها وإحياء وإماتة وإثابة وتعذيباً .

وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ . يتولى التصرف فى شئون الدنيا والآخرة فيحكم بالحق والعدل، والحق يقتضى أن يكون لكل عمل جزاؤه، وأن يكون لكل شيء وزنه، وألا يترك الناس سدى، وألا يكون الخير والشر سواء .



﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ أَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ أَلَدًا بَارِئًا ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضَرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا لَا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبِلَ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبَغَضَ مِنَ اللَّهِ وَضَرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلَّكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ إِذَا نَادَى اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلَّكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

المضردات :

|                  |                                                                                 |
|------------------|---------------------------------------------------------------------------------|
| أمة              | : الأمة : الجماعة .                                                             |
| الفاسيقون        | : الخارجون عن طاعة الله .                                                       |
| يولوكم الأديار   | : يعطوكم ظهوركم منهزمين .                                                       |
| ضربت عليهم الذلة | : أحبطوا بالذلة كما تحيط الخيمة بمن ضربت عليه، والمراد بالذلة: الهوان والصغار . |
| تفقدوا           | : وجدوا .                                                                       |
| بحبل             | : بعهد .                                                                        |
| باعوا            | : رجعوا .                                                                       |
| المسكنة          | : الضعف والحاجة الناشئة عن فطرة فيهم .                                          |

١١٠ - كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. الآية.

والمعنى :

وجدتم خير أمة أخرجت للناس لأنكم تأمرون بالمعروف أى بالقول أو الفعل الجميل المستحسن فى الشرائع والعقول وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . أى كل قول أو فعل قبيح تستنكره الشرائع ويأباه أهل الإيمان القويم، والعقل السليم<sup>(٤١)</sup> .

وجاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. أُخْرِجَتْ .. إنه لتعبير يلتفت النظر، لفظ أخرج، ويناؤه للمجهول... وهو يكاد يشى باليد الخفية المدبرة، تخرج هذه الأمة لإخراجها، وتدفعها إلى الظهور دفعا من ظلمات الغيب، ومن وراء الستار السرمدى الذى لا يعلم ما وراءه إلا الله .

إنها للفظه تصور حركة خفية المسرى، لطيفة الديب، حركة تخرج على مسرح الوجود أمة .. فيها لها من يد قادرة مدبرة، تشي بها لفظه مصورة معبرة (٤٥).

والخطاب في هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : **كُنْتُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ عَاصَرُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمَّا أَتَى بَعْدَهُم وَاتَّبَعَ تَعَالِيمَ الْإِسْلَامِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ** .

جاء في تفسير ابن كثير ما يأتي :

قال ابن عباس في قوله تعالى : **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ، قال : هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كما قال في الآية : **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا . أَى خِيَارًا لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** .. ( البقرة : ١٤٣ ) .

وفي مسند أحمد وجامع الترمذى من رواية حكيم بن معاوية عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل » (٤٦) وهو حديث مشهور ، وقد حسنه الترمذى .

وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات ، بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، ويعتبه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل (٤٧).

وقد ساق ابن كثير في تفسيره أحاديث كثيرة في فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ونقل منها الأستاذ محمد على الصابوني خمسة عشر حديثاً نبوياً شريفاً في كتاب ( مختصر تفسير ابن كثير ) منها ما رواه البخارى ومسلم، ومنها ما رواه الإمام أحمد ومنها ما روى في كتب السنن. وسننقل منها هذا الحديث الشريف :

روى مسلم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لى سواد عظيم، فظننت أنهم أمتى فقيل : هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت، فإذا سواد عظيم ، فقيل : انظر إلى الأفق الآخر ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لى : هذه أمك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ) ثم نهض فدخل منزله فحاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا فى الإسلام ولم يشبهوكوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ( ما الذى تخوضون فيه ؟ ) فآخبروه فقال : ( هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ) فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم، قال : ( أنت منهم ) ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم ، قال : سبقك بها عكاشة ( ٤٨ ) .

#### الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

لقد بين الحق سبحانه وتعالى سبب أفضلية هذه الأمة فقال : **تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُزَمُّونَ بِاللَّهُ** . وهم ثلاث ركائز :

الأمر بالمعروف : والدعوة إلى الخير والكمال والسير على الصراط المستقيم .

والنهي عن المنكر : والتحذير من الفعل القبيح والسلوك المستهجن والنهي عن ارتكاب الفواحش ، واقتراف المعاصي .

والإيمان بالله : اليقين الجازم بوجوده وطاعته ، وإخلاص العبادة له ، والتمسك بأمره والبعد عما نهى عنه .

والآية الكريمة وسام علوي لهذه الأمة إذا قامت بدورها وأدت واجبها وأطاعت خالقها واهتدت بسنة نبيها ورسولها .

فهل وعت الأمة الإسلامية هذا التنويه ٩ .

إن واقع المسلمين الملىء بالضعف والهوان والفسوق والعصيان ، والأثرة والتنازع والاختلاف ، والتخلف والتأخر ، وضعف الهمم والمزائم . كل هذا يدمى قلوب المؤمنين الصادقين .

ولا صلاح لأخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها : ( إيمان صادق وعمل مخلص وتحمل تبعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ) .

قال ابن كثير : بعد أن ساق طائفة من الأحاديث النبوية في فضل الأمة المحمدية - : فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى : **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** .

فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح . كما قال قتادة : بلغنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في حجة حجها رأى من الناس دعة فقرأ هذه الآية : **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** . ثم قال : ( من سره أن يكون من هذه الأمة فيؤد شرط الله فيها ) رواه ابن جرير .

**وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ** .

أى **وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ** . بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم **لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ** : أى لكان إيمانهم خيراً لهم في دنياهم وآخرتهم ، ولنالوا الخيرية التي ظفرت بها الأمة الإسلامية ، ولكنهم لم يؤمنوا فامتنع الخير فيهم ، لامتناع الإيمان الصحيح منهم .

**مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ أَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** أى قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، كعبد الله ابن سلام وأضرابه .

**وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** . أى المتمردون في الكفر ، الخارجون عن الحدود .

١١١ - **لَنْ يَضُرَّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُبْلُوكُمْ أَلَيْسَ الْأَذَىٰ تَمَّ لَا يُبْصَرُونَ** .

سبقت هذه الآية لتطمئن المؤمنين الصادقين ، بأن هؤلاء الفاسقين من أهل الكتاب لن يستطيعوا إلحاق أى ضرر بالغ بهم ، ما داموا معتمدين بدينهم ، وكل ما يستطيعون أن يلحقوه بهم لا يتعدى أن يكون ضررا يسيرا كالطمع ، والشتم ، والسخرية والتهديد والوعيد .

وَأِنْ يَفْقَاتُلُوكُمْ يَرْثُوكُمُ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ .

بشرت الآية المسلمين بثلاث بشارات :

**الأولى :** أنهم فى مأمن من الضرر البالغ من جهة أهل الكتاب .

**الثانية :** أن أهل الكتاب لو قاتلوهم ، فإن المؤمنين سيكون لهم النصر عليهم .

**الثالثة :** أن أهل الكتاب لن يحرزوا نصرا على المؤمنين ، ولن تكون لهم شوكة أو قوة للأخذ بثأرهم بعد هزيمتهم أمام المؤمنين .

جاء فى تفسير ابن كثير ، وهكذا وقع ، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنوفهم ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة : ( بنى قينقاع ) ( وبنى النضير ) ( وبنى قريظة ) ، كلهم أذلهم الله ، وكذلك النصارى بالشام ، كسرهم الصحابة فى غير ما موطن ، وسلبوهم ملك الشام أيدى الآبدى ودهر الداهرين . ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك ، ويحكم بملة الإسلام ، وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام .

١١٢ - ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّحُوا إِلَىٰ يَحِجُلُوا مِنَ اللَّهِ يَحِجُلُ مِنَ النَّاسِ ...

إن هؤلاء اليهود أحاطت بهم الذلة فى جميع أحوالهم أينما وجدوا وحيثما حلوا إلا فى حال اعتصامهم بعمد من الله أو بعمد من الناس .

وقال الشيخ محمد عبده : إن حالهم معكم أن يكونوا أذلاء مهضومى الحقوق رغم أنوفهم ، إلا يحل من الله . وهو ما قرره شريعته لهم ، إذا دخلوا فى حكمكم من المساواة فى الحقوق والقضاء وتحريم إيدائهم وهضم شئ من حقوقهم ، وحل من الناس . هو ما تقتضيه المشاركة فى المعيشة من احتياجهم إليكم واحتياجكم إليهم فى بعض الأمور ، أى فهذا القدر المستثنى من عموم الذلة لم يأتهم من أنفسهم وإنما جاءهم من غيرهم <sup>(٤٩)</sup> .

وأجاز بعض المفسرين : أن يراد من حبل الناس ، لجوعهم إلى قوة غالبية فى الأرض من غير المسلمين ، يستظلون بحمايتهم ، ويستمدون منهم العون والقوة ، كما هو شأنهم فى هذا الزمان <sup>(٥٠)</sup> .

وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ . أى رجعوا به مستحقين له : وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ . أى فرضت عليهم والصقت بهم ، فاليهودى يشعر فى نفسه - دائماً - بالفقر ، وإن كان موسرا غنيا ، وبالضعف وإن كان قويا .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ .

( يكشف القرآن الكريم عن سبب هذا القدر المكتوب على أهل الكتاب، فإذا هو الكفر بإيات الله وقتل الأنبياء بغير حق، المتبعتان بدورهما عن العصيان والاعتداء، وإذن فهو الجزء العادل، إنه الذلة في مقابل التمدد، والمسكنة في مقابل التطاول، والهزيمة في مقابل الاعتداء .. جزاء وفاقا وما ريك بظلام للمبيد ) (٥١).

ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . إى ذلك الكفر، والقتل للأنبياء ، كائن بسبب عصيانهم واعتدائهم المستمر على حدود الله.

وتلك طبيعة اليهود دائماً: تمرد على الدين، واعتداء على حرمان الله وحقوق عباده.

وقد ارتكب اليهود هذه القبائح وهم عالمون بجرمهم مخالفون لشرع الله عن تعمد وإصرار.

قال الزمخشري في تفسير الكشاف :

فإن قلت : قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره هنا . قلت : معنا أنه قتلهم بغير الحق عندهم ، لأنهم لم يقتلوا، ولا أقسدا في الأرض فيقتلوا، وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجها يستحقون به القتل عندهم (٥٢).

#### خاتمة :

إن الله تعالى لا يحابى أمة من الأمم ولا شعبا من الشعوب، لقد نصر المؤمنين عندما كانوا أهلا للنصر، لقد مكثهم الله في الأرض وأورثهم عروش الأكاسرة والقياصرة، وأذل لهم اليهود وهم شعب غليظ الرقبة، وفتح لهم البلاد ومكثهم من العباد، فلما أعرض المسلمون عن هدى الله وشرعه، مكن منهم عدوهم جزاء وفاقا لأعمالهم.

ومن هنا نعلم أن الشرط في نفى ضرر اليهود الذى يؤثر في الأمة الإسلامية هو أن تكون مؤمنة ببرها حق الإيمان، متبعة لهدى رسولها محمد صلى الله عليه وسلم .

جاء في تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى :

فإن قال قائل : ولكن اليهود قد انتصروا على المسلمين، وأقاموا لهم دولة في بقعة من أعز بقاع البلاد الإسلامية وهى فلسطين، فهل تخلف وعد الله ؟.

والجواب على ذلك أن وعد الله - تعالى - ما تخلف ولن يتخلف، وقد حققه - سبحانه - لأسلافنا الصالحين الذين آمنوا به حق الإيمان ، ولكن المسلمين فى هذا العصر هم الذين تغيرت أحوالهم، فقد قُربُوا فى دينهم. وأضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات وتفرقوا شيعا وأحزابا، وتكبروا الطريق القويم، ولم يباشروا الأسباب التى شرعها الله تعالى لبلوغ النصر، ولم يحسنوا الشعور بالمسئولية .. فلما فعلوا ذلك تبدل حالهم من الخير إلى الشر ، ومن القوة إلى الضعف، وسلط الله عليهم من لا يخافهم ولا يرحمهم (٥٣). لأن الله تعالى : لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. (الرعد : ١١) . وإذا عاد المسلمون

إلى أمر ربهم وتعاليم دينهم عاد إليهم المجد والعز والرفعة والنصر. وَلَيَبْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. (الحج : ٤٠).

★ ★ ★

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

المفردات :

قائمة : مستقيمة عادلة، من أقامت العمود فقام، على معنى : استقام.

آناء الليل : ساعاته وأوقاته .

ويسارعون في الخيرات : يبادرون إليها، ويتنافسون فيها .

فلن يكفروه : فلن يحرّموا ثوابه، وحسن الجزاء عليه، والأصل في الكفر: الستر ، أى : لن يحجب عنهم ذلك الأجر .

١١٣ - لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ .

أى ليس أهل الكتاب متساوين في الكفر وسوء الأخلاق بل منهم طائفة قائمة بأمر الله مطيعة لشريعته مستقيمة على طريقته ثابتة على الحق ملازمة له، لم تتركه كما تركه الآخرون من أهل الكتاب وضيعوه.

والمراد بهذه الطائفة من أهل الكتاب، أولئك الذين أسلموا منهم واستقاموا على أمر الله وأطاعوه في السر والعلن.

(كعبد الله بن سلام) و ( وأسد بن عبيد ) و ( ثعلبة بن شعبة ) و ( النجاشي ومن آمن معه من النصارى )، فهؤلاء قد آمنوا بكل ما يجب الإيمان به، ولم يفرقوا بين أنبياء الله-ورسله ، فمدحهم الله على ذلك وأثنى عليهم.

روى عن قتادة أنه كان يقول في الآية : ( ليس كل القوم هلك قد كان لله فيهم بقية ) وروى عن ابن عباس أنه قال في الأمة القائمة ( أمة مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه ) (٥٤).

قال الإمام محمد عبده : هذه الآية من العدل الإلهي في بيان حقيقة الواقع وإزالة الإبهام السابق، وهي

دليل على أن دين الله واحد على السنة جميع الأنبياء، وأن كل من أخذه بإذعان وعمل فيه بإخلاص فأسر بالمعروف ونهى عن المنكر، فهو من الصالحين (٥٥).

مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ.

أى مستقيمة عادلة من قولك : أقمت العود فقام بمعنى استقام.

واختار ذلك الزمخشري فى الكشف.

ورجح بعض المفسرين أن معناها موجودة ثابتة على التمسك بالدين الحق ملازمة له غير مضطربة فى التمسك به.

كما فى قوله تعالى : إِنْ لَمْ يَدْعُوا إِلَى اللَّهِ فَيَسْأَلْنَاهُ.

أى ملازمة لمطالبته بحققك.

ومنه قوله تعالى : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ . أى ملازمة له (٥٦).

وفى ذلك تعريض بالمنحرفين عن الحق، بأنهم لا يعدّون من أهل الوجود ، وإنما حكمهم حكم العدم، وفى مثلهم قال الشاعر :

|                        |                         |
|------------------------|-------------------------|
| فكانهم خلقوا وما خلقوا | خلقوا وما خلقوا لمكرمة  |
| فكانهم رزقوا وما رزقوا | رزقوا وما رزقوا سماح يد |

يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ .

أى يقرءون القرآن حال صلاتهم من الليل.

والمعنى الإجمالى للآية : ليس أهل الكتاب متساوين فى الاتصاف بما ذكر من القبايح، بل منهم قوم سلموا منها، وهم الذين استقاموا على الحق ولزموه وأكثروا من تلاوة آيات الله فى صلاتهم التى يتقربون بها إلى الله آناء الليل وأطراف النهار .

وآناء الليل أى أوقاته وساعاته ، والمراد بها صلاة العشاء، أو الصلاة بين المغرب والعشاء، أو الصلاة فى منتصف الليل، وهو الوقت الذى غارت فيه النجوم ونامت العيون وبقي الله الواحد القيوم .

قال الطبرى فى تفسير الآية ، وهذه الأقوال التى ذكرتها على اختلافها متقاربة المعانى ، وذلك أن الله تعالى ذكره وصف هؤلاء القوم بأنهم يتلون آيات الله فى ساعات الليل وهى آناءه ، وقد يكون تأليها فى صلاة العشاء تأليا لها آناء الليل، وكذلك من تلاها فيما بين المغرب والعشاء، ومن تلاها جوف الليل، فكل تال له ساعات الليل غير أن أولى الأقوال بتأويل الآية قول من قال : عنى بذلك تلاوة القرآن فى صلاة العشاء لأنها صلاة لا يصلحها أحد من أهل الكتاب (٥٧).

وقد نقل الفخر الرازي في هذه الآية قولين :

( الأول ) : أن المراد بهذه الأمة القائمة عبد الله بن سلام وأصحابه من المسلمين.

( الثاني ) : كل من أوتي الكتاب من أهل الأديان ، أى يتلون ما عندهم من مناجاة الله ودعائه والثناء عليه عز وجل وهى كثيرة فى كتبهم ، وقد رجح الراى الثانى الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا فى تفسير المنار.

ونقل صاحب المنار نقلاً من زيور (مزامير) داود عليه السلام:

كقوله فى المزمور السادس والثلاثين ( ٥ - يارب فى السموات رحمتك ، أمانتك إلى الغمام ٦ - عدلك مثل جبال الله وأحكامك لجة عظيمة ، ٧ - ما أكرم رحمتك يا الله ، فبنو البشر فى ظل جناحك يحتمون ٨ - يروون من دسم بيتك ومن نهر نعمتك تسقيهم ، ٩ - لأن عندك ينبوع الحياة بنورك نرى نورا ، ١٠ - آدم رحمتك للذين يعرفونك وعدلك للمستقيمين القلب ) .

وقوله فى المزمور الخامس والعشرين : ( ١ - إليك يا رب أرفع نفسى ٢ - يا إلهى عليك توكلت ، فلا تدعنى أخزى ، لا تشمت بى أعدائى ٣ - أيتضا كل منتظريك لا يخزون ، ليخز الغادرون بلا سبب ٤ - طرقتك يارب عرقتى ، سبلك علمنى ، ٥ - درينى فى حق علمنى ، لأنك أنت إله خلاصى ... ) .

وأمثال هذه الأدعية والمناجاة كثيرة جدا ، وإذا رآها العربى البليغ غريبة الأسلوب ، فليذكر أنها ترجمة ، ضعيفة وأن قراءتها بلغة أهل الكتاب أشد تأثيراً فى النفس من قراءة ترجمتها هذه (٥٨) .

أما السجود الذى أسنده إليهم ، فهو إما عبارة عن صلاتهم ، وإما استعمال له بمعنى اللغوى وهو التواضع والتذلل كما فى قوله تعالى فى خطاب مريم : **وَأَسْجُدِيْ وَارْكَعِيْ مَعَ الرَّاكِعِيْنَ** . (آل عمران : ٤٣) .

١١٤ - **يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ** .

تستمر هذه الآية فى رسم صورة وضيفة لمن آمن من أهل الكتاب.

فقد آمنوا إيماناً عميقاً بالله وباليوم الآخر ، وعملوا بمقتضى هذا الإيمان فأمرؤا بالمعروف وأرشدوا الناس إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ونهوا عن المنكر ، وحذروهم من الكفر ، وسارعوا إلى فعل الخيرات ، منتقلين فى كل أعمالهم من خير إلى خير ، وهم بسبب إيمانهم وأفعالهم الحميدة قد خرجوا من صفوف المذمومين إلى صفوف الممدوحين .

قال الفخر الرازى : واعلم أن وصفهم بالصالح فى غاية المدح ، ويدل عليه القرآن والمعقول .

أما القرآن فهو أن الله تعالى مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء فقال بعد ذكر إدريس وإسماعيل وذى الكفل وغيرهم : **وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ** . (الأنبياء : ٨٦) .



وذكر حكاية عن سليمان أنه قال : وَأَذْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ . (النمل : ١٩).

وأما المعقول ، فهو أن الصلاح ضد الفساد ، وكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد سواء كان ذلك في العقائد أو في الأعمال، فإذا كان الصلاح معناه الأمل والأفضل، كان الصلاح دالا على أكمل الدرجات (٥٩).

### من تفسير الطبري :

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ .

يعنى بقوله عز وجل : يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ : يصدقون بالله وبالبعث بعد الممات ويعلمون أن الله مجازيهم بأعمالهم، وليسوا كالمشركين الذين يجحدون وحدانية الله ويمبدون معه غيره، ويكذبون بالبعث بعد الممات، وينكرون المجازاة على الأعمال والثواب والعقاب، وقوله : وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ . أى يأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله وتصدق محمد صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . أى وينهون الناس عن الكفر بالله وتكذيب محمد وما جاءهم به من عند الله، يعنى بذلك أنهم ليسوا كاليهود والنصارى الذين يأمرون الناس بالكفر وتكذيب محمد فيما أتاهم به من عند الله. وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ . أى يبتدرون فعل الخيرات خشية أن يفوتهم ذلك. ثم أخبر جل ثناؤه أن هؤلاء الذين هذه صفتهم من أهل الكتاب، هم من عداد الصالحين ، لأن من كان منهم فاسقا فقد باء بغضب من الله لكفره بالله وآياته، وعصيانه بربه، واعتدائه في حدوده (٦٠).

١١٥ - وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٦١).

أى : ما يقدمونه من أفعال الخير، لن يضيع عند الله ثوابه، ولا ينقص جزاؤه، وإنما سيجازيهم الله عليه بما هم أهل له من ثواب جزيل وأجر كبير بدون أى نقصان أو حرمان .

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . أى لا يخفى عليه عمل الاتقياء ، ولا يذهب لديه أجر من أحسن عملا .

( هانت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد أنصفت المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب، ووصفتهم بجملة من الصفات الطيبة . وصفتهم بأنهم طائفة ثابتة على الحق، وأنهم يتلون آيات الله أثناء الليل وأطراف النهار، وأنهم مكثرون من التضرع إلى الله فى صلواتهم وسجودهم ، وأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وأنهم يأمرون بالمعروف، وأنهم ينهون عن المنكر وأنهم يسارعون فى الخيرات ، وأنهم من الصالحين .

ثم بشرهم سبحانه ، بحسن الجزاء، لأن الله عليهم بأحوال عباده ولن يضيع أجر من أحسن عملا ( ٦٢).

### الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

سياج الأمم ، وأساس رفعتها وتوقها، وقانون بقائها التناصح والتواصى بالحق والصبر، وقد مدح الله أمة الإسلام بأنها خير أمة إذا حافظت على هذه الأصول الثلاثة : الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان

بالله، ومدح طائفة من أهل الكتاب بثباتهم على الحق، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد استحق بنو إسرائيل اللعنة من أجل ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أخرج أبو داود في سننه عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول له : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد على حالة فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال - صلى الله عليه وسلم - : لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (المائدة : ٧٨، ٧٩). ثم قال : كلا والله : لتأمرن ، ولتنه عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا - أى ولتحملنه على اتباع الحق حملا - أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم (١٢).

★ ★ ★

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُمَا وَلَمَّا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

المفردات :

حَرْثٌ قوم : زرعهم .

صِرٌّ : برد شديد .

التفسير :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

اختلف المفسرون في المراد بالذين كفروا، فقليل : هم بنو قريظة والنضير من اليهود، وقيل : هم مشركو قريش عامة، وقيل : هم أبو سفيان ورهطه خاصة، وقيل : إن الكلام في الكفار عامة لمعوم اللفظ فهو على إطلاقه ويدخل فيه اليهود وكذا مشركو مكة دخولا أوليا، قالوا : إنهم كلهم كانوا يعتزون بكثرة الأموال ويعيرون النبي ﷺ وأتباعه بالفقر ويقولون : لو كان محمد على الحق ما تركه ربه في هذا الفقر، وقيل : هم المنافقون (١٤).

والمعنى :

إن الذين كفروا بما يجب الإيمان به ، واغترفوا بأموالهم وأولادهم فى الدنيا ، لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً - ولو يسيراً - من عذاب الله ، الذى سيحقيق بهم يوم القيامة بسبب كفرهم وجحودهم .

وليس المراد : خصوص الأموال والأولاد ، بل كل ما يعتبره الإنسان وسيلة قوة ومنعة ، وإنما خص الأموال والأولاد بالذكر ، لأن الإنسان - فى الغالب - يدفع عن نفسه بالفداء بالمال ، أو الاستعانة بالأولاد .

وقد حكى القرآن غرور المترفين بالأموال والأولاد فقال سبحانه : وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ \* وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . (سبا : ٢٤-٢٥) . فاذبحهم الله تعالى بأن الكافر لا ينفعه شيء من ذلك فى الآخرة ، ولا مخلص له من العذاب ولا محيص عنه .

وَأُولَئِكَ الْمُتَصَفُّونَ بِالْكَفْرِ أَصْحَابُ النَّارِ أَهْلُهَا الْمَلَائِمُونَ لَهَا هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ لا يبرحونها أبداً .

قال تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ . (فاطر : ٣٦) .

وقال سبحانه : وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . (المائدة : ٣٧) .

١١٧ - مَثَلٌ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ .

قال أكثر المفسرين : الصر : البرد الشديد .

وفى الصحاح : الصرُّ بالكسر برد يضر بالنبات والحرث .

وقيل : الصرُّ : السموم الحارة ، وعن ابن عباس فيها صرٌّ أى نار . وعلى القولين الغرض من التشبيه حاصل سواء كان برداً مهلكاً أو حراً محرقاً (٦٥) .

وقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً . . شيئاً منصوب على أنه مفعول أى لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً من الإهانة والدفع ، وتكرير شيئاً للتقليل .

وفى تفسير ابن كثير صرٌّ أى برد شديد ، وقال عطاء : برد وجليد ، أو فيها صرٌّ . أى نار ، وهو يرجع إلى القول الأول ، فإن البرد الشديد ، ولاسيما الجليد يحرق الزرع والثمار كما يحرق الشيء بالنار .

وترسم الآية مشهداً حسياً ينبض بالحركة ، يصور ضياع أعمال الكافرين ، وذهاب ما ينفقون فى حياتهم الدنيا من أموال .

قال النيسابوري : والظاهر أن الضمير في ينفقون عائذ إلى جميع الكفار ، وذلك أن إنفاقهم إما أن يكون لمنافع الدنيا فلا يبقى له أثر في الآخرة ، في حق المسلم فضلاً عن الكافر ، وإما أن يكون لمنافع الآخرة ، فالكفر مانع عن الانتفاع به ، ولعلمهم كانوا ينفقون في الخيرات كالإحسان إلى الضعفاء والأراامل راجين خيراً كثيراً في المعاد لكتهم إذا قدموا الآخرة رأوا كفرهم مبطلاً لأثار تلك الخيرات، فكان كمن زرع زرعاً وتوقع منه نفعا كبيراً فأنصابت جائحة فلا يبقى معه إلا الحزن والأسف.

ولعلمهم كانوا ينفقون فيما ظنوه خيراً وهو معصية كإتفاق الأموال في إيذاء الرسول ﷺ وفي تخريب ديار المسلمين .

ولا يبعد أيضاً تفسير الآية بغيبتهم في الدنيا فإنهم أنفقوا أموالاً كثيرة في تجهيز الجيوش والإغارة على المسلمين ، وتحملوا المتاعب ، ثم انقلب الأمر عليهم وأظهر الله الإسلام وأعز أهله ، فلم يبق مع الكفار من ذلك الإنفاق إلا الحيرة والحسرة، وقيل: المراد بالإتفاق ههنا هو جميع أعمالهم التي يرجون الانتفاع بها في الآخرة (١٦).

#### وجاء في ظلال القرآن :

( وننظر فإذا نحن أمام حقل تهيأ للإخصاب ، ثم إذا العاصفة تهب ، إنها عاصفة باردة تلجية، تحرق هذا الحرث بما فيها من صر - واللفظة ذاتها كأنما هي مقذوف يلقي بعنف فيصور معناه بجرسه التفاض - وإذا الحرث كله مدمر خرب.

إنها لحظة تم فيها كل شيء، تم فيها الدمار والهلاك، وإذا الحرث كله يباب... ذلك مثل ما ينطق الذين كفروا في هذه الدنيا، ومثل ما بأيديهم من نعم الأموال والأولاد... كله إلى هلاك وفناء دون ما متعة حقة ، ودون ما جزاء (١٧).

وقوله تعالى : أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ . أى أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصي فدمرتة ، وأهلك ما فيه من ثمار، وهم أخرج ما يكونون إلى هذا الزرع وتلك الثمار.

وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ . بإحباط الأجر وذهاب الثواب على ما أنفقوا وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بإيثارهم الكفر على الإيمان أو بترك النظر في الآيات البينات بعد ما ظهرت لهم، أو بالجهود بعد النظر ونهوض الحجة (١٨).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتْ أَلْبُسَاءُ مِّنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَاتُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٨﴾ هَآئِنْتُمْ أُولَآءِ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَٰلَمَكُمْ ءَلَانَآءِل مِّنَ الْغَيْطِ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنِ اللّٰهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّسْكُمُ حَسَنَةٌ مِّن سَيِّئَتِكُمْ يَفِرْحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبْكُمُ سَيِّئَةٌ مِّن سَيِّئَتِكُمْ يَسْتَكْبِرُوا وَتَنَقَّوْا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّٰهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

المضردات :

بطانة : بطانة الرجل، خاصته وموضع سره . مأخوذ من بطانة الثوب . من دونكم : من غير ملكتهم .

لا يألونكم خبالا : لا يقصرون ولا يدخرون وسعا في إنزال الخيال بكم . والخيال: الشر والفساد .

ودوا ما عنتم : العنت : المشقة . وللمعنى : هم تمنوا ما يشق عليكم .

البغضاء : الحقد والكراهية .

بذات الصدور ، بما انطوت عليه القلوب من الأسرار . فإنه سبحانه يعلم السر وأخفى .

التفسير :

١١٨ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ... الآية .

بعد أن بين الله أحوال المؤمنين والكافرين ، حذر المؤمنين من موالاة الكافرين، وجعلهم موضع تقصير، باطلأعهم على بواطن أمورهم فقال :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا .

أى : لا تتخذوا من غير المسلمين أصفياء: تجعلونهم مواضع سرهم ومشورتكم، لأنهم لا يدخرون وسعا في إلحاق الشر والفساد بكم.

ودُوا مَا عَنِتُّمْ . أى : أحبوا أن يقع بكم ما يشق عليكم من أنواع المحن والبلاء في شئون دينكم ودنياكم.

قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . أى : قد ظهرت الكراهية من أفواههم، على فلتات ألسنتهم . وما تخفي صدورهم أكبر . وما تنطوي عليه صدورهم من الحقد والكراهية لكم أكبر مما ظهر على أفواههم.

قد أوضحنا لكم الآيات الدالة على شديد بغضهم لكم. فلا توالوهم إن كنتم من ذوى العقول الواعية، فإن مقتضى العقل السليم: ألا يتخذ الإنسان أحدا من غير ملته صقيا له ومحل ثقة.

وفى هذا البيان ما يقطع عذرهم، إذا ما خالفوا عن أمر ربهم، واتخذوا أوليائهم من أعدائهم.

١١٩ - هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ... الآية .

لما نهى الله المؤمنين عن موالاة الكافرين، وبين أنهم يبغضونهم ولا يدخرون وسعا فى خيائهم، عقب ذلك بما يؤكد وجوب الانتهاء عن موالائهم. فقال :

هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ .

أى : أنكم تخلصون لهم، وتودونهم، وترجون لهم الخير. ولكنهم لا يحبونكم، ولا يرغبون إلا فى خباكم وفسادكم، ثم إنكم - إلى جانب حبكم لهم - تؤمنون بكل ما أنزل من الكتب السماوية، وبالرسل الذين أنزلت عليهم.

وَإِذَا قُلُّوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا . نفاقا لكم وخداعا حتى تستبطنوهم وتخبروهم بأسراركم، فيستغلوا مودتكم فيما ينفعهم، وفيما يجلب الخيال فيكم .

وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنْامِلَ مِنَ الْغِيْظِ :

أى : إذا هارقوكم، وخلصوا إلى أنفسهم، عضوا أناملهم من الغيظ حسرة وأسفا، حيث لم يجدوا إلى التشفى والنيل منكم سبيلا.

وعض الأنامل فى الآية، كناية عن شدة الغيظ.

قُلْ مَوْتُوا بِغِيْظِكُمْ .

أى : قل لهم يا محمد : موتوا ببغيتكم من بقائنا على الإسلام، فإن الله متم نعمته ومكمل دينه، ومعل كلمته، ولو كره الكافرون.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . فيعلم ما تتطوى عليه ضمائرهم، وتكنه سرائهم من البغضاء والحسد . ويكفى المسلمين شרה، ويجازيكم عليه.

١٢٠ - إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً تَسْرُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ... الآية .

المعنى : إن نالكم خير- ولو كان قليلا - أحزنهم، وإن نزلت بكم مصيبة فادحة يفرحوا بها ويشمتوا بكم.

وَإِنْ تُصِيبُوا . على عداوتهم وكيدهم . وَتَقُوا . الله فى كل أموركم : بفعل الواجبات وترك المنهيات. ومن ذلك ترك محبتهم وإطلاعهم على أسراركم.

لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا . أَى لَ يَنَالُ مِنْكُمْ مَكْرَهُمْ وَحِيلُهُمُ الَّتِي يَدْبِرُونَهَا لَكُمْ شَيْئًا قَلِيلًا مِنَ الضَّرَرِ ،  
يحفظ الله الذى وعد به ، ما دمتم تتقون الله وتخشون عقابه .

إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ . مِنَ الْكَيْدِ لَكُمْ ، وَمَحَاوِلَةِ إِلْحَاقِ الْأَذَى بِكُمْ .

مُحِيطٌ . لَا يَعْزِيبُ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ .

ومقتضى علمه تعالى بما يعملون : أن يحاسبهم ويجزيهم عليه .

وقرئ بقاء الخطاب تَعْمَلُونَ . والخطاب للمؤمنين .

والعنى : إن الله محيط بما تعملونه ، أيها المؤمنون ، من الصبر والتقوى وسائر الطاعات . والإذعان لما  
نهاكم عنه من مودة من ليس على دينكم ، وإطلاعهم على أسراركم .

وفيه إشارة إلى أن الامتثال مدعاة للقلب والفوز والانتصار ، وأن المخالفة عن أوامر الله ، سبيل الندامة  
والهلاك (١٢١) .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ الْغَنَاءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾  
إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾  
وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ  
أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا  
وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ  
مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

المفردات :

غدت : أصل الغدو ، الذهاب أول النهار ، ثم استعمل فى مطلق الخروج .

همت طائفتان منكم ان تفشلا : أشرفتا على الهزيمة .

تبوئ المؤمنین مقاعد للقتال : تنزلهم الأماكن المناسبة للقتال .

بدر : اسم لكان بين مكة والمدينة كانت به الغزوة المعروفة باسمه .

ببدر

|            |                                                                                                |
|------------|------------------------------------------------------------------------------------------------|
| وانتم اذلة | : قليلو العدد والعدة .                                                                         |
| من فورهم   | : أى من ساعتهم.                                                                                |
| مسهوئين    | : مسومين بكسر الواو المشددة، متخذين سمة، أى علامة تميزهم، وفتحتها، بمعنى معلمين من الله تعالى. |

## ١٢٠ آية :

نلاحظ أن سورة آل عمران تحدثت عن وحدانية الله وجلاله وعن مظاهر قدرته ورحمته، وعن جوانب من قصة آل عمران، وعن التشبهات التى ساقها اليهود واللوان الحرب النفسية وساقته للمؤمنين من التوجيهات والعظات ما يهدى قلوبهم ويصلح بالهم ويقتل لهم النصر على أعدائهم من خلال ١٢٠ آية فى بداية السورة .

## ٦٠ آية :

ثم تحدثت سورة آل عمران ، عن جوانب متعددة من غزوة أحد فى حوالى ٦٠ آية من الآية ١٢١ إلى الآية ١٨٠ .

## قصة غزوة أحد

كانت غزوة بدر من الغزوات المشهورة فى تاريخ الدعوة الإسلامية، فقد انتصر أتباعها انتصارا مؤزرا على كفار قريش...

وصمم المشركون على أن يأخذوا بثأرهم من المسلمين، فجمعوا جموعهم، وخرجوا فى جيش كبير، ومعهم بعض نساءهم حتى يكون ذلك أبلغ فى استماتة الرجال فى القتال ..

ووصل مشركو قريش ومعهم حلفاؤهم إلى أطراف المدينة فى أوائل شوال من السنة الثالثة ، وكان عددهم يربو على ثلاثة آلاف رجل.

واستشار النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه فى شأن هؤلاء المشركين الزاحفين إلى المدينة .

فكان رأى بعضهم - ومعظمهم من الشباب - الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة

وكان من رأى فريق آخر من الصحابة ، استدراج المشركين إلى أزقة المدينة ومقاتلتهم بداخلها، وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يميل إلى رأى هذا الفريق إلا أنه أثر الأخذ برأى الفريق الأول الذى يرى أصحابه الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة، نظرا لكثرة عدد القاتلين بذلك.

ثم دخل النبى - صلى الله عليه وسلم - بيته ، ثم خرج منه وقد ليس آلة حربه، وشعر بعض المسلمين أنهم قد استكروها النبى - صلى الله عليه وسلم - على القتال ، فأظهروا له الرغبة فى النزول على رأيه، إلا أنه لم يستجب لهم ، وقال كلمته التى تعلم الناس الحزم وعدم التردد : « ما ينبغى لنبى ليس لأمرته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه. لقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتكم إلا الخروج. فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس. وانظروا ما أمركم الله به فافعلوه ... » (٧٠).



ثم خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - في ألف مقاتل من المسلمين حتى نزل قريبا من جبل « أحد » إلا أن « عبد الله بن أبي بن سلول » انسحب في الطريق بثلاث الناس محتجا بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يأخذ برأيه، بل أخذ برأى غيره.

وعسكر المسلمون بالشعب من أحد ، جاعلين ظهرهم إلى الجبل، ورسم النبي - صلى الله عليه وسلم - الخطبة لكسب المعركة، فجاءت خطة محكمة رائعة. فقد وزع الرماة على أماكنهم وكانوا خمسين راميا، وقال لهم: انضحوا الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فالزموا أماكنكم لا تؤتينا من قبلكم .

وفي رواية أنه - صلى الله عليه وسلم - قال لهم : «احموا ظهورنا، وإن رأيتمونا نقتل فلا تتصرونا. وإن رأيتمونا نغتم فلا تتركونا» (٧١).

وأخيرا التقى الجمعان، وأذن النبي - صلى الله عليه وسلم - لأتباعه أن يجادلوا أعداءهم، وأظهر المسلمون أسمى صور البطولة والإقدام، وكان شعارهم في هذا الالتحام « أمت أمت ».

وما هي إلا جولات في أوائل المعركة، حتى ولى المشركون المسلمين الأدبار، ولم يبق عن المشركين شيئا ما كانت تقوم به نسوتهم من تحريض واستتهاز للعزائم.

قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله - تعالى - نصره ، وصدق وعده، فحثوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها .

ورأى الرماة الهزيمة وهي تحل بقريش ، فتطلعت نفوسهم إلى الغنائم، وحاول أميرهم « عبد الله بن جبير » أن يمنهم عن ترك أماكنهم عملاً بوصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا أن معظمهم تركوا أماكنهم ونزلوا إلى ساحة المعركة ليشاركوا في جمع الغنائم والأسلاب ...

وأدرك خالد بن الوليد - وكان مشركا - أن ظهور المسلمين قد انكشفت بترك الرماة لأماكنهم، فاهتبل الفرصة على عجل، واستدار بمن معه من خيل المشركين خلف المسلمين فأحرق بهم، وأخذ في مهاجمتهم من مكان ما كانوا ليظنوا أنهم سيهاجمون منه، فقد كانوا يعتمدون على الرماة في حماية ظهورهم ..

وعاد المشركون المنهزمون إلى مقاتلة المسلمين، بعد أن رأوا ما فعله « خالد » ومن معه.

واضطربت صفوف المسلمين للتحول المفاجئ الذي حدث لهم، إلا أن فريقا منهم أخذ يقاتل ببسالة وصبر.. واستشهد عدد كبير منهم وهم يحاولون شق طريقهم ..

وأصيب النبي - صلى الله عليه وسلم - خلال ذلك بجروح بالغة، وأشيع أنه قد قتل إلا أنه - صلى الله عليه وسلم - جعل يصيح بالمسلمين : إلى عباد الله، إلى عباد الله .. فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلا، ودافعوا عنه دفاع الأبطال المخلصين ..

ومرت على المسلمين ساعة من أخرج الساعات في تاريخ الدعوة الإسلامية ، فقد كان المشركون يهاجمون النبي - صلى الله عليه وسلم - بعناد وحقد، وكان المسلمون مستمبئين في الدفاع عن رسولهم وعن أنفسهم.

وكان لهذه الاستماتة آثارها في تراجع المشركين ، وقد ظنوا أنهم قد أخذوا بثأرهم من المسلمين ..

وخشى النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يكون تراجع المشركين من أجل مهاجمة المدينة: فقال لعل بن أبي طالب: اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ، فإن هم جنّبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فهم يريدون المدينة. فوالذي نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم، ثم لأناجزنهم فيها .

قال على : فخرجت في آثارهم فرأيتهم جنّبوا الخيل ، وامتطوا الإبل واتجهوا إلى مكة .

وعندما انصرف أبو سفيان نادى : إن موعدكم بدر العام المقبل . فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه - : قل له : نعم بيننا وبينك موعد .

وانتهت غزوة أحد باستشهاد حوالى سبعين صحابيا من بينهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، وسعد بن الربيع ... وغيرهم من الأبطال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

التفسير :

١٢١ - وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

واذكر لهم يا محمد ليعتبروا ويتطهروا وقت خروجك مبكرا من حجرة زوجك عائشة إلى غزوة أحد .

تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعَ لِلْقِتَالِ . أى تزلهم وتسوّى لهم بالتنظيم والترتيب مواطن وأماكن للقتال بحيث يكونون في أحسن حال وأكمل استعداد لملاقاة أعدائهم .

وتشير الآية إلى ما فعله النبي - صلى الله عليه وسلم - مع أصحابه قبل أن تبدأ المعركة، فقد اهتم بتنظيم صفوفهم، وبرسم الخطة الحكيمة التي تكفل لهم النصر .

فجعل للجيش ميمنة وميسرة، وجعل الرماة على ظهر الجبل، وأمر الجيش كله ألا يتحرك للقتال إلا عندما يأذن له بذلك .

واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . أى سميع لما تقولون ، عليم بضمائركم ونياتكم وأعمالكم، فيجازى كل إنسان على حسب قوله ونيته وعمله. والمقصود من هذه الجملة غرس الرهبة في قلوب المؤمنين، حتى لا يعودوا إلى مثل ما حدث من بعضهم في غزوة أحد، حيث خالفوا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١٢٢ - إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

(الهم) : هو حديث النفس وإتجاهها إلى شيء معين دون أن تأخذ في تنفيذه، فإذا أخذت في تنفيذه صار إرادة وعزما وتصميما .

تَفْشَلًا : من الفشل وهو الجبن والخور والضعف، يقال فشل فُشلا فهو فُشل أى جبان ضعيف القلب.

والمعنى : اذكر يا محمد حين همت طائفتان - وهما بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج، أن تفشلا وتضعفا وتجبنا عن القتال، وتتبعنا عبد الله بن أبي سلول عندما اتخذ ثلث الناس وقال : يا قوم علام تقتل أنفسنا وأولادنا؟ فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧٢).

وعن ابن عباس قال : أضمرنا أن يرجعوا فعزم الله لهم الرشد فتبثوا .. والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس ، كما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، ثم يردّها صاحبها إلى الثبات والصبر، ويوطنها على احتمال المكروه ... ولو كانت عزيزة لما ثبتت معها ولاية الله (٧٣).

وَعَلَى اللَّهِ فليتَرَكِلِ الْمُؤْمِنُونَ .

التوكّل هو الاعتماد على الله تعالى بعد الأخذ فى الأسباب ، فإذا لم يأخذ الإنسان فى الأسباب كان توكلا لا توكلا .

أى وعلى الله وحده لا على غيره فليكل المؤمنون أمورهم، بعد اتخاذ الأسباب التى أمرهم- سبحانه - باتخاذها ، فإنهم متى فعلوا ذلك تولاهم سبحانه بتأييده ورعايته .

إن حديث القرآن فى سورة آل عمران عن غزوة أحد استمر قرابة ستين آية، ولم يسر القرآن فى أحداث الغزوة حسب ترتيب خروجها وأحداثها . بل حسب مشيئة الحق سبحانه فى أن ينتزع منها العبرة والعظة، ويصور الجو الذى صاحبها، وبذلك تتحول الغزوة إلى نقطة ارتكاز لثروة ضخمة من المشاعر والسمات، والنتائج والاستدلالات، يبدأ السياق منها؛ ثم يستطرد حولها ثم يعود إليها ثم يجول فى أعماق الضمائر، وفى أغوار الحياة، ويكرر هذا مرة بعد مرة، والقرآن بهذا يأسو جراح المؤمنين ويثبت إيمانهم ، ويشحذ عزائمهم ، ويتخلل ذلك تربية وتعليم وبيان لسنن الله ونواميسه، وبهذا كان القرآن كتاب الحياة، أنشأ أمة وأقام دولة ورعى أجيالاً . - وصنع ضمائر وحرك همما وعزائم ، صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ - . (النمل : ٨٨) .

١٢٢ - وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

تشير الآية إلى معركة بدر وكانت يوم الجمعة ١٧ رمضان سنة ٢هـ، وهو يوم الفرقان الذى أعز الله فيه الإسلام وأهله، وأذل الشرك وأهله، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، فيهم فارسان وسمعون وبعيرا، والباقيون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه ، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف، فى سوابغ الحديد والعدة الكاملة، والخيول المسؤومة (٧٤)، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله.

وقرية بدر لا تزال إلى الآن في الطريق بين مكة والمدينة، وهي أقرب إلى المدينة منها إلى مكة، وقد زرت هذه القرية وشاهدت مكان المعركة، واستشعرت فضل الله وعونه ومدده الذي أمدَّ به المؤمنين في غزوة بدر، فنصرهم على عدوهم، مع قلة المسلمين وقلة عدتهم، وكثرة عدوهم واستكمال عدته، ولو تمت أمور هذه الغزوة بمقاييس القوة والاستعداد - دون التوكل على الله - لكان النصر لقريش دون المسلمين، ولكن النصر جرى على سنة الله من نصر المؤمنين المتقين الصابرين المتوكلين على الله، قال تعالى: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ .

وليس المراد بالذل أنهم كانوا ضعاف النفوس، أو كانوا راضين بالهوان.. وإنما المراد أنهم كانوا قليلي العدد والعدد، فقراء في الأموال وفي وسائل القتال.

قال تعالى في آية أخرى: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا . (التوبة: ٢٥).

وقال الإمام أحمد عن سمالك قال: سمعت عياضاً الأشعري قال: شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء، وقال عمر: إذا كان قتالا فعليكم أبو عبيدة، فكتبنا إليه أنه قد جأش إلينا الموت، واستمددنا، فكتب إلينا أنه قد جاء في كتابكم تستمدوني، وإني أدلكم على من هو أعز نصرا، وأحصن جندا، الله عز وجل فاستصبروه، فإن محمد صلى الله عليه وسلم قد نصر في يوم بدر في أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي، هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني. قال: فقاتلناهم فهزمتهم، أربع فراسخ، وأصبنا أموالا كثيرة (٧٥).

فَاتَّقُوا اللَّهَ . في الثبات والصبر وامتنال أوامره واجتنب نواهيه.

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . أي لعل الله أن ينعم عليكم بالنصر فتشكروه عليه.

١٢٤ - إِذْ يَقُولُ لِّلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ .

المعنى: اذكروا محمد إذ يقول للمؤمنين يوم بدر: أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ من الله، لتثبيتكم وتقوية قلوبكم على أعدائكم، وإن أنتم توكلتم عليه وصبرتم.

قال ابن كثير: اختلف المفسرون في هذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد على قولين أحدهما أن قوله تعالى: إِذْ يَقُولُ لِّلْمُؤْمِنِينَ . متعلق بقوله: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ .

والقول الثاني: يرى أصحابه أن هذا الوعد متعلق بقوله تعالى: وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ فَقَالَ لِّأَهْلِ قَوْمِكَ إِنِّي نَاظِرُكُمْ مِنَ الْقُرُونِ . وذلك يوم أحد.

( والقول الأول قول أكثر المفسرين لأن الكلام متصل بقصة بدر، ولأن العدة والعدد يوم بدر كانا أقل وكان الاحتياج إلى المدد أكثر ) (٧٦).

١٢٥ - بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ .

بَلَىٰ . أى نعم ، يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين من الله ، ولكنه سبحانه يمدكم بأنكم إن تصبروا . على قتال أعدائكم ، وعلى كل ما أمركم الله بالصبر عليه وَتَقُّوا . الله وتخشوه وتجتنبوا معاصيه ويأتوكم من فُورِهِمْ هَذَا . أى ويعايلكم المشركون مسرعين ليحاربوكم ، وقد أعددت أنفُسكم لقتالهم ، إذا فعلتم ذلك - يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة ، معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامات مخصوصة .

فى أعقاب الآية :

إذا كان الله تعالى قد أمد المؤمنين بالملائكة فى بدر فهل كانت وظيفتهم القتال مع المؤمنين؟ أو كانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين فقط ؟.

يرى كثير من العلماء أن الملائكة قد قاتلت مع المؤمنين .

قال القرطبى : تظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت .

ويرى فريق آخر من العلماء أن الملائكة ما قاتلت مع المسلمين يوم بدر ، وإنما أمد الله المؤمنين بالملائكة لتثبيت نفوسهم وتقوية قلوبهم ، ولتخذيّل المشركين وإلقاء الرعب فى قلوبهم .

قال صاحب تفسير المنار :

ليس فى القرآن الكريم نص ناطق بأن الملائكة قاتلت بالفعل ، وإنما جاء ذكر الملائكة فى سياق الكلام عن غزوة بدر فى سورة الأنفال ، على أنها وعد من الله تعالى بإمداد المؤمنين بألف من الملائكة .

وفسر هذا الإمداد بقوله عز وجل :

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَفَتَرُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَائِلِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . (الأنفال : ١٢) .

قال ابن جرير الطبرى فى معنى التثبيت :

« يقول قووا عزمهم ، وصححوا نياتهم ، فى قتال عدوهم من المشركين » .

وقيل : كان ذلك معونتهم إياهم بقتال أعدائهم .

ونقل صاحب المنار نقولاً كثيرة فى تفسير هذه الآية ، وفى تفسير سورة الأنفال رجح فيها أن معونة الملائكة للمؤمنين كانت معنوية وأن الملائكة لم تدر القتال (٧٧) .

وقال النيسابورى :

أجمع أهل التفسير وأرباب السير أنه تعالى أنزل الملائكة يوم بدر وأنهم قاتلوا الكفار، وعن ابن عباس أنه 'لم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر، وفيما سواه كانوا عددا ومددا لا يقاتلون ولا يضرّيون، ومنهم من قال : إن نصر الملائكة بإلقاء الرعب فى قلوب الكفار، وبإشعار المؤمنين بأن النصر لهم.

هل هذه مناقشة مجدية :

فى كتب التفسير الكبرى مثل تفسير الطبرى والنيسابورى وفخر الدين الرازى وتفسير المنار، نجد نقاشا قويا بحجج وأسانيد وأدلة عقلية ونقلية حول موضوعين :

**الأول :** هل أمدّ الله تعالى المؤمنين فى غزوة بدر بهذا العدد المذكور فى الآية ١٢٤ ، ١٢٥ من سورة آل عمران ٩.

فبعض المفسرين يرى أن الله أمدّ المؤمنين فى بدر بخمسة آلاف من الملائكة، وقال آخرون : لم يزد المدد على ألف من الملائكة.

**الموضوع الثانى :** هل باشرت الملائكة القتال بنفسها، أم اقتصرت مهمتها على تثبيت المؤمنين وإلقاء الرعب فى قلوب المشركين ٩ .

والذى يطعن إليه القلب أن الله تعالى أمد المؤمنين، وإن ذلك كان من أسباب النصر.

أما النقاش فى عدد الملائكة يوم بدر وهل كان ألفا أو خمسة آلاف؟ والنقاش فى عمل الملائكة يوم بدر، فهو لون من ألوان الترفّ العقلى. إنّ الملائكة من عالم الغيب ويكفيها كتاب الله، ويكفى المسلم أن يعتقد بأن الله أوحى للملائكة بأن تثبت المؤمنين وتساعدهم فى اكتساب النصر، ولا يضير المسلم أن يجهل عدد الملائكة التى تنزلت، ولا يزيد فى يقينه أن يعتقد أن الملائكة باشرت القتال ، أو اقتصرت مهمتها على التثبيت ، وآراء الفريقين تحتلهاها النصوص . ولا نريد أن نرجح رأى فريق ، بل نحن أقرب إلى التسليم والتفويض وقولنا : آمنا به كل من عند ربنا .

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١٢٦ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ۝١٢٧ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ۝١٢٨ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٩﴾

المفردات :

فينقلبوا خائبين : هيرتدوا منقطعى الآمال.

يكبتهم : الكبت : شدة الغيظ، أو وهن يقع فى القلب.

ليقطع طرفا : لينقص فريقا من الكافرين بالقتل والأسر.

التفسير :

١٢٦ - وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ .

أى وما جعل الله الإمداد بالملائكة ولا الوعد به ، إلا بشارة لكم بالنصر، وتطمئنا لقلوبكم حتى تثبتوا أمام عدوكم ، وليس النصر إلا من الله وحده فهو العزيز الذى لا يقلب ، الحكيم الذى يفعل كل ما يريد فعله حسبما تقتضيه حكمته ، فالمدد بالملائكة أو غيرها سبب ظاهر ، والسبب الحقيقى هو الله سبحانه وتعالى .

( ولقد حرص القرآن فى كثير من آياته على تثبيت هذا المعنى فى قلوب المؤمنين ، حتى لا يعتمدوا على الأسباب والوسائل التى بين أيديهم ويفتروا بها دون أن يلتفتوا إلى قدرة خالق الأسباب والوسائل، فإنهم إذا اغتروا بالأسباب والوسائل، ونسوا خالقها اتاهم الفشل من حيث لم يحتسبوا وكان أمرهم فرطاً ) (٧٨).

والمؤمن الحق قوى الإيمان بربه، واثق بقدرة خالقه، فهو سبحانه يقول للشراء كن فيكون ، لكنه سبحانه جعل للنصر أسبابا، وجعل لهذا الكون نواميس وقوانين، وأمرنا أن نأخذ بالأسباب مع اليقين الجازم بقدرة القادر، فعلينا بطاعة الله وامتنال أمره واجتنب نهيه، فمن أطاع الله أطاعه كل شيء يا أيها الذين آمنوا إن تصروا الله بنصركم ويثبت أقدامكم . ( محمد : ٧ ) .

١٢٧ - لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ .

إن النصر من عند الله ، وقد نصر الله المؤمنين فى بدر، وهو سبحانه حكيم فى إنزاله النصر ، وحكمة هذا النصر أن ينقص جانباً من الذين كفروا ويستأصلهم بالقتل ، وينقص من أرضهم بالفتح ، ومن سلطانهم بالقهر ، ومن أموالهم بالغنمية .

أَوْ يُكَبِّتَهُمْ وَيَذِلَّهُمْ وَيَغِيظُهُمْ غَيْظًا شَدِيدًا بِسَبَبِ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ هَزِيمَةٍ، فَيَعُودُوا إِلَى دِيَارِهِمْ مُنْكَسِرِينَ مَدْحُورِينَ، فَقَدْ كَانُوا يَقْصِدُونَ إِطْلَاقَ نُورِ الْإِسْلَامِ فَخَابَ قَصْدُهُمْ ، وَطَاشَ سَهْمُهُمْ ، وَعَادُوا وَقَدْ فَتَقَدُوا الْكَثِيرِينَ مِنْ وَجْهِهِمْ وَصَنَادِيدِهِمْ ، أَمَّا الْإِسْلَامُ فَقَدْ أَزْدَادَ نُورَهُ تَالِقًا، وَأَزْدَادَ أَتْبَاعَهُ إِيْمَانًا عَلَى إِيْمَانِهِمْ ، وَرَزَقَهُمُ اللَّهُ النَّصْرَ الْمُبِينَ.

١٢٨ - لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ .

كانت الحرب سجلا بين المؤمنين والكافرين ، وأرسل النبي ﷺ سبعين قارئاً لتعليم القرآن لبعض القبائل ، فقتلهم المشركون ، وقد اشتد حزن الرسول ﷺ لموت القراء ودعا على المشركين (٨٧).

وقد حدث مثل ذلك في غزوة أحد ، عندما لحقت الهزيمة بالمسلمين وأصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بجراح في وجهه الشريف، وسال الدم منه فقال : « كيف يقلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل » ، فأنزل الله لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (٨٠).

وتقيد الأحاديث الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو في صلاة الصبح بعد الركوع، إذا قال سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد ، فيدعو بنجاة المستضعفين في مكة، وربما دعا على المشركين الذين يقتلون المسلمين ويعذبونهم ، روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على رجال من المشركين يسميهم بأسمائهم ، حتى أنزل الله تعالى : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ .

والآية تشير إلى حكمة إلهية عليا يريد الله تحقيقها في هذا الكون، وهي أن يدفع المؤمنون ضريبة الإيمان بالجهاد والكفاح واحتمال الابتلاء ، قال تعالى : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١٧٨) إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ . (هود : ١١٨ ، ١١٩).

وقال عز شانه أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ . (الأنكبيوت : ٢ ، ٣).

أو تشير الآية إلى أن وظيفة الرسول البلاغ ، قال تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . ( القصص : ٥٦ ). وقال سبحانه : فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ . ( الرعد : ٤٠ ).

روى ابن كثير عن محمد بن إسحاق في قوله لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ . أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم .



والمعنى : أن مالك أمرهم على الإطلاق هو الله عز وجل ، وله حكمة يريد تحقيقها ، وليس لك يا محمد من التصرف في أمر عبادى شيء ، بل الأمر لله ، فإما أن يتوب عليهم بالإيمان ، أو بتوجيههم للاعتبار ، فإن انتصار المسلمين قد يكون فيه للكافرين عظة وعبرة ، فيقودهم إلى الإيمان والتسليم ، فيتوب الله عليهم من كفرهم ويختم لهم بالإسلام والهداية .

أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ .

أو يعذبهم بنصرة المسلمين عليهم أو بأسرهم ، أو يعذبهم بالقتل والخزى والعذاب يوم القيامة ، لأنهم ظلموا أنفسهم حين حرموها من النظر والاعتبار والهداية ، وأصروا على الكفر واستحبوا العمى على الهدى وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . (النحل : ٢٣) .

وذكر بعض المفسرين أن قوله تعالى : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ . جملة معترضة بين المتعاطفات في الآيتين ١٢٧ ، ١٢٨ وتقدير الآيتين هكذا :

(ولقد نصركم الله ببدر ليهلك طائفة من الذين كفروا بالقتل والأسر ، أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم في الدنيا والآخرة بسبب ظلمهم ، وليس لك من أمرهم شيء إنما أنت رسول من عند الله تعالى مأمور بإنذارهم وجهادهم) .

وقد رجَّح هذا الوجه صاحب الكشف فقال :

وقوله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ . اعتراض ، والمعنى : أن الله مالك أمرهم ، فإما أن يهلكهم أو يهزمهم ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر ، وليس لك من أمرهم شيء ، إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم .

وقيل إن أَوْ . بمعنى ( إلا أن ) كقولك : لألزمك أو تقضيني حقي . على معنى : ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم ، أو يعذبهم فتشقى منهم <sup>(٨١)</sup> .

١٢٩ - وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

سيقت هذه الآية لتأكيد ما تقدم ، من أن الأمر كله بيد الله وحده .

ومعنى الآية :

إن لله جميع ما في السماوات وما في الأرض ملكا وتصرفا وتدبيراً ، لا ينازعه في ذلك منازع ولا يعارضه معارض ، وهو سبحانه يغفر لمن يشاء أن يغفر له من المؤمنين فلا يعاقبه على ذنبه ، فضلاً منه وكرماً ، ويعذب من يشاء أن يعذبه عدلاً منه ، ومغفرته أقرب ورحمته أرجى لأنه كثير المغفرة والرحمة .

وتلاحظ أن الآيات السابقة من الآية ١٢٢ إلى الآية ١٢٩ ، قد افتتحت الحديث عن غزوة أحد باستحضار بعض أحداثها، وتذكير المؤمنين بما هم به بعضهم قبل أن تبدأ المعركة، ثم بتذكيرهم بمعركة بدر وما تم لهم فيها من نصر مؤزر، منحه الله لهم مع قتلهم وضعفهم، حتى يعرفوا أن النصر ليس بكثرة العدد والعدة ، وإنما النصر يأتي مع صفاء النفوس ونقاء القلوب ومضاء العزائم، والطاعة التامة لله ورسوله ، ثم تحدثت الآيات عن حكمة إلهية عليا في هذا الكون ، وبينت أن بيد الله سبحانه وتعالى الخلق والأمر وهو على كل شيء قدير .



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

المفردات :

الربا : هو ربح المال ، يقال ربا المال يربو رباه أى زاد، وأربى الشيء على الشيء أى زاد عليه .

أضعافا مضاعفة : أى زيادات مكررة، وأضعافا جمع ضعف، وضعف الشيء: مثله الذى يصير به اثنين .

مضاعفة : فيه إشارة إلى تكرار التضعيف مرة بعد مرة .

التفسير :

١٣٠ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

من شأن القرآن أن يعنى بتربية المؤمنين وإرشادهم وتعليمهم ، وفى الآية السابقة دروس وعبر من غزوة أحد وغزوة بدر ، وفى الآيتين ١٣٠ ، ١٣١ دروس فى تحريم الربا وتحذير من عقاب آكله .

وهى سنة القرآن فى تخزين المؤمنين بالموعظة، والأمر والنهى والترغيب والترهيب، والانتقال بالنفس البشرية من خير إلى أمر إلى نهى .. رغبة فى حمل النفس على تقبل الأوامر ، واجتناب النواهى ، والتزام الطاعة .

#### قال الإمام الرازى :

لما شرح الله عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بإرشادهم إلى الأصلح لهم فى أمر الدين وفى أمر الجهاد، أتبع ذلك بما يدخل فى الأمر والنهى والترغيب والترهيب ، فقال : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً .. (٨٢) .

وكان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم - مثلاً - إلى أجل فإذا حل الأجل، ولم يكن المدين واجداً لذلك المال، قال: زدني في المال حتى أزيد في الأجل، فربما جعله مائتين، ثم إذا حل الأجل الثاني فعل مثل ذلك، ثم إلى آجال كثيرة، فيأخذ بسبب تلك المائة أضاعفها فهذا هو المراد من قوله: **أَضَاعَفَا مَضَاعَفَةً** (٨٣).

(وكان يهود المدينة من أشهر المتعاملين بالربا، فنهى الله سبحانه المؤمنين أن يرتكبوا هذه الفعلة النكراء، فإن الربا يجتث مال الفقير، ويضيع جهده، ويزيد في ثراء الأغنياء مع الدعة والراحة.. وهو الذي يقطع أواصر المودة والتعاطف بين الناس) (٨٤).

وقد سبق الحديث عن الربا في الآية ٢٧٥، ٢٧٦ من سورة البقرة. وفيهما ما يدل على تحريم الربا قليله وكثيره، عاجله وآجله وأن ليس للدائن سوى رأس ماله.

قال تعالى: **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (٢٧٥) **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**. (البقرة: ٢٧٥، ٢٧٦).

وقد ابتدأ سبحانه الآية التي نفسرها بقوله:

**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا ..**

ليبين أن الربا ليس من شأن المؤمنين وإنما هو من سمات الكافرين الفاسقين.

وإذا كان الكافرون يستكثرون من تعاطي الربا فعلى المؤمنين أن يجتنبوا هذا الفعل القبيح، وأن يتحروا الحلال في كل أمورهم.

وخصه بالنهي لأنه كان شائعاً في ذلك الوقت، ولأنه - كما يقول القرطبي - هو الذي أذن فيه بالحرث في قوله تعالى: **فَإِنْ لَّمْ تَسْعَوْا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**. والحرب يؤذن بالقتل، فكانه يقول لهم: إن لم تنتهوا الربا هزمتهم وقتلتهم (٨٥).

والمراد من الأكل الأخذ، وعبر عنه بالأكل لما أنه معظم ما يقصد به، ولشيوعه في الماكولات مع ما فيه من زيادة التشنيع.

والربا معناه الزيادة، والمراد بها هنا تلك الزيادة التي كانت تضاف على الدين.

قال الإمام ابن جرير: عن عطاء قال: كانت ثقيف تداين بنى المنيرة في الجاهلية، فإذا حل الأجل قالوا: نزيدكم وتؤخرون.

وقال ابن زيد : كان أبى - زيد بن ثابت - يقول : إنما كان ربا الجاهلية فى التضعيف ، يكون للرجل على الرجل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له « تقضيئى أو تزيدنى » (٨٦).

وقوله : أضعافاً . حال من الربا ، وقوله : مضاعفةً . صفة له .

والأضعاف جمع ضعف . وضعف الشيء مثله ، وضعفاه مثلاه ، وأضعافه أمثاله .

وهذا القيد وهو قوله : أضعافاً مضاعفةً . ليس لتقييد النهى به ، أى ليس للنهى عن أكل الربا فى هذه الحالة وإباحته فى غيرها ، بل هذا القيد لمراعاة الواقع ، ولبيان ما كانوا عليه فى الجاهلية من التعامل الفاسد المؤدى إلى استئصال المال ، ولتبويج من كان يتعاملى الربا بتلك الصورة البشعة .

وقد حرم الله - تعالى - أصل الربا ومضاعفته ، ونفر منه تنفيراً شديداً ، فقال تعالى : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ...

وهذا النوع من الربا الذى نهى الله تعالى عنه هنا بقوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً . هو الذى يسمى عند الصحابة والفقهاء بربا النسبة ، أو ربا الجاهلية ، وقد حرمه الإسلام تحريماً قاطعاً ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع : « ألا إن ربا الجاهلية موضوع - أى مهدر - وأول ربا أبداً ربا عمى العباس بن عبد المطلب » (٨٧).

وقال الإمام أحمد بن حنبل : إن ربا النسبة يكفر من يجحد تحريمه .

ويقابل هذا النوع من الربا ، ربا البيوع وهو الذى ورد فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، الذى يقول فيه : « البر بالبر مثلاً بمثل يدا بيد ، والذهب بالذهب مثلاً بمثل يدا بيد والفضة بالفضة مثلاً بمثل يدا بيد ، والشعير بالشعير مثلاً بمثل يدا بيد . والتمر بالتمر مثلاً بمثل يدا بيد . والملح بالملح مثلاً بمثل يدا بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى » (٨٨).

وقد اتفق العلماء على أن بيع هذه الأصناف لابد أن يكون بغير زيادة إذا كانت بمثلها كتمح بقمح ، ولا بد من قبضها . وإذا اختلف الجنس كتمح بقمح بشعير جازت الزيادة ، ولا بد من القبض فى المجلس ، والتأخير يسمى ربا النساء ، والزيادة المحرمة تسمى ربا الفضل .

وللفقهاء فى هذا الموضوع مباحث طويلة؛ ليرجع إليها من شاء فى مظانها . ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بأمر المؤمنين بخشية الله وتقواه فقال : وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

أى : واتقوا الله بأن تجعلوا بينكم وبين معارمه ساتراً ووقاية ، لعلكم بذلك تتألون الفلاح فى الدنيا والآخرة .

ثم حذرهم - سبحانه - من الأعمال التي تقضى بهم إلى النار فقال: **وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** أي: صوبوا أنفسكم ، واحترزوا من الوقوع في الأعمال السيئة كتماطى الريا وما يشابه ذلك ، لأن في هذه الأعمال السيئة ما يؤدي بكم إلى دخول النار التي هيئت للكافرين .  
وفى التعقيب على النهى عن تماطى الريا بتقوى الله وابتغاء النار، إشعار بأن الذى يأكل الريا يكون بعيدا عن خشية الله وعن مراقبته ، ويكون مستحقاً لدخول النار التي أعدها الله تعالى للكافرين والفاستقين عن أمره .

قال صاحب الكشف : كان أبو حنيفة إذا قرأ هذه الآية : **وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** . يقول : هي أخوف آية في القرآن ، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتتاب محارمه (٨٩) .

ثم بعد هذا التحذير الشديد للمؤمنين من ارتكاب ما نهى الله عنه، أمرهم - سبحانه - بطاعته وطاعة رسوله فقال : **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** .

أي أطيعوا الله في كل ما أمركم به ونهاكم عنه، وأطيعوا الرسول الذي أرسله إليكم ريكماً لهدايتكم وسعادتكم ، لعلكم بهذه الطاعة تكونون في رحمة من الله ، فهو القائل وقوله الحق : **إِنْ رَحِمْتُ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ** . (الأعراف : ٥٦) .

وفى ذكر طاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مقترنة بطاعة الله تعالى تنبيه إلى أن طاعة الرسول طاعة لله . فقد قال تعالى : **مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا** . (النساء : ٨٠) .

★ ★ ★

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي الشَّرَاءِ وَالْبُرَاءِ وَالْكَظِيمِ الْقَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

المفردات :

هيئت :

أعدت

السراء : الرجاء واليسر .

الضراء : الشدة والعسر .

الكاظمين الغيظ : المسكين عند امتلاء نفوسهم به . فلا ينتقمون ممن غاظهم . وأصل الكظم : شد قم القربة عند امتلائها . والغيظ : هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر .

فلحشة : الفاحشة ، كل ما عظم قبحه من الذنوب .

يصبروا : يقيموا .

التفسير :

١٣٣ - وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. الآية .

لما حذر الله في الآيات السابقة ، من الأفعال المستتبعة للعقاب ، عقبه بالحث على الأفعال المستتبعة للنواب ، فقال : وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ . أى : بادروا وسابقوا إلى كل ما يحقق لكم مغفرة ربكم لذنوبكم ، ويوصلكم إلى نيل مرضاته ، ودخول جنته الواسعة . وذلك يكون بإقبالكم على طاعته ، وامتنال أوامره ، واجتناب نواهيه .

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ . أى : كعرضها . وليس المراد التحديد ، وإنما هو كناية عن غاية سعتها ، وعظيم رحبتها بما هو - فى تصور المخاطبين - أوسع الأشياء وأرحبها . وخص العرض بالذكر - مع أنه دون الطول - للمبالغة فى البسط والسعة ، وبطرق العرض أيضاً على السعة .

ويجوز أن يراد منه هذا المعنى هنا .

أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . أى : هيأها الله لعباده الذين يتقون عذابه ، بامتنال أوامره واجتناب معارمه .

ثم وصف الله عباده المتقين ، ببعض صفاتهم التى تؤهلهم لمغفرته ، ودخول جنته فقال :

١٣٤ - الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ .. الآية .

أى فى اليسر والعسر ، والفرح والحزن ، والمنشط والمكره .

والمراد : أنهم ينفقون فى كل أحوالهم ، فهى دائرة بين السراء والضراء . وهذه هى الصفة الأولى .

وإنما ابتدئ بالإنتفاق ، لأن الجود بالمال - وبخاصة فى حال العسرة والشدة - من أشق الأمور على النفوس .

وفيه أقوى الأدلة على الإخلاص ، لأن حاجة المسلمين إلى الإنتفاق - آنذاك بل وكل آن - كانت أشد ، لمجاهدة العدو ، ومواساة المسلمين .

ولأن النهى عن الربا يستدعى بديلاً عنه . ولذلك يقترن النهى عن الربا - فى القرآن - بالحث على الصدقة .

وحذف مفعول يُنْفَقُونَ . ليعم كل ما يصلح للإنفاق ، أو لأن المراد وصفهم بالإتفاق دون نظر إلى ما ينفقون كما تقول : فلان يعطى ويمنع . لا تقصد إلا وصفه بالإعطاء والمنع .  
وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ .

صفة ثانية . وكظم الغيظ : حبسه وكنمه مع القدرة على إمضائه . والغيظ : هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر . والفرق بينه وبين القضب - على ما قيل - أن الغضب يتبعه إرادة الانتقام البتة ، ولا كذلك الغيظ . والغيظ أصل الغضب . وكثيراً ما يتلازمان .

وكظم الغيظ من أجل الأخلاق وأنبلها وأحبها إلى الله .  
وفى الحديث الشريف : « من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفعه ، ملأ الله جوفه أمناً وإيماناً »<sup>(٩٠)</sup> .  
وعبر فى الصفة الأولى بالفعل المضارع يُنْفَقُونَ . قصد الإرادة أن يجعلوا الإتفاق من آن لآخر .  
وعبر بالكاظمين وهو اسم فاعل : لقصد الثبات والاستمرار على ضبط النفس .  
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .

هذه صفة ثالثة ، جاءت على اسم الفاعل ، للدلالة على الثبات والدوام أيضاً .  
والعفو : ترك عقوبة من يستحق العقوبة من الناس ، لتنب جناه . وهو أكمل من كظم الغيظ ، لأن الغيظ ، مجرد ضبط النفس ، ولا يلزمه الإغضاء عن الإساءة .  
أما العفو ، فيقتضى تناسى الإساءة واعتبارها كأن لم تكن .

وفى الحديث الصحيح : « .. وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً »<sup>(٩١)</sup> .  
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

أى كل المحسنين ، ويدخل فيهم ، من تقدم ذكرهم .  
والحب : ميل القلب إلى المحبوب . .  
والمراد به - فى الآية - ما يلزم عنه من الثواب والرضوان .  
والمعنى : أن الله يرضى عن المحسنين جميعاً ، ويجازيهم على إحسانهم أحسن الجزاء .  
والإحسان يشمل : إتقان العمل ، والإتيان به على الوجه الأكمل .

ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد سئل عن الإحسان :

« أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٩٢).

ويشمل أيضاً : إيصال النفع إلى الغير، ودفع الضرر عنه .

ولا يكمل الإحسان حتى يكون خالصاً لوجه الله : لا ينتظر المحسن مكافأة عليه ، ولا يكون مكافأة على

إحسان سابق وصل إليه .

وفي الحديث الشريف : « ليس الواصل بالمكافئ » (٩٣). والمراد بالواصل : المحسن .

وقال الثوري : الإحسان : أن تحسن إلى من أساء إليك . فإما من أحسن إليك ، فإنه متاجرة كتقذ السوق:

خذ مني وهات .

ولمكانة الإحسان عند الله، أثار عليه بأعلى أنواع الثواب ، وهو محبته سبحانه وتعالى - كما قال في ختام

الآية : **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** .

١٣٥ - **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ** ولم

**يَصْرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** .

هذه هي الصفة الرابعة من صفات المتقين . عطفت على ما قبلها . وقوله تعالى : **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** .

جملة متوسطة بين المعطوف والمعطوف عليه : مشيرة إلى ما بينهما من التفاوت في الفضل. فإن درجة الأولين

من التقوى أعلى، وحظهم أوفى.

ويجوز أن يكون **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً** . معطوف على **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ** . فكانه لما ذكر

الصف الأعلى من المتقين وهم : المتصفون بتلك الأوصاف الجميلة - ذكر من دونهم فقال : **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا**

**فَاحِشَةً** .

أي أتوا بمعصية تفاقم قبحها، وعظم شرها وخطرها .

**أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** .

أي جنوا على أنفسهم بارتكاب أي ذنب من الذنوب الكبائر أو الصغائر.

**ذَكَرُوا اللَّهَ** .

أي تذكروا عظمته وجلاله، وحقه في أن يعبد ولا يعصى ، وأنه الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن

السيئات .

**فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ** . عتب تذكرهم لله .



والمراد بالاستغفار : الإقلاع عن الذنب ، والندم على فعله ، والعزم على عدم معاودته ، ورد المظالم لأصحابها .

أما التوبة بمجرد اللسان ، فذلك توبة الكذابين .

وهي مثل هذه التوبة الكاذبة ، يقول بعض العارفين : استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار .

ومن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ .

أى لا أحد يقبل توبة التائبين ، ويعفو عن العاصين ، غيره سبحانه .

وهي هذا دعوة منه تعالى إلى الالتجاء إليه ، وطلب عفوه ومغفرته ، لأنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه ، ولا حيلة للمذنب إلا طلب فضله سبحانه والتماس رحمته .

وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا . هذا عطف على فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ .

وجملة : ومن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ . متوسطة بين المتعاطفين .

ومعنى وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا . أنهم لا يقيمون على معصية من المعاصي: كبيرة كانت أم صغيرة . بل يرجعون إلى الله ويتوبون إليه من قريب .

وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أن من تاب تاب الله عليه ، وأن إقامتهم على الذنب - ولو كان صغيراً - قبيح ، لا يليق بمؤمن ، لأن الصغيرة لا تبقى صغيرة مع الإصرار كما أن الإصرار على الذنب يتنافى مع الاستغفار .

قال صلى الله عليه وسلم : « ما أصر من استغفر » (٩٤) .

١٣٦ - أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ .

أُولَئِكَ . أى الموصوفون بما تقدم من الصفات .

جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ . أى جزاؤهم على هذه الصفات التى تحلو بها : ستر خطاياهم . وعدم مؤاخذتهم عليها .

وَجَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . أى تجرى من تحت قصورها الأنهار المختلفة التى ذكرها الله فى قوله :

مثل الجنة التى وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فيها أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .. ( محمد : ١٥ ) .

وهذه الجنات ، ضمن تلك الجنة : التى أخبر سبحانه ، أن عرضها السموات والأرض .

خَالِدِينَ فِيهَا أَى مَأْكُتٍ فِيهَا ، لَا يُبَخَّرُونَ مِنْهَا أَبَدًا . كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ . (الحجر : ٤٨) .

وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . ذَلِكَ الْمَذْكُورُ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالْجَنَاتِ .

★ ★ ★

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْرٌ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

المفردات :

خلت : مضت .

سنن : السنن، الطرائق ، والمراد منها عقوبات الأمم المكذبة .

موعظة : التذكير بما يرقق القلب من : مرغبات فى الطاعة، ومنفرات عن المعصية .

تهنوا : تضعفوا .

الأعلون : المتفوقون بالدين، الظاهرون على العدو .

مس : المس ، الإصاية .

قرح : القرع ، الجرح ، أو ألمه .

نداولها : نجعلها متبادلة . فتجعل الغلبة لهؤلاء مرة، ولهؤلاء مرة أخرى .

وليمحص : لينقى ويخلص .

ويمحق : يسخق ويهلك .

التفسير :

١٣٧ - قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

يشبه أن تكون هذه الآيات فى التعقيب على غزوة أحد، ولعل إنساناً يتساءل عن سر هزيمة المؤمنين أو

تعرضهم للبلاء ، وعن سر انتصار الكفار أو حصولهم على المال والغنى والسلطان في هذه الدنيا . فبين سبحانه في هذه الآية ما يجيب على هذا التساؤل :

والمراد بالسنن هنا : وقائع في الأمم المكذبة أجراها الله تعالى على حسب عادته ، وهي الإهلاك والدمار بسبب كفرهم وقسوتهم عن أمره .

والمعنى : أنه قد مضت من قبل زمانكم طرائق سننها الله تعالى ، فالحق يصارع الباطل ، وينتصر أحدهما على الآخر بما سنّه - سبحانه - من سنة في النصر والهزيمة .

وقد جرت سننه في خلقه أن يجعل العاقبة للمؤمنين الصادقين ، وأن يملأ للكافرين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فإن كنتم في شك من ذلك : فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين .

أي فسيروا في الأرض متأملين متبصرين ، فسترون الحال السيئة التي انتهت إليها المكذبون من تخريب ديارهم وبقايا آثارهم .

قالوا : وليس المراد بقوله فسيروا في الأرض . الأمر بذلك لا محالة ، بل المقصود تعرف أحوالهم ، فإن حصلت هذه المعرفة بغير المسير في الأرض ، كان المقصود حاصلاً<sup>(٩٥)</sup> .

فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين .

المقصود بهذا التعبير ، تصوير حالة هؤلاء المكذبين التي تدعو إلى العجب وتثير الاستغراب وتقرس الاعتبار والاتعاظ في قلوب المتأملين .

لأن هؤلاء المكذبين مكّن الله لهم في الأرض ، ومنحهم الكثير من نعمه ، ولكنهم لم يشكروه عليها ، فأهلكهم الله بسبب طغيانهم .

فهذه الآية وأشباهها من الآيات ، تدعو الناس إلى الاعتبار بأحوال من سبقوهم ، وإلى الاتعاظ بأيام الله ، وبالتاريخ وما فيه من أحداث ، وبالأثار التي تركها السابقون فإنها دليل واضح وشاهد يتحدث كما قال الشاعر :

تلك آثارنا تدل علينا

فانظروا بعدنا إلى الآثار

١٣٨ - هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ .

اختار الطبري وبعض المفسرين أن تكون الإشارة في هذه الآية راجعة إلى ما تقدم ذكره من بيان سنن الله وقوانينه في النصر والهزيمة . والمعنى : هذا الذي أوضحت لكم وعرفتكم به من أخبار هلاك الأمم السابقة ، فيه بيان للناس من العمى ، وهدى من الضلالة وموعظة للمتقين<sup>(٩٦)</sup> .

أما ابن كثير فقد ذهب إلى أن اسم الإشارة يعود إلى القرآن الكريم فقال :

هذا بيانٌ للناس . يعنى القرآن فيه بيان الأمور على جليئها .

وهْدَى ومَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ . يعنى القرآن فيه خبر ما قبلكم وهدى لقلوبكم .

ومَوْعِظَةً . أى زاجر عن المحارم والمآثم (٩٧).

لِّلْمُتَّقِينَ . الذين طلبوا الحقَّ وسلوكوا طريقه .

وقد رجح الأستاذ سيد قطب أن المراد بهذه الآية هو القرآن الكريم فيقول :

والسنن التى يشير إليها السياق فى الآية السابقة هى :

عاقبة المكذبين عنى مدار التاريخ ، ومداولة الأيام بين الناس حتى لا تدوم على حال ، والابتلاء لتمحيص السرائر، وامتحان مدى الصبر على الشدائد، واستحقاق النصر للصابرين والمحق للكاشرين « إن القرآن ليربط ماضى البشرية بحاضرها ، وحاضرها بماضيتها ... وهؤلاء العرب الذين وجَّه إليهم القول أوّل مرة لم تكن حياتهم ولم تكن معارفهم - قبل القرآن - تسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة لولا هذا القرآن الذى أنشأهم به الله نشأة أخرى، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا، إن النظام القبلى الذى كانوا يعيشون فى ظله، ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة، فضلاً عن الربط بين سكان هذه الأرض، فضلاً عن الربط بين السنن التى تجرى وفقها الحياة جميعاً ... فها هو ذا القرآن ينقلهم من عزلة القبيلة، وارتجال الفكرة، إلى رابطة البشرية واطراد السنّة، وهى نقلة بعيدة، لم تتبع من عوامل البيئة، إنما حملتها إليهم هذه العقيدة، بل حملتهم إليها، وارتقت بهم إلى مستواها فى نصف جيل ، على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير إلا بعد قرون وقرون .

هذا بيانٌ للناس وَهْدَى ومَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ .

أجل هذا بيان للناس ، للناس كافة، فهو نقلة بشرية بعيدة ما كانوا يبالغيها لولا هذا البيان الهادى، الذى لا يهدى به ولا يعطل إلا الذين تفتحت أرواحهم، وأرهفت مداركهم ، بذلك الشعور العميق الهادى المنير : شعور التقوى فى نفوس المتقين (٩٨).

١٣٩ - وَلَا تَهْوَؤْا وَلَا تَحْزَنْوْا وَأَنْتُمْ الْاَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

( الوهن ) هو الضعف وأصله ضعف الذات، قال تعالى حكاية عن زكريا : قال ربّ إني وهن العظم مني ...

( مريم : ٤ ) . أى ضعف جسمى ، وهو هنا مجاز عن خور العزيمة، وضعف الإرادة، وانقلاب الرجاء يأساً والشجاعة جبناً واليقين شكاً ؛ ولذلك نهوا عنه .

والحزن ألم نفسى يصيب الإنسان عند فقد ما يحبّ أو عدم إدراكه، أو عند نزول أمر يجعل النفس فى هم وقلق.

والقرآن هنا يأسو جراحهم ويمسح أحزانهم، ويبعث فى نفوسهم القوة والعزيمة والأمل والرجاء فيقول لهم:  
لا تضعفوا ولا تجبنوا ولا تيأسوا من رحمة الله وفضله، ولا تحزنوا لما أصابكم من جراح وآلام وقبلى.

وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ. عقيدتكم أعلى من عقيدتهم، ومكانكم فى الأرض أعلى من مكانهم، فلکم وراثه الأرض  
التي وعدكم الله.

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . جملة شرطية، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله .

أى إن كنتم مؤمنين حقا فلا تهنوا ولا تحزنوا بل اعتبروا بمن سبقكم، ولا تعودوا لما وقعتم فيه من أخطاء،  
فإن الإيمان يوجب قوة القلب، وصدق العزيمة، والصمود فى وجه الأعداء، والإصرار على قتالهم حتى تكون  
كلمة الله هى العليا.

١٤٠ - إِنْ يَسْأَلُكُمْ فِرْعَوْنُ عَنْ الْقَوْمِ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فِرْعَوْنُ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَادَاوُلَهَا بَيْنَ النَّاسِ ... الآية.

الفرع بالفتح والضمّ الجراح والآلام.

والمعنى:

إن تكونوا - أيها المؤمنون - قد أصابكم الجراح من المشركين فى غزوة أحد فأنتم قد أنزلتم بهم من  
الجراح فى غزوة بدر مثل ما أنزلوا بكم فى أحد، ومع ذلك فإنهم بعد بدر قد عادوا لقتالكم، فأنتم أولى أن  
تتماسكوا بسبب إيمانكم ويقينكم، وقيل: إن المعنى إن كانت قد أصابكم الجراح فى أحد فقد أصيب القوم  
بجراح مثلها فى المعركة ذاتها .

قال الزمخشري: والمعنى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتهم منهم قبله يوم بدر ثم لم يضعف ذلك قلوبهم،  
ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى ألا تضعفوا . ونحوه ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم  
يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً . ( النساء : ١٠٤ ) .

وقيل: كان ذلك يوم أحد فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٩٩).

وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَادَاوُلَهَا بَيْنَ النَّاسِ .

نَادَاوُلَهَا من المداولة وهى نقل الشيء من واحد إلى آخر.

والمعنى: إن الدنيا هى دول بين الناس، لا يدوم سرورها ولا غمها لأحد، ومن أمثال العرب: الحرب  
سجال، والأيام دول.

إن الشدة بعد الرخاء، والرخاء بعد الشدة، هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس، فيتبين المؤمن ويمتازون من المنافقين المستورين .

وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .

والله يعلم هؤلاء وهؤلاء ، ولكن انكشافهم يجعل هذا العلم متعلقاً بأعمالهم بعد أن كان متعلقاً بنواياهم ، والإسلام يعتبر العمل دائماً ويحاسب عليه فهو هنا يجرى على قانونه.

ومداولة الأيام وتوالى الشدة والرخاء وسيلة عملية لا تخطئ، ومحك صادق لا يظلم ، والرخاء فى هذا كالشدة، فكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك ولكنها تترأخى بالرخاء وتتحلّ، والنفس المؤمنة حقاً، تصبر للضرء، ولا تستخفها السراء ، ويقينها أن ما أصابها من خير أو شر فبإذن الله.

جاء فى التفسير الوسيط :

وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .

أى وتلك الأيام نداولها بين الناس لوجوه من المصالح وضروب من الحكم، وليعلم الله المؤمنين المتميزين، علماً مقترناً بالواقع .

والمراد بالعلم هنا : العلم التجيزى بالواقع، وهذا لا ينافى علمه بهم قديماً . والمقصود أنه يبرز - فى الواقع - ما سبق فى علمه عنهم قديماً من تمييزهم بإيمانهم عن سواهم ، ليجزى كل بما عمل، لا بما علمه الله أولاً فى شأنه (١٠٠). وذلك هو المقصود بقوله تعالى : مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ . ( آل عمران : ١٧٩ ) .

وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ . بيان لحكمة أخرى من مداولة الأيام بين الناس . والشهداء جمع شهيد . أى وليختار أناساً منكم يكرمهم بالشهادة فى الدفاع عن الدين . قال القرطبي : وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ . أى يكرمكم بالشهادة . أى ليقبل قوماً منكم فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم.

وهو تعبير عجيب عن معنى عميق، إن الشهداء المختارين يختارهم الله من بين المجاهدين ، ويعلمهم كذلك شهداء على الناس . قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ . ( التوبة : ١١١ ) . وجميع المؤمنين الصادقين سيكونون شهداء على الأمم السابقة يوم القيامة، كما قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . ( البقرة : ١٤٣ ) .

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . أى والله لا يحب الذين ظلموا أنفسهم بسبب كفرهم ونفاقهم وتخاذلهم عن نصرته الحق، وإنما يحب المؤمنين الثابتين على الحق، المجاهدين بأنفسهم وأموالهم فى سبيل إعلاء دين الله ونصرة شريعته .

١٤١ - وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ .

التمحيص : الاختبار والابتلاء، والتطهير، والمعنى : ولقد فعل سبحانه ما فعل فى غزوة أحد، لكى يظهر المؤمنين ويصفىهم من الذنوب ويخلصهم من المنافقين المتدسين بينهم، ولكى يهلك الكافرين ويمحقهم بسبب بغيتهم ويطردهم.

فالأيات قد ذكرت أربع حكم لما حدث للمؤمنين فى غزوة أحد ، وهى تحقق علم الله وإظهاره للمؤمنين ، وإكرام بعضهم بالشهادة ، وتطهير المؤمنين وتخليصهم من ذنوبهم ومن المنافقين ، ومحق الكافرين واستئصالهم رويدا رويدا .

١٤٢ - أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ .

أم . هنا أفادت الانتقال من الكلام السابق إلى الكلام اللاحق ، واستبعاد أن يظنوا دخول الجنة بدون جهاد وصبر عليه.

والمعنى : بل أظننتم أن تدخلوا الجنة، ولما يتحقق جهاد المجاهدين منكم، وصبر الصابرين عليه ، فيعلم الله ذلك واقفاً دالاً على صدق الإيمان ، مستتبعا لدخول الجنان ..

وكلمة لَمَّا وإن أفادت نفي ما بعدها من الجهاد والصبر، ولكنها تقيد توقع حصولهما منهم ، وقد وقعا فعلا فى الغزوات التى تلت أحد (١٠١).

قال الطبرى : المعنى : أظننتم يا معشر أصحاب محمد أن تتألوا كرامة ريكم ولما يتبين لعبادى المؤمنين، المجاهدون منكم فى سبيل الله والصابرون عند البأس على ما ينالهم فى ذات الله من ألم ومكروه (١٠٢).

ويصح أيضاً أن يكون العلم هنا بمعنى التمييز ، ويكون المعنى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة جميعا ولما يميز الله المجاهدين منكم والصابرين من غيرهم (١٠٣).

والآية الكريمة تشير إلى أن الطريق إلى الجنة ليس سهلاً يسلكه كل إنسان ، وإنما هو طريق محضوف بالمكانه والشدائد، ولا يصل إلى غايته إلا الذين جاهدوا وصبروا وصابروا (١٠٤).

وجاء فى تفسير المنار : والجهاد هنا أعم من الحرب للدفاع عن الدين وأهله وإعلاء كلمته، ومن الجهاد جهاد النفس الذى روى عن السلف التعبير عنه بالجهاد الأكبر، ومن أمثلته مجاهدة الإنسان لشهواته وإلّا سيما فى سن الشباب ، وجهاده بماله وما يبتلى به من مدافعة الباطل ونصرة الحق.

قال الإمام محمد عبده : .. إن لله في كل نعمة عليك حقاً، وللناس عليك حقاً، وأداء هذه الحقوق يشق على النفس ، فلا بد من جهادها يسهل عليها أداؤها ، وربما يفضل بعض جهاد النفس، جهاد الأعداء في الحب فإن الإنسان إذا أراد أن يبث فكرة سالحة في الناس أو يدعوهم إلى خيرهم من إقامة سنة أو مقاومة بدعة أو النهوض بمصلحة فإنه يجد أمامه من الناس من يقاومه ويؤذيه إيذاء قلماً يصبر عليه أحد، وناهيك بالتصدي لإصلاح عقائد العامة وعاداتهم ، وما الخاصة في ضلالهم إلا أصعب مراسا من العامة .



﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

المفردات :

تمنون : أى ترغبون .

الموت : المراد به هنا، القتال . وقيل : وهو على حقيقته ، طلباً للشهادة .

تلقوه : أى تلقوا سببه، وهو القتال .

رايتموه : أى رأيتم الموت، برؤية من يموت في الحرب .

خلت : مضت .

ومن ينقلب على عقبيه : من يرد عن دينه أو ينهزم .

التفسير :

١٤٣ - وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ .. الآية .

هذا خطاب من الله تعالى ، عاتب فيه الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الخروج من المدينة إلى أحد للقاء المشركين، الذين نزلوا عنده قادمين من مكة، لقتال المسلمين انتقاماً ليوم بدر .

ولما التقى الجمعان انهزم فريق منهم ، ولم يثبتوا أمام المشركين . وكان هؤلاء هم الذين ألحوا في الخروج ، ممن لم يشهدوا بدرًا، وتمنوا أن يحضروا مع النبي صلى الله عليه وسلم لينالوا به شرف الشهادة إن ماتوا ، أو أجر الجهاد وكرامة المجاهدين إن رجعوا كأصحاب بدر .

وقد عرف مما جاء في غزوة أحد : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان - أول الأمر - يميل إلى البقاء في



المدينة، حتى إذا هاجمها كفار مكة، صدهم المسلمون متحصنين بها .. الرجال يضيرونهم بالسيوف والسهام والنساء والصبيان يقذفونهم بالحجارة ، وبكل ما تصل إليه أيديهم ، لولا موقف الملحين .

والملحنى : ولقد كنتم تحبون الموت فى سبيل الله، وترغبون فى الشهادة من قبل أن تلقوه، وأنتم بالمدينة .

فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . أى فقد تحققت أمنيتمكم ، إذ استجاب الرسول صلى الله عليه وسلم لرغبتكم وأذن لكم بقاء عدوكم، فرأيتم الموت الذى تمنيتموه حين سقط شهداؤكم .

وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . فما بالكم لم تبتغوا فى قتال عدوكم ، ولو صبرتم لما هزمته .

١٤٤ - وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. الآية .

لما التقى الجمعان فى أحد، ظهر المسلمون على المشركين فى أول اللقاء وجعلوا يتعقبونهم ويجمعون الفنائم فى إثرهم، ولكن الرماة الذين أمرهم الرسول بحماية ظهور المسلمين - أثناء قتالهم - رأوا المسلمين منتصرين على المشركين: يتعقبونهم ويجمعون غنائمهم. فتركوا أماكنهم ليشاركوا إخوانهم فى جمع الفنائم مخافين أمر الرسول فيما فعلوا . فانتبه المشركون لما فعل الرماة، فاحتلوا مكانهم فوق الجبل، وجعلوا ينضحون المسلمين بالتبلى. واستطاعوا بذلك أن ينالوا من المسلمين ، حتى رمى ابن قميئة الرسول عليه السلام بحجر فشج رأسه، وكسر ربايعته . ثم أقبل يريد قتله، فدافع عن النبى مصعب بن عمير فقتله ابن قميئة - وهو يرى أنه قتل رسول الله - فصاح قائلًا . قتل محمدًا، وصرخ بها صارخ، فسمعها المسلمون، فسرى الوهن فى نفوس كثير منهم، حتى قال بعض المستضعفين : ليت عبد الله بن أبى يآخذ لنا أمانًا من أبى سفيان..

وقال ناس من المنافقين : لو كان نبيا - حقا - لما قتل .. ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم .

والتقى أنس بن النضر ، بالمنهزمين من المسلمين، فقال لهم : يا قوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد حى لا يموت ، فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا كراما على ما مات عليه .

وشاء الله أن يحفظ رسوله لأمته، وأن يظهر كذب ابن قميئة .

فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى عباد الله . وكان حوله - حينئذ - أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وطلحة بن عبيد الله ، وجماعة من المسلمين ، فأقبل المنهزمون بعد ما سمعوا صوته عليه السلام ، فأنزل الله عتابًا للمنهزمين وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. إلى نهاية الآية فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابًا دُنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابٍ الآخرة وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . ( آل عمران : ١٤٨ ) .

والمعنى : وما محمد إلا رسول كسائر من مضى قبله من الرسل : مهمته التبليغ والزام الحجة . وسيمضى إلى ربه كسائر من مضى من الأنبياء سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا . ( الأحزاب : ٦٢ ) .  
إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ . ( الزمر : ٣٠ ) .

إِنَّمَا مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبَتْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ .

أى توليتم مدبرين من القتال ، منهزمين أمام الكفار ، أو ارتدتم عن دينكم ، كما وقع من بعض المنافقين .

وعلى كل : فالمراد ، أنه لا ينبغي أن تجعلوا وفاة الرسول - بموت أو قتل - سببا فى توليكم منهزمين عن قتال الكفار وجهادهم ، استبعادا لقتله . فقد مضى من قبله أمثاله من الرسل . وما كان موتهم أو قتلهم سببا فى ارتداد أتباعهم عن دينهم ، ولا فى تخليهم عن جهاد أعدائهم .

وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا . هذا وعيد من الله لكل من تهتز عقيدته ، أو يفر من المعركة أمام أعداء الإسلام .

والمعنى : ومن يدبر عن دينه لأى سبب ، أو ينهزم أمام الكافرين ولا يستبسل فى الدفاع عن دينه ووطنه . فلن يضر الله . بما فعل من توليه مدبرا شيئا . أى أقل ضرر . وإنما يضر نفسه : بتعرضها لسخط الله . وازدراء الناس له ، كما يضر قومه ، فإن الله سبحانه وتعالى لا تتفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين .

وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ . أى وسيجزى الله من شكروهم بصبرهم على دينهم ولقاء عدوهم ، جزاء يليق بكرمه . ومن ذلك النصر على الأعداء وحسن ثواب الآخرة .

والتعبير بقوله : وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ . يفيد أن جزاءهم متوقع قريبا ، فإن السنين للتقريب ، وقد حقق الله وعده ، ونصرهم فيما استقبلوه من غزوات . وما عند الله فى الآخرة أعظم وأكرم .

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يَرُدُّ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يَرُدُّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَجْدٍ قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

المفردات :

يأذن الله : أمره وقضائه .

مُوجَلًّا : مؤقتا بوقت معلوم .

وكأين من نبى : وكثير من الأنبياء .

ريثيون : منسوبون إلى الرب بالتقوى والصلاح مفردة ريث .

وهنوا : الوهن، شدة الضعف فى القلب .

استكانوا : ذلوا وخضعوا لما يريد بهم عدوهم .

واسرافنا فى أمرنا : أى تجاوزنا الحد فى ارتكاب الكبائر .

التفسير :

١٤٥ - وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مُوَجَلًّا ومن يرد ثواب الدنيا نُؤْتِيهِ مِنْهَا ومن يرد ثواب الآخرة نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ .

الحياة بيد الله . والموت بيد الله ، وفى الآية تعريض بمن خارت قواهم يوم أحد ، وضعفت عزائمهم . وانكسرت نفوسهم حين أشيع أن النبى قد مات . فبين القرآن أن النبى بشر يبلغ عن الله الرسالة ، ويؤدى الأمانة ويدركه الموت .

قال ابن كثير : وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله (١٠٥) . أى لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفى المدة التى ضريها الله له ، ولهذا قال : كتاباً مُوَجَلًّا . كقوله : وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب . ( فاطر : ١١ ) . وكقوله : هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده . ( الأنعام : ٢ ) .

وهذه الآية فيها تشجيع للجناء وترغيب لهم في القتال ، فإن الإقدام لا ينقص من العمر والإحجام لا يزيد فيه ، كما قال ابن أبي حاتم عن حبيب بن ظبيان : قال رجل من المسلمين وهو (حجر بن عدي) : ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو هذه النطقة - بمعنى دجلة - وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا . ثم أفتح فرسه دجلة ، فلما أفتح الناس ، ورأهم العدو قالوا : ديوان .. فهربوا .

كتابا مؤجلا . أى كتب لكل نفس أجلها ، كتابا مؤقتا بوقت معلوم ، لا يتقدم ولا يتأخر ، والغرض تحريضهم على الجهاد وترغيبهم في لقاء العدو ، فالجبن لا يزيد في الحياة ، والشجاعة لا تنقص منها ، والحدز لا يدفع القدر ، والإنسان لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك .

وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا . أى من أراد بعمله أجر الدنيا أعطيناه منها ، وليس له في الآخرة من نصيب .

وفيها تعريض بمن خالفوا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرماة ، الذين تركوا أماكنهم جريا وراء الغنائم ، فلم يحصلوا منها شيئا ، بل فقدوها وفقدوا أرواحهم وعزتهم وكرامتهم ، وكان فعلهم هذا من أسباب هزيمة المسلمين في غزوة أحد .

وحصول الدنيا للإنسان ليس بموضع غبطة ، لأنها مبدولة للبر والفاجر .

قال تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ . ( الشورى : ٢٠ ) .

وقال تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . ( الإسراء : ١٨ ) .

وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا . ومن يريد بعلمه وجهاده ثواب الآخرة ، وما ادخره الله فيها لعباده المتقين من أجر جزيل ، أعطيناه الأجر كاملا ، مع ما قسمنا له في الدنيا .

وسنجزئ الشاكرين . أى سنعطهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة ، بحسب شكرهم وعملهم .

جاء في تفسير المنار : ولا تسمن التقاليد الشائعة ، قارئ هذه الآيات عن سنن الله التي أثبتت في كتابه ، فيظن أن عطاة تعالى ، وتفضيله لبعض الناس على بعض يكون جزافا ، بل الإرادة تجري على السنن التي اقتضتها الحكمة وكل شيء عنده بمقدار . ( الرد : ٨ ) . ولإرادة الإنسان دخل في تلك السنن والمقادير ، ولذلك

قال : مَنْ كَانَ يُرِيدُ . وَمَنْ أَرَادَ . فاعرف قيمة إرادتك واعرف قبل ذلك قيمة نفسك، فلا تجعلها كتفوس الحشرات التي تعيش زمنا محدودا، ثم كان لم تكن شيئا مذكورا (١٠٦).

\* \* \*

الإرادة تصغر الكبير ، وتكبر الصغير، وترفع الوضيع وتضع الرفيع، وبها تتسع دائرة وجود الشخص، حتى تحيط بكرة الأرض، بل تكون أكبر من ذلك بما يتبوأ من منازل الكرامة، فى عالم العقول والأرواح، وإذا كان يريد بعلمه دار البقاء فإن وجوده يكون كبيراً بحسب كبر إرادته، وواسعاً بسعة مقصده، وبذلك تعلو نفسه على نفوس من أخذوا إلى الشهوات ، وكان حظهم من علمهم كحظ الحشرات، وغيرها من الحيوانات: أكل وشرب وفساد وبغى من القوى على الضعيف (١٠٧).

وهذه الآية الكريمة : يجوز أن تكون خاصة بأهل أحد، وأن تكون عامة لهم ولغيرهم، وهو أرجح، فإنها من القواعد العامة فى الدين.

١٤٦ - وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبُّهُ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ .

إن كثيراً من النبيين الذين خلوا قاتل معهم كثير من المؤمنين بهم، المنتسبين إلى الرب تعالى فى جهة قلوبهم وفى أعمالهم، المعتقدين أن النبيين والمرسلين هداة ومعلمون ، لا أرباب مبدعون.

فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . أى ما ضعف مجموعهم بما أصاب بعضهم من الجرح، وبعضهم من القتل، وإن كان المقتول هو النسى نفسه، لأنهم يقاتلون فى سبيل الله وهو ربهم ، لا فى سبيل شخص نبيهم .

وَمَا ضَعُفُوا . عن الجهاد

وَمَا اسْتَكَانُوا . أى ما ذلوا ولا خضعوا لعدوهم .

قال قتادة : وَمَا ضَعُفُوا . أى : وما تضعفوا لقتل نبيهم وَمَا اسْتَكَانُوا . أى ما ارتدوا عن نصرتهم ولا دينهم (١٠٨).

\* \* \*

وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . أى يحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأحوال فى سبيل الله.

جاء في ظلال القرآن :

( كم من نبي قاتل معه أبرار أتقياء كثيرون ، فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والكرب والشدة والقتل والجراح ، وما ضعفت قواهم عن الاستمرار في الكفاح ، وما استسلموا للجزع ولا للأعداء .. وهذا هو اللائق بالمؤمن التقى البار ، الذي يكافح عن عقيدة ، ويكافح في سبيل الله .

والله يُحِبُّ الصَّابِرِينَ .

الذين لا تضعف نفوسهم ، ولا تتضعض قواهم ، ولا تلين عزائمهم ، ولا يستكينون ولا يستسلمون للشدائد والأعداء (١٠٩).

\* \* \*

وتلاحظ أن ترتيب الأوصاف جاء في نهاية الدقة ، بحسب حصولها في الخارج ، فإن الوهن الذي هو خور في العزيمة ، إذا تمكن من النفس أنتج الضعف الذي هو لون من الاستسلام والفشل ، ثم تكون بعدهما الاستكانة ، - التي يكون معها الخضوع لكل مطالب الأعداء ، وإذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة في حياته ، كان الموت أكرم له من هذه الحياة .

\* \* \*

وجاء في تفسير الكشاف :

( الربيون ) : هم الريانيون ، منسوبون إلى الرب سبحانه وتعالى ، وقرئ بالحركات الثلاث فالتفت على القياس والضم والكسر من تغييرات النسب : ربيون وربيون ، وربيون . والربيون نسبة إلى الرب ، وزيادة الألف والنون فيه كزيادتها في جسماني .

وقال الزجاج : الربيون الجماعات الكثيرة واحدها ربي .

١٤٧ - وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين .

ما كان قولهم - في حال الشدة وملاقاة الأعداء - مع ثباتهم وقوتهم في الدين ، إلا طلب المغفرة من الله .

وإسرافنا في أمرنا . أي وتفریطنا وتقصيرنا في واجب طاعتك .

وثبت أقدامنا . أي ثبتنا في مواطن الحرب ، وثبتنا على الصراط المستقيم ، حتى لا ترحزننا الفتن .

وانصرنا على القوم الكافرين . بك ، الجاحدين لأياتك ، المعتدين على أهل دينك .

\* \* \*

والدعاء هنا يعبر عن قلب خاشع ويقين صادق، ورجاء مخلص في غفران الذنوب، وتثبيت الأقدام، والنصر على القوم الكافرين.

قال الزمخشري في الكشف :

وقوله : وما كَانَ قَوْلُهُمْ - (١١٠) ... إلخ . هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم ، مع كونهم ريانين هضما لها واستقصارا ، والدعاء بالاستغفار منها مقدما على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو، ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وخضوع، هو أقرب إلى الاستجابة .

١٤٨ - فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابًا دُنْيَا وَحَسَنَ تَوَابًا آخِرَةً وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

والفاء هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أي أن هؤلاء الريانيين الذين أخلصوا في الجهاد والدعاء، أعطاهم الله أجر الدنيا ، من النصر والغنيمة وقهر الأعداء، كما أعطاهم حَسَنَ تَوَابٍ آخِرَةٍ . بأن منحهم رضوانه ورحمته ومثوبته ، والتعظيم بدار كرامته ، وهو ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . قال الشيخ محمد عبده - وخص الله ثواب الآخرة بالحسن، لمزيد في تعظيم أمره، وتبنيه على أنه ثواب لا يشوبه أذى فليس مثل ثواب الدنيا عرضة للشوائب والمفغصات.

\* \* \*

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآيات نزلت تأديباً للمؤمنين ، وتوبيخاً لمن فرط منهم، وتربية وتعلima وتهذيباً لهم.

\* \* \*

وفي ختام تفسير هذه الآيات الكريمة يمكن أن نستخلص منها الحقائق الآتية :

- ١ - محمد صلى الله عليه وسلم بشر من البشر، وسيموت كما يموت سائر البشر.
- ٢ - رسالة محمد (ﷺ) عالمية خالدة لا تموت بموته ، وعلى أتباعه أن يحملوا عبء تبليغ الإسلام رسالة الله إلى البشر .
- ٣ - الأجل بيد الله، والحذر لا يمنع القدر ، ولن يموت إنسان قبل انتهاء أجله، فلا داعي للجبن والتخاذل، فالجهاد فريضة، والشهيد يبلغ أرفع مراتب الجنات.
- ٤ - الحق له رجاله على مر التاريخ ، وكثير من الريانيين جاهدوا مع أنبيائهم ، وتحملوا تبعات الإيمان في ثبات وصدق، ودعاء صادق لله، وقد حقق الله لهم الرجاء فأعطاهم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة .

★ ★ ★

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ  
 أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾  
 سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ  
 سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ  
 صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ هَٰذَا إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ  
 فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۚ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ  
 الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ  
 عَفَا عَنْكُمْ ۖ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

## المفردات :

|                      |                                                       |
|----------------------|-------------------------------------------------------|
| يردوكم على أعقابكم : | أى يردوكم إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية.               |
| ومأواهم :            | المأوى، المكان الذى يرجعون إليه .                     |
| مَثْوَى :            | مَثْوَى الإنسان ، مكان إقامته الدائمة .               |
| تحسبونهم :           | أصل معناه ، تبطلون حسبهم، والمراد : تستأصلونهم قتلا . |
| فشلتم :              | جبنتم وضعف رأيكم ، وأصابكم الخور فهزمتم .             |
| وتنازعتم :           | اختلفتم كلمتكم ، واختلفتم .                           |
| ليبتليكم :           | ليختبركم .                                            |

## التفسير :

١٤٩ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ

\* \* \*

عندما عاد المسلمون من غزوة أحد ، ولم يكتب لهم فيها النصر، حاولت جهات كثيرة أن تثبط عزيمتهم ، وأن تشككهم فى الإسلام .

\* \* \*



قال ابن عباس : هم المنافقون قالوا للمؤمنين لما رجعوا من أحد، لو كان نبيا ما أصابه فارجعوا إلى إخوانكم، واطلبوا الأمان منهم، وادخلوا في دينهم، وابتعوا فئة تطلب الأمان لكم من أبي سفيان رأس المشركين يومئذ .

\* \* \*

وقيل : نزلت بسبب قول أهل الكتاب للمؤمنين : لو كان محمد نبيا حقا لما غلب، ولما أصاب أصحابه ما أصابهم.

جاء في تفسير الألوسي :

والمراد من الذين كفروا: إمّا المنافقون لأنهم هم الذين قالوا للمؤمنين عند هزيمتهم في أحد، ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم ... وإمّا أبو سفيان وأصحابه، فالمراد بإطاعتهم الاستكانة لهم وطلب الأمان منهم .. وإمّا اليهود والنصارى ، لأنهم هم الذين كانوا يلصقون الشبه في الدين ويقولون : لو كان محمد نبيا لما غلب أعداؤه... وإمّا سائر الكفار<sup>(١١١)</sup>.

وخصوص السبب لا يمنع إرادة العموم من اللفظ.

قال الطبري في التفسير :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، في وعد الله ووعيده وأمره ونهيه، إن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا . يعنى الذين جحدوا نبوة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ، من اليهود والنصارى، فيما يأمرونكم به وفيما ينهونكم عنه ، فتقبلوا رأيهم ونصحهم.

يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ . يحملوكم على الردة بعد الإيمان ، والكفر بالله وآياته ورسوله.

فَتَقْلِبُوا خَاسِرِينَ . فترجعوا عن إيمانكم ودينكم الذى هداكم الله له ، خاسرين . هالكن قد خسرتم أنفسكم ، وضللت من دينكم وذهبت دنياكم وآخرتكم<sup>(١١٢)</sup>.

وتلقى كتب التفسير هنا ، على أن الهزيمة الجزئية التى أصابت المسلمين فى غزوة أحد، كانت مجالا لطمع الطامعين ودسائس الكفار والمنافقين فى المدينة، ممن انتهزوا الفرصة ليضطربوا من عزائم المسلمين، ويخوفوهم عاقبة السير مع محمد، ويصوروا لهم مخاوف القتال وعواقب الجهاد، لذلك نزل القرآن ينصح المؤمنين بالتماسك والتأزر والصمود، والاستغناء بالإسلام وبالقرآن عن نصيحة الكافرين والمنافقين، وهى قاعدة لا تختص بزمانها ولا مناسبتها ، بل تمتد فى الزمان والمكان ما دام الإنسان .

ثم فتح القرآن لهم باب الأمل والرجاء، وشدد من عزائمهم بتذكيرهم أن الله هو مولاهم وناصرهم ، وهو القوى الذى لا يخذل أوليائه.

١٥٠ - بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ .

بل الله ناصركم إن امتثلتم أمره، واجتبتكم نهيته، وأعددتكم لعدوه ما استطعتم من قوة، وكنتم كالبنين المرصوص يشد بعضه بعضاً .

جاء في تفسير المنار :

بل الله مَوْلَاكُمْ . فلا ينبغي أن تفكروا في ولاية أبي سفيان وحزبه، ولا عبد الله بن أبي شيعة . ولا أن تصفوا لإغواء من يدعونكم إلى موالاتهم ، فإنهم لا يستطيعون لكم نصراً ، ولا أنفسهم ينصرون ، وإنما الله هو المولى القادر على نصركم (١١٣) .

وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ . أى هو سبحانه خير ناصر وخير معين فلا تستصروا غيره .

١٥١ - سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَوْئِ

الظالمين .

تبين هذه الآية سبيلاً من سبل النصر ، التى يمنحها الله لعباده المؤمنين ، عندما يأخذون بالأسباب ويستحقون عناية السماء ، فعند الله جنود كثيرة ، وأسلحة متنوعة ، يساعد بها من يستحق المساعدة . منها سلاح الريح ، أرسله على المشركين في غزوة الأحزاب ، ومنها سلاح الرعب القاه في نفوس المشركين في أعقاب معركة أحد ، حين عزموا أن يعودوا ليستأصلوا شأفة المسلمين ، فقفذ الله الرعب في قلوبهم فانهمزموا (١١٤) .

ومنها ما يشبه الصواريخ ، ألقاها على أصحاب الفيل فجعلهم كعصف مأكول ، أى هالكين كزرع اكنته الماشية . ومن أسلحة الله الملائكة ، أنزلها على المسلمين يوم بدر ، وعند الله أسلحة كثيرة . وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ . ( المدثر : ٢١ ) .

والرعب : هو الخوف والفرع .-

والسلطان : الحجة والبرهان .

والمعنى : سنملأ قلوب المشركين خوفاً وفزعاً ، بسبب إشراكهم مع الله آلهة أخرى ، ليس لهم حجة على صحة ألوهيتها ، ومرجعهم الذى يرجعون إليه يوم القيامة هو النار ، وساء هذا المثلوى والمستقر للكافرين (١١٥) .

وهل هذه الآية خاصة بيوم أحد ، أو هي عامة في جميع الأزمان ، ذكر كثير من المفسرين أنها خاصة بيوم أحد لأن سياق الكلام في غزوة أحد .

فالكفار في غزوة أحد قد انتصروا على المسلمين وهزموهم ، ثم ألقى الله الرعب في قلوبهم ، فتركوهم وفروا منهم من غير سبب ، وسار المشركون إلى مكة (فلما كانوا في بعض الطريق قالوا ما صنعنا شيئاً ، فقلنا

الأكثرين منهم ثم تركناهم ونحن قادرون ، ارجعوا حتى نستأصلهم بالكالية ، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم (١١٦).

وقال بعض المفسرين : الآية غيـز خاصة بيوم أحد ، بل هي عامة في كل معركة ، يتقابل فيها المؤمنون مع الكافرين ، فيحق الله الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين .

فالأية بيان لسنة إلهية عامة :

إذا كان المؤمنون يتمسكون بمطالب الإيمان ومقتضياته كالمؤمنين السابقين .

قال الإمام محمد عبيد :

إذا كان المؤمنون يتمسكون بمطالب الإيمان ومقتضياته كالمؤمنين السابقين ، وإذا كان الكافرون قد جحدوا وعاندوا وكابروا الحق كما فعل الكافرون في عهد البعثة المحمدية (١١٧).

وبهذا يندفع قول من يقول : ما بالنا نجد الرعب كثيرا ما يقع في قلوب المسلمين ، ولا يقع في قلوب الكافرين؟ فإن الذين يسمون أنفسهم مسلمين قد يكونون على غير ما كان عليه أسلافهم ، من الثبات والصبر وبذل النفس والمال في سبيل الله ، وتمنى الموت في الدفاع عن الحق ، فمعنى المؤمنين غير متحقق فيهم . وإنما رعب المشركين مرتبط بإيمان المؤمنين ، وما يكون له من آثار ، فحال المسلمين اليوم لا يقع حجة على القرآن . لأن أكثرهم قد انصرفوا عن الاجتماع على ما جاء به الإسلام من الحق.

فالقرآن باق على وعده ، ولكن هات لنا المؤمنين ولك من إنجاز وعد الله ما تشاء (١١٨) قال تعالى : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . . . (النور : ٥٥) .

١٥٢ - ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيت من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين .

تحسونهم : أى تقتلونهم ، يقال حسسته أحسه أى قتلته . وفى المختار ، إذ تحسونهم أى تستأصلونهم قتلا . وفى حاشية الجمل : تحسونهم : أى تقتلونهم قتلا كثيرا فاشيا ، من حسه إذا أبطل حسه .

وكان ذلك فى مطلع المعركة حيث بدأ المسلمون يقتلون المشركين ويخمدون حسهم قبل أن يليهم الطمع فى الغنيمة عن الطاعة للقائد .

حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيت من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . وهو تقرير لحال الرماة ، وقد ضعف فريق منهم عن صد إغراء الطمع فى الفنائم ووقع النزاع بينهم وبين

من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله . وانتهى الأمر إلى العصيان ، بعد ما شاهدوا بأعينهم طلائع النصر منقسمين إلى فريقين : فريق يريد غنيمة الدنيا وفريق يريد ثواب الآخرة .. وما كان لجيش ينقسم على نفسه في ميدان المعركة هكذا أن يظل في انتصاره ، وبخاصة أن الخلاف كان على عرض من أراض الدنيا ، والمعركة معركة عقيدة أولا وأخيرا .

ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ . أى صرف قوتكم وبأسكم عن المشركين فانهزمتم وفررتم ، ليكون في هذا ابتلاء لكم وامتحان بما أصابكم منهم من الكر عليكم والإيقاع بكم .

وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . عفا عما وقع منكم من ضعف أمام شهوركم ، وعصيان لأمر رسولكم ، وخروج على النظام الذى وضعه لكم ، ثم ما وقع كذلك من فرار وانقلاب عن ميدان المعركة حين قيل إن محمدا قد مات ، ومن يأس من جدوى المقاومة بعد محمد .. وكلها زلات تحسب على المؤمنين ، عفا الله عنكم ، فضلا منه ومنه تجاوزا عن ضعفكم البشرى الذى لم تصاحبه نية سيئة ولا إصرار والله ذو فضل على المؤمنين .

★ ★ ★

﴿ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتْبِكُمْ عَمَّا بَعَثَ لَكُمْ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدَلِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَاعَسَا يَفْشَى طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ أَلَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (١٥٤)

المضردات :

تصعدون : تشتدون في العدو منهزمين .  
ولا تكونون على أحد : ولا تلتفتون إليه لجدكم في الهرب ، فرارا من الطلب .  
اخراكم : مؤخرة جيشكم .

|                     |                                                                          |
|---------------------|--------------------------------------------------------------------------|
| اثابكم غما بغم      | : جزاكم الله غما بالهزيمة بسبب غمكم للرسول بالمخالفة ، أو غما متصلا بغم. |
| امنة                | : أمنا وسلاما .                                                          |
| يفشى                | : يغطى .                                                                 |
| اهتمتهم أنفسهم      | : شغلهم الاهتمام بها .                                                   |
| لبرز                | : لخرج ولظهر .                                                           |
| مضاجعهم             | : المراد بها مصارعهم فى أرض الموقعة .                                    |
| وليبتلى             | : ليختبر وهو العليم .                                                    |
| وليصحس ما فى قلوبكم | : وليطهرها من الشبهات وينقيها .                                          |

التفسير :

١٥٣ - إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنُ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بَغْمٍ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

والصعود : الارتفاع على الجبال والدرج، والصعود أيضاً الذهاب فى صعيد الأرض والإبعاد .

أى اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن كنتم مصعدين تهرولون بسرعة فى بضر ، وادى بعد أن اختلت صفوفكم، واضطرب جمعكم، وصرتم لا يرجع بعضكم على بعض، ولا يلتفت أحدكم إلى غيره من شدة الهرب، والحال أن رسولكم - صلى الله عليه وسلم - يدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ . أى يناديكم فى آخركم أو فى جماعتكم الأخرى أو من خلفكم ، والمراد أن الرسول ﷺ كان يدعو المنهزمين إلى الثبات ، وإلى ترك الفرار من الأعداء، وإلى معاودة الهجوم عليهم، وهو ثابت لم يتزعزع ومعه نفر من أصحابه.

جاء فى نور القرآن ما يأتى :

والعبارة ترسم صورة حركتهم الحسية وحركتهم النفسية فى الفاظ قلائل فهم مصعدون هربا فى اضطراب ورجب ودهشة، لا يلتفت أحد إلى أحد من الهول، ولا يجيب أحد داعى أحد من الذعر- والرسول يدعوهم وهم مصعدون، إنه مشهد كامل فى الفاظ قلائل.

وكانت النهاية أن يجزيهم الله على الغم الذى تركوه فى نفس الرسول بفرارهم غمًّا يملأ صدورهم على ما كان منهم ، وعلى تركهم رسولهم يصيبه ما أصابه وهو ثابت دونهم ، وهم عنه فارون . ذلك كى يتعلموا ألا يحفلوا بشئ يفوتهم، ولا يحزنوا لأذى يصيبهم . فهذه التجربة التى مرت بهم ، وذلك الندم الذى ساور نفوسهم، وذلك الغم الذى استشعروه فيما فعلوه .. كل أولئك سيصغر فى نفوسهم كل ما يفوتهم من عرض، وكل ما يصيبهم من مشقة ، ويجعلهم أدق تقديرا للأمور كلها خيرا وشرها، بعد هذه التجربة الأليمة لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ . والله المطلع على الخفايا يعلم حقيقة أعمالكم ودوافعكم وتأثراتكم وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

وفى تفسير الجلالين فَأَنَابَكُمْ فجازاكم . غمًّا الهزيمة . بغم بسبب غمكم للرسول . وقيل الباء بمعنى على أى مضافا على غم .

قالت المعتزلة : وليس الغرض تسليط الكفار على المسلمين ولكن الغرض ألا يبقى فى قلوب المؤمنين اشتغال بغير الله ، ولا يحزنوا بالإدبار ولا يفرخوا بالإقبال .

وقال النيسابورى (١١٩) : (المراد أنكم قلتم لو بقينا فى هذا المكان وامتنلنا وقعنا فى غم فوات الغنيمة، فاعلموا أنكم لما خالفتم أمر الرسول وطلبتم الغنيمة وقعتم فى غموم آخر كل واحد منها أعظم من ذلك، فيصير هذا مانعا لهم من أن يحزنوا على فوات الغنيمة من وقعة أخرى. ثم كما زجرهم على تلك المعصية بزاجر دنيوى زجرهم بزاجر أخروى فقال : وَاللَّهِ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . عالم بجميع أعمالكم وقصودكم ودواعيكم فيجازيكم بحسب ذلك ) (١٢٠).

١٥٤ - ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ .. الآية.

الأمنة - بفتحتن - مصدر كالآمن ، يقال آمن وأمنا وأمانا وأمنة. والنُّعاس ، هو الفتور فى أول النوم .

#### المعنى الإجمالى :

ثم أسبغ الله عليكم بعد الغم نعمة الأمن ، وكان مظهرها نعاسا يغشى فريقى الصادقين فى إيمانهم ، وتنويعهم لله ، أما الطائفة الأخرى فقد كان همهم أنفسهم لا يعنون إلا بها ، ولذلك ظنوا بالله الظنون الباطلة كظن الجاهلية ، ويقولون مستكرين : هل كان لنا من أمر النصر الذى وعدنا به شئ ؟ قل - أيها النبى - الأمر كله فى النصر والهزيمة لله ، يصرف الأمر فى عباده إن اتخذوا أسباب النصر، أو وقعوا فى أسباب الهزيمة ، وهم إذ يقولون ذلك يخفون فى أنفسهم أمرا لا يبدونه، إذ يقولون فى أنفسهم : لو كان لنا اختيار لم نخرج فلم تغلب، قل لهم : لو كنتم فى منازلكم وفيكم من كتب عليهم القتل لخرجوا إلى مصارعهم فقتلوا ، وقد فعل الله ما فعل فى أحد لمصالح جمّة، وليختبر ما فى سرائركم من الإخلاص ، وليظهر قلوبكم ، والله يعلم ما فى قلوبكم من الخفايا علما بليغا .

#### النوم فى المعركة :

عندما اشتد خوف المسلمين فى غزوة بدر أرسل الله عليهم النوم فهذأت أعصابهم ، واطمأنت نفوسهم، واشتد يقينهم برعاية الله لهم، ثم أنزل الله المطر فى غزوة بدر فكان نعمة على المؤمنين، حيث ثبتت الأرض من تحتهم ، وتطهروا ، وكان المطر وبالا على المشركين . قال تعالى :

إِذْ يُغَشِّكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجَزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ . ( الأنفال : ١١ ) .

وكان النوم فى غزوة بدر فى ليلة المعركة قبل أن تبدأ .

أما في غزوة أحد فالراجح أنه كان في أعقاب المعركة، بعد أن انتهت وأصاب المؤمنين فيها جراح وآلام، فأرسل الله عليهم النوم فهذا روعهم واستعدوا لملاحقة المشركين في غزوة حمراء الأسد، ولما علم المشركون بذلك أسرعوا بالعودة إلى مكة .

#### قال الإمام محمد عبده :

اختلف المفسرون في وقت هذا النعاس ، فقال بعضهم : إن ذلك كان في أثناء المعركة، وإن الرجل كان ينام تحت ترسه كأنه آمن من كل خوف وفزع، إلا المناققين فإنهم أهمتهم أنفسهم فاشتد جزعهم. وحمل بعضهم هذه الآية على آية الأنفال *إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ* . وإنما هذه في غزوة بدر . وقد مضت السنة في الخلق بأن من يتوقع في صبيحة ليلته هولاً كبيراً ومصاباً عظيماً- فإنه يتجاهى جنبه عن مضجعه، ويبيت بليلة اللسوع فيصبح خاملاً ضعيفاً، وقد كان المؤمنون يوم بدر يتوقعون مثل ذلك إذ بلغهم أن جيشاً يزيد على ثلاثة أضعاف جيشهم سيحاربههم غداً، وهو أشد منهم قوة وأعظم عدة، فكان من مقتضى العادة أن يناموا على بساط الأرق والسهاد ، يضرّيون أحماساً في أسداس ، ويفكرون بما سيلاقون في غدهم من الشدة والبأس، ولكن الله رحمهم بما أنزل عليهم من النعاس، غشيهم فناموا واثقين بالله تعالى مطمئنين لوعده، وأصبحوا على همة ونشاط في لقاء عدوهم، فالنعاس لم يكن يوم بدر في وقت الحرب بل قبلها .

وأما النعاس يوم أحد فقد قيل : إنه كان في أثناء الحرب ، وقيل إنه كان بعدها . وقد اتفق المفسرون وأهل السير على أن المؤمنين قد أصابهم يوم أحد شيء من الضعف والوهن، لما أصابهم يوم أحد من القتل والعصيان وقتل طائفة من كبارهم وشجعانهم ، فكانوا بعد انتهاء المعركة قسمين :

**أقوياء الإيمان :** الذين حزنوا وتألوا من التقصير في أسباب النصر، فأرسل الله عليهم النعاس، راحة لأجسامهم ويسلاً لجراحهم، وما من أمة إلا وفيها الأقوياء والضعفاء.

**وضعفاء الإيمان :** اشتد هلعهم ، ويشوا من النصر، وصب الله عنهم عنايته ، فلم يرسل عليهم النوم ، بل شغلهم بأنفسهم فذلك قوله تعالى : *وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ* . فهذه الطائفة من المؤمنين الضعفاء ولا حاجة إلى جعلها من المناققين كما قيل (١٢١).

#### وقال السيد رشيد رضا :

هذا وإن جمهور المفسرين قد جروا على خلاف ما اختاره الأستاذ الإمام في هذه الطائفة. فتقاناوا : إن المراد بها المناققون منهم الذين كانت تههم أنفسهم، إذ كان هم المؤمنين محصوراً فيما أصاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما وقع لبعضهم من التقصير، وكان في غشيان النعاس ونزول الأمانة على المؤمنين من دونهم معجزة ظاهرة (١٢٢).

وتحرير الكلام في هذه المسألة أن الله تعالى بين لنا في كتابه ثلاث حقائق :

( الحقيقة الأولى ) أنه تعالى هو خالق كل شيء والذي بيده ملكوت كل شيء، وبمشيئته يجري كل شيء،

فلا قاهر له على شيء ، وهو القاهر فوق كل شيء.

( الحقيقة الثانية ) أن خلقه وتدييره إنما يجري بحسب مشيئته .

وحكمته على سنن مطردة ومقادير معلومة قال تعالى : قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ .

( الحقيقة الثالثة ) أن من جملة سننه فى خلقه وقدره فى تدبير عبادہ أن الإنسان خلق ذا علم ومشیئة وإرادة وقدره ، فيعمل بقدرته وإرادته ما يرى بحسب ما وصل إليه علمه وشعوره أنه خير له ، والآيات الناطقة بأن الإنسان يعمل ويعلمه تناط، سعادته وشقاوته فى الدنيا والآخرة كثيرة جدا .

وإننا نرى الكتاب العزيز يذكر بعض هذه الحقائق الثلاث فى بعض الآيات ويسكت عن الأخرى ، لأن المقام يقتضى ذلك - ولكل مقام مقال - ولكنه ينكر على من يجعل شيئاً منها ، ويبين للناس خطأه .

وكذلك الآية التى نحن بصدد تفسيرها تشير إلى بعض هذه الحقائق فى قوله تعالى : قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ . (١٣٣) .

أى بيده مقاليد الأشياء يقدر ويدبر كيف يشاء ، وقد قضى بأن يخرج المسلمون فى أحد ، وأن يهزموا لحكم يعلمها سبحانه ، وليستقيدوا من دروس الهزيمة فلا يفعلوا ما يؤدى إلى مظلها .

لقد كانت غزوة أحد ابتلاء وامتحاناً تميز به طوائف الناس أمام هذا النوع من البلاء .

فمنهم أقوياء الإيمان ، وضعفاء الإيمان ، والمناقضين .

قال تعالى : وَلَيَبْتَغِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَصِّحَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

أى نزل بكم ما نزل من الشدائد فى أحد لتتعودوا تحمل الشدائد والمحن ، وليعاملكم - سبحانه - معاملة المختبر لنفوسكم ، فيظهر ما تتطوى عليه من خير أو شر ، حتى يتبين الخبيث من الطيب ، وليخلص ما فى قلوبكم من المحن والأدران ، فإن القلوب يعتريها بحكم العادة أدران وأمراض من الغفلة وحب الشهوة ، فاقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل بها من المحن والبلاء ، ما يكون بالنسبة لها كالدواء لمن عرض له داء .

واللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . أى عليم بأسرارها وضمايرها الخفية التى لا تشاركها ، قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . ( آل عمران ٥ : ) . وقال سبحانه : وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى . ( طه : ٧ ) .

ومع معرفته سبحانه بكل شيء وإحاطة علمه بالظاهر والباطن فقد اقتضت حكمته أن يمتحن عبادہ ، وان يختبرهم ليظهر الخبيث من الطيب ، ويتبين المؤمن من المنافق . وتظهر الخفايا المستكنة واضحة ظاهرة فى سلوك الناس وتصرفاتهم ، ثم يكون الجزء من جنس العمل . أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ . ( آل عمران : ١٤٢ ) .



﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٥٥) يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَّو كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَيُمَيِّتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَٰكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَٰكِنْ مِّتُّم أَوْ قُتِلْتُمْ لَا لِيَ اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

المفردات :

استزلهم : أوقعهم في الزلل بما زينه لهم .

ضربوا في الأرض : أوغلوها فيها .

غزى : جمع غاز . وهو المقاتل .

التفسير :

١٥٥ - إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان بعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفورٌ حلِيمٌ .

المعنى الإجمالي :

إن الذين انصرفوا منكم عن الثبات في أملاكهم - يا معشر المسلمين - يوم التقى جمعكم وجمع الكفار للقتال في غزوة أحد ، إنما جرهم الشيطان إلى الزلل والخطأ بسبب ما ارتكبوا من مخالفة الرسول . ولقد تجاوز الله عنهم ، لأنه كثير المغفرة واسع الحلم .

الضار من المعركة :

حذرت آيات القرآن ، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم من التولى يوم الزحف أى الفرار يوم القتال .

قال تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْاُدْبَارَ (١٥) ومن يُولُوهُم يومئذٍ دبره إلا متحرفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئةٍ فقد باء بغضبٍ من الله وأواره جهنم وبئس المصير . ( الأنفال : ١٥ ، ١٦ ) .

كما أمر القرآن بالثبات والاحتمال والاستعانة بذكر الله ليكون كل ذلك مددا وقوة لنفسية المحارب . قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُرُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَازَعُوا فَعَشَلُوا فَأَثَابَهُمْ بِبَغْوٍ وَأَخْبَرُوا أَنَّهُمْ لَمَّا دُخِلَ فِي الدِّنَارِ لَوَّى لِحْيَاهُمْ وَلَافُوا فِيهَا كَأَنَّهَا كَلْبٌ كَفَّاهُ يَكُومُ عَلَى رِجْلَيْهِ فَنَادَى بِفِتْنَةٍ وَخَرَّ السَّيْثَانُ خَرًّا ( الأنفال : ٤٥-٤٦ ) .

\* \* \*

وفى غزوة أحد . خالف الرماة أمر النبي صلى الله عليه وسلم وتركوا أماكنهم فاضطرب نظام المعركة، وهجم المشركون على بقية الرماة فقتلوههم، وأصابوا المسلمين إصابات بالغة، وقد فرَّ بعض المسلمين من المعركة متوجهاً نحو المدينة ، كما أن بعض المسلمين لم يثبت بجوار النبي صلى الله عليه وسلم ، بل فرَّ إلى الجبل أو إلى غهريه عندما اضطربت الصفوف .

« ولقد حكى لنا التاريخ أن هناك جماعة من المسلمين ثبتت إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم بدون وهن أو ضعف ، وقد أصيب ممن كان حوله أكثر من ثلاثين، وكلهم كان يفتدى النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه ويقول وجهي لوجهك الفداء، ونفسي لنفسك الفداء، وعليك السلام غير مودَّع » (١٢٤) .

#### قال صاحب المنار :

وهناك وجه آخر فى تفسير هذه الآية ، وهو أن الذين تولوا هم جميع الذين تغلوا عن القتال من الرماة وغيرهم، كالذين انهزموا عندما جاءهم العدو من خلفهم ، واستدل القائلون بهذا الوجه بما روى من أن عثمان بن عفان عوتب فى هزيمته يوم أحد، فقال : إن ذلك خطأ عفا الله عنه .

\* \* \*

ولقد قال المفسرون فى صدد جملة بَعْضٍ مَا كَسَبُوا . إنها تعنى عصيان رسول الله ، وحب الغنيمة . وكراهية الموت .

\* \* \*

وهذه الآية فيها تحذير للمسلمين من التولى يوم الزحف، وتحذير لهم من طاعة الشيطان ، والاستماع إلى وسوسته ، لأن طاعة الشيطان طريق إلى المعصية والوهن والضعف، ومن سنة الله أن يعاقب الإنسان حيناً فى الدنيا للتعليم والتأديب ، وأن يصفح عنه أحياناً لمعرفته سبب عاقبته بضعف البشر قال تعالى : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ نَصِيبٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْرِفْ عَنْ كَثِيرٍ . ( الشورى : ٣٠ ) .

#### قال الأستاذ محمد عزة دروزة :

ولقد علم الله إخلاصهم وما أصابهم من خسائر فى الأرواح وجروح فى الأجساد ، وحزن وجزع، فاقترض حكمته أن يغفر لهم ذلتهم، وأن ييسرهم بهذه البشرى تهديئة لروحهم، وتضميدا لجراحهم، وأن يكفى بما وجهه إليهم فى الآيات من عتاب ، وتحذير وتنبية ، وفى ذلك ما فيه من معالجة ربانية جليلة، للموقف العصيب ، وتأمل فى عفو الله وحلمه وغفرانه فى كل موقف مماثل ، إذا لم تشبه شائبة من سوء نية وخبط طوية (١٢٥) .

١٥٦ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا .. الآية.

هذه الآية تحذير للمؤمنين بأن لا يكونوا كالكفار ، الذين ينسون الله وقضاءه وحكمته ، ويقولون لمن يخرج غازياً أو سائحاً أو تاجراً فيموت أو يقتل ، إنه لو لم يخرج لما مات أو قتل.

وذلك جهل منهم بأن الله قدر الآجال ، وأن الضرب في الأرض أو الغزو ، لا يكون سبباً في الموت أو القتل .

قال الفخر الرازي : وذلك لأن في تطبيع محبة الحياة ، وكراهية موت والقتل ، فإن قيل للمرء : إذا تحورت من السفر والجهاد ، فأنت سليم طيب العيش ، وإن اندفعت إلى أحدهما وصلت إلى الموت والقتل - فالتغالب أن ينفر طبعه عن ذلك ، ويرغب في ملازمة البيت ، وكان ذلك من مكاييد المنافقين في التفتير من الجهاد .

\* \* \*

لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ . أى قالوا ذلك ليصير ذلك الاعتقاد الفاسد حسرة في نفوسهم ، قال ابن كثير : أى خلق الله هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم .

وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ . فالمتى يأتي للقاعد في بيته متى جاء . جله ، كما يأتي المجاهد في حربه كذلك ، وربما أصابت المنية القاعد ولم تنزل بالغازي .

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . أى علمه وما نافذ في جميع خلقه ، لا يخفى عليه من أمورهم شيء .

\* \* \*

« ولقد احتوت الآية على قوة ناهضة ، من شأنها أن تمد المؤمن بالصبر والرضا والتسليم لحكم الله ، والجرأة والإقدام ، وإيثار ما عند الله على حطام الدنيا ، وعدم الاستماع لوسوسة المنافقين ، ومرضى القلوب المماثلة في كل زمان ومكان » (١٦١).

١٥٧ - وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ .

ولئن قتلتم أيها المؤمنون في الجهاد ، أو متم في أثنائه على فراشكم بدون قتل ، فإن مغفرة الله لكم ورحمته بكم خير من حياة أولئك الكفار المقطوعة صلتهم بالله ، الهابطة إلى الأرض ، ومما يجمعون فيها من مال ومناجاة .

١٥٨ - وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ .

وإنكم لمحشورون إلى الله على كل حال سواء متم ميتة عادية ، أو قتلتم في الجهاد ، فخير إذن أن تلقوا الله وقد نهضتم بتكليف الإيمان ، وجاهدتم في سبيله حتى وافاكم الأجل الموعد ، الذي لا ينقص منه الجهاد .

\* \* \*

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على أبلغ ألوان الترغيب في الجهاد ، من أجل إعلاء كلمة الله ، لأنها قد بينت أن الحياة والموت بيد الله وحده ، وأنه سبحانه قد يكتب الحياة للمسافر وللغازي ، مع اقتحامهما لموارد الحتوف، وقد يميئ المقيم والقاعد في بيته مع حيازته لأسباب السلامة.

وإن الذين يموتون على الإيمان الحق، أو يقتلون وهم يجاهدون في سبيل الله ، فإن لهم من مغفرة الله ورحمته ما هو خير مما يجمعه الكافرون من حطام الدنيا ، وأن كل من مات أو قتل فمرجه إلى الله عز وجل وهو سبحانه مطلع وشاهد . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .



﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

المفردات :

لنت لهم : رفقت بهم .

فظا : القظ، سبى الخلق .

غليظ القلب : قاسيه .

يخذلكم : يمنع عنكم النصر .

التفسير :

١٥٩ - فيما رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ ... الآية .

بيان لعظم حلم النبي صلى الله عليه وسلم ، ورحمة الله به وبهم ، بعد ما كان منهم من مخالفة أمر الرسول وفرارهم ، كما سبق بيانه .

أى : فيسبب رحمة واسعة من الله بك وبهم - وفَّقك الله للصنع عنهم : فلتت لهم ورفقت بهم ، ولم تغلظ عليهم في الملام . مع أنهم فعلوا ما يقتضى أشد التعنيف . إذ ترك أكثر الرماة أماكنهم فوق الجبل ، واشتغلوا بجمع الغنيمة . فمكثوا المشركين من صعوده مكانهم ، وقلب ميزان المعركة لصالحهم . وترتب عليه أن أكثر الجيش فرّ، وترك الرسول في قلة من أصحابه، فقال له من أذى المشركين ما ناله، حتى أرجفوا بقتله... فكان لين

الرسول معهم - بعد ذلك - رحمة من رحمت الله به وبهم . إذ كان سببا في بقاء الإسلام ، وجمع قلوب المسلمين .

ولذا قال سبحانه وتعالى :

وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .

أى : ولو كنت جافى الطبع، قاسى القلب ، فعاملتهم بقسوة، وعنفتمهم على ما كان منهم ، وأشعنت عنهم غضبا عليهم - لنفرت قلوبهم منك، فتفرقوا عنك ، ولم تستطع أداء رسالتك، وتبليغ دعوتك على وجهها الأكمل .

فليته صلى الله عليه وسلم معهم - على خطيئهم وعقوبتهم عنهم - لم يكن عن ضعف وإنما كان ناشئا عن الرحمة التى فطره الله عليها .

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ .

قال صاحب الكشاف : اعف عنهم فيما يتعلق بحقك ، واستغفر لهم فيما يتعلق بحق الله .

وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ .

أى : فى أمر الحرب وغيره ، من كل أمر له خطر ولم ينزل فى شأنه وحى ، استظهارا برأيهم . وتطيبيا لنفوسهم ، ورفعا لأقدارهم ، وتقريراً لسنة التشاور فى الأمة الإسلامية .

وقد جاء فى الكشاف : وعن الحسن رضى الله عنه : قد علم الله ما به إليهم حاجة، ولكنه أراد أن يستن به من بعده .

وقيل : كانت العرب ، إذا لم يشاوروا فى الأمر ، شق عليهم ذلك . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه، لئلا يتقل عليهم استقلاله بالرأى دونهم . وكان صلى الله عليه وسلم ، يدرك - تمام الإدراك - ما للمشاورة من أثر فى الوصول إلى الصواب .

وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم » (١٣٧) .

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .

أى : فإذا استقر رأيك ، وسكنت نفسك - بعد المشاورة ، فامض الأمر ولا تتردد ، وتوكل على الله فى تنفيذها ما عزمته عليه فإنه هو المعين لك فى أمور الدين والدنيا .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ . عليه فى جميع أمورهم . وإنما يحبهم لأنهم اخلصوا نفوسهم له، وطردوا عنها ما سواه ، إذ لم يروا فى غيره غناء .

وحب الله لهم ، مجاز عن توفيقه وإرشاده لهم فى الدنيا ، وحسن المثوبة فى الآخرة .

والمراد أنه لا ناصر لكم سواه .

وفى هذا تنبيه إلى أن الأمر كله لله .

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . أمر للمؤمنين بأن يخلصوا الله تعالى بالتوكل عليه ، والثقة به ، فى جميع الأخذ فى الأسباب .

والمراد بالتوكل ، غير التوكل الذى هو ترك الأخذ بالأسباب ، مما يقع فيه كثير من المسلمين ، بناء على خطئهم فى فهم المراد من التوكل . وهذا التوكل محرم شرعا ..

★ ★ ★

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَمْ مِنْ أَتْبَعِ رِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ مِنْ جَهَنَّمَ وَلَا يَبْصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِبَصِيرِ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

المفردات :

يغل : يخون . فالغلول : الخيانة وأخذ الشيء خفية . وخص - فى الشرع - بالسرقة من المغنم قبل القسمة . وفى قراءة (يُغْل) بضم الياء وفتح العين ، أى ينسب إلى الغلول .

باء بسخط : رجع بغضب شديد من الله .

التفسير :

١٦١ - وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ .. الآية .

أى ما صح وما استقام - عقلا وشرعا - لنبي من الأنبياء أن يخون فى المغنم وغيرها ، أو ينسب إلى الخيانة .

وفى هذا تنزيه لمقامه صلى الله عليه وسلم ، عن جميع وجوه الخيانة فى أداء الأمانة ، ومنها قسمة الغنائم ، وتنبيه على عصمته عليه السلام . فإن النبوة تنافى ذلك .

والمراد : تنزيه ساحته صلى الله عليه وسلم ، عما ظنه الرماة الذين تركوا أماكنهم يوم أحد ، حرصا على الغنيمة ، وخوفا من أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أخذ شيئا فهو له .. فيحرموا - فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لهم معاتبًا متعجبًا « ظننتم أنا نغل ٩٩ فنزلت الآية (١٦٨) .

وعن مجاهد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : « اتهم المنافقون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشيء فقد ، فانزل الله الآية » .

وَمَنْ يَفْعَلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. الآية.

أى ومن يخن يأت بما خان فيه يوم القيامة ، يحمله أمام أهل المحشر، ليفتضح أمره.

وقد وردت أحاديث كثيرة فى عاقبة الغلول وجزائه ، وأنه من الكبائر.

فعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : كان على ثقل (١٢٩) النبى - صلى الله عليه وسلم - رجل يقال له كركرة فمات فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هو فى النار ، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها « (١٣٠).

وقد امتنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من صلاة الجنازة على من غل (١٣١).

ثُمَّ تُؤْتَى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ .

أى : تعطى كل نفس مكلفة جزاء ما عملت - من خير أو شر - وافئذاً تاماً ، قليلاً كان أو كثيراً.

والغالب داخل فى هذا العموم دخولاً أولياً.

وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ .

أى : وكل الناس لا يظلمون بنقص فى ثواب ما عملوه من الخير، أو زيادة فى العقاب على ما اقترفوه من الشر إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها . ( النساء : ٤٠ ) .

١٦٢ - أَفَمِنْ أَتْبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ .. الآية.

المعنى : أغفلتم عن عدل الله ، فحسبتم أن من أتبع رضوان الله وسعى فى تحصيله : بفعل الطاعات وترك المنهيات ، كمن رجع بفضب شديد من الله عليه ، بسبب الكفر والمعاصي، ومنها الغلول ٩ .

أى : لا يستوى من أتبع رضوان الله - بالتزام شريعته ، فاستحق ثواب الله ونعيمه - ومن حاد عنه ، فاستحق غضبه وشديده عقابه ، فلا محيد له عنه .

وَمَا أُوَاهُ جَهَنَّمَ .

أى : مقره ومثواه جهنم : يلقى فيها عذاب الهون ، جزاء تقريطه فى أوامر الله تعالى ونواهيه .

وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

أى : وبئس مآله ومرجعه السيئ : جهنم .

١٦٣ - هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ .. الآية .

أى : المتبعون رضوان الله والذين باعوا بسخطه ، ذوو درجات ومنازل متفاوتة فى الثواب والعقاب .

فأصحاب الثواب متفاوتون في الدرجات . والمستحقون لغضب الله وعذابه ، متفاوتون كذلك . والدرجات تكون في النعيم ، وتكون في العذاب . يدل على ذلك قوله تعالى : **وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا** . ( الأنعام : ١٣٢ ) .  
بعد قوله تعالى : **ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكِ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ** . ( الأنعام : ١٣١ ) .

والمراد بقوله تعالى : **عِنْدَ اللَّهِ** . في علمه تعالى وحكمه .

**وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** .

أى : بصير بالأعمال التي عملوها من خير أو شر . سيجازيهم عليها : كلا بحسبه من ثواب أو عقاب .

★ ★ ★

﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ ۖ وَزَكَرِيَّهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ (١٦٤) **أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ**  
**أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (١٦٥)

المضردات :

من

: المن، التفضل والإنعام من غير مقابل .

من أنفسهم : من جنسهم .

الكتاب والحكمة : القرآن والسنة .

أنى هذا : من أين هذا ؟

التفسير :

١٦٤ - لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم .. الآية .

أى : أنعم الله تعالى وتفضل على المؤمنين ببعثه الرسول فيهم من جنسهم : عربيا مثلهم : نشأ بينهم . وعرفوا أخلاقه وصفاته .

وإذا كان الرسول إليهم من جنسهم ، كان ذلك أبلغ في الامتنان . حيث يسهل عليهم مخاطبته ومجالسته ، ومعرفة أمور الدين منه .



وبعثته صلى الله عليه سلم فيهم - وهو منهم - شرف للعرب ، وفخر عظيم لهم . وإن كانت رسالته عامة للعالمين أجمعين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . ( الأنبياء : ١٠٧ ) .

يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ . وهو القرآن ، بعد أن كانوا أهل جاهلية . لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي .

وَيُزَكِّيهِمْ . أى ويظهرهم مما كانوا فيه من دنس الجاهلية ، وخبث المعتقدات . حيث دعاهم إلى العقيدة الصحيحة ، والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة .

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .

أى : ويعلمهم القرآن وشرائعه ، وحكمه وأحكامه ، والسنة وما اشتملت عليه من بيان لميهم الكتاب .  
وتفصيل لمجمله .

وإن كانوا من قُلُوبٍ لَقِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

أى : وإنهم كانوا - من قبل بعثته - لفي ضلال ، وإضلال ، واضح الدلالة على الجهالة ، ظاهر لكل من علل على عاداتهم وأخلاقهم وعقائدهم .

١٦٥ - أو لَمَّا أَصَابَكُمْ مِصْبِيَّةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا .. الآية.

كلام مستأنف ، سيق لإبطال بعض ما نشأ من الظنون الفاسدة بعد معركة أحد ، إثر إبطال بعض آخر منها .

والمعنى : أفلتتم ما فعلتم من أسباب الهزيمة ولما أصابكم مصيبة يوم أحد بقتل سبعين شهيداً منكم قد أصبتم مثليها . يوم يدر بقتل سبعين من كفار قريش وأسر سبعين منهم - لما حدث هذا - قلتهم : من أين هذا الذى أصابنا وقد وعدنا الله النصر ؟

قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ . بسبب عصيانكم أمر رسول الله ، حيث أمركم بالثبات فى مكانكم فمعضيتهم

إن الله على كل شيء قدير . فهو ينصركم حين تستحقون النصر، ويكتب عليكم الغلبة حين تقتصرون فى التزام أسبابه .

وفى ختام الآية بما ذكر : ما يرشد إلى أن الأمر كله بيده جلّت قدرته ، سبحانه وتعالى .

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَنُقَاتِلْهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعُنَا هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ يَأْفُوهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَلَمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

المفردات :

يوم التقى الجمعان : أى يوم أحد ، حيث التقى جمع المؤمنين وجمع المشركين .

وليظهر : وليظهر ويميز .

نافقوا : النفاق ، إظهار الإيمان وإبطان الكفر .

فادروا عن أنفسكم الموت : أى يوم أحد ، حيث التقى جمع المؤمنين وجمع المشركين .

التفسير :

١٦٦ - وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ .. الآية .

أى : وما نزل بكم من استشهاد بعضكم ، يوم التقى الجمعان : جمع المؤمنين بقيادة رسول الله ، وجمع المشركين بقيادة أبى سفيان فَيَا ذِينَ اللَّهِ . أى فكأن بقضاء الله وقدره ، حسبما جرت به سنته فى خلقه وتلك الأيام نداولها بين الناس . ( آل عمران : ١٤٠ ) .

وفى ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، ومواساة لهم فيما أصابهم . فالؤمن إذا عرف ذلك ، يرضى ويسلم بما قضاه الله وقدره .

وليَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ .

أى : وليظهر المؤمن الصادق من غيره ، وليميز الخبيث من الطيب .

١٦٧ - وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ... الآية .

أى : وليظهر غير الصادقين فى إيمانهم .

وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَنُقَاتِلْهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا .

أى : قيل للمنهزمين مع عبد الله بن أبيّ - رأس المنافقين - تمالوا قاتلوا فى سبيل الله لإعلاء دينه ونصرة نبيه ، أو دافعوا عن أنفسكم وأموالكم ، إن لم تقاتلوا لوجه الله . وممن قال لهم ذلك : عبد الله بن عمرو ابن حرام .

قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْتَغَاكُمْ .

هذا استئناف بياني ، أى قالوا : لو كنا نعلم أنكم تلقون قتالاً لا تبغناكم وسرنا معكم . أو قالوا استهزاء : نعلم فنون الحرب وأساليبها لا تبغناكم .

ثم كشف الله حقيقة أمرهم فقال :

هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ .

أى هم - يوم قولهم ذلك - أقرب للكفر منهم للإيمان ، حيث تركوا الجهاد فى سبيل الله ، وقالوا ذلك كاذبين .

وإنما لم يصرح القرآن بحقيقة كفرهم ، لنطقهم بالشهادتين . وهم- فى الواقع - لا إيمان فى قلوبهم .

يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ .

هذه جملة - تبين حال المنافقين الدائمة ، لا فى هذا اليوم فقط ، أى أنهم يتكلمون بكلمة التوحيد وليس فى قلوبهم منه شئ ، لإضمارهم الكفر والعداوة والبغضاء لأهل الإسلام .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ .

أى : والله سبحانه عليم بما انطوت عليه صدورهم من الشر والفساد ، ويأن ما قالوه بأفواههم ، ليس كائنا فى قلوبهم ، بل مغالفاً له .

١٦٨ - الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا .. الآية.

أى : الذين قالوا فى حق إخوانهم فى الدين ، أو توى قرابتهم الذين خرجوا مع المؤمنين وقاتلوا ، وقد قعدوا هم عن مشاركتهم والجهاد معهم .

لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا . أى لو أطاعونا فى ترك السير مع الرسول والمؤمنين ، ما قتلوا . كما أننا لم نقتل .

وفى ذلك ما يدل على أن المنافقين ، حرضوا المؤمنين على التخاذل والتعود عن الجهاد .

قُلْ فَادْرَءُوا . أى قل لهم يا محمد : إن كان القعود ينجى من الموت كما تزعمون . فادفعوا عن أنفسكم الموت الذى كتب عليكم .

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فيما تزعمون من أن الموت لم يقع بكم ، لأنكم قعدتم وجبنتم . قال تعالى : قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . ( الأحزاب : ١٦ ، ١٧ ) .

★ ★ ★

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ . وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾

كانت حياة المسلمين في المدينة مقعمة بالجهاد والاستشهاد ، كان للمسلمين شهداء في بئر معونة ، وشهداء في غزوة بدر ، وشهداء في غزوة أحد ، وفي غيرها من الغزوات (١٢٢) .

وكان المنافقون يثبطون المسلمين عن الجهاد ، ويدعونهم إلى القعود في المدينة خوفاً من الموت أو القتل . فبينت هاتان الآيتان فضل الشهادة ، ومنزلة الشهداء .

قال الواحدي : الأصح في حياة الشهداء ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من أن أرواحهم في أجواف طيور خضر وأنهم يرزقون ويأكلون ويتعممون .

وقد ورد هذا المعنى في سورة البقرة حيث قال سبحانه :

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ . ( البقرة : ١٥٤ ) .

ولقد روى المفسرون أحاديث عديدة في سياق هذه الآيات ، كتفسير وتوضيح ، وأورد الحافظ ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة في الحث على الجهاد ، ومن أحاديث فضل الجهاد ما يأتي :

روى البخاري عن ابن المنكر أنه سمع جابراً يقول : لما قتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه ، فجعل أصحاب رسول الله ينهاونني والنبي ﷺ لم ينه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ( لا تبكيه - أو ما تبكيه - ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع ) (١٢٣) .

وروى الحاكم أبو عبد الله في صحيحه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأتى إلى قتاديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا من يبلغ إخواننا أننا

فى الجنة ترزق لثلاً يزهدوا فى الجهاد، ولا ينكلوا فى الحرب<sup>(١٦٩)</sup>، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم .  
فأنزل الله تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . (١٧٠).

( قال أبو الضحى نزلت هذه الآية فى أهل أحد خاصة ، وقال جماعة من أهل التفسير : نزلت الآية فى شهداء بئر معونة . وقصتهم مشهورة ذكرها محمد بن إسحاق فى المغازى . وقال آخرون : إن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة أو سرور تحسروا وقالوا : نحن فى النعمة والسرور وأبائنا وأبنائنا فى القبور ، فأنزل الله تعالى هذه الآية تنقيساً عنهم وإخباراً عن حال قتلاهم ) (١٦٩).

والآية تبين منزلة الشهداء فهم فى حياة سارة ونعيم لذيق ورزق حسن عند ربهم . وهذه الحياة الممتازة ترفعهم عن أن يقال فيهم كما يقال فى غيرهم : أموات ، وإن كان المعنى اللغوى للموت - بمعنى مفارقة الروح للجسد فى ظاهر الأمر - حاصلًا للشهداء كثيرهم من الموتى ، إلا أن هذه الحياة البرزخية التى أخبر الله بها عن الشهداء تؤمن بها كما ذكرها الله تعالى ، ولا ندرك حقيقتها لأنها من شؤون الغيب .

قال القرطبى فى تفسير الآية :

( فقد أخبر الله تعالى - فى هذه الآيات عن الشهداء أنهم أحياء فى الجنة يرزقون ، والذى عليه الكثيرون أن حياة الشهداء محققة ، ثم منهم من يقول : ترد إليهم الأرواح فى قبورهم فينعمون ، كما يعيا الكفار فى قبورهم فيعذبون ، وصار قوم إلى أن هذا مجاز ، والمعنى أنهم فى حكم الله مستحقون للنعيم فى الجنة ، وقال آخرون أرواحهم فى أجواف طير خضر وأنهم يرزقون فى الجنة ويأكلون ويتنعمون ، وهذا هو الصحيح من الأقوال ، لأن ما صح به النقل فهو الواقع ، وحديث ابن عباس نص يرفع الخلاف .. ) (١٧٠).

والآية تثبت للشهداء حياة على نحو ما ، تؤمن بها ونفوس معرفة حقيقتها لله ، جاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم :

١٦٩ - ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ... ولا تظنن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل هم أحياء حياة استأثر الله بعلومها يرزقون عند ربهم رزقاً حسناً .

١٧٠ - فرحين بما آتاهم الله ... يتألق السرور بالبشر من وجوههم ، بما أعطاهم الله بسبب فضله من المزايا ، ويفرحون بإخوانهم الذين تركوهم فى الدنيا أحياء مقيمين على منهج الإيمان والجهاد ، وبأنه لا خوف عليهم من مكروه ، ولا هم يحزنون لفوات محبوب .

ويقول الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى:

( أى أن هؤلاء الشهداء فرحون بما آتاهم الله من فضله ، من شرف الشهادة ومن الفوز برضا الله . ويسرون بما تبين لهم ، من حسن مال إخوانهم ، الذين تركوهم من خلفهم على قيد الحياة ، لأن الأحياء عندما يموتون شهداء مثلهم ، سينالون رضا الله وكرامته ، وسيظفرون بتلك الحياة الأبدية الكريمة كما ظفروا هم بها .

فالمراد بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم : رفقاؤهم الذين كانوا يجاهدون معهم في الدنيا ولم يظفروا بالشهادة بعد ، لأنهم ما زالوا على قيد الحياة ( ١٢٨ ) .

والآيتان من أروع ما يتلى للحث على الجهاد وبيان فضل الشهادة ، وبيان منزلة الشهداء ، وجلال ثوابهم وطيب مقامهم ، ورقة منزلتهم ، وهي منزلة يتمناها المؤمن الصادق، حياة الشهيد في جوار ربه يتمنى أن يعود إلى الدنيا ليقتل في سبيل الله مرة ومرة ومرة ، لما يرى من فضل الشهادة . إن الشهيد قد قدم روحه ، وضحي بنفسه . فكان له الجزء الأوفى من جنس عمله ، وكان له حق على الله أن يحفظه من النار وأن يدخله الجنة ، وأن يسكنه في أعلى منازل الجنان .

جاءت أم حارثة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول : يا رسول الله : إن حارثة قد قتل في الجهاد فأخبرني أمه في الجنة أم في النار ؟ فإن كان في الجنة صبرت وإن كان في النار بكيت ، فقال ﷺ : اتق الله يا أم حارثة إنها جنان وليست جنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى منها ( ١٢٩ ) .

وقد تمثل المؤمنون المعاني الكريمة لهذه الآيات والأحاديث ، فحملوا راية الجهاد في سبيل الله ، وكان العباد والزهاد والمنقطعون للعبادة في المساجد يرون أن لهم ثوابا عظيما على عبادتهم ، وكانت هناك مساجلات أدبية بين المتعبدين في المساجد ، والمجاهدين في ميادين الحرب .

روى الحافظ ابن عساكر عن محمد بن إبراهيم بن أبي سكينه قال : أملى على عبد الله بن المبارك هذا الأبيات بطرسوس ، وأرسلها إلى الفضيل بن عياض سنة ١٧٠ هـ .

يا عابـد الحـرمين لو ابصـرتنا

لعلـمت أنـك في العـبـادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه

فنجـورنا بدمائنا تتـخـضب

أو كان يتعب خيله في باطل

فخيولنا يوم الصبيحة تتعب

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا

وهج السنايك والغبار الأطيب

ولقد أتانا من مقال نبينا

قول صحيح صادق لا يكذب

لَا يَسْتَوِي غِبَارُ خَيْلِ اللَّهِ فِي  
 أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانِ نَارٍ تَلْهَبُ  
 هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطَلِقُ بَيْنَنَا  
 لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يَكْذِبُ

فلما قرأ هذه الآيات الفضيل بن عياض ذرفت عيناه في المسجد الحرام وقال : صدق أبو عبد الرحمن، فقد صح في الحديث عن أبي هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله علمني عملاً أنا به ثواب المجاهدين في سبيل الله ، فقال له الرسول ﷺ : « هل تستطيع أن تصلي فلا تفتري، وتصوم فلا تقطر ؟ » فقال يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « هو الذي نفسى بيده لو طوقت ذلك ما بلغت المجاهدين في سبيل الله » رواه البخاري (١١٠).

★ ★ ★

﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧١)

المعنى الإجمالي :

تتألق وجوه الشهداء بما من الله به عليهم من نعمة الشهادة ، ونعيم الجنة وعظيم الكرامة ، وبأنه لا يضيع أجر المؤمنين .

فهذه الآية استئناف مبين لما هم عليه من سرور يتعلق بذواتهم بعد أن بين سبحانه سرورهم بحال الذين لم يلحقوا بهم .

أى أن هؤلاء الشهداء يستبشرون بحال إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، كما أنهم يستبشرون أيضاً لأنفسهم بسبب ما أنعم الله عليهم به من نعم جزيلة - ويسبب ما تفضل به عليهم من زيادة الكرامة وسمو المنزلة، وهذا يدل على أن هؤلاء الشهداء لا يهتمون بشأن أنفسهم فقط ، وإنما يهتمون أيضاً بأحوال إخوانهم الذين تركوهم في الدنيا ، وفي ذلك ما فيه من صفاء نفوسهم ، وطهارة قلوبهم حيث أحبوا الخير لغيرهم كما أحبوه لأنفسهم .

والآية وإن نزلت في شهداء غزوة أحد ، إلا أن حكمها عام في جميع شهداء المؤمنين المجاهدين في سبيل الله.

★ ★ ★

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ  
وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ  
فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ  
لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾

المضردات :

القرح : الجرح .

حسبنا الله : كافينا وحافظنا .

الوكيل : المتصرف ، أو الكافي، أو الكافل .

قصة الآيات :

ورد في كتب التفسير <sup>(١١١)</sup> عدة روايات عن أسباب نزول هذه: منها أنها نزلت في غزوة حمراء الأسد،  
ومنها أنها نزلت في غزوة بدر الصغرى، وتلتقى الروايات على أن حرباً نفسية كانت في أعقاب غزوة أحد، حاول  
المشركون منها تثبيط همم المسلمين ليكسبوا جولة بدون معركة عسكرية ، ولكن المسلمين المخلصين لبوا نداء  
الرسول وخرجوا في طلب المشركين ثم عادوا ظافرين غانمين إذ لم يجدوا عدوا وإنما سجلوا نصراً معنوياً .

قال الفخر الرازي :

اعلم أن الله مدح المؤمنين على غزوتين تعرف لإحداهما بغزوة حمراء الأسد، والثانية : بغزوة بدر  
الصغرى، وكتاهما متصلة بغزوة أحد .

أما غزوة حمراء الأسد فهي المرادة من هذه الآية ، فإن الأصح في سبب نزولها أن أبا سفيان وأصحابه  
بعد أن انصرفوا من أحد ، ويلغوا الروحاء ندموا ، وقالوا : إنا قتلنا أكثرهم ولم يبق إلا القليل فلم تركناهم ؟ بل  
الواجب أن نرجع نستأصلهم ، فهموا بالرجوع .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يرهب الكفار ويريههم من نفسه ومن أصحابه قوة .  
فتدب أصحابه إلى الخروج في طلب أبي سفيان ، وقال : لا أريد أن يخرج الآن معي إلا من كان معي في القتال  
في أحد .

فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم مع قوم من أصحابه ، حتى بلغوا حمراء الأسد، وهي مكان على بعد  
ثمانية أميال من المدينة، فالتقى الله الربيع في قلوب المشركين فانهزموا ١٠ هـ .



١٧٢ - الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ .

أى هؤلاء المؤمنون هم الذين أجابوا دعوته، وليوا نداءه ، وأتوا بالعمل على أكمل وجهه ، واتقوا عاقبة تقصيرهم ، على ما هم عليه من جراح وآلام أصابتهم يوم أحد، لهم أجر عظيم على ما قاموا به من جليل الأعمال.

١٧٣ - الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

أى هم الذين قال لهم نعيم بن مسعود الأشجعي، ومن واقفه وأذاع قوله : إن أبا سفيان وأعوانه جمعوا الجموع لقتالكم ، فآخشوهم ولا تخرجوا للقائهم.

روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة أن الآية نزلت في غزوة أحد الصغرى، ذلك أن أبا سفيان قال حين أراد أن ينصرف من أحد ، يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ذلك بيننا وبينك إن شاء الله ، وهذا مما اعتاده العرب في حروبهم .

فلما جاء الموعد خرج النبي على رأس فريق من أصحابه حتى بلغ بدرًا فلم يجدوا قريشا ، وشهدوا سوق بدر، وكان لهم فيها ربح تجارى عظيم ، ولم يلقوا كيدا أو سوءا . وابن سعد يذكر وقوع الغزوتين وأسبابهما التي ذكرها المفسرون (١٧٣).

روى أن أبا سفيان خرج في العام التالي لغزوة أحد، في جيش من أهل مكة حتى نزل ( مجنة ) ، من ناحية ( مر الظهران ) ، فالتقى الله الرعب في قلبه فهذا له الرجوع ، فلقى نعيم بن مسعود وقد قدم معتمرا فقال له أبو سفيان : إني واعدت محمدا وأصحابه أن نلتقى بموسم بدر، وأن هذا عام جذب، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لى أن أرجع ، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج فيزيدهم ذلك جراحة ، فذهب إلى المدينة فخطبهم ، ولك عندي عشرة من الإبل ، أضعها في يدى سهيل بن عمرو فأتى نعيم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون لمعاد أبى سفيان ، فقال لهم : أتوكم في دياركم ، فلم يفلت منكم أحد إلا شريد. افترضوا أن تخرجوا وقد جمعوا لكم ٩ فكان لكلامه وقع شديد في نفوس قوم منهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسى بيده لا أخرجن ، ولو لم يخرج معى أحد » فخرج معه سبعون راكبا يقولون (حسبنا الله ونعم الوكيل) حتى وافى بدرًا الصغرى فإقام بها ثمانية أيام ، ينتظر أبا سفيان فلم يلق أحدا ، لأن أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكة ، وكان معه ألفا رجل، فسماء أهل مكة جيش السوق، وقالوا لهم : إنما خرجتم لتسويروا السوق.

ووافى المسلمون سوق بدر وكانت معهم نفقات وتجارات ، فباعوا واشتروا أدما وزبيبا فربحوا ، وأصابوا بالدرهم درهمين - وانصرفوا إلى المدينة سالين غانمين.

وفى ذلك يقول الله تعالى : فَزَادَهُمْ إِيمَانًا . أى فزادهم هذا التخذييل إيمانا بالله ورغبة في الجهاد ، واستعدادا للتضحية، وقالوا فى يقين صادق : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . الله كافينا ، يرد عنا أعداءنا وينصرنا، ونعم الكفيل الله تعالى .

١٧٤ - فَاتَّقِبُوا نِعْمَةً مِّنَ اللَّهِ وَفَضِّلْ لِّمَن يَمَسُّهُمْ سُوءٌ . . .

فعاد المسلمون من بدر الثانية بنعمة السلامة مع الرغبة في الجهاد وفوزهم بثوابه . وقد تظاهرت عليهم نعم الله ، فسلموا من تدبير عدوهم ، وأطاعوا رسولهم ، وريحوا في تجارتهم ، ونالوا فضل الله عليهم في إلقاء الرعب في قلوب عدوهم فلم ينلهم أذى .

وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ . أى حرصوا على فعل ما يرضى الله تعالى عنهم ، من المبادرة إلى فعل الطاعات ، ومنها خروجهم لبدر الصغرى ، وترك المنهيات ففازوا برضوان الله وتأييده ونصره .

وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ أى ذو إحسان عظيم على العباد .

في أعقاب الآيات :

من المفسرين من ذكر أن الآيات نزلت في غزوة حمراء الأسد ، في أعقاب غزوة أحد .

ومنهم من ذكر أنها نزلت في غزوة بدر الصغرى ، وهى بعد غزوة أحد بسنة كاملة .

وهناك احتمال أن الآيات نزلت بعد الحادثتين كلتيهما ، وقد رجح الأستاذ محمد عزة دروزة أن الآيات نزلت في غزوة حمراء الأسد لأنها متكاملة مع ما سبقها .

والمبتدأ أن الآيات لم تنزل مستقلة ، وليست منفصلة عن سابقتها ، وكلمة الَّذِينَ متصلة نظماً بكلمة الْمُؤْمِنِينَ التى كانت خاتمة الآيات السابقة ، وأن السلسلة كلها نزلت دفعة واحدة ، عقب أحداث وقعة أحد ومشاهدها .

والآيات تحتوى صورة رائعة لاستغراق النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته والجهاد في سبيلها ، وعمق إيمان الفئة المؤمنة التى كانت حوله ، وصبرها وتقانيها وقوة روحها واستغراقها في تأييد النبي وطاعته .. وبخاصة في الحالة التى نزلت فيها الآيات ، حيث خرجوا إلى عدو يزيد عليهم أضعافاً كثيرة ، ويفوقهم في الوسائل ، وكانت جراحهم دامية وأجسادهم متعبة بما فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى كان مجروحاً في وجهه مشجوجاً في جبهته ، مكسورة رباعيته مكلومة شفته السفلى متوهناً منكبه الأيمن من ضربة أصابته وركبته مشجوجتان (١٤٣) . ويزيد في روعة الصورة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يندب معه إلا الذين شهدوا معركة أحد وقتالوا فيها ولم ينهزموا . وقد روى أن عددهم كان سبعين (١٤٤) . ومما رواه المفسرون من واقع هذه الصورة خروج الجرحى حرصاً على ثواب غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك أن شاباً (١٤٥) استشهد أبوه في المعركة ولم يكن شهيداً بنفسه لأن أباه آلى عليه أن يتخلف إلى جانب سبيع أخوات له ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وطلب منه الإذن بالانضمام إليه بعد أن أخبره بعنزه الذى منعه من شهود المعركة ، وفى كل هذا عظيم الأسوة والتلقين لكل مسلم في كل ظرف ومكان (١٤٦) .

وفى معنى هذه الآيات قوله تعالى : وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . ( الأحزاب : ٢٢ ) .

★ ★ ★

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾

المفردات :

الشيطان : الشيطان هنا هو شيطان الإنس الذى غش المسلمين ليخذلهم وهو نعيم بن مسعود .

يخوف أولياءه : أى يخوفكم أنصاره من المشركين .

يسارعون فى الكفر : أى يسارعون فى نصرته والاهتمام بشئونه والتهوين من شأن المؤمنين وتخوينهم .

حطاً فى الآخرة : أى نصيبا من الثواب فيها .

اشتروا الكفر بالإيمان : أى أخذوا الكفر بدلاً من الإيمان كما يفعل المشتري من إعطاء شيء وأخذ غيره بدلاً منه .

نملئ لهم : الإملاء : الإهمال والتخلى بين العامل وعمله ليلبغ أقصى مدهاء ، من قولهم : أملئ لفرسه

إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء، منه المملأ للأرض الواسعة، والمملوءان : الليل والنهار .

سياق الآيات :

انتهت غزوة أحد بفوز المشركين ، وأصيب النبی صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بجراح وآلام وانكسار .

عندئذ أظهر بعض المنافقين كفرهم وصاروا يخوفون المؤمنين ويؤسسونهم من النصر والظفر بعدهم ، ويقولون لهم إن محمداً طالب ملك، فتارة يكون الأمر له ، وتارة عليه ، ولو كان رسولا من عند الله ما غلب، إلى نحو هذه المقالة مما ينفر المسلمين من الإسلام ، فكان الرسول يحزن لذلك ويسرف فى الحزن، فنزلت هذه الآيات تسلياً للرسول الأمين وتربية للمؤمنين .

التفسير :

١٧٥ - إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخْرِفُ أَوْلِيَائَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ .

بين الله سبحانه للمؤمنين أن أولئك الذين يخوفونكم بأعدائكم لتجنبوا عن لقاءهم ليسوا إلا أعوانا للشيطان الذى يخوف أتباعه فيجعلهم جبنا ولستم منهم ، فلا تحفلوا بتخويفهم وخافوا الله وحده إن كنتم صادقى الإيمان قائمين بما يقرضه عليكم هذا الإيمان .

وجاء فى التفسير الحديث :

فى هذه الآية تنبيه وتثبيت للمؤمنين ، فالشيطان يثير فى نفوسهم الخوف من أوليائه، ليقعدهم عن القتال، فليهممهم ألا يستمعوا لوساوسه، ولا يخافوهم بل يخافوا الله وحده إن كانوا مؤمنين حقا ١٠ هـ .

وتفيد الآية أن المؤمن لا يكون جباناً ولا ذليلاً ، لأن الموت والحياة بيد الله ، وإذا عرضت للإنسان أسباب الخوف فليستحضر فى نفسه قدرة الله الذى بيده كل شيء، وهو يجبر ولا يجار عليه .

إن فى استطاعة الإنسان أن يقاوم أسباب الخوف، ويعود نفسه الاستهانة بها بالتمرين والتربية .  
إذا عرضت للإنسان أسباب الخوف، فعليه أن يغالبها بصرفها عن ذهنه، وشغلها بما يضادها وينهب بآثارها، وهذا يدخل فى اختيار الإنسان ، وهو الذى ينط به التكليف .

١٧٦ - وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا .

كان المنافقين مواقف شائنة فى غزوة أحد ، فقد عاد عبد الله بن أبى بلث الناس ، ولما دارت الدائرة على المسلمين فى أحد ، بسبب موقف المنافقين أولا ، ويسبب ترك الرماة أماكنهم فوق الجبل لحماية ظهور المسلمين ثانيا ، ورجعوا إلى المدينة ، أظهر المنافقون كثيرا من الشماتة والبغضاء ، وقالوا فى حق الذين قتلوا فى المعركة .. لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا . ( آل عمران : ١٥٦ ) .

ولما استعرض الرسول الأمين هذه المواقف الشائنة حزن وتألم ، فأنزل الله هذه الآية لتسلية ، أى لا ينبغي يا محمد أن تحزن لمسارعة هؤلاء الضالين فى الكفر ، فإنهم لن يضرُوا أوليائى بشيء من الضرر . وقد استفاد المسلمون من هذه الغزوة ، إذ عرفوا أعداءهم ، المنبئين فيما بينهم من المنافقين ، فأخذوا حذرهم . يُرِيدُ اللَّهُ الْأَلَاءَ بِكُمْ لِيَجْزِيَ الْمُجْرِمَ فِي الْأَخْرَةِ . أى حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيبا فى الآخرة بسبب ما أبدوه من أسباب الفرقة والتخذييل والشماتة وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وعقاب اليم فوق عذاب الحرمان من نعيم الجنة .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ... ( المائدة : ٤١ ) .

١٧٧ - إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

والاشتراء في الآية الكريمة بمعنى الاستبدال ، على سبيل الاستعارة التمثيلية ، فقد شبه - سبحانه - الكافر الذي يترك الحق الواضح ، الذي قامت الأدلة على صحته ، ويختار بدله الضلال الذي قامت الأدلة على بطلانه بمن يكون في يده سلعة ثمينة جيدة فيتركها ، ويأخذ في مقابلها سلعة رديئة فاسدة .

والمعنى إن الذين استبدلوا الكفر بالإيمان ، لن يضرروا دين الله ولا رسوله ، ولا أوليائه بشيء من الضرر ، وإنما يضررون بفعلهم هذا أنفسهم ضررا بليغا ، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم شديد الإيلام ، بسبب إيثارهم النفي على الرشد ، والكفر على الإيمان والشر على الخير .

١٧٨ - وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطْلِقُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ...

أى لا يعتقدون الذين كفروا أن إيهاننا لهم ، وعدم تعجيلنا بمعقوبيتهم ، على كيدهم للإسلام - خير لأنفسهم ، فإن الله يمهلهم ويؤخر عقوبتهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

إِنَّمَا نُطْلِقُ لَهُمْ لِيُذَادُوا إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مَّهِينٌ .

أى يستدرجهم الله تعالى ويرخى لهم الحبل على الغارب ، ليرتموا في مراعى الشر ، ثم يستحقون العذاب المهين في الآخرة مقابل اعتزازهم في الدنيا بالكفر والمعاصي ، والكيد للإسلام والمسلمين والبادئ أظلم .

وفي معنى الآية قوله تعالى : يَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ \* نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ . ( المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦ ) .

وقوله سبحانه : فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . ( القلم : ٤٤ ) .

وقوله عز شأنه : فَلَا تَعْجَلْ أَمُورَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ . ( التوبة : ٥٥ ) .

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمُونُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٩﴾

المفردات :

ليذر : يترك.

يميز : يفرق ويمزل.

يجتبي : يترك.

التفسير :

١٧٩ - مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ . . .

أى : ليس من شأن الله تعالى ، ولا من حكمته وسنته فى خلقه ، أن يترككم أيها المؤمنون على ما أنتم عليه ، من اختلاط المؤمن بالمنافق ، بل الذى من شأنه وسنته أن يبتليكم ويمتحنكم ، بألوان المصائب والشدائد ، حتى يظهر المؤمن الطيب المخلص ، ويستبين أمر المنافقين الذين هتكت أسمائهم وعرفت أسماؤهم ، وحقيقة نواياهم .

ولم تجر سنة الله بإطلاع أحد من خلقه على شئ من غيبه . قال تعالى : **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا** . ( الجن : ٢٦ ، ٢٧ ) .

فأله تعالى يصطفى من رسله من يريد اصطفاؤه فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، كما حدث للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد أطلعه الله على ما دبره له اليهود حين هموا باغتياله ، وأطلعه على حال تلك المرأة التى أرسلها حاطب بن أبى بلتعہ برسالة إلى قريش لتخبرهم باستعداد الرسول صلى الله عليه وسلم لحربهم ، وأطلعه على أحوال بعض المنافقين **فَأَمُونُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ** . أى أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم ، أو داوموا على ما أنتم عليه من الإيمان بالله ورسوله .

**وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ** . وإن تصدقوا فى إيمانكم وتتقوا ريكم بالتزام طاعته ؛ يدخلكم الجنة جزاء ، ونعم الجزاء إذ هى جزاء عظيم .

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يُبْخُلُونَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٨٠) لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يُظْلِمَ لَلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عِهْدُ إِيَّانَا لَا نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقْرَبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

المضردات :

: أى ما أعطاهم من المال والعلم والجاه.

ما آتاهم

: أى سيلزمون إثمه فى الآخرة كما يلزم الطوق الرقبة ، وقد جاء فى أمثالهم : تقلدها طوق الحمامة ، إذا جاء بما يسب به ويذم .

سيطوقون ما بخلوا به

: أى ما يتوارثه أهلها من مال غيره .

ميراث السموات والأرض

: أى سنعاقب عليه ولا نهمله .

سنكتب ما قالوا

: أصل الذوق وجود الطعم فى الفم ثم استعمل فى إدراك المحسوسات، والحريق المحرق المؤلم ، وعذاب الحريق أى عذاب هو الحريق أى سننتقم منهم .

ونقول ذوقوا عذاب الحريق

: أى أمرنا فى التوراة وأوصانا .

عهد إلينا

: ما يقترب به إلى الله من حيوان ونقد وغيرهما ، والمراد من (النار): التى تنزل من السماء .

القربان

: هى المعجزات الواضحة .

البيّنات

: واحدها زيور ، وهو الكتاب .

الزير

: الواضح .

المنير

تمهيد :

كان الكلام فيما مضى فى التحريض على بذل النفس فى الجهاد فى سبيل الله بذكر ما يلاقيه المجاهدون من الكرامة عند ربه فى جنات النعيم .

وهنا شرع يبحث على بذل المال فى الجهاد - والمال شقيق الروح - فذكر أشد أنواع الوعيد لمن يبخل بماله فى هذه السبيل ، وأرشد إلى أن المال ظل زائل ، وأن مدى الحياة قصير ، وأن الوارثين والمورثين سيموتون ويبقى الملك لله وحده .

ثم ذكر مقالة لليهود قد قالوها ، ثم كذبهم فيها ثم سألوا رسوله وأبان له أن تكذيبهم لك ليس ببدع منهم بل سبقوا من قبل بمثله من الأنبياء السابقين .

\* \* \*

التفسير :

١٨٠ - وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ... .

أى ولا يظن أحد أن يبخل الباخلين بما أعطاهم الله من فضله ونعمه هو خيراً لهم ، لأنهم مطالبون بشكران النعم ، والبخل بها كفران لا ينبغي أن يصدر من عاقل .

والمراد من البخل بالفضل البخل به فى أداء الزكاة المفروضة ، وفى الأحوال التى يتعين فيها بذل المال كالإنفاق لصد عدو يحتاج البلاد ويهدد استقلالها ، ويصبح أهلها أدلة بعد أن كانوا أعزة ، أو إنقاذ شخص من مخالب الموت جوعاً .

ففى كل هذه الأحوال يجب بذل المال ، لأنه يجرى مجرى دفع الضرر عن النفس .

وليس الذم والوعيد على البخل بما يملك الإنسان من فضل ربه ، إذ إن الله أباح لنا الطيبات لتستمتع بها ، ولأن العقل قاض بأن الله لا يكلف الناس بذل ما يكسبون ويبيعون عراة جائعين ، ومن ثم قال فى حق المؤمنين المهتدين وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . ( البقرة : ٣ ) .

وجاءت الآية بطريق التعميم ترغيباً فى بذل المال بدون تحديد ولا تعيين ، ووكّل أمر ذلك إلى اجتهد المؤمن الذى يتبع عاطفة الإيمان التى فى قلبه ، وما تحدثه فى النفس من أريحية بذل الواجب والزيادة عليه ، إذا هو تذكر أن فى ماله حقاً للسائل والمحروم .

بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ . أى هو شرّ عظيم لهم ، وقد نفى أولاً أن يكون خيراً ثم أثبت كونه شراً ، لأن المانع للحق إنما يمنعه لأنه يحسب أن فى منعه خيراً له ، لما فى بقاء المال فى يده من الانتفاع به فى التمتع بالذات ، وقضاء الحاجات ودفع الفوائد والأفات .



سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . أى سيجعل ما بخلوا به من المال طوقاً فى أعناقهم ، ويلزمهم ذنبه وعقابه ، ولا يجدون إلى دفعه سبيلاً ، كما يقال : طوقنى الأمر أى الزمنى إياه .

وخلاصة هذا - أن العقاب على البخل لازم لا بد منه .

وقال مجاهد : إن المعنى : سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به من أموالهم يوم القيامة عقوبة لهم فلا يستطيعون ذلك ، ويكون ذلك توبيخاً لهم على معنى : هلا فعلتم ذلك حين كان ممكناً ميسوراً ، ونظير هذا قوله تعالى : وَيُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَبِيعُونَ . ( القلم : ٤٢ ) .

ويرى بعضهم أن التطويق حقيقي ، وأنهم يطوقون بطوق يكون سبباً لعذابهم فتصير تلك الأموال حيات تلتوى فى أعناقهم . فقد روى البخارى والنسائى عن أبى هريرة قال : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاع ( ثعبان ) أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، فيأخذ بهزمته ( شدقيه ) يقول أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا الآية » ( ١١٧ ) .

والله ميراث السموات والأرض . أى لله وحده لا لأحد سواه ، ما فى السماوات والأرض ما يتورث من مال وغيره ، فينتقل من واحد إلى آخر لا يستقر فى يد ، ولا يسلم التصرف فيه لأحد ، إلى أن يفنى الوارثون والموروثون . ويبقى مالك الملك ، وهو الله رب العالمين .

فما لهؤلاء القوم يبخلون عليه بملكه ، ولا ينفقونه فى سبيله ، وابتغاء مرضاته .

وفى الآية إيماء إلى أن كل ما يعطاه الإنسان من مال وجاه وقوة وعلم فإنه عرض زائل ، وصاحبه فان غير باق ، فلا ينبغي أن يستبقى الفانى ما هو مثله فى الفناء ، بل عليه أن يضع الأشياء فى مواضعها التى لها ، وبذا يكون خليفة الله فى أرضه محسناً للتصرف فيما استخلف .

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . أى والله لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، ولا ما تتجلى عليه جوانحك ، فيجازى كل عامل بما عمل بحسب تأثير عمله فى تزكية نفسه أو تدهيئتها ، ونبته فى فعله كما جاء فى الحديث : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » .

١٨١ - لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنَاءُ .

أى قد سمع الله قول هؤلاء الكافرين الذين قالوا هذه المقالة ، ولم يخف عليه ، وسيجزئهم عليه أشد الجزاء .

وهذا أسلوب يتضمن التهديد والوعيد ، كما يتضمن البشارة والوعد بحسن الجزاء فى نحو « سمع الله لمن

حمده » ويضمن مزيد العناية وإرادة الإغاثة وإزالة الشكوى فى نحو قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا

وَتَشْعِكُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُزَكُمَا . ( المجادلة : ١ ) . إذ سمع الله لعباده يراد به مراقبته لهم فى أقوالهم ، ويلزم من ذلك المعانى التى ذكرناها آنفاً .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أتت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله تعالى : مِنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا . ( البقرة : ٢٤٥ ) . فقالوا : يا محمد ، أفقير ربك يسأل عباده القرض ونحن أغنياء؟ فأنزل الله لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ . الآية .

سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا . أى سنعاقبهم على ذلك عقاباً لا شك فيه ، إذ يلزم من كتابة الذنب وحفظه العقوبة عليه ، وهذا استعمال شائع فى اللغة .

وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ . أى قتل سلفهم لهم ، وإنما نسبة إليهم للإشارة إلى أنهم راضون بما فعلوه .

وهذا يدل على أن الأمم متكافئة فى الأمور العامة ، ويجب على أفرادها الإنكار على من يفعل المنكر وتغييره أو النهى عنه ، ثلثا يفشو فيها ، فيصير خلقاً من أخلاقها وعادة مستحكمة فيها ، فتستحق العقوبة فى الدنيا بالضيق والفقر ، والعقوبة فى الآخرة بتدنيس نفوسها ، وأن المتأخر إذا لم ينظر إلى عمل المتقدم ويطلبه على أحكام الشريعة فيستحسن منها ما تستحسنه ، ويستتهجن ما تستهجنه - عد شريكاً له فى إثمه ومستحقاً لمثل عقوبته .

وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . أى سننتقم منهم ونقول لهم هذه المقالة .

ذلك أنهم لما قالوا ما قالوا وقتلوا من الأنبياء من قتلوا ، فقد أذاقوا المسلمين وأتباع الأنبياء ألواناً من العذاب ، وأحرقوا قلوبهم بلهب الإيذاء والكرب ، فجوزوا بهذا العذاب الشديد وقيل لهم : ذوقوا عذاب الحريق ، كما أدقمت أولياء الله فى الدنيا ما يكرهون .

والخلاصة - ذوقوا ما أنتم فيه ، فاستم بمخلصين منه ، وهذا قول يلقي للتشقى الدال على كمال الغيظ والغضب .

١٨٢ - ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ . أى أن هذا العذاب المحرق الذى تذوقون حرارته بسبب أعمالكم فى الدنيا كقتل الأنبياء ، ووصف الله بالفقر ، وجميع ما كان منكم من ضروب الكفر والفسوق والعصيان .

وأضاف العمل إلى الأيدى ، من قيل أن أكثر أعمال الإنسان تزاوُل باليد ، وليفهد أن ما عذبوا هو من عملهم على الحقيقة ، لا أنهم أمروا به ولم يباشروه .

وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . أى أن ذلك العذاب أصابكم بعملكم ، ويكونه تعالى عادلاً فى حكمه وفعله ، لا يجوز ولا يظلم . فلا يعاقب غير المستحق للعقاب ، ولا يجعل المجرمين للمتقين ، والكافرين كالمؤمنين كما قال : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَاءَ مَا مَحَدُّهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا

يَحْكُمُونَ . ( الجاثية : ٢١ ) . وقال : أَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۖ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . ( القلم : ٣٦٢٥ ) .  
وقال : أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ . ( ص : ٢٨ ) .

والخلاصة - أن ترك عقاب أمثالك مساواة بين المحسن والمسيء وضع للشئ في غير موضعه، وهو ظلم كبير لا يصدر إلا ممن كان كثير الظلم مبالغاً فيه .

١٨٣ - الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في كعب بن الأشرف ومالك بن الضيف وفتحاص بن عازواء وهى جماعة آخرين، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد تزعم أنك رسول الله ، وأنه تعالى أوحى إليك كتاباً، وقد عهد إلينا فى التوراة ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، ويكون للنار دوى خفيف حين تنزل من السماء فإن جئتنا بهذا صدقتك ، فنزلت الآية .

وروى ابن جرير أن الرجل منهم كان يتصدق بالصدقة، فإذا تقبل منه نزلت عليه نار من السماء فأكلت ما تصدق به .

ودعواهم هذا العهد من مفترياتهم وأباطيلهم ، وأكل النار للقرآن لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة ، فهو وسائر المعجزات سواء، وما مقصدهم من تلك المفتريات إلا عدم الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يأت بما قالوه ، ولو أتى به لآمنوا فرد عليهم بقوله :

قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قِبَلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . أى قل مويخا لهم ومكذبا: قد جاءكم كثيرون من قبلى كزكريا ويحيى وغيرهما بالمعجزات الدالة على صدق نبوتهم، وبما كنتم تقترحون وتطلبون ، وأتوا بالقرآن الذى تأكله النار ، فما بالكم لم تؤمنوا بهم ، بل اجترأتم على قتلهم ؟ وهذا دليل على أنكم قوم غلاظ الأكباد ( وبذلك وصفوا فى التوراة ) قساة القلوب لا تفقهون الحق ولا تدعنون له ، وأنكم لم تطلبوا هذه المعجزة استرشادا، بل تمنيتا وعنادا .

وقد نسب هذا الفعل إلى من كان فى عصر التنزيل وقد وقع من أسلافهم لأنهم راضون عما فعلوه، معتقدون أنهم على حق فى ذلك ، والأمة فى أخلاقها العامة وعاداتها كالشخص الواحد، وقد كان هذا معروفا عند العرب وغيرهم، فتراهم يلصقون جريمة الشخص بقبيلته ويؤاخذونها بها .

والخلاصة : أن أسلافكم كانوا متعنتين ، وما أنتم إلا كأسلافكم، فلم يكن من سنة الله إيجابتكم إلى ملتصكم بالإتيان بالقرآن، إذ لا فائدة منه .

١٨٤ - فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ . أى فإن كذبوك بعد أن جئتهم بالبيانات الساطعة، والمعجزات الواضحة والكتاب الهادى إلى سواء السبيل ، مع استتارة الحجة والدليل - فلا تأس عليهم ، ولا تحزن لعنادهم وكفرهم، ولا تعجب من فساد طويتهم ، وعظيم تمنيتهم ، فتلك سنة الله فى

خليقته . فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بمثل ما جئت به من باهر المعجزات ، وهزوا القلوب بالزواج والعطات ، وأناروا بالكتاب سبيل النجاة فلم يغن ذلك عنهم شيئاً ، فصبروا على ما نالهم من أذى وما نالهم من سخرية واستهزاء .

وفى هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وبيان لأن طلياع البشر فى كل الأزمنة سواء ، فمنهم من يتقبل الحق ويقبل عليه بصدر رحب ونفس مطمئنة ، ومنهم من يقاوم الحق والداعى إليه ، ويسفه أحلام معتقيه .  
فليس بالعجيب منهم أن يقاوموا دعوتك ، ولا أن يفندوا حجتك ، فإن نفوسهم منصرفة عن طلب الحق ، وتحرى سبل الخير .

★ ★ ★

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ  
عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

المفردات :

توفون أجوركم : أى تعطونها وافية كاملة غير منقوصة .

زحج عن النار : نحى عنها .

فاز : سعد ونجا .

متاع : المتاع : ما يتمتع به مما يباع ويشترى .

الغرور : إصابة الغرة والغفلة ممن تخدعه وتغشه .

التفسير :

١٨٥ - كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ . الآية .

كل نفس سيدركها الموت لا محالة ، قال تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . ( الرحمن : ٢٦ ) . وإنما تعطون جزاء أعمالكم وافيًا يوم القيامة ، فمن نحى عن النار وأبعد عنها وأدخل الجنة فقد فاز بالسعادة السرمدية ، والتعيم المخلد ، وليست الدنيا إلا دار الفناء يستمتع بها الأحقق للغرور .

قال ابن كثير : وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، فإذا انقضت المدة ، وفرغت التلطفة التى قدر الله وجودها من صلب آدم ، وانتهت البرية ، أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها كثيرها وقليلها ، كبيرها وصغيرها ، فلا يظلم أحد مثقال ذرة .

( وليس في هذه الآلة ما يدعو إلى نفذ اليد من الدنيا ومتعتها وطيباتها والنشاط فيها في مختلف المجالات ، وإنما هدفها هو التذكير بحتمية الموت ، وحث الناس والمسلمين بخاصة على الاستمسك بحبل الله وتوابعه ، والقيام بواجبهم نحوه ونحو الناس ، والاستكثار من العمل الصالح الذي هو وحده النافع المنجي لهم في الحياة الآخوية ) (١٨٨).

★ ★ ★

﴿ تَبْلُوكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ نَصَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١٨٦) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾

المفردات :

تبلون في أموالكم وأنفسكم : لتختبرن فيها بالإصابة ببعض البلياء .  
من عزم الأمور : من الجد في الأمور . مأخوذ من عزم الأمر ، أى جد فيه .  
ميثاق : الميثاق : العهد .  
فنبذوه وراء ظهورهم : أى طرحوه خلفها . والمقصود : أنهم أهملوه ولم يعملوا به .  
وأشتروا به ثمنًا قليلًا : واستبدلوا بهذا الميثاق ، مقابلًا قليلًا ، من أعراض الدنيا .

التفسير :

١٨٦ - تَبْلُوكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ نَصَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .

أى والله لتختبرن وتمتحنن في أموالكم بالفقر والمصائب وفى أنفسكم بالشدائد والأمراض والجراح والآلام ، ولتسمعن من اليهود والنصارى وكفار العرب والمشركين أعدائكم الأذى الكثير كالطعن في دينكم والاستهزاء بعقيدتكم والتفنن فيما يضركم .

وإن تصبروا على تلك الشدائد ، وتقابلوها بضبط النفس وقوة الاحتمال ، وتتقوا الله في الأقوال والأعمال ، فإن الصبر والتقوى منكم من عزم الأمور والجد فيها ، وهو فضيلة يتنافس فيها المتنافسون ، وأنتم بها أحق وأولى .

وقد ورد في القرآن والسنة ما يوضح حقيقة هذه الحياة، ويبين أن الله يمتحن المؤمن بالبلاء والاختبار ،  
 رفعاً لدرجته وتكفيراً لسيئاته، وتمييزاً للمؤمن من المنافق، قال تعالى : وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ  
 وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ  
 رَاغِبُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ . ( البقرة : ١٥٥ - ١٥٧ ) .

وقال سبحانه : وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ . ( محمد : ٣١ ) .

وروى الترمذى عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : ( قلت : يا رسول الله أى ، الناس أشد بلاء ؟ قال :  
 الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، فيبلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه  
 رقة ابتلى على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة ) ( ١٤٩ ) .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، ويصبرون على  
 الأذى . فهي سنة الدعوات تحاج إلى بلاء وصبر ومقاومة وصمود ، قال تعالى : وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ  
 يَرَوْكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا كَذِبًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَدُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ  
 إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . ( البقرة : ١٠٩ ) .

وفى تفسير ابن كثير حديث طويل رواه البخارى ، عن عروة بن الزبير ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 وسلم ذهب يعود سعد بن عباد بنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، فمر على مجلس فيه ( عبد الله بن أبى  
 ابن سلول ) فدعاهم إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن . فقال عبد الله بن أبى : أيها المرء ، إنه لا أحسن مما  
 تقول ، إن كان حقا فلا تؤذنا به فى مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه .

فقال عبدالله بن رواحة : بلى يا رسول الله فاعفنا به فى مجالسنا ، فإننا نحب ذلك ، فاستب المسلمون  
 والمشركون واليهود ، فلم يزل النبى ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ، ثم سار النبى ﷺ حتى دخل على سعد بن عباد  
 فأخبره بما فعل عبد الله بن أبى ابن سلول ، فقال سعد : يا رسول الله اعف عنه واصفح ، هوالذى أنزل عليك  
 الكتاب ، لقد جاءك الله بالحق الذى نزل عليك ، ولقد اصطاح أهل المدينة على أن يتوجهوا لك ، فلما ظهر الإسلام  
 غص به ، فذلك الذى فعل به ما رأيت ، فعفا عنه النبى صلى الله عليه وسلم ( ١٥٠ ) .

١٨٧ - وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا  
 قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ .

بشرت التوراة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الإنجيل ، وفى الآية تقرير بأن الله قد أخذ  
 عهداً من أهل الكتاب بأن يبينوا للناس ما فى كتبهم ، ويظهروا ما فيها من أحكام الله ، ولا يكتُموا ما فيها من  
 الحقائق .

ولكن أهل الكتاب لم يعملوا بذلك العهد بل نبذوه خلف ظهورهم واستبدلوا به شيئاً حقيراً من حطام الدنيا ، هو الرياسة الدنيوية والجاه والمال الحرام ، فبئس هذا الشراء وبئست تلك الصفقة الخاسرة .

قال ابن كثير : هذا توبيخ من الله ، وتهديد لأهل الكتاب ، الذين أخذ الله عليهم العهد على السنة الأنبياء ، أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن ينهوا بذكره في الناس ، فيكونوا على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعوه ، فكنتموا ذلك وتعضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة ، بالدون الطفيف ، والحظ الدنيوي السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم (١٥١) .

والآية ، وإن نزلت توبيخاً وتهديداً ووعيداً لأهل الكتاب على كتمانهم العلم ، وعدم بيان الحق لأغراض دنيوية ، ففيها تحذير ضمني للعلماء عن أن يسلكوا سبيلهم ، فيحل بهم مثل عقابهم ، وقد جاء ذلك صراحة في قوله صلى الله عليه وسلم :

« من سئل عن علم فكتمه ، ألجم يوم القيامة بلجام من نار » (١٥٢) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن

ماجه .

★ ★ ★

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٨﴾

المفردات :

يفرحون بما آتوا : يفرحون بما جاءوا به نفاقاً أو رياء من الأقوال أو الأفعال .

بمفازة من العذاب : بمنجاة منه .

ملك السموات والأرض : سلطانه عليهما خلقاً وملكاً وتديباً وتصرفاً .

التفسير :

١٨٨ - لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

لا يزال الكلام موصولاً مع أهل الكتاب : فالآية نازلة فيهم :

أخرج الإمام أحمد ، عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف : أن مروان بن محمد ، قال : اذهب يا رافع «بوابه» إلى ابن عباس رضى الله عنه ، فقل له : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل - معذباً ، لتعذبين أجمعين . فقال ابن عباس : وما لكم وهذه ، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب .

ثم تلا ابن عباس : وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ . وتلا ابن عباس لا تَحْسِنَ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

وقال ابن عباس : سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه ، وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستعمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أوتوا كتمانهم ما سألهم عنه .

وروى نحوه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم ..

وقيل: نزلت في المنافقين : لما رآه البخارى ومسلم وغيرهما - واللفظ للبخارى عن أبى سعيد الخدرى : أن رجلا من المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم . خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الغزو ، اعتذروا إليه ، وحلفوا وأحبوا أن يحمدا بما لم يفعلوا ، فنزلت : لا تَحْسِنَ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا الآية.

وعلى هذا ، فالمراد من حب المنافقين أن يحمدا بما لم يفعلوا : أنهم أرادوا أن يحمدهم المؤمنون بسروهم الذى أظهره نفاقا بنصر المؤمنين ، ولم يكن سرورا نابعا من قلوبهم . فاعتبره الله تعالى فى حكم المنافى .

وقد جاء التصريح بسروهم الظاهر بالنصر، فى رواية طويلة ، لابن مردويه، فى تفسيره ، جاء فيها : وإن كان لهم نصر وفتح ، حلفوا لهم ليرضوهم. ويحمدهم على سروهم بالنصر والفتح.

ولا منافاة بين ما قاله ابن عباس ، وما قاله أبو سعيد الخدرى، فى سبب النزول، فالآية عامة فى جميع ما ذكر . وهى - وإن نزلت لهذا السبب الخاص ، أو ذاك ، أو لهما معا - فهى بعموم لفظها، عامة لكل من يأتى بشيء من الحسنات: بظاهره أو بحقيقته ، فيفرح به فرح إعجاب، ويود أن يمدحه الناس بما هو عار عنه من الفضائل. كأن يقولوا فيه : هو صادق فيما قال . أو مخلص فيما فعل. أو عظيم الإحسان والمبرات، أو نحو ذلك مما ليس فيه .

ويدخل فى هذا العموم : من نزلت فيهم الآية ، دخولا أوليا .

والخطاب فى قوله تعالى : لا تَحْسِنَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح للخطاب.

والمعنى : لا تظنن الذين يفرحون - فرح إعجاب - بما جاءوا به مما ظاهره الخير، وباطنه النفاق أو العجب، أو التجرد عن النية الصالحة، ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا ، بأن يقال : إنهم صادقون، أو مخلصون، أو محسنون ، أو غير ذلك من الصفات الجميلة : التى أرادوا أن تقال فى شأنهم على وجه الحمد والثناء ، وهم منها براء .



فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ . فَلَا تَظُنُّنْهُمْ بِمَنْجَاةٍ مِنَ الْعَذَابِ الْآخَرِ ، وَإِنْ أَهْلَتُوا مِنَ الْمَوَازِئِ الدُّنْيَوِيَّةِ .

والمقصود من نهيه صلى الله عليه وسلم : أن يظننهم ناجين من العذاب، هو التوبيخ على أنهم معذبون حتما على نياتهم الخبيثة، ونفاقهم الممقوت ، وليس المقصود نهيه حقيقة عن ظنه نجاتهم . فهو « عليه السلام » عليم باستحقاقهم العذاب، ما داموا مصرين على ما هم عليه من الطوية الخبيثة ، طبقاً لما نزل عليه من شرع الله تعالى .

وذكر قوله : فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ . بعد قوله : لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ لتأكيد الوعيد ، لطول الكلام .

أما قوله : بِمَقَازَةٍ فهو المفعول الثاني لـ تَحْسَبَنَّ الأول .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ هذه الجملة قصد بها : أن العذاب الذي لا ينجو منه هؤلاء ، وليسوا منه بمقازة ، هو عذاب بليغ الإيلام في شدته ومدته ونوعه . وليس عذاباً هيناً ، يمكن احتماله .

١٨٩ - وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

أى : له تعالى « وحده » السلطان فيهما خلقا وتديرا، وإحياء لمن فيهما وإماتة ، وتعذيبا وإثابة .

ومن كان كذلك ، لا يقال : إنه فقير ، وبعض عباده أغنياء، كما زعم اليهود ، إذ قالوا : إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . ( آل عمران : ١٨١ ) .

ولا يقلت من عقابه من أحب أن يحمد بما لم يفعل، كما فعلوا هم وغيرهم .

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فكما قدر على خلق السموات والأرض، يقدر على بعث الخلائق وجزائهم على

أقوالهم وأفعالهم ونياتهم : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . ( الأنبياء : ١٠٤ ) .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ  
 (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾

المفردات :

الذين يذكرون الله قياما : فى صلاتهم .

وقعودا : فى تشهدهم وفى غير صلاتهم .

وعلى جنوبهم : نياما ، وهى حالات ابن آدم كلها .

ما خلقت هذا باطلا : عبثا ولا لعبا ، إلا لأمر عظيم .

التفسير :

١٩٠ - إنَّ فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .

ذكر الله سبحانه هنا آيتين فقط هما خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار ، لأن المقصود إثارة الانتباه ولفت القلوب والأفئدة إلى بديع صنع الله .

( والقرآن يوجه القلوب والأنظار توجيها مكررا مؤكداً إلى هذا الكتاب المفتوح، الذى لا تفتأ صفحاته تقلب فتنبئ فى كل صفحة منه آية موحية تستجيش فى الفطرة السليمة إحساساً بالحق المستقر فى صفحات هذا الكتاب وفى (تصميم) هذا البناء ، ورغبة فى الاستجابة لخالق هذا الخلق، ومودعه هذا الحق ، مع الحب له والخشية منه فى ذات الأوان (وأولو الأبواب) : أولو الإدراك الصحيح يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية، ولا يقيمون الحواجز ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فتفتح بصائرهم، وتشف مداركهم، وتتصل بحقيقة الكون التى أودعها الله إياه وتدرج غاية وجوده وعلة نشأته ، وقوام فطرته ، بالإلهام الذى يصل بين القلب البشرى ونواميس هذا الوجود .. (ومشهد السموات والأرض ، ومشهد اختلاف الليل والنهار، لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا لو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة ، لو استقننا أنفسنا من همود الإلف وخمود التكرار، لاهتزت له مشاعرنا ولأحسنا أن وراء ما فيه من تناسق لابد من يد تنسق، ووراء ما فيه من نظام لابد من عقل يدبر، ووراء ما فيه من إحكام لابد من ناموس لا يتخلل.. وأن هذا كله لا يمكن أن يكون خداعاً، ولا يمكن أن يكون جزأها، ولا يمكن أن يكون باطلاً<sup>(١٥٣)</sup> . (ولا ينقص من اهتزازنا للمشهد الكونى الرائع أن نعرف أن الليل والنهار ، ظاهرتان ناشئتان من دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس ، ولا أن تناسق السموات والأرض مرتكز إلى (الجاذبية) أو غير الجاذبية ، هذه فروض تصح أو لا تصح ، وهى فى كلتا الحالتين لا تقدم ولا تؤخر فى استقبال هذه المعجينة الكونية ،

واستقبال التواميس الهائلة الدقيقة التي تحكمها وتحفظها.. وهذه أيا كان اسمها عند الباحثين من بنى الإنسان هي آية القدرة وآية الحق، في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار).

(والسياق القرآني هنا يصور خطوات الحركة النفسية التي ينشئها استقبال مشهد السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار في مشاعر أولى الألباب تصويرا دقيقا، وهو في الوقت ذاته تصوير إيماني، يلفت القلوب إلى المنهج الصحيح في التعامل مع الكون، وفي التخاطب معه بلفته، والتجاوب مع فطرته وحقيقته، والانطباع بإشاراته وإيحاءاته، ويجعل من كتاب الكون المفتوح كتاب (معرفة) للإنسان المؤمن الموصول بالله، وبما تبده يد الله (١٩١).

#### عبادة النبي صلى الله عليه وسلم :

ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ الآيات العشر من آخر سورة آل عمران إذا قام من الليل لتجده. قال البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضى الله عنه قال : بت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ، ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال : إِنَّ فِي حَلَقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَأُورِي الْأَنْبَابَ . الآيات ، ثم قام فتوضأ واستن، ثم صلى إحدى عشرة ركعة ثم أذن بلال فضلى ركعتين ثم خرج فضلى بالناس الصبح (١٩٠).

والآيات واردة في الأذكار والدعاء، فمن شأن المؤمنين أن يتأملوا في خلق السموات وارتضاعها واتساعها وجلالها وجمالها ، وفي خلق الأرض وانخفاضها وكثافتها واتضاعها وما فيها من بحار وجبال وقفار وأشجار ونبات وزرع وثمار وحيوان ومعادن ومنافع . وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . أى في تماقبيهما وكون كل منهما خلفه للآخر، أو في تفاوتيهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر ، وانتقاصه بازدياده.

لَأُورِي الْأَنْبَابَ لآدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته وباهر حكمته.

لأُورِي الْأَنْبَابَ أى لأصحاب العقول التامة ، والأفئدة المنقطة .

الْبَيْنَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ . فهم يستغرقون في تذكر خالقهم ، ويذكرونه في جميع أحوالهم ، وإنما خص الأحوال المذكورة لأنها الأحوال المعهودة التي لا يخلو عنها الإنسان غالبا ، وليس ذلك لتخصيص الذكر بها (١٩١).

وقيل المراد بالذكر هنا الصلاة، كما ثبت في الصحيحين عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنبك » (١٩٧).

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . يتأملون في كتاب الكون وفي يد الله المبدعة وهي تحركه وتقلب صفحاته وتبدع نظامه، وهو أمر لا يتيسر إلا لأصحاب الفطرة السليمة ، وفي لحظة تمثل صفاء القلب وشفافية الروح وتفتح الإدراك واستعداده للتلقي، كما تمثل الاستجابة والتأثير والانطباع.. إنها لحظة العبادة، وهي بهذا الوصف لحظة اتصال ولحظة استقبال.

فلا عجب أن يكون الاستعداد فيها لإدراك الآيات الكونية أكبر، وأن يكون مجرد التفكير في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، ملهما للحقيقة الكامنة فيها ، ولإدراك أنها لم تخلق عبثاً ولا باطلاً . وقد ذم الله الغافلين ومدح أهل الفكر والعبادة بالقلب والتأمل القائلين : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا . إى ما خلقت هذا الخلق عبثاً بل بالحق لتجزى الذين أساءوا بما عملوا وتجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، قال تعالى : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (المؤمنون : ١١٦-١١٥) .

سُبْحَانَكَ . تنزهت عن أن تخلق هذا الكون باطلاً .

سُبْحَانَكَ . تنزهت عن العبث وأن تخلق شيئاً بغير حكمة .

فَقَدْ عَذَابَ النَّارِ . إن قلوبهم المتدبرة، وأفتدتهم المستبصرة، انطلقت مع أسنتهم بذلك الدعاء الطويل، الخاشع الواجب الراجف المنيب، ذى النغم العذب، والإيقاع المناسب ، و الحرارة البادية فى المقاطع والأنغام .

وقد رأيت أديهم فى الدعاء فقد بداوا بتسبيح الله وتنزيهه ثم عقبوا بالدعاء، وفى الحديث الصحيح : إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه ، والثناء عليه، ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يدعو بعد بما شاء . رواه أبو داود (١٥٨) .

واعلم أنه لما حكى تعالى عن هؤلاء العباد المخلصين أن أسنتهم مستغرقة بذكر الله تعالى، وأبدانهم فى طاعة الله وقلوبهم فى التفكير فى دلائل عظمة الله ، ذكر أنهم مع هذه الطاعات يطلبون من الله الوقاية من عذاب النار، ويسألونه المغفرة لذنوبهم ، والنجاة يوم القيامة .

★ ★ ★

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ ﴾ (١١٦)

المفردات :

أخْرَجْتَهُ : أهلكته أو فضحته، أو أهنته .

التفسير :

١٩٢ - رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ ... الآية .

أى أبعدنا يا ربنا عن عذاب النار فإنك من تدخله النار تكون قد أخْرَجْتَهُ أى أهنته وفضحته على ربوس

الأشهاد :

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ . أى ما لظالم من الظالمين نصير من الأنصار .

★ ★ ★

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۖ ﴾ (١٩٣)  
 رَبَّنَا وَآءِزْنَا عَنْكَ الْفِتْنَةَ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ۖ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُ الَّذِينَ هَاجَرُوا  
 وَأُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ  
 وَلَئِنْ خَلَّوْهُمْ جَنَّتْ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا نَهْنُرُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ  
 الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ۝

المفردات :

الأبرار : جمع بر - والبر والبار ، هو كثير البر والإحسان.

لا تخزنا : لا تهنا ، ولا تقضضنا .. أو لا تهلكنا .

فاستجاب : بمعنى أجاب .

هاجروا : تركوا الشرك أو تركوا الأوطان والعشائر .

التفسير :

١٩٣ - رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ

الأبرار .

المنادى : هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال محمد بن كعب المنادى : هو القرآن .

والمنعنى ربنا إنا سمعنا داعيا : يدعو الناس للإيمان بأن آمنوا بربكم فاستجبنا لدعائه وبادرنا إلى الإيمان

بالله وملأته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفرها وتوفنا مع الأبرار ، طلبوا من الله ثلاثة أشياء : غفران الذنوب المتقدمة ،

وتكفير السيئات المستقبلية ، وأن تكون وفاتهم مع الأبرار بأن يموتوا على مثل أعمالهم حتى يكونوا في درجاتهم

يوم القيامة ، قال تعالى : وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ

وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا . ( النساء : ٦٩ ) .

١٩٤ - رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

أى ربنا أعطنا ما وعدتنا من حسن الجزاء كالنصر فى الدنيا والنعيم فى الآخرة، جزاء على تصديق رسلك واتباعهم .

أو ربنا وأعطنا من الثواب ما وعدتنا به على السنة رسلك .

وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . لَا تَفْضَحْنَا وَلَا تَنْهَكْ سِتْرَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِإِذْخَالِنَا النَّارَ الَّتِي يَخْزَى مِنْ دَخْلِهَا .

إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ . أى لا تخلف ما وعدت به على الإيمان وصالح العمل، فقد وعدت بسيادة الدنيا وسعادة الآخرة .

قال تعالى : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ . ( النور : ٥٥ ) .

وقال عز شانه وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طِبَّةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . ( التوبة : ٧٢ ) .

١٩٥ - فَاسْتَجِبْ لَهُمْ رِبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ... .

أى فاستجاب لهم ربهم دعاءهم ، لصدقهم فى إيمانهم ، فأجابهم إلى ما طلبوا ووعدهم بتحقيق ما سألوا .

أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ . أى لا أزيل ثواب عمل أى عامل منكم ، بل أكافئه عليه بما يستحقه ، وأعطيته من ثوابي ورحمتي ما يشرح صدره .

مَنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْثَى . بيان لعامل وتأكيد لعمومه، أى لا أضيع عمل أى شخص عامل، سواء أكان هذا العامل ذكراً أم أنثى .

بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ . جملة معترضة، لبيان سبب اشتراك النساء مع الرجال ، فى الثواب وجزاء الأعمال الصالحة، فالذكر مفقود فى وجوده إلى الأنثى ، والأنثى مفقودة فى وجودها إلى الرجل، ويجوز أن يكون المعنى : بعضكم من بعض فى الطاعة والعمل الصالح ، أى انتمأ متماثلان فلا وجه للتفرقة بينكما فى الثواب ، فإن المماثلة فى العمل ، تستدعى المماثلة فى الأجر .

قال ابن كثير : أى جميعكم فى ثوابي سواء .

فَالَّذِينَ هَاجَرُوا . بأن تركوا أوطانهم إلى أماكن أخرى من أجل إعلاء كلمة الله .

وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ . أى ضايقتهم المشركون بالأذى حتى خرجوا فراراً من ظلم الظالمين أو اعتداء المعتدين .

وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي . من أجل ديني قال تعالى : وَمَا تَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . (البروج : ٨) .  
وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا . وجاهدوا المشركين واستشهدوا . وقد ثبت في الصحيحين أن القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الدين (١٥٩) .

لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ . لا أغفرنها لهم ، ولا سترنها عليهم .

وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . أى تجرى في خلالها الأنهار، من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن، وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ . أى لأثيبنهم ثوابا عظيما من عندي، لا يقدر عليه غيري، والله تعالى عنده خير الجزاء، وهذه الجملة تأكيد لشرف ذلك الثواب. ولبين اختصاصه بالثواب الحسن، كأن كل جزاء للأعمال في الدنيا لا يمد حسنا ، بجوار ما أعده سبحانه في الآخرة لعباده المتقين .

والآية كما ترى تعرض نماذج بشرية مخلصه في الدعاء والعمل، لقد هاجروا من وطنهم، وتحملوا الأذى في سبيل عقيدتهم ، وأقبلوا على الجهاد والشهادة، فاستحقوا مغفرة لذنوبهم ، وثوابا عظيما من خالقهم ورازقهم .

وقد ذكر المؤرخون أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما خرج من مكة مهاجرا ، التفت إليها وقال : «يامكة لأنت أحب بلاد الله إليّ، ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت » . (١٦٠) .

### النساء في القرآن

تفيد الآيات السابقة إخلاص الدعاء من المؤمنين، واشتراك الرجال مع النساء في الهجرة والإخراج والأذى والقتل والقتال وأن الجنسين متضامنان تضامنا وثيقا، ولعل قرن المرأة بالرجل في هذا المقام ويهذه الأسلوب من أقوى مؤيدات مساواتهما في الشريعة الإسلامية في الحقوق والواجبات العامة، ومن أقوى مؤيدات أهلية المرأة في نظر الشريعة لكل واجب علم، ولقد قرنت الأنثى بالذكر في مواضع عديدة من القرآن المكي والمدني .

ففي سورة البروج المكية يقول سبحانه : إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَمْشُوا بِأَعْيُنِهِمْ فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أُخْرِي . ( البروج : ١٠ ) .

وهي سورة الأحزاب المدنية يقول سبحانه : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّالِمِينَ وَالصَّالِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الأحزاب : ٢٥) .

وقد روى الترمذى عن أم سلمة قالت : قلت : يا رسول الله ، لا أسمع الله تعالى ذكر النساء فى الهجرة (١٩٦) .  
فأنزل الله تعالى : فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ (١٩٧) .

★ ★ ★

﴿ لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ  
وَيُسَّسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾

المفردات :

تقلب الذين كفروا فى البلاد : التقلب . والتقل . والمراد هنا : تتقلبهم للتكسب بالاتجار والزراعة وغيرها ، وتقلبهم

فى النعمة .

: تمتع يسير .

متاع قليل

: المأوى ، محل الإقامة .

ثم ماواهم

: المكان المهد .

المهاد

: النزول ، ما يقدم للضيف عند نزوله ، أو المنزل . ومنه قول الله تعالى : . . . كَانَتْ

نُزُلًا

لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا . ( الكهف : ١٠٧ ) .

التفسير :

١٩٦ - لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ .

الخطاب فى لَا يَغُرُّكَ . إما للنبي صلى الله عليه وسلم ، لتثبته على ما هو عليه من عدم اغتراره  
بتمتعهم . فكانه قال له : دم على ما أنت عليه من عدم الاغترار بتقلبهم فى النعمة ، وتيسطهم فى المكاسب  
والتاجر والمزارع . وهذا كقوله تعالى للرسل : فَلَا تَطْعُمُ الْمُكْذِبِينَ . ( القلم : ٨ ) . أى استمر على ما أنت عليه  
من عدم طاعتهم .

وقيل : الخطاب « وإن كان له صلى الله عليه وسلم » فالمراد به : نهى المؤمنين عن الاغترار بما فيه الفكار  
من التمتع ، كما يوجه الخطاب إلى رئيس القوم ، والمراد به أتباعه .

وقيل : هو خطاب لكل من يصلح له من المؤمنين .

ذكر المفسرون بأسانيدهم : أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين فى رخاء ولين عيش ، فيقولون : إن  
أعداء الله « تعالى » فيما نرى من الخير ، وقد هلكنا من الجوع والجهنم ... هنزلت الآية .



والمعنى : لا يخدعك ما هم عليه من سعة الرزق، وإصابة الريح، ورخاء العيش، فتظنه خيراً متصلاً وممتعاً دائماً.

١٩٧ - مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ .

أى هو متاع قليل . مهما عظم ، فى جانب ما ذكر من ثواب الله للمؤمنين فعملاً قريب يؤتون ، فينقضى نعيمهم الذى استدرجهم الله به ، ويمسسون مرتنتين بأعمالهم السيئة .

ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . ثم إنهم - بعد ذلك التمتع باليسير والتعم القليل - صاثرون إلى عذاب جهنم التى مهدوها وهيئوها لأنفسهم بكفرهم، وساء ما يمهدون لأنفسهم : جهنم .

والتعبير بالمهاد عن النار ، للتهكم بسوء اختيارهم . فإن العاقل لا يهين لنفسه مكان عذاب وهوان يقيم فيه .

١٩٨ - لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ .

لما حذر الله المؤمنين من الاغترار بما فيه الكافرون من نعيم فان ، أتبعه بيان حسن عاقبة المؤمنين ، ليزدادوا صبراً على ما هم فيه من شطف العيش، انتظاراً لهذا النعيم المقيم .

والمعنى : هذا حال الذين كفروا ومآلهم الفطيع لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ . بالإيمان والعمل الصالح، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها لا يبرحونها أبداً .

نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . رزقاً كريماً من عند الله ، أو منزلاً عظيماً من عنده .

وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ . أى ما أعدّه الله لمن أطاعه من النعيم الكثير الدائم، خير للأبرار ، وأبقى مما يتقلب فيه الكفار ، من قليل زائل ، ونعيم حائل ، وحطام فان .

وصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ يقول : « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصعبه فى اليوم فليُنظر بَمَ يرجع » (١٦٣).

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

المضردات :

خاشعين لله : خاضعين له .

لا يشترون : لا يستبدلون .

اصبروا : الصبر، حبس النفس على المكاره .

ورابطوا : المرابطة، الملازمة في سبيل الله .

التفسير :

١٩٩ - وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

أى وإن من اليهود والنصارى لفريقا يؤمن بالله إيماناً حقاً، منزها عن الإشراك بكل مظاهره، وما أنزل إليكم من القرآن، وما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل، ولا يزالون مع هذا الإيمان خاضعين لله، خائفين من عقابه طالبين رضاه ، لا يستبدلون بآيات الله ، التى أنزلها فى التوراة والإنجيل عوضاً قليلاً، هو عرض من أعراض الدنيا الفانية، لأن هذا الثمن المأخوذ قليل حتى ولو بلغ القناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

فالأية وصفتهم بخمس صفات هى :

١ - الإيمان بالله .

٢ - الإيمان بالقرآن .

٣ - الإيمان بالتوراة والإنجيل .

٤ - الخشوع والخضوع لأمر الله .

٥ - عدم التفريط فى أحكام الله، وعدم بيعها بأى عرض من أعراض الدنيا .

وقد ذكر القرآن ما يشبه هذه الآية فى كثير من سورته ، وذلك من إنصاف القرآن، فهو كتاب حق أنزله الله الحق ، وقد نزل بالحق، ليحق الحق ويبطل الباطل .

ويتبادر للذهن أن هذه الآية استهدفت الاستدراك على ما جاء في الآيتين ١٨٦، ١٨٧ من التنديد بأهل الكتاب، الذين يناوئون الدعوة النبوية، ويؤذون المسلمين ويكتمون ما عندهم من البينات.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿ يَوْمُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . ( آل عمران : ١١٣، ١١٤ ) .

وفي تفسير الطبري والطبرسي والخازن وابن كثير ، وغيرهم من المفسرين ، روايات عديدة في مناسبة نزول هذه الآية وفيمن عنته، منها أنها نزلت في النجاشي ملك الحبشة ، ومن آمن من قومه بالرسالة النبوية، فإن النبي لما بلغه موت النجاشي دعا إلى الصلاة عليه ، فقال المنافقون : إنه يصلى على رجل من غير دينه، فنزلت هذه الآية ، ومنها أنها نزلت في عبد الله بن سلام ، أحد أحبار اليهود وغيره من أفراد اليهود، الذين آمنوا بالرسالة المحمدية، ومنها أنها نزلت فيمن آمن بهذه الرسالة من أهل الكتاب عامة .

وذكر المفسرون أن من أسلم من أحبار اليهود لم يبلغ عددهم عشرة وفيهم عبد الله بن سلام وزيد بن سعدة.

وأما النصراني فكانوا كثيرين ، فقد أسلم أربعون من أهل نجران وإثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الروم.

٢٠٠ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا . أى على المشقات والطاعات ، وما ينالكم من المكاره والشدائد.

وَاصْبِرُوا . أى غالبوا أعداء الله فى الصبر على شدائد الجهاد، لا تكونوا أقل منهم صبراً وثباتاً ، والمصابرة باب من الصبر.

وَرَابِطُوا . أى أقيموا على مرابطة الغزو فى نحر العدو بالترصد ولاستعداد لحربهم ، قال تعالى : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ . ( الأنفال : ٦٠ ) .

والرباط مأخوذ من ربط الخيل وشدّها .

وليس بلازم أن يكون الرباط بالخيول فى كل حال أو زمان أو مكان ، إذ المقصود رصد حركات العدو، والتهاب لصدده عن البلاد الإسلامية ، وليس بلازم أن يكون فى أطراف الإقليم فحسب ، بل فى أى مكان منه، يمكن أن يصل إليه العدو، ولو فى قلب الوطن ، ففى هذا الزمان يمكن أن يصل العدو بطائرته إلى أماكن متعددة فى وطن عدوّه، فالرباط فى هذه الحالة ، يكون بالإقامة فى كل مكان يظنّ أن يقصده العدو، مع التاهب بكافة أنواع الأسلحة المضادة لهجومه أو استطلاعها، واستعمال أحدث أنواع الأجهزة لرصده: أرضاً أو بحراً ، أو جواً .

وجمهور المفسرين <sup>(١٦٤)</sup> على أن المراد بالرباط فى الآية هو الجهاد فى سبيل الله ، وبعض المفسرين ذهب إلى أن المراد بالرباط والمرابطة هو المكث فى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة .

روى مسلم <sup>(١٦٥)</sup> والنسائي عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » <sup>(١٦٦)</sup>.

وعند التأمل نجد أن الرباط يشمل الجهاد في سبيل الله - وعلى وجه الخصوص حراسة الثغور وحماية الأماكن التي نتوقع فيها هجوم العدو عليها - كما يشمل عمارة المسجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة .

على أن إطلاق الرباط على الجهاد أمر معروف مألوف كثير الورد وخاصة أن سياق السورة يرشح هذا المعنى ، لكن من إعجاز القرآن أن الكلمة تشير إلى معنى ، وتستتبع معنى .

\*\*\*

وقد أورد المفسرون طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة في فضل الجهاد والرباط . منهم ابن كثير فقد ساق ثمانية أحاديث نبوية شريفة عن فضل الجهاد وثواب المجاهدين عند تفسير الآية ، وقريب من ذلك ورد في تفسير القاسمي ، والتفسير الحديث .

### فضل الجهاد

روى البخاري في صحيحه أن رسول الله - ﷺ - قال :

تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة <sup>(١٦٧)</sup> إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش <sup>(١٦٨)</sup> طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه مغبرة قدماء، إن كان في الحراسة كان في الحراسة <sup>(١٦٩)</sup> وإن كان في الساقاة كان في الساقاة وإن استأذن لم يؤذن له <sup>(١٧٠)</sup>.

\*\*\*

وروى مسلم عن سلمان الفارسي عن رسول الله - ﷺ - قال :

« رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل ، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان » <sup>(١٧١)</sup> .

\*\*\*

وقال ﷺ : « حرمت النار على عين سهرت في سبيل الله » <sup>(١٧٢)</sup>

## فضل سورة آل عمران

سورة آل عمران تسمى الزهراء أى المضيئة ، وتسمى سورة البقرة الزهراء الأولى وآل عمران الزهراء الثانية.

روى مسلم <sup>(١٧٣)</sup> والترمذى أن رسول الله - ﷺ - قال : « يؤتى بالقرآن يوم القيامة ، وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمه سورة البقرة وآل عمران ، كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما ضياء ونور، أو كأنهما حزقان <sup>(١٧٤)</sup> تحاجان عن صاحبهما <sup>(١٧٥)</sup> .

\* \* \*

## قافية السورة

إن كل سورة من سور القرآن تغلب فيها قافية معينة للآيات . والقارئ فى كتاب بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، يجد أنه يتحدث فى كل لطيفة عن سورة من السور ويقدم للقارئ إحصاء بعدد الحروف الواردة فى ختام آياتها .

والقوافى فى القرآن غيرها فى الشعر ، فهى ليست حرفاً متحداً، ولكنها مدّ متشابه مثل ( بصير ، حكيم، مبین مريب ) أو ( أولو الألباب ، الأبصار، النار ، قرار ) أو ( خفيا، شقيا ، شرقيا ، شئيا ) .

وتغلب القافية الأولى فى مواضع التقرير، والثانية فى مواضع الدعاء ، والثالثة فى مواضع الحكاية.

وسورة آل عمران ، تغلب فيها القافية الأولى ، ولم تبعد عنها إلا فى موضعين: أولهما فى أوائل السورة وفيه دعاء ، والثانية جوّ الدعاء المنغم المرثل .

\* \* \*

وقد روى مسلم وأبو داود والنسائى أن رسول الله ﷺ قام من الليل فرفع رأسه إلى السماء، فقال : «سبحان الملك القدوس » ( ثلاث مرات ) ثم تلا هذه الآيات من آخر سورة آل عمران حتى ختمها <sup>(١٧٦)</sup> .

وإن السورة تشتمل على أصول العقيدة، وفضائل الجهاد، ومنازل الشهداء، وثواب الصابرين ، وتختتم بهذا التشديد السماوى فى التأمل والدعاء المنيب الرخى، وفى ختام السورة وصية بالصبر والمصابرة والمراعاة والتقوى، وهو ختام مناسب لسورة آل عمران وفيها غزوة أحد وحكمة الابتلاء والاختبار .

\* \* \*

## والحمد لله رب العالمين

★ ★ ★

# سورة النساء



## الأهداف العامة

### سورة النساء

سورة النساء سورة مدنية وتسمى سورة النساء الكبرى تمييزاً لها عن سورة النساء الصغرى، وهى سورة الطلاق.

وقد عنيت سورة النساء ببيان أحكام النساء واليتامى، والأموال والموارث والقتال، وتحدثت عن أهل الكتاب وعن المنافقين ، وعن فضل الهجرة ووزر المتأخرين عنها ، وحثت على التضامن والتكافل والتراحم، وبينت حكم المحرمات من النساء. كما حثت على التوبة ودعمت إليها كوسيلة للتطهر ، ودليل إلى تكامل الشخصية، واستعادة الثقة بالنفس والشعور بالأمن والاطمئنان.

وعدد آيات سورة النساء (١٨٦) آية ، وعدد كلماتها (٢٧٤٥) كلمة.

\* \* \*

### الوصية بالنساء واليتامى

بينت سورة النساء أن الزواج شركة تعاونية أساسها المودة والرحمة والوفاء والألفة. وسوت السورة بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات، ثم بينت أن للرجال درجة على النساء وهى درجة الإشراف والرعاية بحكم القدرة الطبيعية التى يمتاز بها الرجل على المرأة وبحكم الكد والعمل فى تحصيل المال الذى ينفقه على الزوجة والأسرة ، وليست هذه الدرجة درجة الاستعبداد أو التسخير وإنما هى زيادة فى المسئولية الاجتماعية .

وقد حث القرآن الزوجة على طاعة زوجها، فيما يجب فيه الطاعة، والاحتفاظ بالأسرار المنزلية والزوجية التى لا ينبغى أن يطلع عليها أحد غير الزوجين، كما أمر الرجل أن يقوم بحق الأسرة وأن ينفق عليها ، وأن يفى بالتزامه نحوها ، وجعل نفقة الرجل على أولاده ورعايته لهم نوعاً من الكفاح والجهد السلمى يثاب المؤمن على فعله ويعاتب على تركه.

#### اليتامى :

أمرت السورة بعد ذلك برعاية اليتامى والمحافظة على أموالهم وإكرام اليتيم لصغره وعجزه عن القيام بمصالحه. وحذرت السورة من إتلاف أموال اليتامى أو تبديدها، وحثت على القيام بحقوقهم واختبارهم فى المعاملات قبيل سن البلوغ حتى يكون اليتيم متمرنًا على أنواع المعاملات والبيع والشراء عندما يتسلم أمواله .



وقد توعدت السورة أكل مال اليتيم بالنار والسعير، والعذاب الشديد، وقد مهدت لهذه الأحكام في آياتها الأولى فطلبت تقوى الله وصلة الرحم، وأشعرت أنهم جميعاً خلقوا من نفس واحدة، أى أن اليتيم وإن كان من غير أسرئكم فهو رحمكم وأخوكم فقوموا له بحق الأخوة وحق الرحم، وأعلموا أن الله الذى خلقكم من نفس واحدة وربط بينكم بهذه الرحم الإنسانية العامة رقيب عليكم يحصى عليكم أعمالكم، ويحيط بما فى نفوسكم ويعلم ما تضرعون من خير أو شر فيحاسبكم عليه. ويعد هذا التمهيد الذى من شأنه أن يملأ القلوب رحمة، يأمرهم الله بحفظ أموال اليتامى حتى يتسلموها كاملة غير منقوصة، ويحذروهم من الاحتيال على أكلاها عن طريق المبادلة أو عن طريق المخالطة قال تعالى :

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُرْبًا كَبِيرًا . ( النساء : ٢ ) .

أى لا تخطوا مال اليتيم بمالكم ليكون ذلك وسيلة تستولون بها على مال اليتيم تحت ستار الإصلاح بالبيع أو الشراء باسم أنه منفعة لليتيم أو بالخلط والشركة باسم أنه أفضل لليتيم .

وقد تخرج اتقياء المسلمين من مخالطة اليتيم فأباح الله مخالطة اليتامى مادام القصد حسنا والنية صادقة فى نفع اليتيم ، والله سبحانه مطلع على السرائر ومحاسب عليها .

وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ( النساء : ٦ )

\* \* \*

## المال والميراث

عنيت سورة النساء وغيرها بشأن المال ، وقد أمرت السورة بالمحافظة على المال واستثماره ، ونهت عن الإسراف والتبذير وأمرت بالتوسط فى النفقة والاعتدال فيها ، ذلك لأن المال عصب الحياة ولأن كل ما تتوقف عليه الحياة فى أصلها وكمالها وسعادتها وعزها من علم وصحة وقوة واتساع عمران ، لا سبيل للحصول عليه إلا بالمال . وقد نظر القرآن إلى الأموال هذه النظرة الواقعية فحذر من تركها فى أيدي السفهاء الذين لا يحافظون عليها ولا يحسنون التصرف فيها ، كما أمر بتحصيلها من طرق فيها الخير للناس ، فيها النشاط والحركة، وفيها عمارة الكون ، أمر بتحصيلها عن طريق التجارة ، وعن طريق الصناعة والزراعة، وسمى طلبها ابتغاء من فضل الله ، كما وصفها نفسها بأنها زينة الحياة الدنيا ومتاعها ، وبلغ من عناية القرآن بالأموال أنه طلب السعى فى تحصيلها بمجرّد الفراغ من أداء العبادة المفروضة . قال تعالى :

فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ . ( الجمعة : ١٠ ) .

وتحدثت سورة النساء عن الموارث ونصيب كل وارث ، فأمرت أن نبدأ أولاً بتفدية وصية الميت وتسديد ديونه، ثم وضعت المبادئ الأساسية للميراث ونستخلص منها ما يأتى :

أولاً : أن مبنى التوريث في الإسلام أمران : نسبي وهو القرابة ، وسببي وهو الزوجية .

ثانياً : أنه متى اجتمع في المستحقين ذكور وإناث أخذ الذكر ضعف الأنثى.

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن بعض خصوم الإسلام قد اتخذوا التفاوت بين نصيب الذكر والأنثى مطعناً على الإسلام وقالوا : إن هذا من فروع هضم الإسلام حق المرأة، وهي إنسان كالرجل، وفاتهم أن الذكر تتعدد مطالبه وتكثر تبعاته في الحياة فهو ينفق على نفسه، وعلى زوجة، وعلى أبنائه، ومن أصول الشريعة أنه يدفع المهر لمن يريد أن يتزوجها ، أما الأنثى فإنها لا تدفع مهراً ويلزم زوجها بنفقتها في مآكلها ومشربها ومسكنها وخدمها ، وذلك فوق تبعاته العائلية التي لا يلحق الأنثى مثلها .

وبينما نرى بعض التشريعات الوضعية تقضي بحرمان الأنثى بقاها أو حصر الميراث في أكبر الأبناء وحده كما كان الحال في بعض البلاد إلى وقت قريب ، نجد تشريعاً آخر يقضي بمساواتها بالذكر .

ونقارن ذلك بالإسلام فنجد أن منهجه في التوريث وسط لا إفراط فيه ولا تقريط فهو لم يحرم الأنثى من الميراث بل أعطاهما نصيباً مناسباً لظروفها في الحياة وأعطى أخاهما نصيباً مناسباً لتبعاته في الحياة ، وهذا هو شأن الإسلام في أحكامه وشرائعه، فهو يعتمد على الحكمة والعدل لأنه تشريع الحكيم العليم .

\* \* \*

## تعدد الزوجات

تحدثت سورة النساء عن تعدد الزوجات فأباحته بشرط العدل بينهما، فإذا خاف الإنسان من عدم العدل فعليه الاقتصاص على زوجة واحدة ، فإن ذلك أدعى إلى صفاء الحياة ويسرهما وتحقيق الهدف من الزواج وهو المودة والرحمة .

ويرى الإمام محمد عبده أن تعدد الزوجات أمر مضيق فيه كل التضيق فكان الله - سبحانه - قد نهى عن التعدد .

قال تعالى : **وإن خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ** ( النساء : ٣ ) .

إى أن خفتم ألا تعدلوا في تكاح اليتيمات الثلاثي تحت وصايتكم، كأن يكون الدافع لكم على الزواج بهن هو الطمع في مالهن، لا الحب والرغبة في معاشرتهن، أو كأن تكون فوارق السن بينكم وبينهن كبيرة أو كأن تهضموهن حقوقهن في مهر أمثالهن.. إن خفتم ألا تعدلوا في اليتيمات فاطلبوا الزواج من سواهن من النساء .

وبمناسبة الحديث عن الزواج امتد السياق إلى بيان حدود المباح من الزوجات فإذا هو مثنى وثلاث ورباع ولكن بشرط العدل بينهما، العدل في المعاملة، وفي الحقوق الظاهرة، أما العدل في الشعور الباطن فلا قبل به

لإنسان ولا تكليف به لإنسان، ما اتقى في إظهاره في المعاملة، وتأثيره على الحقوق المتعادلة ، فإن وجد في نفسه ضعفاً عن ذلك العدل، وخاف ألا يقدر على تحقيقه ، فالحلال واحدة فقط وما سواها محظور.

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِّلُوا فَوَأَحَدَةٌ .

والنص الشرطي يحتم هذا المعنى هنا ويعلله بأن ذلك التحديد بوحدة في هذه الحالة أقرب إلى اجتناب الظلم والجور.

ذَلِكَ أَذْنَى أَلَّا تُعَدِّلُوا . أى لا تجوروا وتظلموا .

والظلم حرام فالوسيلة إليه حرام ، واجتناب الظلم واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فإذا كان العدل يتم بترك التعدد ، فالإقتصار على الزوجة الواحدة واجب.

وفى ختام الآية وصية جديدة بالإقتصار على الزوجة الواحدة لأنه ادعى إلى العدل والاستقرار، والبعد عن الظلم وكثرة العيال.

\* \* \*

### شبهة تفتضح ، وحجة تتضح

تكلم الأوروبيون بكثير من الكلام المفسول ، فمثلاً ( كانتى ) يقول : « إن شرف الإنسان أسمى من أن يمتن أو أن يجعل أداة متعة ».

وفى الواقع هم الذين جعلوا الأخدان أداة متعة فقط ومنعوهن حقوق الزوجية فى النفقة أو الميراث أو إلصاق الولد، بينما الإسلام يحرم اتخاذ الأخدان والخليلات يقول تعالى :

مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ . ( النساء : ٢٥ ) .

ويقول الرسول ﷺ :

« إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقيات فإذا تزوجتم فلا تطلّقا ».

نشأ عن كثرة الأخدان وانتشارهم فى أوروبا انتشار الأمراض السرية الفظيعة ، وقلة النسل لأن النسل إما أن يخنق أو تجهض الحامل أو يمنع الحمل، وهل غفل الأوروبيون عن المصير السيئ الذى ينتظرهم إذا استمر الحال، فالكبير يموت والنش يقتل ؟. تبهوا لذلك ، فصدرت قوانين تقول مثلاً : أبناء الزواج الحر إذا اعترف بهم أبوهم الحقتانهم به فتأخذ الأولاد كل حقوق الأبناء، فهم تقادوا اسم الزوجة فقط، والأبناء منها يتمتعون بكل الحقوق.

وقد ذكر لنا أستاذنا المرحوم محمد عبد الله دراز، أنه شاهد أثر الحروب في ألمانيا ورأى النساء يطالبن هناك بتعدد الزوجات لتجد المرأة التي مات زوجها في الحرب من يكفلها وينفق عليها وعلى ما ينبج منها . وذكر لنا أن جمعية تألفت في ألمانيا تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية في الزواج والطلاق.

ومع ذلك فالإسلام لم يحرض على تعدد الزوجات بل قال :

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا

وإذا استلهمنا روح النص ومراميه وجدنا أن التعدد رخصة ، وهي رخصة ضرورية لحياة الجماعة في حالات كثيرة، وهي صمام أمن في هذه الحالات ، ووقاية ليس في وسع البشرية الاستغناء عنها . ولم تجد البشرية حتى اليوم حلا أفضل منها سواء في حالة إخلال التوازن بين عدد الذكور وعدد الإناث عقب الحروب والأوبئة التي تجعل عدد الإناث في الأمة أحيانا ثلاثة أمثال عدد الذكور أو حالات مرض الزوجة أو عقمها، ورغبة الزوج في الإبقاء عليها أو حاجتها هي إليه ، أو في الحالات التي توجد في الرجل طاقة حيوية فائضة لا تستجيب لها الزوجة، أو لا تجد كفايتها في زوجة واحدة.. وكلها حالات فطرية وواقعية لا سبيل إلى تجاهلها . وكل حل، فيها غير تعدد الزوجات يقضى إلى عواقب أوحش خلقيا واجتماعيا، ضرورة تواجهه ضرورة. ومع هذا فهي مقيدة في الإسلام، باستطاعة العدل والبعد عن الظلم والجور، وهو أقصى ما يمكن من الاحتياط.

★ ★ ★

## التضامن الاجتماعي

حثت سورة النساء على صدق العقيدة والإخلاص لله في العبادة، كما حثت على الإحسان إلى الوالدين وصلة الرحم وإكرام اليتامى والمساكين ، والإحسان إلى الجار ورحمة الفقير، والمحتاج ، ومساعدة الخدم والضعفاء، وحذرت من البخل والكبر والرياء، ونهت عن الكفر والجور ومعصية الله والرسول . وذلك في جملة آيات تبدأ بقوله تعالى :

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَلًا فُجُورًا . ( النساء : ٣٦ ) .

وهذه الآية وما بعدها دعوة عملية إلى « التضامن الاجتماعي » ، وتحذير من البخل والشح ، وبيان أن المال مال الله وأن الغنى مستخلف عن الله في إدارته وتثميته وإنفاقه في نواحي الخير والبر، وقد فرض الله حقوقاً للفقراء من مال الأغنياء ، فأوجب الزكاة والصدقة وحث على الإنفاق في سبيل الله . وجعل طرق البر متعددة، منها صدقة الفطر في عيد الفطر، والأضحية في عيد الأضحي ، و الهدى في موسم الحج . وجعل الله موردا لا ينقطع لصلة الفقراء ألا وهو الكفارات التي أوجبها مثل كفارة الظهار، وكفارة اليمين ، وكفارة

صوم رمضان . وفي كثير من الأحيان تكون هذه الكفارات إطعام المساكين أو كسوتهم . كما أوجب الله الوفاء بالنذر ، ولم يجعل الزكاة تطوعاً بل جعلها فريضة لازمة يثاب فاعلها ويعاقب جاحدها . ونلاحظ أن الزكاة تتفاوت في نسبتها فتبدأ من ٥ ٪ ، وهي زكاة المال وتصل إلى ٢٠ ٪ ، وهي زكاة الركاز والمعادن والبتروöl . وكلما كان عمل العبد أظهر كانت نسبة الزكاة أقل كما في زكاة المال . وزكاة التجارة ، وكلما كان عمل القدرة الإلهية أظهر كانت نسبة الزكاة أكثر كما في زكاة الزراعة وزكاة الركاز .



## المحرمات من النساء

انفردت سورة النساء بكثير من أحكام المجتمع ، ولا سيما أحكام الأسرة والزوجية ، كما انفردت ببيان مفصل للمحرمات من النساء ، وبدأت ذلك بقوله تعالى :

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا . ( النساء : ٢٢ ) .

ولاشك أن توارد رجل وابنه على امرأة واحدة ، أمر معقوت تنفر منه الفطر السليمة ، وتمجه الأذواق السليمة .

ثم جاءت بقية السورة ببقية المحرمات فحرمت زواج الإنسان بأمه وبابنته وبأخته من الرضاعة ومن النسب ، وحرمت زواج الرجل من بنات الأخ وبنات الأخت والأم من الرضاعة ، وحرمت أم الزوجة التي دخل بها زوجها ، كما حرمت زواج الإنسان من زوجة ابنه وحرمت الجمع بين الأختين .

### الحكمة في هذا التحريم :

إن الزواج وسيلة مشروعة لإمتاع النفس وإنجاب الذرية وتكوين الأسرة ، فإذا أبيح تزوج الإنسان من أقرب الناس إليه كالأم والبنات ، اصطدمت حقوق هؤلاء الأقارب بحقوق الزوجية ، فالأم مثلاً لها حق الطاعة والاحترام ، فلو اتخذها الإنسان زوجة لكان له عليها حق القوامة وحق الطاعة والخضوع . هذا إلى ما هو غنى عن البيان من نفور الإنسان من هذا اللون من المتاع ، فهي بهيمية أى بهيمية أن يتمتع الرجل بأمه ، ومثل هذا يقال في درجات القرابة الأخرى . فالخاله لها ما للأم ، والعمة لها ما للاب ، والأخت وبناتها وبنت الأخ ، وابنة الإنسان التي هي قطعة منه ، كل هؤلاء تستقبح الأذواق تكاهن واقتراشهن ، ولا يمكن أن يتصور في هذا الوضع لو أبيح إلا المفارقات والصعاب ، وضعف النسل وسوء المنقلب .

ومثل هذا يقال أيضاً في نكاح من حرمن من جهة الرضاع ، فإن المرضع أم في الكرامة ولها حق الأم في وجوب الرعاية ، وليس من شأن الإنسان أن يلتصق منها ما يلتصق به الرجل بالزوجة .

وقد حرمت السورة الجمع بين الأختين ، والجمع بين الأم وابنتها حتى لا تقطع الأرحام ، فإن المرأة تفار من ضررتها ، وتفعل الكثير في سبيل إبعادها عن زوجها . ولو أبيح الجمع بين الأقارب لتشككت المرأة في أختها

وفى أمها. ولأدركها نوع من الغيرة الشديدة فانقطعت بذلك صلاتها من النسب ، وتعرضت بذلك الأمر إلى خطر شديد. قال تعالى : **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ .** لَا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . ( النساء : ٢٣ ) .

\* \* \*

### مصادر التشريع في الإسلام (١٧٧)

أمرت سورة النساء بالعدل في الحكم وأداء الأمانات إلى أهلها. وبَيَّنَّتْ أن الأمانة والعدالة من أسباب الرقي والتقدم والسعادة في الدنيا والآخرة .

وبهذه المناسبة ذكرت السورة مصادر التشريع التي يجب أن يرجع إليها المسلمون في تصرفاتهم وأحكامهم وهي :

( **أولاً** ) القرآن الكريم ، والعمل به هو طاعة الله .

( **ثانياً** ) سنة الرسول قولية كانت أم فعلية ، والعمل بها هو طاعة الرسول.

( **ثالثاً** ) رأى أهل الحل والعقد في الأمة من العلماء وأرباب النظر في المصالح العامة كالجيش، والزراعة، والصناعة ، والتعليم ، كل في دائرة معرفته واختصاصه، والعمل به هو طاعة أولى الأمر.

وهذه المصادر في الرجوع إليها مرتبة على هذا النحو ، فلا نرجع إلى السنة إلا بعد عدم العثور على الحكم في القرآن، فنرجع إلى السنة حينئذ : إما لمعرفة الحكم الذي لم يرد في القرآن ، أو لبيان المراد مما ورد في القرآن، ولا نلتجئ إلى رأى أولى الأمر إلا بعد عدم العثور على الحكم في السنة، وعندئذ نرجع إليهم ليجتهدوا رأيهم، وهذا الاجتهاد هو عنصر « الشورى » الذي عليه أمر المسلمين ، ومتى حاز الاتفاق وجب العمل به ولا يصح الخروج عنه ما دامت وجوه النظر التي أدت إليه قائمة، وهو أساس فكرة الإجماع في الشريعة الإسلامية، وقد أنتفع به المسلمون كثيراً ، واتسع به نطاق الفقه الإسلامي ، وبخاصة فيما ليس منصوصاً عليه في كتاب الله وسنة الرسول ، وهو يشمل إعطاء حكم لحادثة مثل حادثة سابقة للاشتراك بينهما في المعنى الموجب لذلك الحكم، وهذا هو المعروف في لسان الفقهاء والأصوليين باسم « القياس » وقد بحثوه بحثاً مستفيضاً ، بينوا فيه أركانه، وشرائطه، وعلمته ، وما ينقضه وما لا ينقضه وما يجرى فيه وما لا يجرى فيه ، وقد تكفلت به كتب الأصول فليرجع إليها من شاء.

### الاجتهاد من مصادر التشريع وبابه مفتوح أبدا :

ويشمل أيضاً النظر في تعريف حكم الحادثة عن طريق القواعد العامة وروح التشريع التي عرفت من جزئيات الكتاب ، وتصرفات الرسول ، وأخذت في نظر الشريعة مكانة النصوص القطعية التي يرجع إليها في تعرف الحكم للحوادث الجديدة ، وهذا النوع هو المعروف بالاجتهاد عن طريق الرأي وتقدير المصالح. وقد رفع الإسلام بهذا الوضع جماعة المسلمين عن أن يخضعوا في أحكامهم وتصرفاتهم لغير الله ، ومنحهم حق التفكير والنظر والترجيح واختيار الأصلح ، في دائرة ما رسمه من الأصول التشريعية، فلم يترك العقل وراء الأهواء والرغبات ، ولم يقيد ، في كل شيء بمفصوص قد لا يتفق مع ما يجد من شئون الحياة، كما لم يلزم أهل أي عصر باجتهاد أهل عصر سابق دفعتهم اعتبارات خاصة إلى اختيار ما اختاروا. وهنا نذكر بالأسف هذه الفكرة الخاطئة الظالمة التي ترى وقف الاجتهاد وإغلاق بابه ، ونؤكد أن نعمة الله على المسلمين بفتح باب الاجتهاد لا يمكن أن تكون عرضة للزوال بكلمة قوم هالهم- أو هال من ينتمون إليهم من أرياب الحكم والسلطان - أن يكون في الأمة من يرفع لواء الحرية في الرأي والتفكير ، فالشريعة الإسلامية شريعة عامة خالدة صالحة لكل عصر ولكل إقليم .

وما على أهل العلم إلا أن يجتهدوا في تحصيل الوسائل التي يكونون بها أهلا للاجتهاد في معرفة حكم الله الذي وكل معرفته - رافة منه ورحمة - إلى عباده المؤمنين .

وَلَوْ رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَبْطِنُوهُ مِنْهُمْ . ( النساء : ٨٣ ) .

واقرا في هذا الموضوع كله قوله تعالى من السورة :

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا بِعَظْمِكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا . ( النساء : ٥٨ ، ٥٩ ) .

★ ★ ★

## القتال وأسباب النصر

عنيت سورة النساء بتظيم شئون المسلمين الداخلية وحفظ كياناتهم الخارجى ، وقد حثت السورة على القتال ودعت إليه حيث يقول الله تعالى : فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . ( النساء : ٧٤ ) .

وبينت السورة أهداف القتال في الإسلام، وهذه الأهداف تتحصر في رد العدوان وإشاعة الأمن والاستقرار، وحماية الدعوة ، والقضاء على الفتن التي يثيرها أرياب المظالم والأهواء، ومن ذلك نعم أن الإسلام

حينما شرع القتال نأى به عن جوامح الطمع والاستئثار ، وإذلال الضعفاء ، واتخذ طريقاً إلى السلام العام بتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة. وليصل المسلمون بالقتال إلى الغاية السامية التي أمر بها الله ، ولفت القرآن أنظار المؤمنين إلى أن للنصر أسباباً ووسائل هي :

١ - تقوية الروح المعنوية للأمة فقد نزل القرآن روحاً وحياة ومنهجاً ورسالة . وتحول العرب بالقرآن إلى أمة عزيزة متمسكة بالحق ثابتة عليه متحملة صنوف الأذى وألوان الاضطهاد . فلما أذن الله لها بالجهاد كانت لها راية النصر في أكثر معاركها ، لأن لها من يقينها وإيمانها ما يكفل لها النصر والغلبة .

٢ - إعداد القوة المادية وتنظيمها ، قال تعالى : **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ** . ( الأنفال : ٦٠ ) . ويشمل ذلك فنون الحرب وأساليبها ، ومعرفة أحدث أدواتها وكيفية استعمالها .

٣ - الشكر على النعماء ثقة بأن النصر من عند الله ، فلا ينبغي أن تأخذ المحارب نشوة النصر فيخرج عن اتزانه بل عليه أن يزداد تواضعاً وخشوعاً لعظمة الله ، ويزيد في طاعة الله ونصره ، لقوله سبحانه : **إِنْ تَصَرُّوا لِلَّهِ يَتَصَرَّكُمْ** . ( محمد : ٧ ) .

٤ - الصبر على البأساء ثقة والتزاماً بأن مع اليوم غدا ، وبأن الأيام دول يوم لك ويوم عليك ، وأن الشجاعة صبر ساعة ، وليس الصبر هنا صبر الدليل المستكين بل صبر المطمئن إلى قضاء الله وقدره والمؤمن بحكمته والمستعد ليوم آخر ينتصف فيه من عدوه . قال تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** . ( آل عمران : ٢٠٠ ) .

٥ - ومن أسباب النصر ثقة المؤمن بأن الأجل محدود وأن الرزق محدود فالشجاعة لا تنقص العمر ، والجهن لا يزيده . ومن أسباب النصر طاعة الله والتزام أوامره واجتباب نواهيه ، قال تعالى : **وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدَ اللَّهِ** . ( آل عمران : ١٢٦ ) .

٦ - ومن أسباب النصر اخذ الحذر والحيلة والابتعاد عن اتخاذ بطانة مقربة من المنافقين والمخدين والخونة ، قال تعالى : **فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا** . ( النساء : ٨٨ ) .

٧ - تذكر فضل الجهاد ثواب البذل والتضحية، وصقوبة التخاذل والفرار من الجهاد، وتذكر ما أعد الله للمجاهدين والمكافحين في سبيل الحق من عز الدنيا وشرف الآخرة ، قال تعالى :

**وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** . ( النساء : ١٠٠ ) .



ثانياً  
تفسير سورة النساء  
١ - ٢٣

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾

المفردات :

بث : نشر وفترق ، ومنه وزرأي مؤثثة . ( الفاشية : ١٦ ) .

الأرحام : جمع رحم وهو فى الأصل مكان تكوّن الجنين فى بطن أمه ثم أطلق على القرابة .

رقيبا : الرقيب : الحفيظ المطلع على الأعمال .

المعنى الإجمالى :

يا أيها الناس اتقوا الله ربكم الذى خلقكم وأوجدكم من نفس واحدة، وأنشأ من هذه النفس زوجها ، ومنهما نشر فى الوجود رجالا كثيرا ونساء، فأنتم جميعا تنتهون إلى تلك النفس الواحدة ، واتقوا الله الذى تستعينون به فى كل ما تحتاجون ، ويسأل باسمه بعضكم بعضا فيما تتبادلون من أمور ، واتقوا الأرحام فلا تقطعوا قريبتها ويعيدها، إن الله دائم الرقابة على أنفسكم لا تغفى عليه خافية من أموركم (١٧٨).

فى أعقاب الآية :

١ - الناس جميعاً من أصل واحد ، تجمعهم رحم عامة تربط بين البشر جميعاً ، قال تعالى : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا .. . ( الحجرات : ١٣ ) .

٢ - ينتهى نسب الناس إلى آدم، وآدم من تراب ، فقد خلق الله آدم من تراب ، ثم خلق حواء من ضلع آدم ليسكن إليها وتكون له سكناً وأمناً . قال تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً . ( الروم : ٢١ ) .

وروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : « استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه، وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها، فاستمتع بها وفيها عوج واستوصوا بالنساء خيراً » (١٧٨).

والحديث يكرر الوصية بالنساء ، ويوصى بالصبر والاحتمال والمداورة ، لأن المرأة مجموعة من المواطنين ، فقد شاء الله أن تكون عاطفة المرأة أكثر من عاطفة الرجل ، لتتعمل المرأة آلام الحمل والولادة والرضاع والكفالة ، وأن يكون جانب العقل في الرجل أكثر ، ليتحمل البحث في سبيل الرزق ورعاية الأسرة ، وبالعقل والعاطفة تتم رعاية الأسرة ، وتلبى حاجة الرجل إلى المرأة ، وحاجة المرأة إلى الرجل .

٢ - جمهور المحدثين والفقهاء على أن الناس جميعاً تناسلت من نفس آدم - عليه السلام - وليس هناك سوى آدم واحد ، وقد خلقت حواء من آدم وخلق الناس من آدم وحواء .

٤ - قال الفخر الرازي في تفسيره : وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . والمراد من هذا الزوج هو حواء ، وفي كون حواء مخلوقة من آدم قولان :

**الأول :** وهو الذي عليه الأكثرون ، أنه لما خلق الله - تعالى - آدم ألقى عليه النوم ، ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه ، فلما استيقظ رآها ومال إليها وألفها ، لأنها كانت مخلوقة من جزء من أجزائه ، واحتجوا عليه بقول النبي ﷺ : « إن المرأة خلقت من ضلع أعوج ، فإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وإن تركتها وفيها عوج استمتمت بها » .

**والقول الثاني :** وهو اختيار أبي مسلم الأصفهاني - أن المراد من قوله تعالى : وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . أى من جنسها وهو كقوله تعالى : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا . ( النحل : ٧٢ ) .

وكقوله : إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ . ( آل عمران : ١٦٤ ) .

وقوله : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ... ( التوبة : ١٢٨ ) .

قال القاضي : والقول الأول أقوى ، لكى يصح قوله : خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ . إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداء لكان الناس مخلوقين من نفسين لا من نفس واحدة (١٨٠) .

٥ - قال صاحب الكشاف : ومعنى وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ... إراد بالتقوى تقوى خاصة ، وهى أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله ، فقيل : اتقوا ريكم الذى وصل بينكم ، حيث جعلكم صنوانا مفرعة من أرومة واحدة ، فيما يجب على بعضكم لبعض ، فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه ، وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة (١٨١) .

٦ - من سألك بالله شيئاً فأعطه ما دمت تجد سبيلاً للعطاء ، أخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان عن ابن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من استعاذ بالله فأعذوه ، ومن سألكم بالله فأعطوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن أسدى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه به فادعوا له حتى تملوا أن قد كافأتموه » (١٨٢) .

والحديث في معنى وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ . أى يسأل بعضكم بعضاً بالله ، فيقول أسالك بالله كذا .

٧ - حُثَّ الآية على صلة الرحم ، والإحسان إلى الأقارب ، وقد تكررت هذه الوصية في القرآن والسنة ، قال تعالى : **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجَبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا** . (النساء : ٣٦) .

وروى البخارى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من سره أن يبسط له فى رزقه ، وأن ينسأ له فى أجله فليصل رحمه » (١٨٣) .

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - قال : « الرحم معلة بالعرش تقول : من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله » (١٨٤) .

وأخرج البخارى أن رسول الله ﷺ قال : « ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها » .

وهذه الأحاديث تلتقى مع الآية فى تأكيد الوصية بالأرحام ، قال تعالى : **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ الْأَرْحَامَ . أَى اتَّقُوا الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوهَا ، فَمَنْ وصل رحمه وصله الله ، ومن قطع رحمه قطعه الله .**

قال تعالى : **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ** . (محمد : ٢٢) .

فصلة الرحم سبب البركة وهدوء النفس ، واستقامة الذرية وصلاحها ، أما قاطع الرحم فهو مطرود من رحمة الله .

أرحم عباد الله يرحمك الذي

عم البرية فضله ونواله

فالراحمون لهم نصيب وأفر

من رحمة الرحمن جل جلاله

★ ★ ★

﴿وَأَنْتُمْ أَلَيْسَ أَمْوَالُكُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْحَيٰثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾

المفردات :

وَأَنْتُمْ : المراد بآيتيها أن يحافظوا عليها ولا يتعرضوا لها بسوء ، حتى يسلموها لليتامى عند البلوغ والرشد كاملة ، إلا ما صرف منها فى ضرورات اليتامى وحاجاتهم .

اليتامى : جمع يتيم ، وهو من مات أبوه ، واليتامى جمع ذكرا أم أنثى، أما الأيتام فجمع للذكرا فقط وخصه الشرع بالصغير دون البلوغ.

ولا تتبدلوا : أى لا تستبدلوا ، يقال تبدل الشيء بالشيء واستبدل به إذا أخذ الأول بدل الثانى ، فالباء داخلة على المتروك.

الخبيث : الحرام .

بالطيب : بالحلال.

حوبا كبيرا : إثماً عظيما .

التفسير :

٢ - وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدُلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا .

المعنى الإجمالى :

وملكوا اليتامى ما يستحقون من مال واحفظوه لهم ولا تعطوهم الردىء وتحرموهم الجيد، ولا تأخذوا أموالهم وتضيفوها إلى أموالكم إن ذلك كان إثماً كبيراً.

من تفسير الآية للأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز :

وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ..

أمرنا الله بتوصيل مال اليتيم إليه بعد بلوغه ، وبعد أن أمرنا بإعطاء اليتامى أموالهم أكد هذا الأمر تأكيد العليم الخبير بطبائع النفوس الإنسانية وجميع حيلها ، ولو كان القرآن من عند محمد لوجب أن يكون إنسانا عالميا يحيط بكل ما فى الأرض والسماء ، ويغوص إلى خفايا النفوس، ويصل إلى أدق طبائع البشر، وما خفى واستتر من غرائزهم ، وهو الأمل الذى لم يزل من قبله الكتاب ولا خطه يمينه . ففى هذا التحليل القادم دليل على أن القرآن من عند الله ، وإليك هذا التحليل والتوقيع .

قد يتحائل الإنسان على أكل مال اليتيم بآربع حيل :

١ - الأولى الاستبدال : بأن يأخذ قطعة أرض من مال اليتيم ويعطيه بدلها، زاعما أن ذلك له أصلح، وهو فى الواقع قد أخذ لنفسه الأحسن ، وهنا يبدو جمال التسمية فى قوله تعالى : وَلَا تَبْدُلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ فجعل الكثير الحسن من مال اليتيم خبيثاً لأنه حرام ، وحق الغير ، وأخذ ظلم ، فكان خبيثاً لا تألفه نفس المؤمن الطاهر ، وجعل القليل من ماله الحلال طيباً طاهراً ، لأنه حقه الحلال ، أى ولا تأخذ الكثير الخبيث ، الذى يؤول إلى النار من مال اليتيم ، بدل القليل الطيب الحلال من مالك.

٢ - الحيلة الثانية أن يقول الوصى : إنى لا أريد أن أشعره بالوحدة، والانتقطاع، فلن أترك ماله على حدة، بل سأضمه إلى ليجد فى أبا رحيمًا، وفى أبنائى إخوة ، وفى رعايتى ماله شركة ومواساة، ثم يأخذ من مال اليتيم بذلك ما لا حق له فيه أما إذا أردت ضمه إليك مواساة وتعويضا عن أهله ، وكنت صادق النية فى ذلك ، فالله هو الذى يتولى جزاءك. قال تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالَفُوهُمْ فَيَرْحَمُواكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ . ( البقرة : ٢٢٠ ) .

٣ - الحيلة الثالثة : أن يتزوج اليتيمة ذات المال ، للاستيلاء على مالهها بحجة أنها تحت رعايته فقال تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آذَنُكُمْ أَلَّا تَعُولُوا . أى إن خفتُم الجور على اليتيمة فتزوجوا من الآخرين بعدا عن الظلم.

٤ - والحيلة الرابعة : هى الإشراف والتبذير فى مال اليتيم قبل أن يكبر حقدا عليه أن يسترد ماله عند البلوغ فيصير غنيا والوصى فقير ، فقال سبحانه فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا .

هذا هيكل تقريرى أو صورة واضحة عن اليتيم ، وكل ما يمكن من صور التحايل على أكل ماله نهى عنها القرآن وحذرتنا منها .

وأحب أن تسيروا فى طريق التفسير بهذا المنوال التربوي، والمنهاج العلمي، والنظر إلى الفكرة ككل، وإلى ما يقصده القرآن كجسم كامل لا يصح بتر أجزائه، بل تناملوا تفصيلها وتنسيقها (١٨٥).

★ ★ ★

### تعدد الزوجات

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آذَنُكُمْ أَلَّا تَعُولُوا﴾ (٢)

المفردات :

ألا تقسطوا : أى ألا تعدلوا ، من أقسط أى عدل، وأما قسط فمعناه ظلم وجار ، قال تعالى : وأنا

الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا . ( الجن : ١٥ ) .

فى اليتامى : المراد اليتيمات.

فانكحوا : تزوجوا .

ما طاب لكم : ما حل : أو ما مالت إليه نفوسكم .  
 مثنى وثلاث ورباع : أى اثنتين اثنتين ، وثلاثا ثلاثا ، وأربعا أربعا .  
 ألا تعولوا : ألا تجوروا وتظلموا .

التفسير :

٢ - وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا .

المعنى الإجمالى :

وإن أحسستم من أنفسكم الخوف من أكل مال الزوجة اليتيمة، فعليكم ألا تتزوجوا بها ، فإن الله جعل لكم مندوحة عن اليتامى ، بما أباحه لكم من التزويج بغيرهن، واحدة أو اثنتين أو ثلاثا أو أربعا، إذا وثقتم بالقدرة على العدل، ولكن إن خفتم ألا تعدلوا بين الزوجين أو الزوجات فعليكم أن تلتزموا واحدة فقط، أو استمتعوا بما ملكت أيمانكم من الإماء ، وإن زواج الواحدة أقرب إلى العدل، وأبعد عن الظلم والجور.

سبب نزول الآية :

روى البخارى وغيره : « عن عروة بن الزبير ، عن عائشة - رضى الله عنها - : أنه سألها عن هذه الآية ، فقالت : يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها، تشركه فى حاله ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط، فى صداقتها، فيعطيهما مثل ما يعطيها غيره، فتها أن ينكوهن إلا أن يسقطوا لهن ، ويبلغن بهن أعلى سنتهن فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن » . الحديث، رواه البخارى فى كتاب التفسير .

آراء فى تفسير الآية :

١ - روى الطبرى عن ابن عباس وعكرمة : أن قريشا كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل، فإذا صار معدما مال على مال يتيمة الذى هو فى حجره فأنفقه أو تزوج به ، فنها عن الزوج فوق الأربع .

٢ - وقال آخرون معنى الآية : فكما خفتم فى اليتامى أن تجوروا عليهم فكذلك فتخوفوا فى النساء أن تزنوا بهن، ولكن انكحوا ما طاب منهن مثنى وثلاث ورباع ، إذا اطمأننتم إلى تحقيق العدل بينهن وإلا فاشتصروا على الواحدة .

٣ - وقال آخرون : وإن خفتم ألا تعدلوا فى اليتامى ، فكذلك فخافوا فى النساء ، فلا تنكحوا منهن إلا ما لا تخافون أن تجوروا فيه منهن من واحدة إلى الأربع . وقد أجاز السيد رشيد رضا أن تكون الآراء السابقة كلها مقصودة للآية فقال : « وقد يصح أن يقال إنه يجوز أن يراد بالآية مجموع تلك المعاني، من قبيل رأى الشافعية الذين يجيزون استعمال اللفظ المشترك فى كل ما يحتمله الكلام من معانيه، واستعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه معا » (١٨٦) .

ويقول الأستاذ الدكتور محمد بلتاجي :

« ... ومن هنا معنى الآية يتضمن أمراً إلى أولياء الفتيات اليتامى بالإقسطاء فيهن عند إرادة التزوج بهن، ثم هو في نفس الوقت أمر إلى هؤلاء الأولياء بالألا يسرفوا على أنفسهم بكثرة الزوجات، فيحملهم ذلك على التعدي على أموال اليتامى ، الذين هم في رعايتهم وتحت وصايتهم- وقد كان هذا وما سبقه موجوداً عند نزول القرآن الكريم - ثم هو أيضاً أمر إلى المسلمين باتقاء الله في النساء ، وتجنب الزنا بهن لأن الله - تعالى - أباح التزوج منهن ، فلم يعد بالمسلم حاجة مقبولة إلى الزنا ، ثم هو في الوقت نفسه أمر إلى المسلمين بوجوب اتقاء الله في العدل في النساء عند إرادة التزوج منهن والخشية من ظلمهن في ذلك ، كما يخاف كل منهم أن يظلم أيتيم إذا كان تحت رعايته، ثم إن الآية بعد كل هذا تشتمل على إباحة تعدد الزوجات بشرط العدل » (١٨٧).

### مذاهب في تفسير الآية

١ - قال بعض أئمة الشيعة والظاهرية : يجوز جمع تسع نساء حيث اعتبروا كلمات ( مثنى وثلاث ورباع ) معدولة عن اثنين وثلاث وأربع وجمعوا هذه الأرقام  $2+3+4=9$  . وهو كلام مرفوض مخالف لما يفيد النص العربي البليغ فإن الطفل هو الذي إذا أراد أن يقول تسعة قال  $2+3+4=9$  ، أما القرآن فهو أبلغ أسلوب .

والعمل متواتر من العهد النبوي والخلفاء الراشدين بعدم جواز جمع أكثر من أربع في عصمة رجل في وقت واحد ، وهذا العمل مؤيد بالكتاب والسنة والإجماع ، وهو الحق الذي يجب الالتزام به والوقوف عنده (١٨٨).

### حكمة التعدد

الإسلام دين وسط، وهو شريعة الله العليم الخبير ، وقد كان العرب في بيئة ذاع فيها التفاخر بالأنساب ، والاعتزاز بكثرة الأبناء، وإهمال شأن المرأة وهضم حقوقها ، فلم يقفوا في تعدد الأزواج عند حد .

« وقد سلك الإسلام طريقاً وسطاً هو إباحة التعدد إلى حد محدود (١٨٩) ، لما في هذا من منافع ، لا ينبغي لمشرع أن يفض الطرف عنها ، ومنها :

١ - أن طبيعة الرجل الجنسية قد تقوى فلا يقنع بامرأة واحدة، فإذا سددنا عليه باب التعدد فتح لنفسه باب الزنا والمخالأة الداعرة، فتتهدك الأعراض وتضيع الأنساب، وذلك شر عظيم . وفي فتح باب التعدد تهديد لكثرة النسل الذي تعتز به الأمة ، وإن ديناً يحرم الزنا ، ويعاقب عليه أقسى العقوبات ، جدير به أن يفتح باب التعدد، إشباعاً للغريزة ودفعاً للشهر ، ورغبة في كثرة النسل الحلال.

٢ - وقد تكون المرأة عقيماً لا تلد ، أو تصاب بما يمنعها من مزاوله الحياة الجنسية ، ويرى الزوج من الوفاء لها ألا يتخلى عنها في محنتها ، وألا يمنعها عطفه وأنسه ورعايته ، أهليس من الحكمة أن تمكنه من هذا الوفاء، بإباحة التزوج عليها حتى لا تلجئه إلى سلوك طريق آخر ؟.



٣ - ولما كان الرجال أكثر من النساء تعرضاً لأسباب الفناء - كان عددهم أقل من عددهن، وخاصة في أعقاب الحروب ، فإذا لم نبح للرجل أن يعمل بالزواج أكثر من واحدة، كانت النساء عرضة للفاقة ، وللاحتجار بالأعراض ، والعمل للتخلص من النسل فتقتل الأيدي العاملة.

وليس بمعجيب أن يكون عدد النساء في العالم أكثر من عدد الرجال، وأن يباح للرجل أن يتزوج أكثر من امرأة، ضمناً لبقاء النوع ، فقد جرت عادة الخالق - سبحانه - أن يخلق من بذور النبات وبويضات الحيوان ملايين البذور والبويضات ضمناً لبقاء أنواعها ، ويكون استئثار المرأة بالرجل حينئذ أثره ممقوتة ضارة بالجماعة<sup>(١٩٠)</sup>

### فهم خاطئ

ذهب بعض الناس إلى منع تعدد الزوجات مدعياً أن آيتين في سورة النساء ترشدان إلى ذلك .

الآية الأولى تقول : **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** . ( النساء : ٣ ) .

والآية الثانية تقول : **وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمِغَلَّةِ** .

( النساء : ١٢٩ ) .

بل إنهم عند الاستشهاد بالآية ١٢٩ من سورة النساء هذه استشهدوا بالجزء الأول منها وهو **وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا** .

أن **تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ** . وقالوا : إن التعدد ممنوع في القرآن لأن الآية رقم ٣ من سورة النساء اشترطت العدل لإباحة التعدد .

والآية رقم ١٢٩ بينت أن العدل غير مستطاع حتى لمن حرص على تحقيقه بين النساء .

قال الأستاذ أحمد شاكر .. (وزاد الأمر وطم، حتى سمعنا أن حكومة من الحكومات التي تقتسب للإسلام، وضعت في بلادها قانوناً منعت فيه تعدد الزوجات جملة ، بل صرحت تلك الحكومة بأن تعدد الزوجات- عندهم - صار حراماً، ولم يعرف رجال تلك الحكومة أنهم بهذا اللفظ الجريء صاروا مرتدين خارجين من دين الإسلام ، بل إن أحد الرجال الذين ابتلى الأزهر بانتسابهم إلى علمائه ، تجرأ مرة وكتب بالقول الصريح إن الإسلام يحرم تعدد الزوجات ، جراً على الله واقتراء على دينه<sup>(١٩١)</sup> .

مناقشة :

العلاقات الزوجية متداخلة ، منها ما هو مادي ، ومنها ما هو معنوي ، فالحبة والهوى القلبي أمور معنوية لا يتحكم فيها الإنسان ، وهي المشار إليها بقول النبي - ﷺ : **« اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك »**<sup>(١٩٢)</sup> .

أما الأمور المادية مثل الأكل والنفقة والكسوة والمسكن وأشباهها فيمكن العدل فيها بين النساء . وهي التي عناها القرآن ، حين أرشد الرجال إلى العدل فيها ، وبين أن العدل في ميل القلب أمر غير مستطاع لأن القلوب متقلبة ، وما يسمى القلب قلباً إلا لأنه يتقلب ، ولأن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء .

فيذا اتبع الإنسان هوى قلبه ، مال إلى الزوجة التي يعيها ، وأعطاهما حظوظاً مادية زائدة . وترك الأخرى لا تستمتع بمثل هذه الحظوظ المادية . ولذلك وجه القرآن المسلم بأن يعدل في قسمته بين النساء في المسكن والمآكل والملبس ، وأمر بالتسوية بينهما ، ونهى عن محاباة المحبوبة ، وهجر ضررتها حتى تصير كالمرأة المعلقة ، وهى التى هجرها وتركها بدون طلاق ، فلا هى مطلقة تنتظر الأزواج ، ولا هى متزوجة زوجاً يقر عينها ، ويحسن عشرتها ، ويوفى لها حقها ، ويعدل بينها وبين ضررتها أو ضرائرها . فى الأمور المادية التى يمكن العدل فيها .

وقد روى الإمام أحمد وغيره أن رسول الله - ﷺ - قال : « من كانت له امرأتان فمال إلى إحدهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقطاً » ( ١٩٣ ) .

والمراد بالميل هنا الظلم فى القسمة بين الزوجتين ، وتفضيل إحدهما على الأخرى فى النفقة والمسكن والملبس ، وهى التى عنها القرآن بقوله : فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمَـلْعَقَةِ . ( النساء : ١٢٩ ) .

وفى ختام الآية فتح القرآن الباب أمام الأزواج ليعاولوا العدل ولينصفوا الزوجة الأخرى ويحسنوا إليها مراعاة لأمر الله وأتقاء عقابه وحسابه ، فقال - سبحانه - : وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمَـلْعَقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً . ( النساء : ١٢٩ ) .

قال الطبري شيخ المفسرين : وَإِنْ تُصْلِحُوا أَعْمَالَكُمْ - أيها الناس - فتعدلوا فى قسمتكم بين أزواجكم ، وما فرض الله لهن عليكم من النفقة والعشرة بالمعروف فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً يستر عليكم ما قد يكون سلف منكم فى ذلك رحيماً . بكم يقبل توبتكم فيه .

رشيد رضا والتعدد :

يقول الأستاذ رشيد رضا فى موضوع : الإصلاح الإسلامى فى تعدد الزوجات ما يأتى :

قال تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا . ( النساء : ٣ ) .

العلل : الجور ، أى ذلك الاختصار على امرأة واحدة ، أو ملك اليمين أقرب الوسائل لعدم وقوعكم فى الجور والظلم ، المانع من تعدد الزوجات لمن خاف الوقوع فيه .

والآية تدل على تحريم التعدد على من يخاف على نفسه ظلم زوجة محاباة لأخرى ، وتفضيلاً لها عليها ، وعلى تحريمه بالأولى إذا كان عازماً على هذا الظلم بأن كان يريد أن يضارها لكرهها لها ، ثم قال فى الآية ١٢٩ من سورة النساء أيضاً وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ . فإذا قرنت هذه القضية بقضية فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً . أنتجتنا وجوب الاختصار على امرأة واحدة ، ولكنه قال بعدها : فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمَـلْعَقَةِ .

فعلم به أن غير المستطاع هو العدل في الحب وأثره من ميل النفس ، فيجب ضبط النفس في أثره ، وما يترتب عليه من المعاملة المستطاعة ، في النفقة والمبيت وغيرها ، وهو العدل المشروط في الأولى .

وهناك ثلاث مسائل قطعية :

**الأولى :** أن الإسلام لم يوجب تعدد الزوجات ، ولم يندب إليه ، وإنما ذكره بما يدل على أنه قلما يسلم فاعله من الظلم المحرم ، وحكمة هذا وفائدته أن يتروى فيه الرجل الذي تطالبه نفسه به ، ويحاسبها على قصده وعزمه ، وما يكون من مستقبل أمره في العدل الواجب .

**الثانية :** أنه لم يحرمه تحريماً قطعياً لا هوادة فيه ؛ لما في طبيعة الرجال وعاداتهم الراسخة بالوراثة في جميع العالم من عدم اقتصرهم في الغالب على التمتع بامرأة واحدة - ومن حاجة بعضهم إلى النسل في حال عقم المرأة أو كبرها أو علة أخرى مانعة من الحمل ، ومن كثرة النساء في بعض الأزمنة والأمكنة ، ولا سيما أعقاب الحرب بحيث تكون الألوف الكثيرة منهن ، أيام لا يجدن رجالاً يحسنونهن وينفقون عليهن ، مع وجود الأقوياء الأغنياء القادرين على إحصان امرأتين أو أكثر .

**الثالثة :** أنه لهذا وذلك تركه مباحاً ، إلا أنه قيده بالعدد فلا يتجاوز أربعة ، وبالقدر على العدل والرغبة فيه ، وبهذه الشروط نتقى ضرره ونرجو خيره .

وقد رأينا بأعيننا وسمعنا بأذاننا من أهل عصرنا ، أن من المتدينين المتقين رجالاً لم يرزق ولداً من زوجته الأولى ، فخطب زوجة ثانية رزق منها أولاداً وعاش الجميع كعيشة الأخوات في حجر والدهن ، وقد كان هذا هو أكثر حال المسلمين ، في قرون الإسلام الأولى ، ولكنه قل في هذا الزمن ، بما طرأ على أكثر الشعوب الإسلامية من الجهل بالإسلام ، وبحكمه وأدابه في الزواج . وقد حمل شيخنا الأستاذ الإمام محمد عبده في سياق تفسيره للآية في الأزهر ، حملة منكرة شديدة على هذه المفسدة في مصر ، وقرر أنه يستحيل تربية الأمة تربية صحيحة ، مع كثرة هذا التعدد الإفسادي ، الذي صار يجب منعه عملاً بقاعدة « لا ضرر ولا ضرار » الثابتة في الحديث <sup>(١٩٤)</sup> ، وقاعدة تقديم درء المفسد على جلب المصالح ، وهي متفق عليها ، وقد نشرنا أنه أفتى فتوى غير رسمية بأن للحكومة منع التعدد ، لغیر ضرورة مبيحة لا مفسدة فيها <sup>(١٩٥)</sup> .

### ملحق بالتفسير

- ١ -

قام المستشار محمد الدجوى ببحث عن الحالة المدنية لمن تولى مشيخة الأزهر من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٩٦٠م .

واسفر البحث عن أولئك المشايخ الأجلاء ، وعدتهم بضعة عشر شيخاً ، لم يتزوج واحد منهم بزوجة ثانية ، بل اقتصر على زوجة واحدة ، وذلك لأنهم فهموا أحكام الدين ووعوا تعاليمه وتشربوا بروحه .

## - ٢ -

يرى الدكتور محمد عبد الله دراز أن أوروبا أباحت تعدد الخيلات والعشيقات ، ثم أباحت للإنسان ، أن يعترف بنسب أولاده من عشيقته ، فهم تقادوا اسم الزوجة فقط.

ولكن الإسلام حارب اتخاذ الأخدان والخيلات ، فقال سبحانه : مُحْصَنَاتٌ غَيْرُ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخَذَاتِ أَخْدَانٍ . ( النساء : ٢٥ ) .

وقال عز شأنه مُحْصَنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ . ( النساء : ٢٤ ) .

## - ٣ -

ذهب فريق من العلماء إلى أن التعدد مباح ، لا يتوقف جوازه على شيء وراء أمن العدل ، وعدم الخوف من الجور ، والقدرة على القيام بواجبات الأسرة القديمة والجديدة ، ومن هؤلاء العلماء الأستاذ الشيخ محمود شلتوت ، والأستاذ أحمد شاکر ، والأستاذ على عبد الواحد وافي ، والدكتور محمد بلتاجي .

ومن العلماء من يرى أن الأصل في الزواج الاقتصار على زوجة واحدة تتحقق بها المودة والرحمة ، ويباح التعدد عند الضرورة مثل عقم الزوجة ، أو مرضها مرضاً شديداً يمنعها من أداء وظيفتها ، ويمكن أن يفهم هذا ، أي من كلام الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا والشيخ محمد المدني .

ومن العلماء من يرى أن يكون تعدد الزوجات بإذن القاضي ، ومنهم من يرى ترك الناس إلى ضمائرهم ودينهم مع العناية بالتربية الدينية ، وإرشاد الناس إلى آداب الإسلام .



﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً فَإِن طِبَن لَّكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾

المفردات :

وآتوا : الإيتاء : الإعطاء والمناولة ، أو الالتزام .

صدقاتهن : جمع صدقة بضم الدال ، وهو المهر .

نحلة : أي عطية من غير عوض ، من نحلة ينحله نحلة .

هنيئاً : أي سائفاً من هناء الطعام يهنؤه أي ساغ له .

مريئاً : أي سائفاً ، الهنء ما يلذ للآكل ، والمرىء ما سهل هضمه وحسنت عاقبته ، والمراد أنه لا تبعه ولا عقاب عليه ، أي حلالاً طيباً .

التفسير :

٤ - وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُنَّ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا .

هناك حقوق للمرأة على زوجها ، وحقوق للرجل على زوجته ، فمن حقوق المرأة ، المهر وهو الصداق ، والنفقة ، والعشرة بالمعروف .

ومن حقوق الزوج الطاعة أو القوامة ، والأمانة أو المحافظة على المال والعرض ، وحسن العشرة أيضاً . والآية تأمر الأزواج بإعطاء النساء مهورهن عن طيب خاطر ، فإذا طالبت نفس المرأة وتنازلت لزوجها عن شيء من صداقها فلا مانع من أخذه والانتفاع به .

وعلاقة الآية بالحديث عن اليتامى ، أنها استطراد فى بيان حق المرأة ، وسواء أكانت يتيمة أو غير يتيمة ، واحدة أو أكثر ، فيجب أن تأخذ حقها فى الصداق .

والصداق دليل المصادقة ، وتحمل المسئولية ، وآية المودة وتوثيق عرى الصلة بين الزوجين كى تدوم الألفة وتعظم المحبة .

والصداق ليس شراء للمرأة ، فمعنى قول الإنسان لفتاة هل ترضين أن تكونى زوجتي؟ أى هل ترضين أن تكونى شريكة أكون أنا مديرها والمسئول عنها ؟ فتقول له جداً أو مزاحاً ؟ أو هل أنت صادق فى عرضك؟ فالصداق دليلٌ مُمَادى على تحمل المسئولية .

ثم أتبع القرآن ذلك بقوله : نِحْلَةً . أى عطية عن طيب نفس وصدق رغبة بدون مقابل أو عوض .

وأهل اللغة يقولون إن النحل بدون مقابل :

ويعض الفقهاء يقول : إن الصداق ثمن البضع ، ونقول لهم : لو أننى اشتريته يا فقهاء لكنت أستطيع بيعه لآخر ، ثم إن الله سَمَى المهر صداقاً ، وجعله نحلة أى هبة وهدية بدون عوض .

لكن القرآن يقول : فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ . ( النساء : ٢٤ ) .

بعد أن سماه القرآن صداقاً ونحلة ، جعله فريضة فرضها الله ، وألزمنا بها كما يلزم الإنسان أجر العامل .

فالزوجة قد استمتعت بزوجها كما استمتع هو بها ، لكن لما كانت المسألة ليست جزاء الاستمتاع المادى ، بل هى حق فرضه الله للمرأة ، لأنها قبلت أن تنتقل من بيت أسرتها إلى بيت زوجها ، وقبلت أن يكون لزوجها القوامة عليها ، وقبلت أن يكون لزوجها الرئاسة والطاعة ، لهذا فرض الله لها النفقة والصداق ، وجعل ذلك فريضة لازمة ، كما يلزم الإنسان أن يعطى الأجر لمن عمل له عملاً ، قال تعالى : الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ . ( النساء : ٣٤ ) .

فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا .

والضمير يعود على المهر ، أى إذا طابت نفوسهن ورضيت عن طيب خاطر ورغبة صادقة ، أن تتنازل إحداهن لزوجها عن شيء من صداقها ، فقد أباح الله له أخذه والانتفاع به ، وأحل له التصرف فيه حالاً طيباً .

ومن دقائق اللغة ، أن القرآن قال : فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا . ولم يقل عقلاً . لأن الرجل قد يحتال على المرأة حتى تهب له شيئاً من الصداق ، أو يلوح لها بالزواج فتتراضه بشيء من الصداق ، وتتنازل له بحكم عقلها ، ولكنه تنازل ظاهرى .

يقول الحكيم الترمذى : أى أن عقلها يوازى الأمور ، ويفضل التضحية بالمال لترضية زوجها ، فهى موضع شككية لا حقيقة .

ولذلك فإن القرآن قال : فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا (١٦٦) .

وقال الزمخشري فى الكشف فى تفسير الآية :

وفى الآية دليل على ضيق المسالك فى ذلك ، ووجوب الاحتياط ، حيث بنى الشرط على طيب النفس : فَإِنْ طَبِنَ . ولم يقل فإن وهين أو سمحناً إعلاماً بأن المراعى هو تجافى نفسها عن الموهوب عن طيب خاطر .

والمعنى : فإن وهين لكم شيئاً من الصداق ، وتجاخت عنه نفوسهن طيبات ، لا لحياء عرض لهن منكم أو من غيركم ، ولا لاضطرارهن إلى البذل من شكاسة أخلاقكم ، وسوء معاشرتكم ، فكلوه هنيئاً مريئاً .

الخطاب فى الآية :

الخطاب فى الآية للأزواج ، لأن الضمائر فى الآية السابقة لهم ، وبعض المفسرين يرى أن الخطاب فى هذه الآية للأولياء ، فقد كان الولي فى الجاهلية يزوج ابنته أو أخته ، ويأخذ الصداق لنفسه ، فأنزل الله الآية لمنع ذلك . ولا مانع من أن يجعل الخطاب عاماً للمسلمين ، فيشمل الأزواج والأولياء ، فالزوج مطالب بإعطاء المرأة صداقها ، والولى مطالب بدفعه لها بعد تسلمه من الزوج ، وللزوجة كامل الحق فى التصرف فى المهر بعد ذلك .

من الأحكام التى تؤخذ من الآية :

١ - لا بد فى النكاح من صداق يعطى للمرأة ، قال القرطبي : هو مجمع عليه ولا خلاف فيه .

٢ - الصداق ملك المرأة ، ومن حقها أن تتصرف فيه بما شاءت .

٣ - يجوز للمرأة أن تعطى زوجها - برضاها واختيارها - مهرها ، أو جزءاً ، سواء أكان مقبوضاً معيناً ، أم كان فى الذمة . ويشمل ذلك الإبراء الهبة .

ويرى بعض العلماء أن من حقها الرجوع فيما أعطت ، وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه كتب إلى قضاته : إن النساء يعطين رغبة ورهبة ، فأيا امرأة أعطت ثم أرادت أن ترجع فذلك لها .

﴿لَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

المفردات :

السفهاء : جمع سفيه، والمراد من السفهاء هنا : ضعاف العقول والأفكار الذين لا يحسنون التصرف.

قيامًا : ما تقوم به أموركم، وتصلح شئونكم .

التفسير :

٥ - وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا .

المعنى العام :

ولا تعطوا ضعاف العقول ممن لا يحسنون التصرف في المال أموالهم التي هي أموالكم ، فإن مال اليتيم وضعيف العقل مالكم، ويعنيكم أمره وإصلاحه حتى لا يضيع المال ، فقد جعله الله قوام الحياة، وأعطوهم من ثمراتها النصيب الذي يحتاجون إليه في العام، وأكسوهم وعاملوهم بالحسنى، وقولوا لهم قولاً يرضيهم ولا يؤذيهم ولا يذللهم.

في أعقاب الآية :

١ - اختلف المفسرون في تعيين المخاطبين بقوله تعالى : وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .

قال بعضهم المراد بذلك الأوصياء على اليتامى، والمراد من السفهاء اليتامى غير العقلاء.

وقال بعضهم الخطاب في الآية الكريمة للأباء، والمراد من السفهاء الأولاد الذين يفسدهم المال ويشجعهم على سوء الفعال.

والواقع أن السفهاء تشمل جميع السفهاء ، من صبي ویتیم وزوجة صغيرة ..

فالمسألة ليست خاصة ، بل الآية دستور عام ينادى جميع الناس، حاكمين ومحكومين ، وأوصياء وأباء.

والمراد بالسفهاء كل من لا يحسن المحافظة على ماله لصغره، أو لضعف عقله، لسوء تصرفاته سواء أكان من اليتامى أم من غيرهم.

٢ - يقول الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز :

كانه يقول المال وإن كان ملكاً لزيد وعبيد ، إلا أنه حق للدولة، فالجماعة مسئولة عن إضاعة هذه الأموال، أي الأمر عام ، أيها الولي على الدولة لا تولّ وزيراً للمالية يبدد الأموال، أيها الرجل المضارب لا تدفع مالك إلى مبدد مبدّر.

فالمجموع موزع على المجموع ، والغرض منه الوحدة والتكافل (١٩٧).

٢ - عنى الإسلام بالمحافظة على المال وتثمينه ، وحث القرآن على العمل واكتساب الرزق، وبين أن المال قوام الحياة، فقال : **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا .**

وهى من أعجب الأوامر التى تأتى فى دستور روحى، وفيها أعظم وصية لتثمين المال ومراعاة قيمته لأنه مقوم الحياة.

وليس ذلك بغريب عن روح القرآن ، فأطول آية منه جمعت بين الكتابة والشهادة ، والصادر والوارد فى قوله سبحانه : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْشَ مِنْهُ شَيْئًا .** (البقرة : ٢٨٢).

٤ - قال القرآن : **وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .**

أى اجعلوا الأموال مكانا لرزقهم وكسوتهم ، وذلك بالاتجار فيها ، واستثمارها فتكون نفقتهم من غلتها وربيعها ، لا من أصل المال ، وهذا هو سر التعبير **فِيهَا** ولم يقل : منها .

روى الترمذى أن رسول الله - ﷺ - قال : **« ألا من ولى يتيما له مال فليتجر فيه ، ولا يتركه حتى تاكله الصدقة »** (١٩٨).

٥ - القول المعروف برفع الروح المعنوية للسفيه ، ويخلق عنده الأمل فى أن يسترد ماله وصحته وإنسانيته.

والمعروف كلمة عامة تشمل كل ما عرف حسنه ، وكل ما يناسب حال السفيه ، من كلمة حانية أو عطف ومودة ، أو بشاشة ورحمة، أو زرع الأمل والثقة فى المستقبل ، مثل أن يقول : المال مالك ، وما أنا إلا حارس أحفظه لك من الضياع ، وعند الكبر- أو الرشد أو التدبر للأمر - أردت إليك وتصبح أنت كامل التصرف مطلق الحرية، ونحو ذلك من العبارات التى تزيل اليأس والقنوط، وتغرس الأمل والرجاء.

٦ - تفيد الآية وجوب العناية بالأموال وتثمينها ، وتيسيرها لإفادة الناس بها ، يقول الأستاذ الشيخ محمود شلتوت : (فليس لأحد أن يقول مالى مالى ، هو مالى وحدى لا ينتفع به سوى ، فالمال مال الجميع ، والمال مال الله ينتفع به الجميع عن الطريق الذى شرعه الله فى سد الحاجات ، ودفع للملمات ، وهو ملك لصاحبه يتصرف فيه، لا كما يشاء ويهوى بل كما رسم الله ، ويبيّن فى كتابه، حتى إذا ما أحل بذلك فانسرف وبذر أو ضن وقتر حجر عليه ، أو أخذ منه - قهراً عنه - ما يرى الحاكم أخذه من مثله ) (١٩٩).

٧ - من الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة ، وجوب الحجر على السفهاء ، وجوب إقامة الوصى والولى والكفيل على الأيتام والصغار ومن فى حكمهم ، ممن لا يحسنون التصرف (٢٠٠).



﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾

المفردات :

وابتلوا : الابتلاء : الاختبار والتجربة .

ببلغوا النكاح : أى بلغوا سن النكاح ، أو بلغوا الحلم وهو حد التكليف ، وقدر بخمسة عشر عاما .

آنستم : أبصرتم وتبينتم .

رشدا : حسن تصرف فى الأموال .

إسرافا : الإسراف : مجاوزة الحد المعتاد فى التصرف .

بدارا : البدار : المسارعة فى الشيء .

أى لا تأكلوا أموالهم مسرفين ومبشرين كبرهم ، أى مسرعين فى تبذيرها قبل أن يكبروا

فيتسلموها منكم .

فليستعفف : العفة : ترك ما لا ينبغى من الشهوات ، والمراد فليتقنه عن الأكل من مال اليتيم .

التفسير :

٦ - وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ... الآية .

أى عليكم - أيها الأولياء والأوصياء - أن تختبروا اليتامى ، وذلك بتتبع أحوالهم فى الاهتداء إلى ضبط الأمور وحسن التصرف فى الأموال ، ويتمرنهم على ما يليق بأحوالهم ، حتى لا يجرى وقت بلوغهم إلا وقد صار فى قدرتهم أن يصرفوا أمورهم تصرفا حسنا ، فإن تبينتم منهم رشدا بعد البلوغ ، وهداية إلى حسن التصرف وحفظ الأموال ، فادفعوا إليهم أموالهم ، من غير تأخير عن حد البلوغ .

ولا تأكلوها مسرفين فى الأكل ، ومبشرين بالأخذ ، خشية أن يكبروا فيتنزعوها من أيديكم .

ومن كان من الأوصياء على اليتامى غنيا فليستعفف عن الأكل من أموالهم ، وليبالغ فى إعفاف نفسه ، وإبعادها عن أخذ شيء من مال اليتيم ، ومن كان فقيرا فليأخذ من مال اليتيم بقدر حاجته ، من سد الجوع وستر العورة لا يزيد عن ذلك .

فإذا سلمتموهم أموالهم فليكن ذلك أمام شهود ، إثباتا للحق وحماية لأنفسكم ، وتأكيذا لحفظ مال اليتيم .

والله من ورائكم هو المحاسب والمراقب ، وكفى به حسيبا ومراقبا .

فى رحاب الآية :

١ - عَنِ الْقُرْآنِ بَرِيَّةَ الْيَتِيمِ وكفالاته ورعايته وتكوين شخصيته ؛ لأنه فرد من أفراد الأمة والأمة مجموعة أفراد ، وقد أمر فى الآية السابقة بالقول المعروف معه ، والتوجيه السديد ، وفى هذه الآية حث على التدريب العملى بالاختبار ، كان تسأله أنا اشتريت هذا الثوب كم يساوى ؟ فإذا توسم الوصى فيه الخير أعطاه قليلا من المال ليتصرف فيه حتى إذا بلغ الحلم وأنس فيه الرشد دفع إليه المال ، وقد علق دفع المال على شرطين ، البلوغ والرشد ، فإذا رشد وهو صغير لا يدفع إليه حتى يكبر ، والكبر وحده لا يكفى بل لابد من الكبر مع الرشد ، والرشد عند كثير من المفسرين يكون فى المال والدين والخلق .

يقول الأستاذ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق :

وَابْتَلُوا الْيَتَامَى . يأمر باختبارهم وتدريبهم على التصرف ، والقيام على بعض الشؤون لينظر أيعسنون أم يسيئون ؟ فإذا أحسنوا وسعت لهم دائرة الاختبار ، وإذا أساءوا أرشدوا وعلموا ، تأمر الآية باختبارهم على هذا النحو ، وإذا أساءوا أرشدوا وعلموا ، تأمر الآية باختبارهم على هذا النحو ، حتى يصلوا إلى درجة الرشد ، وتعرف قدرتهم على ضبط الأموال وحسن التصرف ، فتسلم أموالهم إليهم ليباشروا شؤونها بأنفسهم ، ويدخلوا بها فى معترك الحياة <sup>(٢٠١)</sup> .

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمَ الْفَاءَ فِي قَوْلِهِ : فَادْفَعُوا . واقعة فى جواب الشرط : فَإِنْ آنَسْتُمْ . والشرط وجوابه واقع جواب إذا .

\* \* \*

٢ - سن البلوغ :

ظاهر الآية يدل على أن أموال اليتامى لا تدفع إليهم إلا إذا بلغوا راشدين .

والبلوغ إما بالاحتلام للذكور ، وبالحيض للإناث ، وإما بالسن وهو عند الشافعى والحنابلة ١٥ سنة ، وعند المالكية ١٧ سنة .

وفرق الحنفية بين الذكور والإناث فجعلوه للذكور ١٨ عاماً ، ولالإناث ١٧ عاماً ، وكل ذلك بالحساب القمري .

فإذا بلغ غير رشيد فلا يسلم له ماله عند جمهور الفقهاء .

وقال أبو حنيفة : يسلم له إذا بلغ ٢٥ سنة وإن ثبت رشده ، لأنه يصلح أن يكون جداً ، وهو يستحى أن يحجر على مثله .

\* \* \*

## ٣ - آجرة الوصى :

اختلف العلماء حول قوله سبحانه :

وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ

١ - منهم من قال إن هذه الآية مع شدتها منسوخة بقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا . ( النساء : ١٠ ) .

٢ - ومنهم من يرى أن الآية غير منسوخة ولكنها أرشدت الفنى إلى العفة عن مال اليتيم، وأن يقصد بعمله ورعايته وجه الله .

وأباحث للفقير أن يأخذ بقدر ما يحتاج إليه من مال اليتيم قرضاً، ثم إذا أيسر قضاء ، وإن مات ولم يقدر على القضاء بأن كان معسراً فلا شيء عليه (٢٠٢) .

وعن عمر : يأخذ الوصى الفقير ما يسد جوعته ، ويوارى سواته ، ثم إذا استغنى رد ما أخذ .

وعن عمر : إلا إنى أنزلت نفسى من مال الله منزلة ولى اليتيم، إن استغنى استعفت، وإن احتجت استقرضت، فإذا أيسرت قضيت .

## ٤ - الوصى له حالتان :

أن يكون ولياً فعلياً ، يتصرف فى مال اليتيم ويرعى شئونه، محاسباً أو وكيلًا، أو راعياً فبقدر ما يؤجر به نفسه يأخذ من مال اليتيم .

أو أنه ما دام سلم نفسه لليتيم يرعى أمره فلأخذ ما يكفيه وما ينفق به على نفسه .

كالقاضى فى مال الدولة فإنه يأخذ المال والمرتب وإن كان غنياً، ورد هذا القول بأن هناك فرقاً بين المقامين .

فالقاضى يأكل من مال الدولة وهو مال عام ، والوصى هنا يأكل من مال خاص .

والرأى الأخير أمثل الآراء ، فالوصى إن شغل بمال اليتيم ورعايته فله الأكل بالمعروف زائداً على أجرته إن كان فقيراً، وله الأجر فقط إن كان غنياً .

## يقول الإمام فخر الدين الرازى :

اختلف العلماء فى أن الوصى هل له أن ينتفع بمال اليتيم أم لا ؟ .

فمنهم من يرى أن للوصى أن يأخذ من مال اليتيم بقدر أجر عمله ... لأن الوصى لما تكفل بإصلاح مهمات الصبى، وجب أن يتمكن من أن يأكل من ماله بقدر عمله قياساً على الساعى فى أخذ الصدقات وجمعها، فإنه يضرب له فى تلك الصدقات بسهم وكذا هنا ..

٥ - الإشهاد عند تسليم المال لليتييم :

أمر الله بالإشهاد عند تسليم أموال اليتامى إليهم، كما أمر بالإشهاد عند كتابة الدين، فقال : **وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ** . ( البقرة : ٢٨٢ ) .

والإشهاد يكون في الأمور الهامة ، وفي الأمور المالية بالذات منعاً للخصومات والمنازعات ، وإبراء لذمة الأوصياء، ولكي يكون اليتامى على بينة من أمرهم.

وقد ذهب الشافعية والمالكية والحنابلة إلى أن الإشهاد واجب عند تسليم اليتيم ماله ، لقوله تعالى : **فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ** . وهو أمر وظاهر الأمر أنه للوجوب ، وليس معنى الوجوب هنا أن الوصى يأتى إذا لم يشهد ، بل معناه أن الإشهاد لايد منه في براءة ذمته، بأن يدفع لليتييم ماله أمام رجلين أو رجل وامرأتين ، حتى إذا دفع المال ولم يشهد ثم طالبه اليتيم فعينئذ يكون القول ما قاله اليتيم بعد أن يقسم على أن الوصى لم يدفع إليه ماله .

ويرى الإمام أبو حنيفة أن الأمر في قوله تعالى : **فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ** . للندب، وأن الوصى إذا ادعى ذلك يصدق ويكتفى في تصديقه بيمينه، لأنه أمين لم تعرف خيانتته ، إذ لو عرفت خيانتته لعزل.

٦ - ختام الآية :

قال سبحانه : **فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا** .

يعنى أنكم قد تبرؤون أمام القضاء، ولكن الله دقيق في حسابه ورقابته لا تخفى عليه خافية فراقبوا الله قبل رقابة القضاء .

★ ★ ★

## الموايـث

**﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾** (٧)

سبب النزول :

جاء في تفسير ابن كثير : قال سعيد بن جبير وقتادة : كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً ، فأنزل الله : **لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ** ... الآية .

أى الجميع فيه سواء في حكم الله - تعالى - يستون في أصل الوراثه، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلى به إلى الميث من زوجية أو قرابة.

وروى ابن مردويه عن جابر قال : أتت أم كحة إلى رسول الله - ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن لى ابنتين قد مات أبوهما وليس لهما شيء، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

\* \* \*

٧ - لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا .

والمعنى :

للكور نصيب مما تركه الوالدان والأقربون ، أى مما تركه آبؤهم وأمهاتهم وأقاربهم ، كالأخوة والأخوات، والأعمام والعمات.

وللإناث نصيب مما تركه آبؤهن وأمهاتهن وأقاربهن.

والمقصود من الآية إثبات حق النساء فى الميراث ، سواء أكانوا صغاراً أم كباراً وإثبات حق الذكور فى الميراث كباراً كانوا أم صغاراً .

وبهذا، بطل ما كان عليه أهل الجاهلية من توريث البالغين من الرجال فقط ، حيث جعل للجميع حظاً ونصيباً فى الإرث.

وكان يكفى أن يقال : لكل واحد نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، ولكنه - تعالى - شاء أن يفصل فيجعل للرجال نصيباً ، وللنساء نصيباً ، مما تركه الوالدان والأقربون ، إيذاناً بأصالة النساء فى استحقاق الميراث، ومنعاً من صرف هذا المجل إلى الرجال وحدهم، على ما كانت عليه عادة الجاهلية ، ومبالغة فى إبطال هذه العادة الظالمة .

مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ . سواء أكانت التركة كثيرة أم قليلة ، عقاراً أو منقولاً ، فلا يحق لبعض الورثة أن يستأثر ببعض الميراث دون الآخرين .

وتقديم القليل على الكثير - فى الآية - للتنبيه على وجوب دخوله فى الميراث بين المستحقين ، لأنه مظنة التهاون فيه .

نَصِيبًا مَّفْرُوضًا . نصيباً مقطوعاً فرضه الله بشرعه العادل وكتابه المبين ، فلا سبيل إلى التهاون فيه ، بل لا بد من إعطائه لمن يستحقه كاملاً غير منقوص .

\* \* \*

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٨)

المفردات :

أولو القربى : أصحاب القرابة غير الوارثين.

فأرزقوهم منه : فأعطوهم من المال الموروث.

التفسير :

٨ - وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ . ممن لا نصيب لهم في الميراث ، واليتامى الذين فقدوا العائل والنصير، والمساكين الذين أسكنتهم الحاجة وأذلّتهم وصاروا في حاجة إلى العون والمساعدة.

فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ . أى فأعطوهم من الميراث الذى تقسمونه، شيئاً يعينهم على سد حاجتهم ، وتفريج ضائقتهم.

وقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا . أى قولاً لينا جميلاً، مثل : ودننا لو أعطيناكم أكثر من هذا ، ومن القول المعروف دعاؤكم لهم بالبركة، وعدم منكم عليهم.

وليس المراد من حضور ذوى القربى واليتامى والمساكين ، أن يكونوا مشاهدين للقسمة ، جالسين مع الورثة، لأن قسمة الأموال لا تكون عادة عند حضور هؤلاء الضعفاء ، وإنما المراد من حضورهم العلم بهم من جانب الذين يقتسمون التركة ، والدراية بأحوالهم ، وأنهم في حاجة إلى العون والمساعدة.

ويتعلق بهذه الآية ما يأتى :

١ - يرى بعض العلماء أنه للوجوب ، لأنه هو المستفاد من ظاهر الأمر ، ويرى كثير من العلماء أن هذا الأمر بالإعطاء للندب لا للوجوب ، وأن هذا الندب إنما يحصل إذا كان الورثة كباراً ، وأما إذا كانوا صغاراً فليس على أوليائهم إلا القول المعروف.

وقد رجح القرطبى كون الأمر للندب لا للوجوب ، ( وجمهور فقهاء الأمصار على أن هذا الإعطاء على سبيل الاستحباب ) (٢٠٣).

٢ - هل هذه الآية منسوخة أم محكمة ؟

من العلماء من قال : إن هذه الآية قد نسخت بآية الموارث التى بعدها ، وهى قوله تعالى : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ... .

فجعل الله لكل إنسان نصيبه مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة (٢٠٤).

ومن العلماء من ذهب إلى أن هذه الآية محكمة وليست بمنسوخة، وفي البخاري عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : هي محكمة وليست بمنسوخة (٢٠٥).

وفي تفسير القرطبي عن ابن عباس قال : إن ناسا يزعمون أن هذه الآية قد نسخت ، لا ، والله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس (٢٠٦).

وعن الحسن كانوا يعطون التابوت والأواني ، وورث الثياب ، والمتاع الذي يستحق من قسمته .

وعن يحيى بن يعمر (٢٠٧) ثلاث آيات تركهن الناس (٢٠٨)، هذه الآية ، وآية الاستئذان يا أيها الذين آمنوا لِيَسْتَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ... ( النور : ٥٨ ) .

وقوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. ( الحجرات : ١٣ ) .

ومن المفسرين من رجح أن هذه الآية لا تعارض بينها وبين آية الموارث ، لأن هذه الآية إنما تأمر بما يؤدي إلى التعاطف والتراحم بين الناس ، وهذا أمر لا يتنسخ ، بل هو ثابت في كل زمان ومكان.

ثم إن هذه الآية الأمر فيها على سبيل النذب والاستحباب، لا على سبيل الفرض والإيجاب (٢٠٩).

★ ★ ★

﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝١ ﴾

المضدرات :

وليخش : الخشية : الخوف والحدس .

قولا سديدا : عدلا وصوابا .

خلاصة معنى هذه الآية : عاملوا اليتامى بمثل ما تحبون أن يُعامل به أولادكم من بعدكم.

والآية وصية إلى الأولياء برعاية اليتامى رعاية أبوية مخصصة ، فيها الحنان ، والعطف والمحافظة على مال اليتيم ، وقد لمس القرآن شغاف القلوب، قلوب الآباء المرفهة الحساسة ، بتصور ذريتهم الضعفاء مكسوري الجناح، لا راحم ولا عاصم كي يعطفهم هذا على اليتامى، الذين وكلت إليهم أقدارهم ، بعد أن فقدوا الآباء ، فربما تعرض أبناؤهم غدا لمثل هذا الموقف ، فليعاملوا اليتامى بمثل ما يرغبون أن تعامل به أبناؤهم من بعدهم .

فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . فليتقوا الله في كل شأن من شئونهم ، وفي أموال اليتامى فلا يعتدوا عليها ، وليقولوا لليتيم ما يقوله الوالد لولده ، من القول الجميل ، والهادي له إلى حسن الأداب ، ومحاسن الأفعال .

والسديد : المصيب العدل الموافق للشرع .

يقول الأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

وهي الآية الكريمة ما يبعث الناس كلهم على أن يفضبوا للحق، وأن يأخذوا على أيدي أولياء السوء، وأن يحرسوا أموال اليتامى ، ويبلغوا حقوق الضعفاء إليهم ، لأنهم إن أضاعوا ذلك يوشك أن يلحق أبناءهم وأموالهم مثل ذلك وأن يأكل قلوبهم ضعيفهم ، فإن اعتياد السوء ينسى الناس شناعته ، ويكسب النفوس ضراوة على عمله (٢١٠) .

★ ★ ★

﴿ إِنِّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا  
وَيَصِيدُونَ سَعِيرًا ۝١٠﴾

المفردات :

يأكلون في بطونهم نارا : أى يأكلون ما يؤدى بهم إلى النار ، ليعاقبوا فيها على ما أكلوه .

يصيدون سعيرا : أى وسيدخلون نارا هائلة ، من صلى النار - بكسر اللام - أى قاسى حرها ، والسعير : النار الموقدة ، من سرعت النار أوقدتها .

التفسير :

تحدثت السورة عن اليتيم ، وحذرت من أكل ماله بالباطل ، وكشفت الحيل والألاعيب التي يلجأ إليها الأوصياء : نجد ذلك في الآية الثانية والثالثة ، والسادسة ، والثامنة والتاسعة من سورة النساء .

وفي هذه الآية العاشرة تأكيد لما سبق ، وتحذير من أكل مال اليتيم ظلما وعذوانا ، وسأقت ذلك في صورة حسية مفزعة ، صورة النار في البطون ، وصورة السعير في النهاية ..

« إن هذا المال - مال اليتيم - لهو نار ، وإنهم ليأكلون هذه النار . وإن مصيرهم إلى السعير ، فهي النار إذن تشوى البطون والجلود ، هي النار إذن من باطن وظاهر .. هي النار مجسمة في هذا المشهد تكاد تحسها البطون وتكاد تراها الأبصار » (٢١١) .

« وقد أكد الله الوعيد في أكل مال اليتيم ، رحمة من الله - تعالى - باليتامى لأنهم لكمال ضعفهم وعجزهم استحقوا من الله مزيد العناية والكرامة ، وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته ، وكثرة عقوه وفضله ، لأن اليتامى لما بلغوا في الضعف إلى الغاية القصوى ، بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى » (٢١٢) .



وهى أسباب النزول للواحدى ، وتفسير القرطبى والكواشى ، أن هذه الآية نزلت فى رجل من غطفان يقال له : مرثد بن زيد ، ولى مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله ، فأنزل الله - تعالى - فيه : **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا . أَيْ بغير حق إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا .** أى المال الحرام الذى يفضى بهم إلى النار :

**وَيَسِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَالَ اللَّهِ الَّتِي ظَلَمُوا .** أى سيدخلون النار المستعرة ، يماسون حرها ويشتتون بحريقها .

قال تعالى **فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . (الليل : ١٤ ، ١٥) .** تقول : صليت اللحم إذا شويته ، فإن أردت أنك أحرقته قلت أصليته (٢١٣) .

وللمفسرين فى تفسير قوله تعالى : **إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا .** اتجاهان :

**أولهما :** أن الآية على ظاهرها ، وأن الأكلين لمال اليتامى ظلما سيكلون النار يوم القيامة .

واستدلوا بقوله - ﷺ - : « يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تاجع أهواهم نارا . قيل ، يا رسول الله ، من هم ؟ قال : ألم تر أن الله قال : **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ..** » (٢١٤) .

**وثانيهما :** أن الكلام على المجاز لا على الحقيقة ، وأن المراد إنما يأكلون فى بطونهم المال الحرام الذى يفضى بهم إلى النار .

وقد أخرج أبو داود والنسائى والحاكم وغيرهم أنه لما نزلت هذه الآية انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه وشرابه ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله - ﷺ - فأنزل الله تعالى **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ..** الآية . (البقرة : ٢٢٠) . فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم (٢١٥) .

قال الفخر الرازى : ومن الجهال من قال : صارت هذه الآية منسوخة بتلك وهو بعيد ، لأن هذه الآية فى المنع من الظلم ، وهذا لا يصير منسوخاً ، بل المقصود أن مخالطة أموال اليتامى إن كانت على سبيل الظلم فى من أعظم أبواب الإثم كما فى هذه الآية ، وإن كانت على سبيل التربية والإحسان فهى من أعظم أبواب البر ، كما فى قوله تعالى : **وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ..** (٢١٦) . (البقرة : ٢٢٠) .

#### دعوى باطلة :

يدعى بعض المفرضين أن القرآن لم يهتم بالصغار .. وهذه دعوى باطلة ، فقد عنى القرآن باليتيم وحث على إكرامه ورعايته ليكون عضوا صالحا فى المجتمع . وكانت التربية تتم بالقنوة والأسوة ، وفى سورة لقمان وصايا حكيم لابنه ، وفى آيات كثيرة نجد وصية للآباء برعاية أبنائهم وحسن توجيههم ، ووقايتهم من النار ، وأمرهم بالصلاة ، وكذلك فى السنة المطهرة .

وقد ادعى بعض المغرضين أن التشريع الإسلامي مأخوذ عن التشريع الروماني ، وهذه دعوى باطلة لما يأتي :

١ - التشريع الروماني مأخوذ عن الألواح الاثني عشر ، والتشريع الروماني في سوريا وما جاورها نظر إلى العرف السائد فدونهُ ، وكان يرجع إليه كقانون ، وأحياناً يقضى القضاء بمقتضى العرف بدون قانون . فكيف يؤخذ من تدوين عرف لشريعة نزلت كاملة شاملة .

٢ - علماء الغرب أنفسهم يعترفون بانفراد القرآن الكريم بالحديث عن اليتيم ، وإفاضة القول في الوصية به ، فالقانون الروماني يهدف إلى أن يأخذ الوصى نصيب الأسد . بينما القانون الإسلامي على التقيض من ذلك كله ، توصية باليتيم ، وتحذير من أكل ماله بشئ الطرق ، ولم يجعل للوصى الحق في أخذ شيء من المال إلا | كان فقيراً فليأكل بالمعروف .

من هدى السنة :

١ - في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتوليء ، بوه الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » (٢١٧) .

٢ - روى البخاري وغيره عن سهل بن سعد عن النبي - ﷺ - أنه قال : « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهذا » . وقال بأصبعيه السبابة والوسطى ، وأشار وفرج بين أصبعيه السبابة والوسطى (٢١٨) .

وكان سلوك النبي الكريم قدوة حسنة في رعاية اليتامى وكفالتهم ، ليكونوا لبنة صالحة لا يحقدون على المجتمع ، ولا يضررون الشر لمن ظلم ، ونجد الوصية باليتيم في القرآن المكى والمدنى .

فمن القرآن المكى قوله تعالى : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا . ( الإسراء : ٣٤ ) .

وقال تعالى : أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ \* وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ \* وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ \* فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ \* وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ \* وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ . ( الضحى : ٦-١١ ) .

ومن القرآن المدنى ، ما ورد في الآيات العشر الأولى من سورة النساء وفيها وصايا متكررة باليتيم .

ومن القرآن المدنى قوله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْتُكُمْ عَنْ اللَّهِ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . ( البقرة : ٢٢٠ ) .

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِمْنُلْ حَظُّ الْأُنثَيَيْنِ إِن كَانَ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا يُؤْتِيهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

المعنى العام للآية ١١ :

يا مكرمكم الله في شأن توريث أولادكم وأبيوكم - إذا متم - بما يحقق العدل والإصلاح ، وذلك بأن يكون للذكر مثل نصيب الأنثيين إذا كان الأولاد ذكورا وإناثا ، فإن كان جميع الأولاد إناثا يزيد عددهن على اثنتين فلهن الثلثان من التركة ، ويفهم من مضمون الآية أن الثنتين نصيبهما كنصيب الأكثر من ثنتين ، وإن ترك بنتا واحدة فلها نصف ما ترك ، وإن ترك أبيا وأما هلكل واحد منهما السدس ، وإن كان له ولد معها ، ولد ذكر أو أنثى فإن لم يكن له ولد وورثته أبواه . فقط فلأمه الثلث والباقي للأب ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس والباقي للأب ، ولا شيء للإخوة ، تعطى هذه الأنصبة لمستحقيها ، بعد أداء ما يكون عليه من دين وتفيدي ما وصى به ، هذا حكم الله فإنه عدل ورحمة ، وأنتم لا تدرون الأقرب لكم نفعا من الآباء والأبناء ، والخير فيما أمر الله ، فهو العليم بمصالحكم الحكيم فيما فرض لكم .

## المعنى العام للآية ١٢

للزوج نصف ما تركت الزوجة إن لم يكن لها ولد منه أو من غيره ، فإن كان لها ولد فلزوجها الربع ، من بعد وصية توصى بها أو دين ، وللزوجة - واحدة أو متعددة - الربع مما ترك الزوج إن لم يكن له منها أو من غيرها ولد ، فإن كان له ولد فللزوجة الثمن ، من بعد وصية يوصى بها أو دين ، وولد الابن كالولد فيما تقدم .

وإن كان الميت رجلاً أو امرأة ولا ولد له ولا والد ، وترك أخاً لأم أو أختاً لأم ، فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث يستوى في ذلك ذكرهم وأنثاهم بمقتضى الشركة ، من بعد أداء الديون التي عليه ، وتنفيذ الوصية التي لا تضر الورثة ، وهي التي لا تتجاوز ثلث الباقي بعد الدين ، فالزمو - أيها المؤمنون - ما وصاكم به الله ، فإنه عليم بمن جار أو عدل منكم ، حليم لا يعاجل الجائر بالعقوبة (٢١٩).

## الموارث في الإسلام :

نظام الموارث الذي بيّنه القرآن الكريم أعدل لنظام للتوريث عرف في كل القوانين ، وقد اعترف بذلك علماء القانون في أوروبا ، وهو دليل على أن القرآن من عند الله ، إذ إنه لم يكن مثله ولا قريب منه معروف عند الفرس ولا عند الرومان ، ولا في أي شريعة أخرى قبله .

## وقد اتبع النظم العادلة الآتية :

١ - أنه جعل التوريث بتظيم الشارع لا بإرادة المالك ، من غير أن يهمل هذه الإرادة ، فقد جعل له الوصية بالمعروف في الثلث ، ليتدارك الإنسان تقصيراً دينياً فاته ، مثل أداء الزكاة ، وإعانة الفقراء والمحتاجين من الأقارب الذين لا يستحقون ميراثاً .

٢ - في توزيع الميراث يعطى الأقرب فالأقرب من غير تفرقة بين صغير وكبير ، ولذلك كان الأولاد أكثر حظاً من غيرهم في الميراث ، لأنهم امتداد لشخص المالك ، ولأنهم في الغالب ضعاف ، ومع ذلك لم يستأثروا بالميراث ، بل تشاركهم الأم والجدة ، والأب والجد وإن كانوا يأخذون نصيباً أقل من الأولاد .

٣ - أنه يلاحظ في التوريث مقدار الحاجة ، فالأولاد مقبلون على الحياة ؛ لذلك كان نصيبهم أكبر ، والآباء مدبرون عنها ولذلك نصيبهم أقل .

٤ - اتجه الشارع في الميراث إلى توزيع التركة دون تجميعها ، فلم يجعلها للولد البكر ، ولم يجعلها للأولاد دون البنات ، ولا للأولاد دون الآباء ، ولم يحرم من لبسوا من عود النسب كالإخوة والأعمام وأبناء الأعمام وإن بعدوا ، فالميراث يمتد إلى ما يقارب القبيلة ولكن يأخذ الأقرب فالأقرب .

٥ - لم يحرم المرأة من الميراث كما كان يجري عند العرب ، بل جعل لها حقاً معلوماً يتناسب مع واجباتها ، فالمرأة إذا كانت بنتاً فهي في كفالة أبيها ، وإذا كانت زوجة فهي في كفالة زوجها ، وعلى زوجها النفقة عليها وعلى أولاده منها ، فكان من العدالة أن يكون الغنم بالغرم ، وأن يكون ميراث البنت على مقدار النصف تقريباً من نصيب الابن . وهذا من عدالة الإسلام فهو لم يحرم المرأة ، ولم يسو بينها وبين الرجل ، بل أعطاها النصف ،

وجعل لأخيها ضعف نصيبها ، لأن أخاها سيتزوج ويفتح بيتا وينفق على زوجته وأولاده ، أما هي فتدورها ونصيبها في أنها يجب لها المهر والنفقة والكسوة والسكنى ، وكل تكاليف الحياة لها ولأولادها فريضة على زوجها . قال تعالى : لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرْ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. ( المطلاق : ٧ ) .

#### المستحقون للتركة :

تحدثت هاتان الآيتان ١١ ، ١٢ من سورة النساء عن الميراث ونصيب كل وارث ، كما تحدثت الآية الأخيرة من سورة النساء عن ميراث الكلاله (٢٢٠) ، فإذا انضم إلى هذه الآيات الثلاث ، الأحاديث الواردة في الميراث أدركنا نصيب المستحقين للتركة ، وأصحاب الفروض وهم : الزوج ، والزوجة والبنت ، وبنات الابن ، والآب والجد الصحيح ، والأم ، والجدة الصحيحة ، والأخوات الشقيقات والأخوات لأب ، والجد مع الإخوة ، وأولاد الأم .

ومن المستحقين للتركة ، العصبية النسبية ، وهم كل من يأخذ ما بقى من التركة بعد إلحاق الفرائض بأهلها ، ويجوز جميع التركة عند الانفراد .

ومنهم العاصب بنفسه ، وهو كل ذكر لم يدخل في نسبته إلى الميت أنثى ، ولا يحتاج في عصوبته إلى غيره ، وهو منحصر في جهات أربع :

- ١ - جهة البنوة ، كالابن ، وابن الابن وإن نزل .
- ٢ - جهة الأبوة كالآب والجد وإن علا .
- ٣ - جهة الأخوة كالأخ الشقيق وابنه ، والأخ لأب وابنه .
- ٤ - جهة العمومة كعم الميت الشقيق ، وابنه ، وعمه لأب وابنه .

\* \* \*

#### أصحاب الفروض :

أصحاب الفروض كل من له سهم مقدر في كتاب الله أو سنة رسوله - ﷺ - أو بالإجماع ، وهم اثنا عشر : الزوجان ، واثان من الفروع : البنت وبنات الابن . وأربعة من الأصول : الأب والجد ، والأم والجدة . وأربعة من الحواشي وهم : الأخت الشقيقة أو لأب ، أو لأم ، والأخ لأم . وهذا بيان لتصيب كل وارث من هؤلاء .

#### ١ - الزوج :

للزوج حالان :

١ - أن يأخذ النصف وذلك عند عدم الفرع الوارث للزوجة مذكراً أو مؤنثاً من هذا الزوج أو من غيره . كالابن وابن الابن والبنت وبنات الابن .

٢ - أن يأخذ الربع عند وجود الفرع الوارث مذكراً أو مؤنثاً (٢٢١) .

## ٢ - الزوجة :

للزوجة حالان :

- ١ - أن تأخذ الربع ، وذلك عند عدم الفرع الوارث للزوج مذكرا أم مؤنثا ، من هذه الزوجة أم من غيرها .
- ٢ - أن تأخذ الثمن عند وجود الفرع الوارث مذكرا أم مؤنثا (٢٢٢).

## ٣ - البنات :

للبنات ثلاث حالات :

- ١ - أن يرثن بالتعصيب إذا كان معهن أخ مذكر واحد أو أكثر ، فتقسم بينهم التركة أو ما تبقى منها للذكر مثل حظ الأنثيين .
- ٢ - أن تأخذ الواحدة النصف إذا لم يكن معها أخ ولا أخت .
- ٣ - أن تأخذ الثلثان فأكثر الثلثين إذا لم يكن معهن أخ لهن (٢٢٣).

## ٤ - بنات الابن :

لبنات الابن ست حالات ، الثلاث التي للبنات عند عدم البنات والأبناء ويزاد عليها ما يأتي :

- ١ - أن تحجب بالبنين إلا إذا كان بحذائها أو أنزل منها غلام فإنه يعصبها وتأخذ معه ما بقى .
- ٢ - أن تحجب بكل غلام أعلى منها درجة ، فهبت الابن تحجب بالابن... وبنت ابن الابن تحجب بابن الابن وهكذا .

## ٥ - الأب (٢٢٤) :

للأب ثلاث حالات :

- ١ - أن يأخذ السدس بالقرض فقط ، وذلك عند وجود الفرع الوارث المذكر وإن نزل وحده أم مع غيره .
- ٢ - أن يأخذ السدس بالفرض ، ثم يأخذ بالتعصيب ما يبقى من أصحاب الفروض ، وذلك عند وجود الفرع الوارث المؤنث دون المذكر .
- ٣ - أن يرث بالتعصيب فقط ، وذلك إذا انعدم الفرع الوارث مذكرا أم مؤنثا ، والأب لا يحجب من الميراث بحال .

## ٦ - الجد الصحيح :

هو كل أصل مذكر لا تدخل في نسبته إلى الميراث كإبي الأب، وأبي أب الأب، فإن دخل في نسبته إلى الميت أنشأ كإبي الأم وأبي أم الأب، فهو الجد الفاسد، وهو من ذوى الأرحام .  
و الجد الصحيح كالأب عند عدم الأب.

٧- الأم (٢٣٥) :

للأم ثلاث حالات :

- ١ - أن تأخذ سدس التركة إذا كان للميت فرع وارث مذكر أو مؤنث ، أو كان له أكثر من واحد من الإخوة أو الأخوات من أى نوع .
- ٢ - أن تأخذ ثلث التركة إذ لم يكن للميت فرع وارث ، ولا أكثر من واحد من نفس الإخوة أو الأخوات ، لا من فروعهم .
- ٣ - أن تأخذ ثلث الباقي بعد نصيب أحد الزوجين ، إذا كان معها الأب وأحد الزوجين ، وليس معها فرع وارث ، ولا جمع من الإخوة والأخوات . .

٨- الجدة الصحيحة :

هى كل أصل مؤنث لا يدخل فى نسبته إلى الميت جد فاسد ، فإن دخل فى نسبته إلى الميت جد فاسد ، كام أبى الأم ، فهى الجدة الفاسدة ، وهى من ذوى الأرحام . وتأخذ الجدة السدس ، وتحجب بالأم ، سواء أكانت الجدة ابوية أم أمية وتحجب الأبوية بالأب .

٩- الأخوات الشقيقات :

للأخوات الشقيقات خمس حالات :

- ١ - أن تأخذ الواحدة النصف إذا انفردت .
- ٢ - أن تأخذ الثنتان فأكثر الثلثين عند عدم الأخ الشقيق .
- ٣ - أن يرثن بالتعصيب بالغير ، إذا كان مع الواحدة أو الأكثر أخ شقيق أو أكثر ، فتقسم بينهم التركة أو مابقى منها للذكر مثل حظ الأنثيين .
- ٤ - أن يرثن بالتعصيب مع الغير ، وذلك إذا كان مع الواحدة أو الأكثر بنت أو بنت ابن أو أكثر ، فلهن ما يبقى بعد أصحاب الفروض .
- ٥ - أن يحجبن بالفرض الوارث المذكر ، وهو الابن وإن نزل .

١٠- الأخوات لأب :

هن كالأخوات الشقيقات عند فقدهن بإجماع العلماء ، قياسا على بنات الأبناء مع بنات الصلب . فللأخوات لأب الأحوال الخمسة التى للشقيقات والأخ لأب معهن كالأخ الشقيق مع الشقيقات .

١١- أولاد الأم (٢٣٦) :

لأولاد الأم ثلاث حالات :

- ١ - أن يأخذ الواحد السدس إذا انفرد مذكرا كان أم مؤنثا .

- ٢ - أن يأخذ الاثنان فاكتر الثلث : يقسم بينهم بالتساوى ، سواء أكانوا ذكورا فقط أم إناثا أم ذكورا وإناثا .  
 ٣ - الحجب بالفرع الوارث مذكرا أم مؤنثا ، وبالأصل الوارث المذكر أبا أو جذاً ، ولا يحجبون بالأم وإن كانوا يدلون بها .

\* \* \*

#### مبادئ فى التورث :

نستطيع أن نستخلص من آيات الموارث المبادئ الآتية :

- ١ - مبنى التورث فى الإسلام أمران : نسبى وهو القرابة ، وسببى وهو الزوجية .  
 ٢ - متى اجتمع فى المستحقين ذكور وإناث ، أخذ الذكر ضعف الأنثى ، إلا فى الإخوة الأم ، فإنهم يستوون فى النصيب ، لأنهم يدلون إلى الميت بالأم . وهم سواء فى الانتساب إليها .  
 ٣ - الأبناء و الزوجان والأبوان لا يسقطون فى أصل الاستحقاق ، وإن كان يؤثر عليهم وجود غيرهم فى كمية المستحق .  
 ٤ - لا إرث للإخوة والأخوات مع وجود الأبوين ، وإن كانوا يحجبون الأم من الثلث إلى السدس ، لأن وجود عدد من الإخوة يقلل كاهل الأب . فاستحق زيادة فى الميراث لرعايتهم وكفالتهم .  
 ٥ - يجب تقديم حقوق الميت على تقسيم التركة ، قال تعالى : **مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ ذَيْنَ .** وقد تكررت فى الآيتين ١١ و ١٢ من سورة النساء أربع مرات لتنبية الأذهان إلى وجوب العناية بأمرين قبل تقسيم التركة .  
 الأول : أداء الديون التى على الميت .  
 الثانى : تنفيذ وصيته فى حدود ثلث ماله .

- ٦ - لا ينبغي للإنسان أن يمس إلى ورثته حين مشارفته الموت ، بالوصية لمن ليس محتاجاً إليها ، أو الإقرار بما ليس ثابتا عليه ، وورثته فى حاجة إليه ، يرشد إلى هذا قوله تعالى : **غَيْرَ مُضَارٍ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ .** وقوله : **وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ .** أى يوصيك الله أن تتفدوا أحكامه وأن تبعدوا عن الإضرار بالورثة ، أو حرمان البنات ، أو تفضيل بعض الأولاد على بعض ، أو منع بعض المعصبة من أخذ حقوقهم ، تحت ستار البيع والشراء ، أو تحت ستار الوصية أو الاعتراف بالديون .

وجدير بالمؤمن ألا يختم حياته بوزر عظيم ، يفرط بسببه فى تنفيذ الأحكام التى فرضها الله ، فאלله عليم حكيم فيما شرع ، وعلينا أن ننفذ أحكامه وأن نخضع لأوامره ، ففى ذلك عز الدنيا وشرف الآخرة .

★ ★ ★



﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝﴾  
 وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾

المفردات :

حدود الله : شرائعة وأحكامه ، وقد أطلق عليها الحدود لشبهها بالحدود والحواجز ، حيث إن المكلف لا يجوز أن يتعداها إلى غيرها .

التفسير :

١٣ - تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ... الآية

المعنى العام :

هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة ، بحسب قربهم من الميت ، واحتياجهم إليه ، هي حدود له فلا تعتدوها .

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . فلم يزد بعض الورثة ، ولم ينقص بعضهم بحيلة ووسيلة ، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته .

يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ . لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ، قال تعالى : لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ . ( الحجر : ٤٨ ) .

وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وهذا الجزاء هو الفوز الحقيقي البالغ العظمة ، فقد حصل صاحبه على أسنى المطالب ، ونجا من كل المكروه ، ولا فوز يدنو من ذلك الفوز .

١٤ - وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ .

ومن خالف أمر الله ، وبذل في حدود الموارث وغير ، فقد استهان بما فرض الله ، وجعل نفسه مشرعا ومقتنا ، ولم يرتض بحكم الله .

قال ابن كثير :

أى لكونه غير ما حكم الله به ، وضاد الله في حكمه ، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به ؛ ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى وحاف في وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعبدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » (٢٣٧) قال ثم يقول أبو هريرة : أقرأوا إن شئتم .

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .  
وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ .

★ ★ ★

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

المفردات :

الفاحشة : معناها لغة ، الفعلة الشديدة القبح ، والمراد منها هنا الزنى ، لأنه أقبى الفواحش .

فأمسكوهن : احبسوهن .

سبيلا : السبيل : الطريق الموصل ، سواء أكان سهلا أم صعبا .

التفسير :

١٥ - وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا

المعنى العام :

واللاتي يأتين الزنا من النساء إن شهد عليهن أربعة من الرجال العاقلين ، يمسكن في البيوت محافظة عليهن ، ودفعا للفساد والشر حتى يأتينهن الموت ، أو يفتح الله لهن طريقا للحياة المستقيمة بالزواج والتوبة .

التدرج في التشريع :

بدأ القرآن الكريم بدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فلما استقر الإيمان في القلوب تحدث القرآن المكي عن الزنا وضرره ، ومدح عباد الرحمن ببعدهم عنه ، وفي سورة الفرقان المكية يقول سبحانه :

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ

أثَامًا . ( الفرهان : ٦٨ ) .

وفى سورة الإسراء ، وهى من أواخر ما نزل بمكة ، إذ نزلت قبل الهجرة بسنة وشهرين ، يقول :  
وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا . ( الإسراء : ٣٢ ) .

والآية تنهى المؤمنين عن الاقتراب من الزنا ، وتأمريهم بالبعد عن مقدماته ، كالتقبل والمسة والخلوة بالأجنبية ، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وتبين أن الزنا فاحشة وذنب كبير ، يترتب عليه فساد الأنساب ، وهتك الأعراض واختلاط الذرية ، وانتشار الأمراض المؤذية الفتاكة ، وساء سبيلًا . أى ساء مآل الزنا وعاقبته فى الدنيا والآخرة .

وفى العهد المدنى حرم الله الزنا بتدرج مناسب ، ففى العام الثانى من الهجرة نزلت الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة النساء ، وفيهما نجد الزنا جريمة اجتماعية ، ويترك عقاب الزناة للأسرة التى تتكفل بحبس الزانيات ، وإيداء ومعاينة الرجال الزناة ، وفى العام السادس من الهجرة أنزل الله سورة النور ، وجعل فيها الزنا جريمة جنائية ، تتولى تنفيذ عقوبتها شرطة الدولة وحكومتها . حيث قال سبحانه : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ . ( النور : ٢ ) .

من مختصر ابن كثير :

كان الحكم فى ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة ، حبست فى بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت ، ولهذا قال . وَاللَّائِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ . يعنى الزنا . مِن نَّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا . فالسبيل الذى جعله الله هو النامخ لذلك .

قال ابن عباس - رضى الله عنه - كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم ، وهو أمر متفق عليه .

روى مسلم وأصحاب السنن عن عباد بن الصامت عن النبى - ﷺ - قال : « خذوا عني ، خذوا عني ، وقد جعل الله لهن سبيلا ، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » (٢٢٨) .

وقد ذهب الجمهور إلى أن الثيب الزانى إنما يرجم فقط من غير جلد ، قالوا لأن النبى - ﷺ - رجم معازرا والغامدية واليهوديين ، ولم يجلدهم قبل ذلك فدل على أن الجلد ليس بحتم ، بل هو منسوخ على قوله والله أعلم (٢٢٩) . وعند أبى حنيفة التغريب فى حق البكر منسوخ (٢٣٠) وأكثر أهل العلم على ثبوته (٢٣١) .

١٦ - وَالَّذِينَ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهُمَا بِمَا تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا .

## المعنى العام :

والرجل والمرأة اللذان يزنيان وهما غير متزوجين ، فلهما عقوبة محددة ، إذا ثبت الزنا بشهادة شهود أربعة عدول.

قال ابن عباس : عقوبتها الشتم والتعيير والضرب بالنعال أو باليد، أى مطلق الإيذاء المناسب لهما .  
فإن تابا بعد العقوبة فلا تذكروهما بما ارتكبا، ولا تعيروهما به ، إن الله يقبل برحمته توبة التائبين.

## التعليق على الآية:

اختلف العلماء فى المراد بقوله : وَاللَّذَانِ .

- فمنهم من قال : المراد بهما الرجل والمرأة البكران اللذان لم يحصنا .
- ومنهم من قال : المراد بهما الرجل والمرأة لا فرق بين بكر وثيب ، و المختار عند كثير من العلماء هو الرأى الأول .

قالوا : وقد نسخ حكم هذه الآية بآية النور ، حيث جعل حكم الزانين اللذين لم يحصنا جلد مائة.

ومن العلماء من قال : إن هذه الآية غير منسوخة بآية النور ، فإن العقوبة ذكرت هنا مجملة غير واضحة المقدار لأنها مجرد الإيذاء، وذكرت مفصلة بينة المقدار فى سورة النور ، أى أن ما ذكر هنا من قبيل المجل، وما ذكر فى سورة النور من قبيل المفصل ، وأنه لا نسخ بين الآيتين.

## رأى أبى مسلم الأصفهاني :

لأبى مسلم الأصفهاني رأى آخر فى تفسير هاتين الآيتين ، فهو يرى أن المراد بالآية ١٥ من سورة النساء . وَاللَّائِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ ... . إلى آخر الآية النساء السحافات اللاتى يستمتع بعضهن ببعض، وحدثهن الحبس.

والمراد بالآية ١٦ : وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا ... . الثلاثون من الرجال، وحدثهم الإيذاء، وأما حكم الزناة هسيأتى فى سورة النور.

وقد ردَّ عليه الألوسى ، وزيف قوله لأنه لم يقل به أحد (٣٣٢).

\* \* \*

ومن العلماء من رجح أن هذا الحكم المذكور فى الآيتين منسوخ بعضه بالكتاب فى سورة النور ، وبعضه بالسنة فى حديث عبادة بن الصامت فى صحيح مسلم (٣٣٣).

ورجح أبو الأعلى المودودى فى تفسير سورة النور أنه لا نسخ فى هذه الآيات وأنها تمثل مرحلة معينة من باب التدرج فى التشريع.

فالزنا فى مكة لم يكن عليه عقوبة ، بل بين الله أنه فاحشة ونهى عن الاقتراب منه ، ولم يشرع أى عقوبة عليه .

وفى العام الثانى من الهجرة ، بين أن الزنا مخالفة اجتماعية ، والأسرة هى المسئولة عن علاج هذه الحالة بالحبس أو الإيذاء . كما نجده فى الآية ١٥ ، ١٦ من سورة النساء .

فلما استقر الإسلام واشتدت دولته وحكومته ، جعل الله عقوبة الزانى الجلد وجعل الزنا جريمة جنائية تتولى عقوبتها شرطة الدولة وحكومتها . وكان ذلك فى العام السادس من الهجرة . والله اعلم .

★ ★ ★

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ۖ أَفَنُفَّسُ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۖ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٨﴾

المفردات :

السوء : القبح ، والمراد المعاصى مطلقاً .

بجهالة : الجهالة : الجهل والسفَه وارْتكاب ما لا يليق بالعقلاء ، وليس المراد عدم العلم فإن من لا يعلم ، لا يحتاج إلى التوبة ، وقال الزجاج : الجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية .

التفسير :

١٧ - إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .

المعنى العام :

إنما قبول التوبة كائن أو مستقر على الله - تعالى - لعباده الذين يعملون السيئات فى حال الحماقة والبطش وعدم التبصر ، ثم يبادرون بالتوبة قبل حضور الموت ، فهؤلاء يقبل الله توبتهم ، وهو عليم لا يخفى عليه صدق التوبة ، حكيم لا يخطئ فى تقدير .

التوبة فى القرآن والسنة :

فتح الله باب التوبة على مصراعيه ، ودعا عباده إلى التوبة وتعهده بقبولها من التائبين ، وذلك أن كل بنى آدم خطأ ، وخير الخطائين التوابون .

ولم يجعل الله وسطاء بينه وبين عبادہ، فقد خلقهم ورزقهم وهو أعلم بهم ، وفى القرآن الكريم آيات عديدة تحت على التوبة وتدعو إليها ، وتبين فضل الله العظيم فى قبولها .

قال تعالى : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . ( الزمر : ٥٣ ) .

وقال سبحانه : وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . ( آل عمران : ١٣٥ ) .

وقال عز شأنه : الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رِبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةُ فِي بَطُونٍ أَمْهَاتِكُمْ فَلَا تَزْكُرُوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى . ( النجم : ٣٢ ) .

وفى الحديث الصحيح : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فينادى : يا عبادى ، هل من داع فاستجب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب فاتوب عليه ؟ حتى يطلع الفجر... » .

وروى الإمام أحمد فى مسنده أن رسول الله - ﷺ - قال : يقول الله عز وجل : « يا عبادى ، إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى ، كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى إنكم تضلون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم ... » (٣٣٤) .

\* \* \*

التوبة من قريب :

قال تعالى :

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ (٣٣٥) .

ومعنى : ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ . أى ثم يتوبون فى زمن قريب من وقت عمل السوء، ولا يسترسلون فى الشر استرسالاً ويستمرئونه، ويتعودون عليه دون مبالاة .

ولا شك أنه متى جدد الإنسان توبته الصادقة فى أعقاب ارتكابه للمعصية، كان ذلك أرحى لقبولها عند الله - تعالى - وهذا ما يفيداه ظاهر الآية .

ومنهم من فسر قوله : مِن قَرِيبٍ . بما قبل حضور الموت ، وإلى هذا المعنى ذهب صاحب الكشاف، فقال : « من قريب » أى من زمان قريب ، والزمان القريب : ما قبل حضرة الموت ، ألا ترى إلى قوله : « حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن .. » فبين أن وقت الاحتضار هو الوقت الذى لا تقبل فيه التوبة ، فبقى ما وراء ذلك فى حكم القريب .

وجاء في تفسير ابن كثير ، ما يفيد أن التوبة من قريب أى قبل الموت ، ونقل من الآثار والأحاديث النبوية الشريفة ما يؤيد ذلك . فقال عن ابن عباس : **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** قال : ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت .

وقال الضحاك : ما كان دون الموت فهو قريب .

وقال قتادة والسدى : ما دام فى صحته .

وقال الحسن البصرى : **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** . ما لم يفرغر (٣٣١) .

روى الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبى - ﷺ - قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغر » .

١٨ - وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَفَارٌ أَوْ لَكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

#### المعنى العام :

وليست التوبة مقبولة عند الله بالنسبة للذين يعملون السيئات، ويقترفون المعاصي، ويستمررون على ذلك، بدون أن يستيقظ ضميرهم أو يشعرون بالندم، إلى أن ينزل بهم الموت فيقول أحدهم : إنى أعلن التوبة الآن .

كما لا تقبل التوبة من الذين يموتون على الكفر، وقد أعد الله للفريقين عذابا ألينا .

\* \* \*

#### فى رحاب الآية :

نفس الآية قبول التوبة من فريقين :

١ - الذين يرتكبون السيئات صغیرها وكبیرها ، ويستمررون على ذلك بدون توب أو ندم ، حتى إذا حضرهم الموت ورأوا هوله قال قائلهم : إنى تبث الآن .

٢ - الذين يموتون وهم على غير دين الإسلام .

وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم لدعوة الناس إلى التوبة فى الحياة الدنيا ، وإلى العمل الصالح ، والإنسان يملك الوقت والصحة والحياة والقدرة على العمل .

قال تعالى : وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدُقْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ \* وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . ( المنافقون : ١٠ ، ١١ ) .

وحين أدرك الغرق فرعون أعلن توبته مضطراً عندما رأى شبح الموت ، وهى توبة غير حقيقية لأن الإنسان لا يملك بديلاً لها .

قال تعالى : وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ \* الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتُ قَبْلُ وَكُنْتُ مِنَ الْمُفْسِدِينَ \* فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ . (يونس : ٩٠-٩٢) .

وقد سئل رسول الله ﷺ - أى الصدقة أفضل ؟ فقال : أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الروح (٣٣٨) . الحلقوم قلت : لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد صار المال إلى فلان (٣٣٩) .

★ ★ ★

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (١٩)

المفردات :

كرها : مكروهين بدون رضاهن .

ولا تعضلوهن : العضل : المنع والحبس والتضييق .

بفاحشة : كل ما فحش قبحه قولاً أو فعلاً، والمراد بها هنا : نحو الزنا والنشوز .

مبينة : واضحة ظاهرة .

التفسير :

١٩ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ..

هيم بمدم من - ياب . بطل الله - سبحانه - عادات كانت للجاهلية ، فى شأن اليتامى وأموالهم . وميراث النساء . واستطرد الحديث ، إلى وجوب الحفاظ على عفتهم وتاديبهم ، إن ارتكبن الفاحشة ، استكمالا لعناصر إصلاح الأسرة .

وفى هذه الآية ، ينهى عن عادات جاهلية أخرى ، تتعلق بالنساء فى أنفسهن وأموالهن .



## سبب النزول :

روى البخارى ، عن ابن عباس ، قال : « كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بأمراته : إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها . فهم أحق بها من أهلها » فنزلت هذه الآية (٢٤٠).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ .

أى : لا يحل لكم - أيها المؤمنون - أن تراثوا من أقاربكم زوجاتهم بعد وفاتهم، كما تورث الأموال والمقارات. ويتقولا : نرثهن كما نرث أموالهن.

كُرْهًا . كارهات لذلك، بأن تتزوجوهن أو تزوجوهن من غيركم، بدون رضاهن، أو تمنعهن من الزواج. كأنما تتصرفون فى أموال ورثتموها ، فإن ما كان من أفعال الجاهلية المنكرة ، لا يليق بكم - أيها المؤمنون .

وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ . أى ولا تضيعوا - أيها الأزواج - على زوجاتكم اللاتى كرهتموهن لدماثة أو سامة ومال، وتحبسوهن لديكم ، مع سوء العشرة، ليفتدين أنفسهن منكم ببعض صداقكم لهن، فتأخذوهن منهن بدون رضاهن.

إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ . أى إلا أن يرتكبن فعلة واضحة القبح ، ظاهرة الشناعة تجعلها - وحدها - المسئولة عن هدم الحياة الزوجية : كالزنا أو النشوز. وعندئذ ، يكون من العدل أن يأخذ الزوج المظلوم بعض ما آداء لها صداقًا ليخالفها عليه ، إذ هى التى هدمت بيته بظلمها وعدوانها.

وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . أى بما عرف فى الشرع حسنه ، من الإنفاق قدر طاقتكم، من غير إسراف، ومن القسم بالعدل، والقول اللين ، وانمساطة الوجه، لتعيشوا سعداء.

فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ . وستتم عشرتهن لدمايتهن، أو سوء فى خلقهن يمكن احتماله ، فلا تفارقوهن بمجرد كراهة النفس، وذهاب الحب، واصبروا على معاشرتهم قَسَمًا أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا . فلعلكم تكرهون شيئاً بحكم النفس والهوى، ويجعل الله - تعالى - فيه خيراً كثيراً : دنيوياً كان أو آخروياً، وأنتم لا تعلمون ذلك الخير ولا تدركونه، بسبب كراهتكم لهن. فاحسنوا إليهن وعاشروهن بالمعروف ، لتروا ثمرة ذلك ، فإن المعروف يستعقب الخير دائماً.

﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتِدَالَ زَوْجَ مَكَانٍ زَوْجٍ وَأَتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

المضردات :

قِنْطَارًا : هو مائة رطل كما في القاموس والعرف، والمراد منه الشيء الكثير.

بُهْتَانًا

: البهتان: الكذب الذى يواجه به المكذوب عليه فيحيره، والمراد به هنا الظلم الذى يتحير من ارتكابه.

أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ : الإفضاء إلى الشيء : الوصول إليه بالملازمة . والمراد به هنا الاتصال الجنسي، أو ما يكون بين الزوجين فى خلوة .

ميثاقًا غليظًا

: عهدًا وثيقًا قويًا .

التفسير :

٢٠ - وَأِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتِدَالَ زَوْجَ مَكَانٍ زَوْجٍ ... الآية

كان الرجل فى الجاهلية إذا أراد التزوج بامرأة أخرى ، بهت التى تحته - أى رماها بالفاحشة التى هى منها بريئة - حتى يلجئها إلى أن تطلب طلاقها منه فى نظير أن تفتدى نفسها بصداقها أو ببعضه (٢١). فنهوا عن ذلك .

ومعنى الآية :

إذا رغبت تَزُوجَ امرأة ترغبون فيها لتقوم مكان زوجة سابقة رغبتم فى طلاقها وفراقها، وكنتم قد أعطيتهم هذه الزوجة التى ترغبون فى فراقها مهرا كبيرا ومالا كثيرا فلا يحل لكم أن تأخذوا منه شيئا، تأخذونه على وجه البطلان والإثم المبين.

تعليق :

تحت الآية على الفراق بالمعروف ، وهى تستكمل عدة تشريعات سماوية أنزلها الله بشأن المرأة.

فقد أحل الله لها الميراث، وجعل لها نصيبًا مفروضًا، وأحل الله لها الصداق وجعله حقًا ثابتًا، وأمر بحسن معاملتها، وعشرتها بالمعروف ، ونهى عن المسارعة إلى الطلاق، ووعد الصابر على زوجته بالخير وحسن العوض. وهنا يتوج هذه الوصاية بتأكيد أن المهر حق ثابت للمرأة، لا يجوز لرجل أن يسترده، إذا كره زوجته أو رغب فى فراقها، بل ينبغى أن يفارق بالمعروف ولا يأخذ من الصداق قليلًا ولا كثيرًا، فقد عاشرها عشرة الأزواج، واستحل منها ما أحله الله بين الزوجين ، فكيف يبيع لنفسه أن يأخذ مالا بالبهتان والإثم ؟!

قال صاحب الكشف : والبهتان أن تستقبل الرجل بأمر قبيح تنقذه به وهو برى منه ، لأنه يبهت عند ذلك - أى يتحير .

٢١ - وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا

والمعنى : بأى وجه من الوجوه تستحلون - يا معشر الرجال - أن تأخذوا شيئاً من الصداق الذى أعطيتموه لنسائكم عند مفارقتهن ، والحال أنكم قد اختلط بضعكم ببعض ، وصار كل واحد منكم لباساً لصاحبه ، وأخذن منكم عهداً وثيقاً مؤكداً لا يحل لكم أن تنقضوه أو تخالفوه .

وفى الحديث الشريف : « استوصوا بالنساء خيراً ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحلتم فروجهن بكلمة الله » (٢٤٢) .

#### التعبير بكلمة أفضى :

قال الفخر الرازى ، وأصل أفضى من الفضاء الذى هو السعة ، يقال فضا يقضو فضاء وفضاء إذا اتسع والمراد بالإفضاء هنا : الوصول والمخالطة ، لأن الوصول إلى الشيء قطع للفضاء الذى بين المتواصلين .

وجاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

ويدع أفضى بلا مفعول ، يدع اللفظ مطلقاً ، يشع كل معانيه ويلتقى كل ظلاله ، ولا يقف عند حدود الجسد ، بل يشمل العواطف والمشاعر والوجدانات والتصورات ، والتجاوب فى كل صورة من صور التجاوب ، يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار .. وفى كل اختلاجة حب إفضاء وفى كل نظرة ود إفضاء ، وفى كل لمسة جسم إفضاء ، وفى كل اشتراك فى ألم وأمل إفضاء ، وفى كل تفكير فى حاضر أو مستقبل إفضاء ، وفى كل لقاء فى طفل إفضاء (٢٤٣) .

كل هذه المعانى تجعل الرجل يخجل أن يسترد بعض ما دفع لزوجته وهو يستعرض فى خياله وفى وجدانه ذلك الحشد من صور الماضى فى لحظة الفراق الرهيب .

ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :

١ - أن الرجل إذا فارق امرأته فلا يحل له أن يأخذ منها شيئاً ما دام الفراق بسببه ومن جانبه ، كما أنه لا ينبغي أن يأخذ منها أكثر مما أعطاهما إذا كان الفراق بسببها ومن جانبها .

٢ - اتفق العلماء على أن المهر يستقر بالوطء ، واختلفوا فى استقراره بالخلوة المجردة ، قال الحنفية : إذا خلا بها خلوة صحيحة يجب كمال المهر والمدة دخل بها أو لم يدخل ، وقال مالك : إذا طال مكثه معها السنة ونحوها ، واتفقا أن لا ميسيس ، وطلبت المهر كله كان لها (٢٤٤) .

٣ - جواز الإصداق بالمال الكثير ، لأن الله قال : وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِطَارًا . والقنطار المال الكثير .

روى أن عمر - رضى الله عنه - قال على المنبر : لا تغالوا فى المهور ، فقامت إليه امرأة فقالت : يابن الخطاب ، الله يعطينا وأنت تمنع ، وقرأت هذه الآية . فقال عمر : كل الناس أفقه من عمر ، ورجع عن النهى فى المغالاة (٢٤٥) .

ومن العلماء من يبين أن الذى رجع عنه عمر هو إلزام الناس بعدم المغالاة .

والآية المذكورة ، وإن كانت تقيد جواز الإصداق بالمال الجزيل ، إلا أن الأفضل عدم المغالاة فى ذلك ، مع مراعاة أحوال الناس من حيث الغنى والفقر وغيرهما .

وقد ورد ما يفيد التندب إلى التيسير فى المهور ، فقد أخرج أبو داود ، والحاكم من حديث عقبة بن عامر قال : قال رسول الله - ﷺ - « خير الصداق أيسره » (٢٤٦) .

وروى الإمام أحمد فى مسنده أن رسول الله ﷺ قال : « أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة » (٢٤٧) .

★ ★ ★

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَالنِّسَاءُ الَّتِي أَزْوَجْتُمُ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمُ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلِيلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٢٣)

المفردات :

سلف

: مضى وتقدم .

فاحشة

: فعلة شديدة القبح .

|                                 |                                                      |
|---------------------------------|------------------------------------------------------|
| مقتا                            | : بغضا شديدا .                                       |
| وساء سبيلا                      | : وفيح طريقا .                                       |
| وربائبكم                        | : جمع ربيبة وهى بنت امرأة الرجل من غيره .            |
| فى حجوركم                       | : الحجر : الحصن . والمراد فى كفالتكم وتحت رعايتكم .  |
| وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم | : زوجات أبنائكم . وسمت الزوجة حليلة ، لحملها للزوج . |

التفسير :

٢٢ - وَلَا تَكُونُوا مِمَّنْ يَنْهَوْنَ عَنْ نِكَاحِ آبَائِكُمِ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا .

روى ابن أبى حاتم عن عدى بن ثابت عن رجل من الأنصار ، قال : لما توفى زيد أبو قيس - يعنى ابن الأسلت - وكان من صالحى الأنصار ، خطب ابنه قيس امرأته فقالت : إنما أعدك ولدا وأنت من صالحى قومك ولكنى أتى رسول الله - ﷺ - فقالت : إن أبا قيس توفى ، فقال : « خيرا » ، ثم قالت : إن ابنه قيسا خطبني وهو من صالحى قومه ، وإنما كنت أعده ولدا فما ترى ؟ فقال لها : « ارجعى بيتك » فأنزل الله تعالى قوله (٢١٨) . وَلَا تَكُونُوا مِمَّنْ يَنْهَوْنَ عَنْ نِكَاحِ آبَائِكُمِ مِنَ النِّسَاءِ .

وذكر الواحدى وغيره أنها نزلت فى الأسود بن خلف ، كما ذكروا أنها نزلت فى صفوان بن أمية وامرأة أبيه فاختة بنت الأسود .

ويجمع بين هذه الروايات بتعدد الأسباب والمنزل واحد . قال القرطبى : كان فى العرب قبائل قد اعتادت أن يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه ، وكانت هذه السيرة فى الأنصار لازمة ، وكانت فى قريش مباحة مع التراضى .. إلخ .

قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين ، وهكذا قال عطاء وقتادة (٢١٩) .

المعنى :

لا تتزوجوا من تزوج آبائكم من النساء لأنه من أفعال الجاهلية القبيحة ، لكن ما قد مضى وسبق من هذا الزواج فإنه معفو عنه ، فمن كان متزوجا من امرأة كانت زوجة لأبيه من النسب أو من الرضاع فإنها تصير حراما عليه من وقت نزول هذا الآية ، ويجب عليه أن يفارقها ، فإنها أصبحت محرمة عليه .

إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا .

الفاحشة أقبح المعاصى ، والمقت أشد البغض ، وكانوا يسمونه نكاح المقت لأنه أمر معقوت بغيض .

وساء سبيلا . أى وبئس طريقا لمن سلكه من الناس ، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه فيقتل ويصير ماله هبة لبيت المال .

والحكمة من تحريم نكاح زوجة الأب ما يأتي :

- ١ - أن امرأة الأب في منزلة الأم .
  - ٢ - ألا يخلف الابن أباه فيصبح أبوه في خياله ندا له ، وكثيرا ما يكره الزوج زوج امراته الأول فطرة وطبعًا .
  - ٣ - ألا تكون هناك شبهة الإرث لزوجة الأب .
- لهذا حرم الله نكاح زوجة الأب .
- لهذا حرم الله نكاح زوجة الأب أشد التحريم ، وشنع على فعله وجعله كالزنا أو أشد .

قال تعالى : وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا . ( الإسراء : ٣٢ ) . وزاد هنا كلمة ومقتًا . أى غضبا من الله على فاعله فقال سبحانه : وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا .

٢٣ - حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي جُحُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

المعنى الإجمالى :

حرم الله عليكم أن تتزوجوا أمهاتكم ، وبَنَاتِكُمْ ، وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم ، وبَنَاتُ الْأَخِ ، وبَنَاتُ الْأُخْتِ ، والمحرمات لغير النسب : أمهات الرضاعة ، والأخوات من الرضاعة ، وأمّهات الزوجات ، وبَنَاتُ الزَّوْجَاتِ من غير الأزواج إذا دخل بهن ، وزوجات أبناء الصلب ، والجمع بين الأختين ، وما سلف فى الجاهلية فإنه معفو عنه ، إن الله غفور لما سلف قبل هذا التحريم ، رحيم بكم فيما شرع لكم .

### حكمة التحريم

يحاول العلماء التماس الحكمة من تحريم نكاح الأقارب عن طريق الاجتهاد ، واستنباط حكمة التحريم للأمور الآتية :

١ - يقال : إن الزواج من الأقربين فى الدم يضىو الذرية ويضعفها مع امتداد الزمن ، لأن مواضع الضعف الوراثية قد تتركز وتتاصل فى الذرية .

٢ - العلاقة بين الإنسان وبعض هذه الطبقات المحرمات علاقة قوية مؤكدة لأنها علاقة القرابة القريبة التى تكون بين الإنسان وأمّهاته أو أخواته أو عماته أو خالاته ، فبين الإنسان وبينهن علاقة رعاية وعطف واحترام

وتوقير، فلا يصح أن تتعرض هذه العلاقة القوية إلى بعض هزات الزواج ، فإن الزواج أحياناً يصاب بالفشل أو الضعف أو الطلاق أو النزاع، وهى أمور ينبغى أن تحفظ هذه القرابة القريبة من التعرض لها .

٣ - الفطرة الإنسانية السليمة تأبى أن يتصل ذو القرابة القريبة من الرجال أو النساء اتصال شهوة ومتمعة جنسية، وترى ذلك أشبه بتمتع الإنسان بنفسه لما بينه وبين إقاربه الأقربين من قوة الارتباط، وكثرة الاختلاط، ولهذا كان أكثر المحرمات فى الإسلام محرماً فى الجاهلية (٢٥٠).

٤ - قد يلحق القرابة القريبة ما يماثلها فى قوة الاتصال ، واستحقاق الاحترام والترفع عن المطامع الجنسية، كقرابة الرضاع، فإن اشتراك المرضع مع الأم فى بناء بنية الرضيع ، وإطلاعه منه على مثل ما اطلعت، جعلها أما بعد الأم ، وينتها أختاً بعد الأخت، وأما جدة بعد الجدة ، وهكذا . ولاشك فى أن التمتع بهؤلاء كالتمتع بنظائره من القربيات الصليبات تمجه الفطر السليمة .

### المحرمات من النساء

اشتملت هذه الآية وحدها على تحريم ثلاثة عشر نوعاً من المحرمات ببيانها كالاتى :

سبع يحرم نكاحهن من النسب أى القرابة - وهن الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت.

وست أخريات يحرم نكاحهن من الرضاعة والمصاهرة وهن : الأمهات من الرضاعة ، والأخوات من الرضاعة، وأمهات الزوجات، وبناتهن، وحلائل الأبناء ، والجمع بين الأختين .

ويتضح لنا أن المحرمات بالنسب أربعة أصناف :

١ - الأصل وإن علا، والمراد به الأم وأما وإن علت . وأم الأب والجد كذلك ، قال تعالى : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ .

٢ - الفرع وإن نزل، والمراد به البنت وما تتاسل منها وبنت الابن وإن نزل ، وما تتاسل منها : وَبَنَاتُكُمْ .

٣ - فرع الأبوين وإن نزل وهو الأخوات مطلقاً وبناتهن وبنات أبنائهن وإن نزلن وبنات الأخوة، وبنات أبنائهن كذلك : وَآخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ .

٤ - أول بطن فقط من فروع الجد والجدة ، والمراد به العمات والخالات. قال تعالى : وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ .

أما بنات العمات والخالات ، وبنات الأعمام والأخوال وفروعهن فمحلات لعدم ذكرهن فى المحرمات ، ودخولهن بذلك فى قوله تعالى : وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا رَأَىٰ ذَلِكُمْ وَلَقَوْلُهُ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي

أَتَيْتُ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ بِمِثْلِكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَبَنَاتُ عِمَّاكَ وَبَنَاتُ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتُ خَالَكِ وَبَنَاتُ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ . ( الأحزاب : ٥٠ ) .

### المحرمات بالمصاهرة

يحرم بالمصاهرة أربعة أصناف:

١ - زوجة الأصل والمراد بها زوجة الأب والجد وإن علا ، قال تعالى : وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ .

٢ - زوجة الفرع ، والمراد بها زوجة الابن وابن الابن أو البنت وإن نزل ، قال تعالى : وَحَلَائِلُ أَبْنَانِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ .

٣ - أصول الزوجة ، وهي أمها وأم أبيها وإن علت ، وتحرم بمجرد العقد الصحيح لإطلاق النص في قوله تعالى : وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ .

٤ - فروع الزوجة ، وبه بنتها وبنت بنتها أو ابنها وإن نزلت ، والآية دالة على حرمة الريبيبة ، أما من عداها من فروع الزوجة فحُرمت بالإجماع ، ولا خفاء في دلالة الآية على اشتراط الدخول على الزوجة لتحريم بنتها ، قال تعالى : وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ .

وفي كتب الفقه نجد هذه القاعدة : العقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات .

### المحرمات بالرضاع

يحرم بالرضاع أربعة الأنواع التي تحرم بالنسب وهي :

١ - الأصل الرضاعي وإن علا ، وهو الأم التي أرضعت وأمها نسبا أو رضاعا وإن علت ، وأم الأب والجد الرضاعيين .

٢ - الفرع الرضاعي وإن نزل ، وهو البنت التي رضعت لبنًا در من أمراثك لولدك الصلبي وبنتها وإن نزلت وابنها كذلك .

٣ - فرع الأبوين الرضاعيين ، وهو الأخوات من الرضاع شقيقات أو لأب أو لأم ، وبناتهن إن نزلن ، وبنات الإخوة من الرضاع كذلك .

٤ - أول بطن من فروع الجد والجددة الرضاعيين وهو العمات والخالات .

روى الإمام أحمد في مسنده والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه أن رسول الله - ﷺ - قال: « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » (٢٥١).



### مقدار الرضاع المحرم

الرضاع المحرم : يكون بوصول لبن المرأة إلى الجوف ، مصا من الثدي أو شربا من نحو إناء أو مطبوخا .  
ورضعة واحدة تكفى في التحريم عند أكثر العلماء .

ولا تحريم عند الشافعى إلا بخمس رضعات متفرقات لحديث ثبت عنده بذلك ، وقد رواه مسلم وغيره عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا تحرم المصاة ولا المصتان » (٢٥٢) وفى رواية عنها أنه قال : « لا تحرم الرضعة والرضعتان ، والمصاة والمصتان » (٢٥٣) ، ثم ليعلم أنه لابد أن تكون الرضاعة فى سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور . واعتبر أبو حنيفة فى إثبات حكم الرضاع ستة أشهر بعد الحولين ، واعتبر مالك بعد الحولين - شهرا أو نحوه .

### الجمع بين الأختين

يحرم على الرجل أن يجمع بين أختين فى النكاح، فلا يتزوج الرجل امرأة، ثم يضم إليها أختها بطريق الزواج، وهذا بإجماع العلماء ، قال تعالى : وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

قال ابن كثير : والمعنى : وحرم الله عليكم الجمع بين الأختين معا فى التزويج، إلا ما كان منكم فى جاهليتكم فقد عفونا عنه وغفرنا له، فدل أنه لا مشوية فيما يستقبل لأنه استثنى ما سلف .. وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديما وحديثا على أنه يحرم الجمع بين الأختين فى النكاح بومن أسلم وتحتة أختان خير فيمسك إحداهما ويطلق الأخرى لا محالة ، فقد روى الإمام أحمد عن الضحاك بن فيروز عن أبيه قال : أسلمت وعندى امرأتان أختان، فأمرنى النبى - ﷺ - أن أطلق إحداهما (٢٥٤) .

وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين فى الوطء كما لا يحل فى النكاح . وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ . إلى آخر الآية النكاح وملك اليمين فى هؤلاء كلهن سواء (٢٥٥) .

### الجمع بين المرأة وعمتها

كما يحرم الجمع بين الأختين فى عصمة رجل واحد ، كذلك يحرم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها أو ابنة أخيها أو ابنة أختها لنهى النبى - ﷺ - عن ذلك ، فقد جاء فى صحيح مسلم وفى سنن أبى داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ، ولا على ابنة أخيها ، ولا على ابنة أختها » (٢٥٦) .

وفى رواية للطبرانى أنه قال : « فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » .

وأنشر في تحريم هذا النوع من النكاح أنه يؤدي إلى تقطيع الأرحام إذ من شأن الضرائر أن يكون بينهن من المناخسة والكيد وتبادل الأذى ما هو مشاهد ومعلوم ، فكان من رحمة الله بعباده أن حرم عليهم هذه الأنواع من الأنكحة صيانة للأسرة من التمزق والصراع وحماية لها من الضعف والوهن وسموا بها عن مواطن الريبة والغيرة والفساد ، وأن عفا - سبحانه - عما حدث من هذه الأنكحة الفاسدة في الجاهلية لأنه - كان وما زال غفارا للذنوب ستارا للعيوب رحيمًا بعباده ومن رحمته بهم أنه لا يعذبهم من غير نذير ، ولا يواخذهم على ما اكتسبوا إلا بعد بيان واضح .

\* \* \*

إن هذا التشريع الإلهي ، صمام الأمان لحماية الأسرة والنهوض بالمرأة والرجل على السواء ، وفي هذا التشريع ما يدل حقا على أنه من عند الله الحكيم العليم . فأتى لمحمد الأُمى بمثل هذا التشريع المتكامل في شئون اليتامى ، وفي شئون الميراث ، وفي شئون الأسرة ، وفي شئون المحرمات ، وفي سائر أحكام العبادات والمعاملات ، إلا أن يكون من عند الله .

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا . ( النساء : ٨٢ ) .

لقد حرم الله في آية تالية وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ . أي حرم ذوات الأزواج من النساء في الآية ٢٤ .

وعقب الله على تشريع هذه الأحكام بقوله سبحانه : يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ \* وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا \* يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا . ( النساء : ٣٦-٣٨ ) .

\* \* \*

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

الحمد لله حمدا كثيرا ، وطيبا طاهرا مباركا فيه كما يرضى رينا ويحب ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

\* \* \*

تم بحمد الله تفسير الجزء الرابع فجر السبت ١٢ يناير سنة ١٩٨٣ .

ويليه تفسير الجزء الخامس إن شاء الله .

**والله ولي التوفيق**

★ ★ ★

**تخريج أحاديث وهوامش**  
**تفسير القرآن الكريم**  
( الجزء الرابع )

خرُج أحاديثه

الأستاذ

كمال سعيد فهمي

- (١) تفسير غرائب القرآن وغرائب الفرقان للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري : ٥/٤ بهامش تفسير الطبري .  
الطبعة الأولى بمطبعة بولاق سنة ١٣٣٥ هـ .
- (٢) النسخ في اللغة الإزالة ، تقول نسخت الشمس الأثر إذا أزالته ، وفي الشرع : رفع الشارع حكم النص بعد أن يكون ثابتاً ، وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم مهيمنة على ما سبقها ونسخها لها . وقد أنكر اليهود النسخ في الأحكام وقد رد عليهم القرآن وأبطل حجتهم .
- (٣) أي أن بعض الأطعمة والطبائيات كانت حلالاً لليهود ثم حرم الله عليهم بعض الأطعمة عقوبة لهم لأنهم شغب غليظ الرقبة أي متكبر عن تنفيذ أحكام الله . وتحريم الحلال على اليهود نسخ للأحكام السابقة .
- (٤) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري : ٦/٤ .
- (٥) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، الحزب السابع ، ص ٦٢١ .
- (٦) أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة  
رواه أحمد في مسنده ج ٢٣٨٤ ، عن شهر . ابن حوشب . عن ابن عباس . قلت : وشهر بن حوشب هذا فيه مقال .
- (٧) تفسير الطبري : ٥/٤ ، طبعة بولاق . الطبعة الأولى ، ١٣٣٥ هـ .
- (٨) البحيرة : كان أهل الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر يحرروا أذنفاً أي شقوها وخلوا سبيلها فلا تترك ولا تحمل ، وكان الرجل يقول إن شفتي فتافتي سائبة ويحملها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها .
- (٩) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري : ٨/٤ .
- (١٠) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري : ١١/٤ ، ينصرف .
- (١١) المسجد الحرام  
رواه البخاري في أحاديث الأنبياء ج ٣١١٥ ، ٣١٧٢ ، ومسلم في المساجد ج ٨٠٩ ، والنسائي في المساجد ج ٦٨٣ ، وأحمد ج ٢٠٤٩٥ ، من حديث أبي ذر الغفاري ، واللفظ لمسلم .
- (١٢) انظر تفسير المنار ٦/٤ ، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، حزب ٧ ص ٦٢٤ ، وتفسير سورة آل عمران للدكتور محمد سيد طنطاوي . ص ٢٤٢ .
- (١٣) تفسير المنار : ٧/٤ .
- (١٤) تفسير الفخر الرازي : ١٥١/٨ .
- (١٥) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي ص ٢٤٢ .
- (١٦) تفسير الفخر الرازي : ١٥١/٨ .
- (١٧) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي ص ٢٤٢ .
- (١٨) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري مطبعة بولاق : ١٢/٤ .
- (١٩) صلاة في مسجدي هذا  
البخاري في فضائل الصلاة (١١٩٠) ، ومسلم في الحج (٥٠٦/١٣٩٤) ، والترمذي في الصلاة (٣٢٥) وقال : « حديث حسن صحيح » ، والنسائي في المساجد (٦٩٤) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١١٠٤) ، كلهم عن أبي هريرة وأنظر تفسير النيسابوري : ١٢/٤ - ١٣ .
- (٢٠) تفسير المنار : ٧/٤ .
- (٢١) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري : ١٣/٤ .

- (٢٢) كبر وأسن
- (٢٣) قيلة : هي قيلة بنت كاهل بن عنزة وهي أم الأوس والخزرج .
- (٢٤) تفسير الطبري : ١٦/٤ . والنيسابوري : ٢٢/٤ . وأسباب النزول للواحدي : ٦٦ - ٦٧ .
- (٢٥) تفسير الطبري : ١٩/٤ . وقد استشهد بعدد من أبيات الشعر لتأييد المعنى .
- (٢٦) تفسير الطبري : ١٨/٤ .
- (٢٧) تفسير النيسابوري : ٢٧/٤ .
- (٢٨) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ١٢/٤ بتصرف .
- (٢٩) مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم  
البخاري في الأدب (٦١١) . ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦/٦) . وأحمد ح ١٧٦٢٢ . ١٧٦٤٨ . عن الثعلبي بن بشير .
- (٣٠) إن الله يرزقكم ثلاثاً  
رواه مسلم في الأفضلية ح ٢٢٣٦ . ومالك في الجامع ح ١٥٧٢ . وأحمد ح ٨١٤٤ من حديث أبي هريرة .
- (٣١) تفسير سورة آل عمران ، د . محمد سيد طنطاوي : ٢٦٦ .
- (٣٢) من رأى منكم منكراً فليغيره ١٦  
مسلم في الإيمان ح ٧٠ . والترمذي في الفتن ح ٢٠٩٨ . وقال : حديث حسن صحيح ، والتمسائي في الإيمان ح ٤٩٢٢ . ٤٩٢٣ . وأبو داود في الصلاة ح ٩١٣ . وفي الملاحم ح ٣٧٧٧ . وابن ماجه في إقامة الصلاة ح ١٦٦٥ . وفي الفتن ح ٤٠٠٢ . وأحمد ح ١٠٦٥١ . ١١٠٩١ . ١١٤٤٢ . من حديث أبي سعيد الخدري .
- (٣٣) والذي نفسى بيده لتأمن بالمعروف  
رواه الترمذي في الفتن ح ٢١٦٩ . وأحمد ح ٢٢٧٩٠ . ٢٢٨١٦ من حديث حنيفة بن اليمان . وقال الترمذي : " حديث حسن " .
- (٣٤) بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة  
رواه البخاري في الإيمان ح ٥٧ . ٥٨ . وفي مواقيت الصلاة ح ٥٢٤ . وفي الزكاة ح ١٤٠١ . وفي البيوع ح ٢١٥٧ . وفي الشروط ح ٣٧١٤ . ٣٧١٥ . وفي الأحكام ح ٧٢٠٤ . ومسلم في الإيمان ح ٥٦ . والترمذي في البر ح ١٩٢٥ . والتمسائي في البيعة ح ٤١٧٤ . ٤١٧٥ . ٤١٨٩ . وأحمد ١٨٦٨١ . ١٨٦٨٢ . ١٨٧٠٩ . ١٨٧١٣ . ١٨٧٤٣ . ١٨٧٦٠ . والدارمي في البيوع ح ٢٥٤٠ من حديث جرير بن عبد الله البجلي . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .
- (٣٥) أيها الناس إنكم تقرعون هذه الآية  
رواه الترمذي في الفتن ح ٢١٦٨ . وفي تفسير القرآن ح ٢٠٥٦ . وأبو داود في الملاحم ح ٤٢٣٨ . وابن ماجه في الفتن ح ٤٠٠٥ . وأحمد ح ١٧ . ٣٠ . ٥٤ . من حديث أبي بكر الصديق . وقال الترمذي : حسن صحيح . ورواه أيضاً من حديث أبي ثعلبة الخشني .
- (٣٦) الترغيب والترهيب : ٢٢٣/٢ .
- (٣٧) التفسير الوسيط، لجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، حزب ٧ ص ٦٣٢ .
- (٣٨) إن أهل الكتابين افتتروا  
رواه أحمد في مسنده ح ١٦٤٩٠ . وأبو داود في السنة ٤٥٩٧ ، كلامها عن معاوية بن أبي سفيان "رواه أبو داود في السنة ح ٥٩٦ . ٤٥٩٦ . من حديث أبي هريرة . ورواه الترمذي في الإيمان ح ٢٦٤١ . من حديث عبد الله بن عمرو . وقال الترمذي : حديث حسن غريب مفسر . قلت : في إسناده : عبد الرحمن بن زياد الأفرقي ، وهو منكهم فيه . ورواه ابن ماجه في الفتن ح ٣٩٩٢ . من حديث عوف بن مالك . ورواه أيضاً

فى نفس الباب ج ٢٩٩٣ . من حديث أنس بن مالك . والدارمى فى السير ٢/٢٤١ ، من حديث معاوية أيضاً إلا أنه لم يذكر فيه : ... كما يتجارى الكلب .

الكلب يفتح البلام مرض يصيب الإنسان من أثر عضه الكلب العقور . وهذا المرض يؤثر فى سائر الجسم حتى فى سجايا المخ ثم يفتك بصاحبه .

(٢٩) مختصر تفسير ابن كثير للصاوي : ٣٠٧/١ .

(٣٠) د . محمد سيد طنطاوي . تفسير سورة آل عمران : ٢٦٩ .

(٣١) تفسير الكشف : ٢٩٩/١ .

(٣٢) تفسير الفخر الرازي : ١٨١/٨ .

(٣٣) تفسير الألويسى : ٢٦/٤ .

(٤١) جاد فى تفسير المنار : ٤٧/٤ . ٤٨ . كلام خلاصته ما يأتى :

فى قوله تعالى : ﴿ كنتم ﴾ ثلاثة أوجه :

(الوجه الأول ) : أنها تامة بمعنى وجدتم خير أمة . وهى لا تحتاج إلى خير ويكون قوله ﴿ خير أمة ﴾ بمعنى الحال .

(الوجه الثانى ) : أنها ناقصة . والمعنى حينئذ كنتم فى علم الله أو قدرتم فى علم الله تعالى خير أمة أخرجت للناس .

(الوجه الثالث ) : أن كان هنا بمعنى صار . أى صرتم خير أمة . وهذا أضعف الأقوال .

(٤٥) فى ظلال القرآن ١٥/٤٠ .

(٤٦) أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها

رواه الترمذى التفسير ج ٣٠١ ، وابن ماجه فى الزهد ح ٤٢٨٧ ، ٤٢٨٨ . وأحمد ح ١٩٥٠٥ ، ١٩٥١٣ ، ١٩٥٢١ ، ١٩٥٢٥ ، ١٩٥٤٥ . والدارمى فى الرقاق ح ٢٧٦٠ ، من حديث حكيم بن معاوية عن أبيه معاوية البهزى . وقال الترمذى : حديث حسن .

(٤٧) مختصر تفسير ابن كثير . تحقيق محمد على الصاوي : ٣٠٨/١ .

(٤٨) عرضت على الأمم : فجعل يمر التنبى رعه الرجل ٢٢

البخارى فى الرقاق (٦٥١) ومسلم فى الإيمان (٣٧٤/٢٣٠) .

(٤٩) تفسير المنار : ٥٦/١ .

(٥٠) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، حزب ٧ ص ٦٢٨ .

(٥١) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ١٦/٤ .

(٥٢) تفسير الكشف : ٢١٧/١ .

(٥٣) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي ص ٢٨٦ بتصرف .

(٥٤) تفسير الطبرى : ٦/٤ وتفسير المنار : ٥٩/٤ .

(٥٥) تفسير المنار : ٥٩/٤ .

(٥٦) اختار هذا الرأي الشيخ محمد عبيد فى تفسير المنار : ٥٩/٤ .

(٥٧) تفسير الطبرى : ٢٧/٤ .

(٥٨) تفسير المنار : ٦٠/٤ .

- (٥٩) تفسير الفخر الرازي : ٢٠٣/٨ ، بتصريف .
- (٦٠) تفسير الطبري : ٣٧/٤ ، بتصريف سير .
- (٦١) ﴿ وما يفعلوا من خير ﴾ ما شرطية ، وفعل الشرط قوله ﴿ يفعلوا ﴾ وجوابه قوله ﴿ ظن يكفروه ﴾ .
- (٦٢) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي : ٣٠٠ .
- (٦٣) إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل  
رواه أبو داود في الملاحح ٤٣٣٦ ، والترمذي في التفسير ح ٣٠٤٧ ، وابن ماجه في الفتن ح ٤٠٠٦ من حديث عبد الله بن مسعود
- (٦٤) تفسير المنار ٦٢/٤ ، باختصار شديد .
- (٦٥) تفسير النيسابوري : ٥١/٤ .
- (٦٦) تفسير النيسابوري : ٥١/٤ - ٥٢ .
- (٦٧) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ١٧/٤ .
- (٦٨) تفسير المنار : ٦٥/٤ .
- (٦٩) التفسير الوسيط إشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - الحزب السابع ، ص ٦٤٦ .
- (٧٠) ما ينبغي لنبي إذا ليس لأمة أن يترعها  
البخاري في الاعتصام معلقا ، وأحمد ٣٥١/٣ ، والدارمي عن جابر بن عبد الله ، والألمة : الدرر ، وقيل : البيلاح ، ولأمة الحرب  
إداته . انظر : النهاية ٢٢٠/٤ .
- (٧١) احموا ظهورنا  
رواه أحمد ح ٣٦٠٤ من حديث ابن عباس .
- (٧٢) تفسير الكشاف : ٤٠٩/١ ، بتصريف .
- (٧٣) المرجع السابق بتصريف .
- (٧٤) مختصر تفسير ابن كثير : ٣١٥/١ .
- (٧٥) مختصر تفسير ابن كثير : ٣١٥/١ . تحقيق محمد علي الصابوني .
- (٧٦) تفسير النيسابوري بهادش تفسير الطبري : ٢٢/٤ .
- (٧٧) تفسير المنار : ٩٤/٤ .
- (٧٨) د . محمد سيد طنطاوي ، تفسير سورة آل عمران : ص ٢٣٤ .
- (٧٩) أن النبي قُتِلَ شهراً يدعو على رعل ، ودكان  
البخاري في الجناز ( ١٣٠٠ ) ، ومسلم في المساجد ( ٢٩٧/٦٧٧ ) التفسير ( ٩٥ ) .  
انظر تفسير النيسابوري ، وقد ورد هذا المعنى في تفسير ابن كثير عن البخاري .
- (٨٠) كيف يُلَاحَظ قوم شحوا بينهم ١٩  
ذكره البخاري تعليقا في المغازي ، ووصله مسلم في الجهاد ح ١٧٩١ ، والترمذي في التفسير ح ٣٠٠٢ ، وابن ماجه في الفتن ح ٤٠٢٧ .  
وأحمد ح ١١٥٤٥ ، ١٢٢٢٠ ، ١٢٢٢٥ ، ١٣١٥٨ ، من حديث أنس بن مالك . ورد ذلك في صحيح مسلم . وسند الإمام أحمد .

- (٨١) تفسير الكشاف : ٤١٣/١ .
- (٨٢) تفسير الفخر الرازي : ٣/٩ .
- (٨٣) المرجع السابق .
- (٨٤) التفسير الوسيط، لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف حزب ٦٥٤/٧ .
- (٨٥) تفسير القرطبي : ٢٠٢/٤ .
- (٨٦) تفسير ابن جرير الطبري : ٩٠/٤ .
- (٨٧) ألا إن ربا الجاهلية موشوع  
رواه مسلم في الحج ١٢١٨ ، وأبو داود في المناسك ح ١٩٠٥ ، وفي البيهق ح ٢٢٢٤ ، وابن ماجه في المناسك ح ٣٠٥٥ ، ٣٠٧٤ ، والدارمي في المناسك ح ١٨٥٠ .
- (٨٨) الثبر بالبر مثلا بمثل  
البيهقي في البيهق ٢١٧٠ ومسلم في المساقاة ١٥٨٦ وأبو داود في البيهق ٢٢٤٨ والترمذي في البيهق ١٢٤٤ وقال : « هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في البيهق ٤٥٥٨ وابن ماجه في التجارات ٢٢٥٢ والدارمي في البيهق ٢٥٨/٢ . كلهم عن عمر بن الخطاب .
- (٨٩) تفسير الكشاف : ٤١٤/١ .
- (٩٠) من كظم غيظا وهو قادر على أن ينقذه  
رواه الترمذي في البر والصلة ح ٢٠٢١ ، وفي صفة القيامة ح ٢٤٩٢ ، وأبو داود في الأدب ح ٤٧٧٧ ، وابن ماجه في الزهد ح ٤١٨٦ . وأحمد ح ١٥٢١٠ من حديث معاذ بن أنس الجهني . وقال الترمذي : حديث حسن غريب . قلت : وليس فيه : «ملا الله جوفه أمنا وإيماننا » إنما يقترنه بلفظ : «دعا الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق يغيثه في أي الحور شاء » .
- (٩١) ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بغو ٤٤  
رواه مسلم في البر والصلة ح ٢٥٨٨ ، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٩ ، وأحمد ح ٧١٦٥ ، ٨٧٨٢ ، والدارمي في الزكاة ح ١٦٧٦ من حديث أبي هريرة ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .
- (٩٢) أن تعبد الله كأنك تراء  
رواه البيهقي في الإيمان ح ٥٠ ، وفي تفسير القرآن ح ١٧٧٧ ، ومسلم في الإيمان ح ٩٠٨ ، والترمذي في الإيمان ح ٢٦١٠ ، والنسائي في الإيمان ح ٤٩٩٠ ، ٤٩٩١ ، وأبو داود في السنة ح ٤٦٩٥ ، وابن ماجه في المقدمة ح ٦٣ ، ٦٤ ، وأحمد ح ٣٦٩ ، ٥٨٢٢ ، ٧١٢١ من حديث أبي هريرة ، ومن حديث عمر بن الخطاب . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .
- (٩٣) ليسن الواصل بالمكافئ  
رواه البيهقي في الأدب ح ٥٩٩١ ، والترمذي في البر والصلة ح ١٩٠٨ ، وأبو داود في الزكاة ح ١٦٩٧ ، وأحمد ح ٦٤٨٨ ، ٦٧٤٦ ، ٦٧٧٨ من حديث عبد الله بن عمرو . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .
- (٩٤) ما أصغر من استغفر  
رواه الترمذي في الدعوات ح ٢٥٥٩ ، وأبو داود في الصلاة ح ١٥١٤ من حديث أبي بكر الصديق . وقال الترمذي : حديث غريب إنما نعرفه من حديث أبي نصيرة وليس إسناده بالقوى .
- (٩٥) تفسير الفخر الرازي : ١٢/٩ .
- (٩٦) تفسير الطبري : ١٠١/٤ صفوة التفسير لمحمد علي الصابوني : ٢٣١/١ .
- (٩٧) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد علي الصابوني : ٣٢١/١ .



- (٩٨) في ظلال القرآن . للأستاذ سيد قطب : ٣٨/٤ .
- (٩٩) تفسير الكشاف : ٤١٨/١ .
- (١٠٠) التفسير الوسيط ، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر . الحزب ٧ ص ٦٦٦ .
- (١٠١) تفسير المنار : ١٢٨/٤ ، نقلاً عن تفسير الكشاف .
- (١٠٢) تفسير الطبري : ٧١/٤ .
- (١٠٣) تفسير المنار : ١٢٨/٤ .
- (١٠٤) قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿ ولما يعلم الله الذين جامدوا منكم ﴾ بمعنى ولما تجاهدوا ، لأن العلم متعلق بالمعلوم ، فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه لأنه منتف بالمتقانه . يقول الرجل : ما علم الله من فلان خيراً ، يريدُ ما فيه خير حتى يعلمه .
- وقال الدكتور محمد سيد طنطاوي : والمعنى : بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة ، وتقالوا كرامة ربيكم ، وشرف المنازل عنده مع أنكم لم تجاهدوا في سبيل الله جهاد الصابرين على شدائده ومتاعيه ومطالبه إن كنتم تحسبون هذا الحسين فهو ظن باطل يجب عليكم الإقلاع عنه .
- (١٠٥) كان هنا ناقصة وقوله ﴿ أن تموت ﴾ في محل رفع اسمها ، وقوله ﴿ لنفس ﴾ متعلق بمحذوف وقع خبراً لها ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والأسباب . أي ما كان لها أن تموت في حالة من الأحوال أو لسبب من الأسباب ، إلا ماؤونا لها منه سبحانه ، والباء في قوله ﴿ إلا ياذن الله ﴾ للمصاحبة .
- وقوله ﴿ كتابا ﴾ مفعول مطلق مؤكّد لضمون الجملة قبله ، وعامله مضمّر والتقدير : كتب الله ذلك كتاباً مؤجلاً . أي له أجل معلوم لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، وهو أت لا ريب فيه . وقوله ﴿ مؤجلاً ﴾ صفة لقوله ﴿ كتابا ﴾ .
- (١٠٦) تفسير المنار : ١٣٩/٤ .
- (١٠٧) تفسير المنار : ١٤٠/٤ .
- (١٠٨) تفسير المنار : ١٤١/٤ .
- (١٠٩) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٤٥/٤ .
- (١١٠) كان هنا ناقصة وقوله ﴿ قولهم ﴾ بالنصب خبرها ، واسمها الاسم المتحصل من أن وما بعدها . في قوله ﴿ إلا أن قالوا ﴾ والاستثناء مفرغ ، أي : ما كان قولهم في ذلك المقام ، وفي غيره من المواطن ، إلا قولهم هذا الدعاء ، أي هو دأبهم ودينهم .
- (١١١) تفسير الألويسي : ٨٧/٤ .
- (١١٢) تفسير الطبري : ٨٠/٤ .
- (١١٣) تفسير المنار : ١١٥/٤ .
- (١١٤) تفسير الطبري : ٨١/٤ .
- (١١٥) مختصر من تفسير الطبري للأية : ٨١/٤ .
- (١١٦) تفسير الفخر الرازي : ٣٢/٩ باختصار وحذف .
- (١١٧) انظر تفسير المنار : ١٤٧/٤ ، والفخر الرازي : ٣٢/٩ .
- (١١٨) تفسير المنار : ١٤٧/٤ ، بتصريف .
- (١١٩) هامش تفسير الطبري : ١٠٧/٤ - ١٠٨ .
- (١٢٠) د . عبد الله شحاتة : في نور القرآن ، ٨٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- (١٧١) تفسير المنار : ٤ / ١٥٤ ، بتصريف .
- (١٧٢) تفسير المنار : ٤ / ١٥٤ ، بتصريف واختصار .
- (١٧٣) تفسير المنار : ٤ / ١٥٦ ، بتصريف واختصار .
- (١٧٤) تفسير الفخر الرازي : ٥١ / ٩ .
- (١٧٥) التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة : ٨ / ١٧٠ .
- (١٧٦) التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة : ٨ / ١٧٢ .
- (١٧٧) أخرجه ابن أبي شيبة في ممنه ، والبخاري في الأدب ، وأشار إليه الترمذي في آخر باب الجهاد .
- (١٧٨) حكاة الواقدي عن الكلبي ، ومقاتل .
- (١٧٩) متاع لسافر .
- (١٨٠) هو في النار
- رواه البخاري في الجهاد والسيرح ٣٠٧٤ ، وابن ماجه في الجهاد ح ٢٨٤٩ ، وأحمد ح ٦٤٥٧ من حديث عبد الله بن عمرو .
- غلها : سرقها من التزنية ، رواه البخاري نقلا عن تاج الأصول : ٤ / ٣٩١ . كتاب الجهاد .
- (١٨١) انصر أبا داود في كتاب الجهاد - باب تعظيم الغلول .
- (١٨٢) سحر ، سحبرسي والطبري والخازن في تفسير الآية . وفيها روايات أنها نزلت في حق شهداء بدر أو أحد أو بدر واحد . أو شهداء بدر مموّنة .
- (١٨٣) ما زالت للملاكمة تظله بأجنحتها
- رواه البخاري في الجنائز ح ١٣٤٤ ، ١٢٩٢ ، وفي الجهاد ح ٢٨١٦ ، وفي المغازي ح ٤٠٨٠ ، ومسلم في فضائل الصحابة ح ٢٤٧١ .
- والتسائي في الجنائز ح ١٨٤٢ ، ١٨٤٥ ، وأحمد ح ١٣٧٧٥ ، ١٢٨٨٢ من حديث جابر بن عبد الله .
- أخرجه البخاري ومسلم والتسائي ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني : ١ / ٣٣٦ .
- (١٨٤) لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم
- رواه أبو داود في الجهاد ح ٢٥٢٠ ، وأحمد ح ٢٢٨٤ ، من حديث ابن عباس . قلت : في إسناده محمد بن إسحاق ، وقد عنّنه .
- (١٨٥) أسباب النزول للواحدى : ٧٣ .
- (١٨٦) المرجع السابق : ٧٤ .
- (١٨٧) تفسير القرطبي : ٤ / ٣٦٨ .
- (١٨٨) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي : ٤٤٤ .
- (١٨٩) يا أم حارثة إنها جنان وليست جنة
- رواه البخاري في الجهاد ح ٢٨٠٩ ، وفي المغازي ح ٣٩٨٢ ، وفي الرقاق ح ٦٥٥٠ ، ٦٥٦٧ ، وأحمد ح ١٢٧٨٨ ، ١٢٨٢٨ ، ١٢٣٣٧ ، ١٢٣٧٦ .
- ١٢٥٩٩ ، ١٣٦٠٢ من حديث أنس بن مالك .
- (١٩٠) هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدا فتقوم ولا تقتر
- رواه البخاري في الجهاد والسيرح ٢٧٥٨ ، والتسائي في الجهاد ح ٣١٢٨ ، وأحمد ح ٨٣٣٥ من حديث أبي هريرة ، ولفظه : " هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدا فتقوم ولا تقتر وتسموم ولا تقطر " . قال : ومن يستطيع ذلك . قال أبو هريرة : " إن هرس المجاهد ليست في طوله فيكتب له حسنات " . اهـ

- (١٤١) تفسير ابن كثير والألبوسي والفخر الرازي والطبري والطبرسي والخازن .
- (١٤٢) ج ٣ ص ٩٠ - ٩١ و ١٠٠ - ١٠٢ .
- (١٤٣) هذه رواية ابن سعد .
- (١٤٤) انظر تفسير الطبري والخازن .
- (١٤٥) هو جابر بن عبد الله ، وهو الوحيد الذي سمح له بالخروج إلى حمراء الأسد ممن لم يشهدوا غزوة أحد . وانظر تفسير ابن كثير .
- (١٤٦) التفسير الحديث ، للأستاذ محمد عزة دروزة : ١٨٧/٨ .
- (١٤٧) من آتاه الله مالا ظلم يؤد زكاته
- رواه البخاري في الزكاة ج ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، وفي تفسير القرآن ح ٤٥٦٥ ، والنسائي في الزكاة ح ٢٤٨٢ ، وابن ماجه في الزكاة ح ١٧٨٧ . وأحمد ح ٨٤٤٧ من حديث أبي هريرة .
- (١٤٨) التفسير الحديث ، للأستاذ محمد عزة دروزة : ١٩٤/٨ .
- (١٤٩) الأنبياء ثم الأمل فالأمل
- يؤب به البخاري في كتاب المرضى ، ورواه الترمذي في الزهد ح ٢٣٩٨ ، وابن ماجه في الفتن ح ٤٠٢٢ ، وأحمد ح ١٤٨٤ ، ١٤٩٧ ، ١٥٥٨ ، ١٦١٠ ، والدارمي في الرقاق ح ٢٧٨٢ من حديث سعد بن أبي وقاص ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .
- (١٥٠) يا سعد ألم تسمع ما قال أبو الحباب
- رواه البخاري في تفسير القرآن ح ٤٥٦٦ ، وفي الأدب ح ٦٢٠٧ ، وفي الاستبذان ح ٦٢٥٤ ، وفي الاستبذان ح ٦٢٥٤ ، ومسلم في الجهاد والسير ح ١٧٩٨ ، وأحمد ح ٢١٢٦٠ من حديث أسامة بن زيد .
- (١٥١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني : ٣٤٥/١ .
- (١٥٢) من سئل عن علم فكتمه
- رواه الترمذي في العلم ٣٦٤٩ ، وأبو داود في العلم ح ٢٦٥٨ ، وابن ماجه في المقدمة ح ٢٦٦ ، وأحمد ح ٧٥١٧ ، ٧٨٨٣ ، ٧٩٨٨ ، ٨٣٢٨ ، ٨٤٢٤ ، ٨٤٤٨ ، ١٠٠٤٨ ، من حديث أبي هريرة ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح . ورواه ابن ماجه في المقدمة ح ٢٦٤ من حديث أنس بن مالك .
- (١٥٣) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب : ٥٤٥/٤ .
- (١٥٤) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب : ٥٤٥/٤ .
- (١٥٥) بت عند خالتي ميمونة
- رواه البخاري في الوضوء ح ١٢٨ ، وفي الأذان ح ٦٩٩ ، ٨٥٩ ، وفي تفسير القرآن ح ٤٥٦٩ ، ٤٥٧٠ ، ومسلم في صلاة المسافرين ح ٧٢٢ . والنسائي في الإمامة ح ٨٠٦ ، وفي التطبيق ح ١١٢١ ، وأبو داود في الصلاة ح ١٢٥٦ ، ١٢٦٥ ، وابن ماجه في الطهارة ح ٤٢٣ ، وفي إقامة الصلاة ح ٩٧٢ ، وأحمد ح ١٩١٥ ، ٢١٦٠ ، ٢١٨٤ ، ٢٣٩١ ، ٢٣٩٤ ، ٢٣٦٢ ، ٢٣٧٩ ، ٢٥٠٤ من حديث ابن عباس .
- مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد علي الصابوني : ٢٤٦.
- (١٥٦) انظر تفسير القاسمي : ١٠٦٦/٤ .
- (١٥٧) صلى قائما فإن لم تستطع فقاعد
- رواه البخاري في الجمعة ح ١١١٧ ، والترمذي في الصلاة ح ٣٧١ ، وأبو داود في الصلاة ح ٩٥٢ ، وابن ماجه في إقامة الصلاة ح ١٢٢٢ . والنسائي في قيام الليل ح ١٦٦٠ ، وأحمد ح ١٩٢١٨ من حديث عمران بن حصين .
- مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني : ٢٤٦/١ .

- (١٥٨) إذا صلى أحدكم قليلاً بالتحميم . رواه الترمذى فى الدعوات ح ٢٤٧٧ ، وأبو داود فى الصلاة ح ١٤٨١ ، وأحمد ح ٢٢٤١٩ من حديث فضالة بن عبيد . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .  
أخرجه أبو داود فى ٨ كتاب الوتر . ٢٣ باب الدعاء حديث ١٤٨١ نقلًا عن تفسير القاسمى ١٠٦٨/٤ .
- (١٥٩) نعم وأنت صابر محتسب - القتل فى سبيل الله .  
رواه مسلم فى الإمارة ح ١٨٨٥ ، والترمذى فى الجهاد ح ١٧١٢ ، والنسائى فى الجهاد ح ٢١٦٥ ، وأحمد ح ٢٢٠٢٦ ، ٢٢٠٧٩ ، ٢٢١٢٠ ، ومالك فى الجهاد ح ١٠٠٢ ، والدارمى فى الجهاد ح ٢٤١٢ من حديث أبى قتادة . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . قلت : ولفظه : "نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فإن جبريل قال لى ذلك".
- (١٦٠) يا مكة لأنت أحب بلاد الله إلى  
رواه الترمذى فى المناقب ح ٢٩٣٦ ، من حديث ابن عباس بلفظ : " ما أطيبك من بلد وأحبك إلي ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك " . وقال : حديث حسن صحيح غريب . رواه أحمد ح ١٨٢٤٢ من حديث أبى هريرة بنحوه .
- (١٦١) لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة  
رواه الترمذى فى تفسير القرآن ح ٢٠٢٢ من حديث أم سلمة .
- (١٦٢) انظر علوم القرآن للمؤلف . موضوع أسباب النزول . وانظر أيضاً المرأة المسلمة بين الماضى والحاضر للمؤلف ، وانظر تفسير الآيات فى كتاب التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة : ٢٠١/٨ .
- (١٦٣) ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصعبه  
رواه مسلم فى الجنة وصفة نعيمها ح ٢٨٥٨ ، والترمذى فى الزهد ح ٢٢٢٢ ، وابن ماجه فى الزهد ح ٤١٠٨ ، وأحمد ح ١٧٥٤٧ ، ١٧٥٤٨ ، ١٧٥٥١ ، ١٧٥٥٢ ، ١٧٥٥٩ ، ١٧٥٦٠ من حديث المستورد . وقال الترمذى حديث حسن صحيح .  
صحيح مسلم ج ٢ ص ٥٤٠ (باب قضاء الدنيا ) .
- (١٦٤) انظر تفسير الطبرى والطبرسى وابن كثير والخازن والبغوى والزمخشري .
- (١٦٥) أخرجه مسلم فى كتاب الطهارة .
- (١٦٦) إلا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا  
رواه مسلم فى الطهارة ح ٢٥١ ، والترمذى فى الطهارة ح ٥١ ، والنسائى فى الطهارة ح ١٤٢ ، وأحمد ح ٧١٦٨ ، ٧١٧٢ ، ومالك فى النداء للصلاة ح ٣٨٦ من حديث أبى هريرة ورواه ابن ماجه فى المساجد ح ٧٧٦ ، وأحمد ح ١٠٦١١ من حديث أبى سعيد الخدرى .
- (١٦٧) تمس عبد درهم ! تمس عبد الدينار ! تمس عبد الخميصة !  
البخارى فى الجهاد ٢٨٨٧ ، وفى الرقاق ح ٦٤٢٥ ، وابن ماجه فى الزهد ح ٤١٥٢ ، ٤١٦٢ من حديث أبى هريرة . الخميصة التوب المخطط .
- (١٦٨) قوله : وإذا شيك فلا تنتش أى : إذا أصابه شوكه فلا وجد من يخرجها منه بالناقش .
- (١٦٩) قال ابن الجوزى : المعنى أنه خامل الذكر لا يقصد السمو والرفعة .
- (١٧٠) ريام يوم وليلة فى سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه  
مسلم فى الإمارة ح ١٩١٢ ، والترمذى فى الجهاد ح ١٦٦٥ وقال : حديث حسن ، والنسائى فى الجهاد ح ٢١٦٧ ، وأحمد ح ٢٢٢٢٢ ، ٢٢٢٢٦ من حديث سلمان الفاريسى .
- (١٧١) أخرجه مسلم فى ٢٢ - كتاب الإمارة .

- (١٧٣) حرمت النار - عيانان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ٩٧ .  
يشير إلى حديث "عيانان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين بالنت تحرس في سبيل الله" رواه الترمذى في فضائل الجهاد ١٧٣٩ وقال : "حديث ابن عباس حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن زيوق . قلت : شعيب هذا ، ضعفه بعضهم .
- (١٧٣) أخرجه مسلم في ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها .
- (١٧٤) يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله مسلم في صلاة للمسافرين ٨٠٥ ، والتزمى في فضائل القرآن ح ٢٨٨٣ ، وقال : غريب وأحمد ح ١٧١٨٥ . من حديث نواس بن سمعان .
- (١٧٥) حرقان : سريان أو مجموعتان
- (١٧٦) المراد الآيات التي تبدأ من قوله تعالى : ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾ آية ١٩٠ إلى آخر السورة وهي ١١ آية .
- (١٧٧) مقتبس من تفسير القرآن الكريم للإمام محمود شلتوت ، ط ٢ ، ص ٢٠٧ .
- (١٧٨) المنتخب في تفسير القرآن الكريم : ١١٢ .
- (١٧٩) استوصوا بالنساء خيراً
- رواه البخاري في أحاديث الأنبياء ح ٣٣٣١ ، وفي النكاح ح ٥١٨٦ ، ومسلم في الرضاع ح ١٤٦٨ . وأحمد ح ١٠٠٧١ ، والدارمي في النكاح ح ٢٢٢١ من حديث أبي هريرة .
- (١٨٠) تفسير الفخر الرازي : ١٦١/٩ .
- (١٨١) تفسير الكشف : ٤١٢/١ .
- (١٨٢) من استأذ بالله فاعينوه .. من سألكم بالله فأعطوه  
أبو داود في الزكاة ١٦٧٢ ، والنسائي في الزكاة ٢٥١٧ ، وأحمد ح ٦٨/٢ ، ٩٦ ، ٩٩ ، كلهم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه .
- (١٨٣) من سره أن يبسط له في رزقه  
البخاري في البيوع ٢٠٦٧ ، ومسلم في البر والصلة ٢٥٥٧ ، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٣ ، كلهم عن أنس .
- (١٨٤) الرحم معلقة بالعرش  
رواه مسلم في البر والصلة ح ٢٥٥٥ ، من حديث عائشة .
- (١٨٥) محاضرات في التفسير لطلبة السنة الرابعة بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة . مخطوط ، أملاء على الطلبة د . محمد عبد الله دراز في العام الجامعي ١٩٥٤-١٩٥٥م .
- (١٨٦) تفسير المنار : ٢٨٥/٤ ، أنظر التراث للجمع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب العدد ١٨ جزء ٤ ص ٢٨٥ طبعة ثانية مأخوذة عن الطبعة الأولى .
- (١٨٧) د . محمد بلتاجي : دراسات في أحكام الأسرة . مكتبة الشباب بالقاهرة : ٤٧١ .
- (١٨٨) د . محمد عبد الله دراز تفسير سورة النساء . مخطوط ، والمرأة في القرآن والسنة لحمد عزة دروزة . ص ١١٧ .
- (١٨٩) على حسب الله ، الزواج في الشريعة الإسلامية الطبعة الأولى ص ١١٥ .
- (١٩٠) راجع مطالبة بعض الأوربيات بتعدد الأزواج للرجل الواحد : ٣٦٠/٤ من تفسير المنار . وراجع كلاما حسنا للمرحوم الشيخ أحمد شاكور في من يريد منع التعدد : ١٠٢/٣ - ١٠٩ ، عمدة التفسير للحافظ ابن كثير .
- (١٩١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكور : ١٠٢ ، هامش .

- (١٩٢) اللهم هذا قسمي فيما أملك  
رواه أبو داود في النكاح ج ٢١٢٤، والترمذي في النكاح ج ١١٤٠، والنسائي في عشرة النساء ج ٣٩٤٢، وابن ماجه في النكاح ج ١٩٧١، وأحمد ج ٢٤٥٨٧، والدارمي في النكاح ج ٢٢٠٧ من حديث عائشة، واللفظ لأبي داود، وأشار الترمذي إلى تضمينه.
- (١٩٣) من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى  
أبو داود في النكاح ٢١٢٣ والترمذي في النكاح ١١٤١، والنسائي في عشرة النساء ٣٩٤٢ وابن ماجه في النكاح ١٩٦٩.
- (١٩٤) رواه أحمد وابن ماجه عن ابن عباس .
- (١٩٥) نداء للجنس اللطيف يوم المولد النبوي الشريف، تأليف رشيد رضا، ص ٤٥ .
- (١٩٦) الضمير في ﴿ منه ﴾ يعود إلى الصدقات أي المهور، ﴿ نفسا ﴾ منصوب على التمييز من الضمير وهو نون النعمه في قوله : ﴿ ملين ﴾ .  
والتمييز معول عن الفاعل، والأصل فإن طابت أنفسهن عن شهيه منه فكلوه .
- (١٩٧) محاضرات في التفسير لمطالبة ليسانس كلية دار العلوم سنة ١٩٥٤ / ١٩٥٥ .
- (١٩٨) ألا من ولي يتيمًا له فليجير فيه  
رواه الترمذي في الزكاة ج ٦٤١، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقال: في إسناده مقال لأن المشي بن الصباح يضعف في الحديث .
- (١٩٩) تفسير القرآن الكريم للإمام الأكبر محمود شلتوت - الأجزاء العشرة الأولى ص ١٨٣ .
- (٢٠٠) تفسير سورة النساء للدكتور محمد سيد طنطاوي . ص ٥١ .
- (٢٠١) تفسير القرآن الكريم . الطبعة الثالثة : ١٨٤ للأستاذ محمود شلتوت .
- (٢٠٢) تفسير الفخر الرازي : ١٩٠/٩ .
- (٢٠٣) التفسير الوسيط، لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر حزب ٨ ص ٧٦٠ .
- (٢٠٤) انظر مختصر تفسير ابن كثير : ٣٦٠/١ .
- (٢٠٥) هي محكمة وليست بمنسوخة .
- رواه البخاري في تفسير القرآن ج ٤٥٧٦ من قول ابن عباس .
- (٢٠٦) تفسير القرطبي : ٤٩/٥ .
- (٢٠٧) وهو أول من نطق بالمصاحف وتوفي سنة ١٢٩ هـ .
- (٢٠٨) تبصرة المتذكر، وتذكرة المتبصر . لأحمد بن يوسف الموصلي الكواشي تحقيق السيدة/ مفيدة آدم محمد زين : ٦٣٢ .
- (٢٠٩) تفسير سورة النساء . للأستاذ / محمد سيد طنطاوي : ٦٧ .
- (٢١٠) تفسير التحرير والتنوير : ٢٥٢ .
- (٢١١) في ظلال القرآن : ٨٩/٤ .
- (٢١٢) تفسير الفخر الرازي : ١٠٠/٩ .
- (٢١٣) انظر اللسان : ٢٠١/١٩، وانظر تفسير الكواشي المسمى (تبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر) تحقيق الأستاذة مفيدة آدم : ٦٣٣ . رسالة ماجستير بإشراف المؤلف .

- (٢١٤) رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ . وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي بَرْزَةَ .  
رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي الْوَسَائِلِ ح ٣٦٦٩ ، وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْوَسَائِلِ ح ٢٨٧١ . مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ .
- (٢١٥) تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ : ٤٥٧/١ .
- (٢١٦) تَفْسِيرُ الْفَخْرِ الرَّازِيِّ : ٢٠٢/٩ .
- (٢١٧) اجْتَبَيْتُمَا السَّبْعَ الْمَوْقِفَاتِ  
رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْوَسَائِلِ ح ٢٧٦٧ . وَمُسْلِمٌ فِي الْإِيمَانِ ح ٨٩ ، وَالنَّسَائِيُّ فِي الْوَسَائِلِ ح ٣٦٧١ . وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْوَسَائِلِ ح ٢٨٧١ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ .
- (٢١٨) أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ  
رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْمُلَاقَاحِ ح ٥٣٠٤ ، وَفِي الْأَدَبِ ح ٦٠٠٥ ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْبَرِّ وَالصَّلَةِ ح ١٩١٨ . وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْأَدَبِ ح ٥١٥٠ . وَاحْمَدُ ح ٢٣٣١٢ . مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَمَالِكٌ فِي الْجَامِعِ ح ١٧٦٨ بِإِسْنَادٍ .
- (٢١٩) الْمُتَخَبُّطُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . الْمَجْلِسُ الْأَعْلَى لِلشُّعُونَ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ: ١١٥
- (٢٢٠) قَالَ تَعَالَى : يَسْتَفْتُونَكَ قُلُوبُ اللَّهِ يُغْنِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمَرُوا هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نَصْفُ مَا تَرَكَ وَهِيَ يَرِثُنَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا نِسَاءً فَلَهُمَا النِّسَاءُ مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رَجُلًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَقِّ الْأُنثَيْنِ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (النِّسَاءُ / ١٧٦) .
- (٢٢١) قَالَ تَعَالَى : وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَقِّ الْأُنثَيْنِ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (النِّسَاءُ / ١٢) .
- (٢٢٢) قَالَ تَعَالَى : وَلَئِنْ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَقِّ الْأُنثَيْنِ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (النِّسَاءُ / ١٢) .
- (٢٢٣) قَالَ تَعَالَى : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَقِّ الْأُنثَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَرِثْنَ مِمَّا تَرَكَتُمُوهُنَّ مِمَّا تَرَكَتُمُوهُنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ فَرِثَ . (النِّسَاءُ / ١٢) .
- (٢٢٤) قَالَ تَعَالَى : وَلَئِنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَقِّ الْأُنثَيْنِ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (النِّسَاءُ / ١١) .
- (٢٢٥) قَالَ تَعَالَى : وَلَئِنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَقِّ الْأُنثَيْنِ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (النِّسَاءُ / ١١) .
- (٢٢٦) قَالَ تَعَالَى : وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِمَّنْهُمَا النِّسَاءُ إِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَهُمَا النِّسَاءُ إِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَهُمَا النِّسَاءُ . (النِّسَاءُ / ١٢) .
- (٢٢٧) إِنْ الرَّجُلُ لِيَمْلِكُ سِتِينَ سَنَةً بِطَلْعَةِ اللَّهِ ، ثُمَّ يَجُورُ فِي وَصِيَّتِهِ  
رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ فِي الْوَسَائِلِ ح ٣٧٠٤ ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْوَسَائِلِ ح ٣١١٧ ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ . وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْوَسَائِلِ ح ٢٨٧٦ ، وَاحْمَدُ ح ٢٦٨٤ . مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ .  
مَخْتَصَرُ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ : ٣٦٦ . وَنَقَلَ حَدِيثًا آخَرَ عَنْ أَبِي دَاوُدَ فِي بَابِ الْإِشْرَارِ فِي الْوَصِيَّةِ . وَهُوَ فِي نَفْسِ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ .
- (٢٢٨) خَذُوا عَنِّي خِذَايَ عِنْدَ قِيَامِ جَمْعِ اللَّهِ لَهُنَّ سَبِيلًا  
مُسْلِمٌ فِي الْحُدُودِ ١٦٩٠ وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْحُدُودِ ٤٤١٥ وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْحُدُودِ ١٤٢٤ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَابْنُ مَاجَةَ فِي الْحُدُودِ ٢٥٥٠ وَالدَّارِمِيُّ فِي الْحُدُودِ ١٨١/٢ ، كُلُّهُمْ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ، وَاحْمَدُ ح ٤٧٦/٣ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْحَقِيقِ .
- (٢٢٩) مَخْتَصَرُ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ : ٣٦٦/١ بِتَصَرُّفٍ وَاخْتِصَارٍ .
- (٢٣٠) الْمَيْسُوطُ : ٤٤/٩ .
- (٢٣١) انْظُرِ الْمُدَوَّنَةَ : ٢٣٦/٦ . وَالْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ : ١٦٥٨ .

- (٢٣٢) تفسير الألوسي : ٢٣٦/٥ .
- (٢٣٤) تفسير سورة التماء للأستاذ/ محمد سيد طنطاوى : ١٠٦ .
- (٢٣٤) يا عبادى ، إني حرمت الظلم على نفسى
- مسلم فى البر والصلة والآداب ٢٥٧٧ ، وأحمد ١٦٠/٥ ، كلامهما عن أبى ذر رضى الله عنه .
- (٢٣٥) لفظ التوبة مبتدأ ، وقوله : ﴿ للذين يعملون السوء بجهالة ﴾ متعلق بمحذوف خبر ، وقوله ﴿ على الله ﴾ متعلق بمحذوف صفة للتوبة أى إنما التوبة الكائنة على الله كائنة للذين يعملون السوء بجهالة .
- (٢٣٦) أى تدركه غرغرة الموت .
- (٢٣٧) إني الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ
- الترمذى فى الدعوات ٣٥٣٧ وقال : "حديث حسن غريب" ، وابن ماجه فى الزهد ٤٢٥٢ وقال البوصيرى فى الزوائد : "هى إسناد الوليد بن مسلم ، وهو مدلس ، وقد عنعنه ، وكذلك مكحول الدمشقى" ، وأحمد ١٢٢/٢ ، ١٥٢ كلهم عن ابن عمر .
- (٢٣٨) أن تصدق وأنت صحيح صحيح
- رواه البخارى فى الزكاة ح ١٤١٩ ، وفى الوصايا ح ٢٧٤٨ ، ومسلم فى الزكاة ح ١٠٣٢ ، والنسائى فى الزكاة ح ٢٥٤٢ ، وفى الوصايا ٣٦١١ وأبو داود فى الوصايا ح ٢٨٦٥ ، وابن ماجه فى الوصايا ح ٢٧٠٦ ، وأحمد ح ٧١١٩ ، ٩٤٢٦ . من حديث أبى هريرة .
- (٢٣٩) أى : أفضل الصدقة وأفضل الأعمال الصالحة ما عمله الإنسان فى مسعته وقوته والدنيا مقبلة عليه ، وهو قادر على الطاعة والمعصية ، ولا تؤخر الصدقة إلى أن يهجم الموت فتوصى بالمال لفلان وفلان ، ممن لهم عليك ديون أو صدقات واجبة ، أو صلة للرحم . أو أى عمل صالح توصى به . (وقد صار المال إلى فلان ) أى : أصبح المال ملكا لورثتك .
- (٢٤٠) كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه
- رواه البخارى فى تفسير القرآن ح ٤٥٧٩ موقوفا على ابن عباس .
- (٢٤١) رواه الطبرانى عن ابن عباس .
- (٢٤٢) استوصوا بالنساء خيرا
- تقدم تخريجه رواه الترمذى وقال : حسن صحيح ، ورواه مسلم فى صحيحه عن جابر فى خطبة حجة الوداع .
- (٢٤٣) فى ظلال القرآن : ٩٨/٤ .
- (٢٤٤) تفسير القرطبى : ١٠٢/٥ .
- (٢٤٥) رواه الإمام أحمد .
- (٢٤٦) خير الصداق أيسره
- ذكره أبو داود فى النكاح تحت حديث رقم ٢١١٧ تعليقا من حديث عمر بن الخطاب ، وهو بلفظ : خير النكاح أيسره . أخرجه أبو داود فى باب «من تزوج ولم يسم صداقا حتى مات» من كتاب النكاح : ٢٢١/٢ .
- (٢٤٧) إن أعظم النساء بركة أيسرن مؤونة
- أحمد ٨٢/٦ ، ١٤٥ ، والبيهقى فى المنان الكبرى فى الصداق ٣٣٥/٧ .
- (٢٤٨) انظر تفسير ابن كثير : ٤٦٨/١ ، ومختصر تفسير ابن كثير : ٣٧٠/١ ، وتفسير القرطبى : ١٦٧٤ ، وأسباب النزول للواحدي : ٩٨ .
- (٢٤٩) مختصر تفسير ابن كثير : ٣٧٠/١ .



(٢٥٠) حجة الله البالغة : ٩٨/٢ .

(٢٥١) يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب

رواه البخاري في الشهادات ح ٣٦٤٥ ، وفي النكاح ح ٥٢٣٩ ، ومسلم في الرضاع ح ١٤٤٤ ، ١٤٤٥ ، ١٤٤٧ ، والنسائي في النكاح ٢٣٠١ .  
٣٣٠٢ ، ٣٣٠٦ ، وأبو داود في النكاح ح ٢٠٥٥ ، وابن ماجه في النكاح ح ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ، وأحمد ح ٢٤٨٦ ، ٢٦٢٨ ، ٢٣٦٥ ، ٢٢٧٢٢ ، ومالك  
في الرضاع ح ١٢٧٨ ، ١٢٩١ ، والدارمي في النكاح ح ٢٢٤٧ ، ٢٢٤٨ ، ٢٢٤٩ .

(٢٥٢) لا تحرم المصاة ولا المصتان

رواه مسلم في الرضاع ح ١٤٥٠ ، والترمذي في الرضاع ح ١١٥٠ ، والنسائي في النكاح ح ٣٣٠٩ ، ٣٣١٠ ، وأبو داود في النكاح ح ٢٠٦٣ .  
وابن ماجه في النكاح ح ١٩٤١ ، وأحمد ح ١٥٦٨٩ ، ٢٣٥٠٦ ، ٢٤١٢٣ ، والدارمي في النكاح ح ٢٢٥١ .

(٢٥٣) لا تحرم الرضعة

رواه مسلم في الرضاع ح ١٤٥١ ، وابن ماجه في النكاح ح ١٩٤٠ من حديث أم الفضل .  
مختصر تفسير ابن كثير : ٣٧٣/١ .

(٢٥٤) أسلمت وعندي امرأتان أختان

أبو داود في الطلاق ٢٢٤٣ ، والترمذي في النكاح ١١٢٩ ، وابن ماجه في النكاح ١٩٥٠ ، وأحمد ١٣٣/١ ، كلهم عن فيروز الديلمي .

(٢٥٥) مختصر تفسير ابن كثير : ٣٧٤/١ .

(٢٥٦) لا تنكح المرأة على عمها ولا على خالتها

البخاري في النكاح ٥١٠٨ - ٥١١٠ ، ومسلم في النكاح ١٤٠٨ ، وأبو داود في النكاح ٢٠٦٥ ، والترمذي في النكاح ١١٢٦ ، وأحمد ١٠١/٢ .  
٤٢٣ .

★ ★ ★ .

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء الرابع

## محتويات الكتاب

| رقم الآيات | أول الآيات                                | رقم الصفحة |
|------------|-------------------------------------------|------------|
|            | <b>أولاً : سورة آل عمران ٩٣-٢٠٠</b>       |            |
| ٩٣         | ﴿ كل الطعام كان حلالاً لنبي إسرائيل ... ﴾ | ٦٢٧        |
| ٩٤         | ﴿ فمن افترى على الله الكذب ... ﴾          | ٦٢٧        |
| ٩٥         | ﴿ قل صدق الله ... ﴾                       | ٦٢٧/       |
| ٩٦         | ﴿ إن أول بيت وضع للناس ... ﴾              | ٦٣١        |
| ٩٧         | ﴿ فبـيـه آيات بينات ... ﴾                 | ٦٣١        |
| ٩٨         | ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون ... ﴾        | ٦٣٥        |
| ٩٩         | ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تصدون ... ﴾         | ٦٣٥        |
| ١٠٠        | ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا ... ﴾     | ٦٣٥        |
| ١٠١        | ﴿ وكـيـف تكفرون ... ﴾                     | ٦٣٥        |
| ١٠٢        | ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ... ﴾    | ٦٤٠        |
| ١٠٣        | ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ... ﴾         | ٦٤٠        |
| ١٠٤        | ﴿ ولتكن منكم أمة يذمهم ... ﴾              | ٦٤٠        |
| ١٠٥        | ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ... ﴾ | ٦٤٤        |
| ١٠٦        | ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ... ﴾          | ٦٤٤        |
| ١٠٧        | ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ... ﴾           | ٦٤٤        |
| ١٠٨        | ﴿ تلك آيات الله ... ﴾                     | ٦٤٤        |
| ١٠٩        | ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ... ﴾   | ٦٤٤        |
| ١١٠        | ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ... ﴾          | ٦٤٩        |
| ١١١        | ﴿ لن يضـرركم إلا أذى ... ﴾                | ٦٤٩        |
| ١١٢        | ﴿ ضـرـرت عليهم الذلة ... ﴾                | ٦٤٩        |
| ١١٣        | ﴿ لـيـسـوا سـواء ... ﴾                    | ٦٥٤        |
| ١١٤        | ﴿ يؤمنون بالله واليوم الآخر ... ﴾         | ٦٥٤        |
| ١١٥        | ﴿ وما يفعلوا من خير ... ﴾                 | ٦٥٤        |

| رقم الآيات | أول الآيات                                  | رقم الصفحة |
|------------|---------------------------------------------|------------|
| ١١٦        | ﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ... ﴾ | ٦٥٨        |
| ١١٧        | ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا ... ﴾  | ٦٥٨        |
| ١١٨        | ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة ... ﴾ | ٦٦١        |
| ١١٩        | ﴿ هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ... ﴾     | ٦٦١        |
| ١٢٠        | ﴿ إن تمسسكم حسنة تصؤهم ... ﴾                | ٦٦١        |
| ١٢١        | ﴿ وإذا غـ... دوت من أهلك ... ﴾              | ٦٦٣        |
| ١٢٢        | ﴿ إذ همّت طائفة تـ... ان منكم ... ﴾         | ٦٦٣        |
| ١٢٣        | ﴿ ولقد نصبركم الله ببر... ﴾                 | ٦٦٣        |
| ١٢٤        | ﴿ إذ تقـ... ول للمؤمنين ... ﴾               | ٦٦٣        |
| ١٢٥        | ﴿ بلى إن تصـ... روا وتتـ...وا ... ﴾         | ٦٦٣        |
| ١٢٦        | ﴿ وما جعله الله إلا بشـ...رى لكم ... ﴾      | ٦٧١        |
| ١٢٧        | ﴿ ليقطع طرفا من الذين كفروا ... ﴾           | ٦٧١        |
| ١٢٨        | ﴿ ليس لك من الأمر... ر شيء ... ﴾            | ٦٧١        |
| ١٢٩        | ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ... ﴾     | ٦٧١        |
| ١٣٠        | ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا الربا ... ﴾ | ٦٧٤        |
| ١٣١        | ﴿ واتقـ...وا النار ... ﴾                    | ٦٧٤        |
| ١٣٢        | ﴿ وأطيعـ...وا الله والرسول ... ﴾            | ٦٧٤        |
| ١٣٣        | ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ... ﴾           | ٦٧٧        |
| ١٣٤        | ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ... ﴾      | ٦٧٧        |
| ١٣٥        | ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة ... ﴾              | ٦٧٧        |
| ١٣٦        | ﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة ... ﴾                  | ٦٧٧        |
| ١٣٧        | ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ... ﴾                 | ٦٨٢        |
| ١٣٨        | ﴿ هذا بيـ...ان للناس ... ﴾                  | ٦٨٢        |
| ١٣٩        | ﴿ ولا تهـ...وا ولا تحـ...زنوا ... ﴾         | ٦٨٢        |
| ١٤٠        | ﴿ إن يمـ...سكم قـ...رح ... ﴾                | ٦٨٢        |

| رقم الآيات | أول الآيات                                                                | رقم الصفحة |
|------------|---------------------------------------------------------------------------|------------|
| ١٤١        | ﴿ ولِيَمِـحْصِ اللّٰهَ الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾                            | ٦٨٢        |
| ١٤٢        | ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ ... ﴾                        | ٦٨٢        |
| ١٤٣        | ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنُونَ الْوَيْتَ ... ﴾                             | ٦٨٨        |
| ١٤٤        | ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ... ﴾                                    | ٦٨٨        |
| ١٤٥        | ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللّٰهِ ... ﴾         | ٦٩١        |
| ١٤٦        | ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ ... ﴾              | ٦٩١        |
| ١٤٧        | ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ... ﴾                        | ٦٩١        |
| ١٤٨        | ﴿ فَآتَاهُمُ اللّٰهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا ... ﴾                             | ٦٩١        |
| ١٤٩        | ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾   | ٦٩٦        |
| ١٥٠        | ﴿ بَلِ اللّٰهُ مَنَّكُمْ وَلَكُمْ ... ﴾                                   | ٦٩٦        |
| ١٥١        | ﴿ سَنُلْقِيْ فِيْ قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ... ﴾              | ٦٩٦        |
| ١٥٢        | ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَكُمُ اللّٰهُ وَعْدَهُ ... ﴾                             | ٦٩٦        |
| ١٥٣        | ﴿ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تُلَوُّونَ عَلَى أَحَدٍ ... ﴾                    | ٧٠٠        |
| ١٥٤        | ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا ... ﴾            | ٧٠٠        |
| ١٥٥        | ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ... ﴾  | ٧٠٥        |
| ١٥٦        | ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾ | ٧٠٥        |
| ١٥٧        | ﴿ وَلَئِنْ قَاتَلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ ... ﴾                          | ٧٠٥        |
| ١٥٨        | ﴿ وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ ... ﴾                                  | ٧٠٥        |
| ١٥٩        | ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّٰهِ لَنْتَ لَهُمْ ... ﴾                       | ٧٠٨        |
| ١٦٠        | ﴿ إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللّٰهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ... ﴾                    | ٧٠٨        |
| ١٦١        | ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغْلَ ... ﴾                                 | ٧١٠        |
| ١٦٢        | ﴿ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللّٰهِ ... ﴾                              | ٧١٠        |
| ١٦٣        | ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللّٰهِ ... ﴾                                     | ٧١٠        |
| ١٦٤        | ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾                         | ٧١٢        |
| ١٦٥        | ﴿ أَوَلَمْ أَصَابِكُمْ مَصِيبَةٌ ... ﴾                                    | ٧١٢        |

| رقم الآية | أول الآيات                                        | رقم الصفحة |
|-----------|---------------------------------------------------|------------|
| ١٦٦       | ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان ... ﴾              | ٧١٤        |
| ١٦٧       | ﴿ وليعلم الذين نافقوا ... ﴾                       | ٧١٤        |
| ١٦٨       | ﴿ الذين قاتلوا لإخوانهم ... ﴾                     | ٧١٤        |
| ١٦٩       | ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ... ﴾ | ٧١٦        |
| ١٧٠       | ﴿ فرحبن بما آتاهم الله من فضله ... ﴾              | ٧١٦        |
| ١٧١       | ﴿ يستبشرون بنعمة من الله وفضل ... ﴾               | ٧١٩        |
| ١٧٢       | ﴿ الذين استجابوا لله والرسول ... ﴾                | ٧٢٠        |
| ١٧٣       | ﴿ الذين قال لهم الناس ... ﴾                       | ٧٢٠        |
| ١٧٤       | ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ... ﴾               | ٧٢٠        |
| ١٧٥       | ﴿ إنما ذلكم الشيطان ... ﴾                         | ٧٢٣        |
| ١٧٦       | ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ... ﴾          | ٧٢٣        |
| ١٧٧       | ﴿ إن الذين أشكروا الكفر بالإيمان ... ﴾            | ٧٢٣        |
| ١٧٨       | ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا ... ﴾                     | ٧٢٣        |
| ١٧٩       | ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين ... ﴾                 | ٧٢٦        |
| ١٨٠       | ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله ... ﴾     | ٧٢٧        |
| ١٨١       | ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا ... ﴾              | ٧٢٧        |
| ١٨٢       | ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم ... ﴾                       | ٧٢٧        |
| ١٨٣       | ﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا ... ﴾             | ٧٢٧        |
| ١٨٤       | ﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل ... ﴾                     | ٧٢٧        |
| ١٨٥       | ﴿ كل نفس ذائقة الموت ... ﴾                        | ٧٣٢        |
| ١٨٦       | ﴿ لتبطلون في أموالكم وأنفسكم ... ﴾                | ٧٣٣        |
| ١٨٧       | ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ... ﴾    | ٧٣٣        |
| ١٨٨       | ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون ... ﴾                     | ٧٣٥        |
| ١٨٩       | ﴿ ولله ملك السموات والأرض ... ﴾                   | ٧٣٥        |
| ١٩٠       | ﴿ إن في خلق السموات والأرض ... ﴾                  | ٧٣٨        |

| رقم الآيات | أول الآيات                                    | رقم الصفحة |
|------------|-----------------------------------------------|------------|
| ١٩١        | ﴿ الذين يذكرون الله ... ﴾                     | ٧٣٨        |
| ١٩٢        | ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ... ﴾     | ٧٤٠        |
| ١٩٣        | ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان ... ﴾ | ٧٤١        |
| ١٩٤        | ﴿ ربنا وآتانا ما وعدتنا ... ﴾                 | ٧٤١        |
| ١٩٥        | ﴿ فاستجاب لهم ربهم ... ﴾                      | ٧٤١        |
| ١٩٦        | ﴿ لا يغيرنك قلب الذين كفروا ... ﴾             | ٧٤٤        |
| ١٩٧        | ﴿ من يهين الله فليهن الله ... ﴾               | ٧٤٤        |
| ١٩٨        | ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم ... ﴾                  | ٧٤٤        |
| ١٩٩        | ﴿ وإن من أهل الكتاب ... ﴾                     | ٧٤٦        |
| ٢٠٠        | ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ... ﴾    | ٧٤٦        |
| ٧٤٨        | <b>فضل الجهاد</b>                             |            |
| ٧٤٩        | <b>فضل سورة آل عمران</b>                      |            |
| ٧٤٩        | <b>قافية السورة</b>                           |            |
| ٧٥٠        | <b>سورة النساء</b>                            |            |
| ٧٥١        | <b>أولاً : الأهداف العامة لسورة النساء</b>    |            |
| ٧٥٢        | <b>الوصية بالنساء واليتامى</b>                |            |
| ٧٥٣        | <b>الحال والميراث</b>                         |            |
| ٧٥٤        | <b>تعدد الزوجات</b>                           |            |
| ٧٥٥        | <b>شبهة تفتضح ، وحجة تتضح</b>                 |            |
| ٧٥٦        | <b>التضامن الاجتماعي</b>                      |            |
| ٧٥٧        | <b>الحرمات من النساء</b>                      |            |
| ٧٥٨        | <b>مصادر التشريع في الاسلام</b>               |            |
| ٧٥٩        | <b>القتال وأسباب النصر</b>                    |            |
| ٧٦١        | <b>ثانياً : تفسير سورة النساء ١ - ٢٣</b>      |            |
| ٧٦٢        | ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ... ﴾              | ١          |

| رقم الآيات | أول الآيات                                                                                 | رقم الصفحة |
|------------|--------------------------------------------------------------------------------------------|------------|
| ٢          | ﴿ وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ... ﴾                                                | ٧٦٤        |
| ٣          | ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ... ﴾                                 | ٧٦٦        |
| ٤          | ﴿ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ... ﴾                                        | ٧٧٢        |
| ٥          | ﴿ وَلَا تَوْنُوا السَّعْيَ فَهَاءَ أَمْوَالِكُمْ ... ﴾                                     | ٧٧٥        |
| ٦          | ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ ... ﴾                                                           | ٧٧٧        |
| ٧          | ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ ... ﴾                                                                | ٧٨٠        |
| ٨          | ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقَسَمَةَ ... ﴾                                                         | ٧٨٢        |
| ٩          | ﴿ وَلِيُخْشِ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ... ﴾                                 | ٧٨٣        |
| ١٠         | ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ... ﴾                                  | ٧٨٤        |
| ١١         | ﴿ يُوَصِّصُكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ... ﴾                                            | ٧٨٧        |
| ١٢         | ﴿ وَلَكُمْ نَصْفٌ مِمَّا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ ... ﴾                                        | ٧٨٧        |
| ١٣         | ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ... ﴾                                                             | ٧٩٣        |
| ١٤         | ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... ﴾                                                  | ٧٩٣        |
| ١٥         | ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ ... ﴾                                                 | ٧٩٤        |
| ١٦         | ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ ... ﴾                                               | ٧٩٤        |
| ١٧         | ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ ... ﴾                                                 | ٧٩٧        |
| ١٨         | ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ... ﴾                        | ٧٩٧        |
| ١٩         | ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ... ﴾ | ٨٠٠        |
| ٢٠         | ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ ... ﴾                                              | ٨٠٢        |
| ٢١         | ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ ... ﴾                                             | ٨٠٢        |
| ٢٢         | ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ ... ﴾                                             | ٨٠٤        |
| ٢٣         | ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ... ﴾                                                | ٨٠٤        |
| ٨١١        | تخريج الأحاديث والهوامش                                                                    |            |
| ٨٢٦        | محتويات الكتاب                                                                             |            |

تم بحمد الله الجزء الرابع ويليه

الجزء الخامس بإذن الله









Bibliotheca Alexandrina



0461305